غربة الياسمين

رواية

obeikandl.com

اسم الكتاب: غربة الياسمين
تأليف: خولة حمدى
تصحيح لغوى : عزة أبو الأنوار
تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع: 2014/19376
الترقيم الدولي: 978-977-6376-63-2

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

obeikandi.com

غربة الياسمين

د.خولة حمدي

رواية

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى كلّ زهرات الياسمين التي

أبت إلا أن تتفتّح في ظلال الغربة

obeikandl.com

obeikandl.com

«لا نشتكي الأبعاد..

أوجع غربة

هي غربة الأرواح في الأجساد»

أحمد بخيت

obeikandl.com

obeikandl.com

-١-

انفجار

في غرفـة الاسـتراحة الواقعـة في الطابـق الرابـع لمبـنى الأبحـاث في شركـة الكيميائيـات بمدينـة ليـون الفرنسـيّة، عـلا هتـافٌ شـبابيٌّ مـرِح بعـد أن قـام الدكتـور صامويـل بلـير بتقطيـع الكعكـة الـتي فاجـأه زمـلاؤه بإحضارهـا، للاحتفـال بترقيتـه المرتقبـة. كانـت السـاعة تشـير إلى السـابعة مـن مسـاء يـوم خريفـي ممتـدّ، لا تغيـب شمسـه إلا زُهـاء السـاعة الثامنـة، ومـن النافـذة الصغـيرة المُشرَعـة، كان نسـيم محمّـل برطوبـة نهـر «الـرّون» القريـب ينعـش صـدور الباحثـين شـبابًا وشـابات، ويـذكي حماسـتهم المتقـدة عفويًّـا.

- نريد خطاباً! نريد خطابًا!

هتفـوا بنسـق موقّـع مرفـق بتصفيـق حـارّ، فتنحنـح صامويـل في حـرج مصطنـع واسـتعدّ للاسـتجابة إلى طلبهـم. مـا أن انتهـى مـن نـثر عبـارات الشـكر والعرفـان عـلى رؤوس زملائـه ورؤسـائه الذيـن شرّفـوه بمشـاركته العمـل في الفـترة السّـابقة، حـتّى تقـدّم زميلـه ألبـير وقـام بفـضّ زجاجـة شـامبانيا أحدثـت فورانًـا سـخيًّا، تصاعـدت لـه القهقهـات الـتي لـم تدركهـا الثمالـة بعـد، في حـين تطوّعـت الشـابة كارولـين لتوزيـع قطـع الكعـك عـلى الصّحـون الورقيّـة المزخرفـة.

وسـط تلـك الأجـواء الاحتفاليّـة الصّاخبـة، تقـدّم الدكتـور عمـر لمصافحـة صامويـل وتهنئتـه، ثـمّ تسـلّل منسـحبًا مـن غرفـة الاسـتراحة قبـل أن يلحظـه أحـد. دلـف مختـبره في اضطـراب، هـو ذاك الاضطـراب ذاتـه الـذي يغمـره كلّمـا وقعـت عينـاه عـلى زجاجـة خمـر أو ارتُكِبـت أمـام ناظريـه معصيـة سـافرة مـا. لـم يتعـوّد.. ولا يريـد أن يتعـوّد.

مـرّت سـنوات خمـس عـلى إقامتـه في «الرّون-ألـب»*، المنطقـة الـتي تسـتمدّ اسـمها مـن التضاريـس الجغرافيـة الـتي تميّزهـا. بـين نهـر «الـرّون» الـذي تزخـر صفحـة مياهـه مراكـب خفيفـة صيفًـا، وجبـال «الألـب» ذات حلبـات التزلـج

---

*Rhône-Alpes: منطقـة في جنـوب شرق فرنسـا تضـم ثمـاني محافظـات، عاصمتهـا مدينـة ليـون. يبلـغ عـدد سـكانها حـوالي سـتة ملايـين نسـمة، وتعتـبر ثـاني أكـبر منطقـة في فرنسـا مـن حيـث المسـاحة.

الأكـثر شـهرة شـتاء، تنتـشر البحـيرات والكهـوف والغابـات لتتنافـس عـلى مـدار العـام في إغـراء المقيمـين والـزوار بالانغمـاس في متـع الطبيعـة الصّافيـة.

عـلى امتـداد تلـك السّـنوات الخمـس، لـم تتجـاوز المـرّات الـتي أجـاب فيهـا عمـر نـداء الطبيعـة عـدد أصابـع اليـد الواحـدة. لـم يكـن ذلـك عـن نفـور أو ازدراء، لكـنّ العزلـة الـتي رفـع أسـوارها حولـه اختياريًـا جعلـت حياتـه مقفـرة مـن الأصدقـاء الذيـن قـد يشـاركهم النزهـات والرّحـلات، ومـا عـدا الأنشـطة الطلابيّـة شـبه الملزمـة الـتي تنظمهـا الجامعـة، لـم يكـن ينخـرط في أيّ نشـاط آخـر.

مثـل جزيئـات كيميائيـة، غالبًـا مـا يتجمّـع الطلبـة المغتربـون في كتـل مترابطـة بانتمـاء عـرقيّ أو لغـويّ موحّـد، وقـد تنجـذب الأقليّـات إلى الكتـل الأكـبر وتندمـج داخلهـا. لكـنّ عمـر لبـث منيعًـا أمـام عوامـل الجـذب المختلفـة، وبقـي حـرًّا مثـل ذرّة «غـاز نبيـل»* مسـتقلة بذاتهـا.

حـين شرع في التّحضـير لرسـالة الدكتـوراه في جامعـة «غرونوبـل» واجهتـه مشـكلة مسـتعصية في الحفـاظ عـلى مسـافة أمـان بينـه وبـين زملائـه، والإيفـاء بـشروط الكليـة المتعلقـة بالنشـاط الاجتماعـي. واظـب زمـلاؤه عـلى دعوتـه لأمسـية السـبت لمـدّة أشـهر، وواظـب هـو عـلى اختـلاق الأعـذار حـتّى يتخلّـف عـن الملتقـى الطـلابي الأكـثر شـعبية. فيمـا بعـد، حـين لجـأ إلى إطالـة لحيتـه بشـكل لافـت، تفرّقـوا مـن حولـه في ريبـة، وقـد طغـت صـورة «الملتحـي العـربي» وهالـة الرّعـب المحيطـة بهـا كمـا تـروّج وسـائل الإعـلام الوطـنيّ، طغـت عـلى «دعـوة المحبّـة» الـتي كانـت تطمـح إلى انتشـال ذلـك الأجنـبي المنعـزل ودمجـه في المجتمـع المضيـف.

حـين حسـب أنّـه قـد تنفّـس الصعـداء واسـتعاد حريّتـه، أصبحـت تأتيـه دعـوات مـن نـوع مختلـف.. مـن إدارة الكليّـة، الـتي حرصـت عـلى التأكـد مـن عـدم انتسـابه إلى أي جماعـة إسـلاميّة متطرّفـة! وحـتّى يثبـت حسـن نوايـاه ولا يخـسر منحتـه الدّراسـيّة، اضطـرّ إلى تشـذيب لحيتـه وتقليصهـا، ليحتفـظ بـ «ذقـن ماعـز» أنيـق.

---

*الغـازات النبيلـة أو النـادرة سـتة وهـي: هيليوم، نيون، أرغون، كريتون، زينـون، رادون. معـروف عنهـا أنهـا لا تكوّن مركبـات كيميائية بسـهولة ذلك لأنّ مـدارات إلكتروناتهـا مكتملـة وممتلئـة بالإلكترونـات.

أمّا مأزق «النشاط الاجتماعي»، فقد تجاوزه بالانتساب إلى «مهندسون بلا حدود». قبل انضمامه، كانت مجرّد جمعيّة خيريّة تنشط في المحيط الطلاّبي، لا تمتّ بصلة إلى نظيرتها الخاصّة بالأطبّاء! فهي تعتبر الملاذ الأمثل للطلبة الكسالى، أو ممّن يريدون ملء فراغ «النشاط الاجتماعي» في سيرهم الذاتية دون تكليف أنفسهم مشقّة كبرى.

وربّما اقتصر نشاطها السّنويّ على تنظيم حملة جمع تبرّعات في المبيت الجامعيّ، للمصابين بالملاريا في الكونغو أو الكوليرا في التشاد. لكنّ عمر بجدّيته المعهودة، أعاد إلى المنظمة روحها التي خبت. لم يكن صاحب معجزات، لكنّ اهتمامه بإتقان العمل جعل رفاقه يخجلون من أنفسهم. وقد اعتُبرَت السّنوات التي انتمى فيها عمر إلى «مهندسون بلا حدود» الأكثر عطاءً في تاريخ فرع المنظمة الطلابية في غرونوبل، وتُوّجت بزيارة ميدانية لمدرسة منكوبة في بوركينانو فاسو وتدشين مختبر علميّ بها.

المرّة الأولى التي ظهرت فيها زجاجات الخمر أمام عينيه وجهًا لوجه، كانت في حفل أقامته الجامعة لتوديع أحد الأساتذة الكبار أحيل على التقاعد. كان عمر في سنته الأولى من الإعداد للدكتوراه، ولم يكن ليحضر الحفل لولا اهتمامه الشخصيّ بمسيرة الرّجل العلميّة. حين تقدّم لمصافحته، فاجأه بكأس الشامبانيا التي دفعها في اتّجاهه وابتسامة مشجّعة على وجهه. بعد أن رفض عمر العرض بأدب، واحتقان وجهه يشي بأثر أكبر، وجد الأستاذ يسترسل وكأنّه يتسأنف حديثًا معلّقًا بينهما:

- منذ سنتين، استقبلت شابًا مغربيًّا ذا تسعة عشر عامًا لمدّة أسبوعين.. جمعية «الربط بين ضفتي المتوسّط» التي كنت من مؤسّسيها الأوائل تعطي الفرصة كلّ عام لعدد من شباب المغرب العربي، لزيارة بلد أوروبي والإقامة بين أفراد عائلة محلّية من منتسبي الجمعية، لتعريفه على طبيعة الحياة اليوميّة في البلاد.. كان اسمه نزار، ذلك الشاب، وقد ترك في نفسي انطباعًا حسنًا، لأنّه قبِل الالتزام بقواعد اللعبة دون مراوغة.. قلت له: «يا بنيّ إنّها فرصة لن تتكرّر، فاغتنِمها. عش التجربة كاملة ولا تفرّط منها أنملة!»، وهكذا فعل. طيلة الأسبوعين، نسي أنّه نزار من المغرب، وعاش معنا وكأنّه ولد بيننا.. يأكل ممّا نأكل ويشرب ممّا نشرب ويتبع نسق حياتنا بحذافيره دون تلكؤ أو مماطلة.

ثمّ رفع كأس الشامبانيا من جديد وقال بلهجة ذات معنى:

- في صحّة نزار!

لا يدري عمر بشكل مؤكّد علامَ افترّت شفتاه في تلك اللحظة، ابتسامة أم تكشيرة. لكنّه في اللحظة الموالية اغتنم فرصة اقتراب زميل ما ليولّي الأستاذ ظهره ويغادر القاعة إلى غير رجعة، وصورة كؤوس الشامبانيا المترعة وشرائح لحم الخنزير المملحة تملأ رأسه. في ذلك اليوم، أدرك أنّ عليه الاكتفاء بالعلم دون مخالطة شخصية للعلماء.

استعاد تلك الذكرى في شيء من التوتّر وهو يفرّ من حفل زميله في شركة الكيميائيات، الدكتور بلير. كان يفرّ في كلّ مرّة. قواعد لعبة نزار تلك لا تُلزِمه؛ يولّيها ظهره ويطلق ساقيه للريح، رغم كونها القواعد نفسها التي يُقبل زملاؤه من العرب على تبنّيها.. بقدر متفاوت. هل كان الوحيد الذي «يلعب» ضاربًا عرض الحائط بكلّ القواعد؟

أخذ نفسًا عميقًا وهو يلقي نظرة شاملة على أدوات اختباراته. كل شيء في مكانه. فليستأنف العمل الذي انقطع عنه لبرهة إذن. ارتدى قفازاته الواقية أولاً، تثبّت من المعايير والكميات ثم تناول الوعاء الممتلئ في حذر والتفت إلى نموذج المحرّك الذي يجري عليه تجاربه التطبيقية. أخذ يمزج مكوّنات المحلول في بُطء قبل أن يقوم بصبّها في الخزان المعدّ لاستقبال الوقود. ستبدأ التجربة النهائية.

- دكتور عمر.. لازلت هنا؟

لم يلتفت حين جاءه صوت الحارس الليلي. بدا أنه قد وصل للتوّ وشرع في تفقد نواحي المبنى. أجابه عمر دون أن يترك موضعه وهو يرفع كفه بالتحية:

- سأنتهي خلال نصف ساعة.

- حسن، سأذهب لإعلام المحتفلين بوقت الرّحيل.. لا تنسَ إطفاء الأنوار وغلق الأبواب قبل مغادرتك. سهرة طيبة.

سمع خطواته وهي تبتعد في تثاقل. من الجانب الآخر للممرّ كان صخب زملائه يصله بشكل متقطّع؛ اضطرّ إلى قطع اختباره ليشارك بصورة خاطفة في الاحتفال، حتى لا تزداد الأقاويل بشأنه. يسجّل حضوره وينصرف، هكذا كان دأبه. الانطوائيّة والعزلة من الصفات التي يحسبها ملاصقة له لا

محالة. ولا يظنّ ظهوره الخاطف ذلك المساء إلا ليزيد من حدّة التعليقات. كان بوسعهم أن يَسِموه بشتى التهم، لكن لم يكن بوسع أحدهم أن يشكك بمدى حبّه لعمله. كان ذلك الخطّ الأحمر الذي لا يقبل بعده همسة.

الإتقان.. معاييره الدقيقة جزء من جيناته؛ تفوّق في دراسته وحصد الجوائز الوطنيّة والعالمية وتحصّل على منحة اليونسكو الدراسيّة لمتابعة الدكتوراه. في كلّ مسابقة علميّة شارك بها، كان اسمه يرد ضمن الفائزين الأوائل، ولم يكن عثوره على وظيفة ترقى لطموحاته يشكل أدنى صعوبة. انضمّ إلى فريق الأبحاث الشاب في شركة الكيميائيات بعد أن فاضل بين مجموعة من العروض المغرية وانتقى الأنسب ماديًّا وعلميًّا وفرصًا مستقبليّة. عمل على مشروع «مولّد الطاقة المتجدّدة» طيلة السنة الماضية، وها هو قد أمسى أقرب ما يكون من تحقيق هدفه. كان يسير بخطى ثابتة نحو الاختراع الذي يؤمن بأنّه سيصنع فارقًا معتبرًا في عالم الطاقة في مستقبل قريب.

في شهر مارس سنة ١٩٨٩ أعلن باحثان من جامعة ولاية «يوتا» الأمريكية أنّهما نجحا في إحداث «اندماج بارد»* بمعدّات معمليّة بسيطة. تلك العمليّة الدّقيقة التي تحدث في المفاعلات النوويّة في حضور حرارة وضغط شديدين، أعلنا إمكان حدوثها في ظروف جويّة وحراريّة طبيعيّة! التحقيقات التي تلت كشفت زيف الادّعاءات -أو استحالة تكرار التجربة اليتيمة التي جاءت وليدة الصدفة- وسرعان ما فقد المجتمع العلمي اهتمامه بالأمر. لكنّ عمر تُيّم بالفكرة وآمن بفرضيّة صحتها. عكف بحماسة كبيرة على دراسة المراجع التي سجّلت طرق توليد الحرارة المتناهية والتفاعلات المختلفة للعنصر الذّريّ، حتّى توصّل إلى تعديل الأنموذج الذي استنبطه الأمريكيّان واهتدى إلى أنموذجه الخاصّ الذي بدا أكثر تطوّرًا وكمالاً، ثمّ أنهى وضع اللمسات الأخيرة لتأمين التجربة المختبريّة. استعمل محرّكًا قديمًا، قام بإدخال تحويرات كثيرة عليه على امتداد السنة الماضية حتّى يتناسب مع مصدر الطاقة الجديد.

أغلق الخزان الممتلئ بإحكام، تفقّد المؤشّرات من جديد ثم أخذ نفسًا

*Cold Fusion: عكس الاندماج الحار الذي يحدث في المفاعلات النوويّة.

عميقًـا قبـل أن يمـدّ يـده في اتجـاه زرّ التحكـم ويشـغّل المحـرّك. انتظـر لبضـع ثـوانٍ في صمـت وترقّـب، ثـم مـا لبـث أن سـمع صـوت همهمـة مكتومـة سرعـان مـا ارتفعـت لتتحـوّل إلى أزيـز ذي نسـق ثابـت ومسـتقرّ. كان المحـرّك يعمـل.. المحـرّك يعمـل! تسـارعت نبضـات عمـر في نشـوة. لقـد نجـح أخـيرًا!

- الله أكبـــــــــــــــر.

أفلتـت منـه العبـارة عفويًـا عـلى شـكل هتـاف حـيّ، مـلأ صـداه ثنايـا المبـنى الـذي كاد يخلـو مـن الحيـاة. كان يشـعر بإثـارة كبـيرة تغمـر كيانـه وترفـع حـرارة رأسـه. كان يجـب أن يخلّـد تلـك اللحظـات الثمينـة الـتي يكتبهـا التاريـخ باسـمه. تـرك بـاب المختـبر مفتوحًـا والمحـرّك يعمـل وهـرول بسرعـة في اتجـاه غرفـة المعـدّات. سـيحضر كامـيرا عاليـة الجـودة لتسـجيل الحـدث ويعـود خـلال دقيقتـين عـلى الأكـثر. كانـت الغرفـة في الطابـق السـفلي. ركـب المصعـد ثـم عـبر الممـرات الخاليـة في حمـاس متزايـد. ابتسـامة منتشـية كانـت تزيّـن شـفتيه وهـو يتخيّـل ردّ فعـل رئيسـه البروفيسـور دانيـال بروكـس وزملائه البروفيسـورات الكبـار، بـل ردّ فعـل العالـم بـأسره حـين ينـشر مقالـه العلمـي ويعـرض نمـوذج محرّكـه الجديـد!

وقـف أمـام بـاب الغرفـة الموصـد في خيبـة وقـد انحـسرت فرحتـه للحظـات. حـاول تحريـك المقبـض دون جـدوى. ألقـى نظـرة عـلى سـاعته. كانـت تشـير إلى الثامنـة والربـع مسـاء. التقنيـون انصرفـوا حتمًـا منـذ سـاعتين عـلى الأقـل. تراجـع خطـوة وهـو يهـوّن مـن خيبـة اللحظـة. سـيكتفي بفيديـو قصـير بهاتفـه المحمـول وصبـاح الغـد سـيصوّر الفيديـو الرسـمي الـذي سـيتضمّنه الملـف النّهـائيّ.

كان في طريقـه إلى المختـبر حـين تناهـى إلى مسـامعه صـوت انفجـار مكتـوم. صـوت قريـب كأنـه يـأتي مـن داخـل المبـنى ذاتـه؛ تجمّـدت ملامحـه في انقبـاض. حـاول أن يقنـع نفسـه بأنّهـا زجاجـة شـامبانيا أخـرى يفضّهـا المحتفلـون. أصغـى لعلـه يسـمع مـؤشرًا يؤكّـد أو يفنّـد شـكوكه، لكـن عبثًـا، فلـم تكـن أصـوات الاحتفـال الواقـع في الطابـق الرابـع تصـل إلى الطابـق الأرضيّ. كان قـد غادرهـم منـذ نحـو سـاعة، ومـن الأرجـح أنّ جمعهـم قـد انفـضّ، أو أنّهـم قـد انصرفـوا لمتابعـة الاحتفـال خارجًـا في إحـدى حانـات المدينـة بعـد مـرور الحـارس. بالإضافـة إلى أنّ ذلـك الصّـوت لا يمكـن أن يكـون لفلّينـة زجاجـة المـشروب. لـن

تصدر صوتًا بتلك القوّة وبذلك القرب.. لكنّ شيئًا آخر قد يفعل.

لقد ترك المحرّك يعمل.

انحبست أنفاسه وهو يتخيّل الأسوأ. في اللحظة التالية، انطفأت الأنوار في الممرّ دفعة واحدة.. تحسّس طريقه نحو المصعد وضغط في عصبيّة على زرّ النداء. انتظر لبضع ثوانٍ إضافية قبل أن يتيقن من انقطاع الكهرباء. لم يكن ذلك مطمئنًا أبدًا. توجّه نحو السّلم مسترشدًا بالضوء الضئيل المنبعث من مخرج الطوارئ، وهواجس قاتمة تعبث بأعصابه. ارتقى الدّرجات اثنتين اثنتين وهو يلهث من الانفعال. لم يأته صوت من الدّاخل. لم يبدُ أنّ أحدًا غيره موجود في المبنى آنذاك. تأكّد لديه أن المحتفلين قد انصرفوا وإلا كان ضجيج تدافعهم وهم ينزلون السّلم بعد توقّف المصعد وصله.

حين انتهى إلى الطابق الرابع كانت الأبواب كلها قد أغلقت بشكل آلي بعد أن انطلق نظام الحماية من الحرائق تلقائيًا. دفع الباب المؤدي إلى الممرّ بكل قوته، لكنّ اندفاعه توقف فجأة حين هاجمه دخان أسود كثيف قطع تنفسه. تراجع في ذهول وأفلتت قبضته الباب لتتركه ينغلق من جديد. أخذ يسعل في ألم واختناق ثمّ استنشق جرعة كبيرة من الهواء النقي ليستعيد توازنه. يا إلهي! ما الذي يحصل؟! يجب أن يصل إلى المختبر.. مهما كان الثمن. يجب أن يوقف المحرّك قبل فوات الأوان! نزع كنزته الصّوفية دون تردّد وكمّم بها أنفه وفمه ليمنع الدّخان من التسرّب إلى رئتيه، واحتفظ بقميصه الداخلي الخفيف. أخذ نفساً عميقًا ثم دفع الباب من جديد وتقدّم في ثبات. سمع أزيز المحرّك من بعيد ووقْع خطوات تتردّد في الممرّ على بُعد بضع عشرات من الأمتار. كان هناك شخص آخر في المبنى. أنصت برهة إلى الخطوات المضطربة التي مضت مبتعدة. كان الظلام دامساً من حوله فلم يستطع تمييز الشبح. صرخ عبر الكمامة التي تغطي وجهه:

- هل هناك أحد؟

انتظر للحظات. لا أحد. عاد السكون ليخيم على الممرّ ولم يعد يسمع أيّ حركة.. كان صمتًا مقلقًا، حتى أزيز المحرك لم يعد يُسمع. حين استوعب ذلك عقد حاجبيه في انزعاج وتقدّم في اتجاه المختبر. قبل أن يخطو الخطوة الثانية، اهتزت الأرض تحت قدميه على وقع انفجار

عظيم دوى في نهاية الممر، على مستوى المختبر.. ملأ الصّوت المرعب رأسه وأصيبت أذناه بصمم مؤقت، ومع امتداد الموجات المزلزلة ارتفع جسده في الهواء ليرتدّ بضعة أمتار إلى الوراء ويرتطم بقوّة بالجدار المحاذي للمصعد. أحسّ بألم عنيف يكتسح عظام جسده ويشل حركته. ووسط الظلمة الحالكة، أضاء المختبر الذي غادره منذ دقائق قليلة بنور ساطع دمعت له عيناه. رفع ذراعيه في حركة يائسة ليحمي وجهه. قبل أن يتجاوز الصّدمة ويستفيق من ألمه، اندفعت حمم ملتهبة في زمجرة رهيبة في جميع الاتجاهات لتغمر المكان وتجتث الجدران والأبواب وقطع الأثاث وكل ما يصادف طريقها وتحوّله إلى شظايا مبعثرة.

لم يملك عمر الوقت الكافي للوقوف، للفرار أو حتى لصرف نظره عن كرة اللهب التي انطلقت في سرعة مذهلة في اتجاهه مباشرة. لم يكن هناك وقت لعمل أيّ شيء. لم يكن بإمكانه أن يحرّك ساكنًا ما كان. كانت النهاية.. ولم يكن هناك مفرّ. انبطح على الأرض والتصق بالزاوية أقصى الممرّ وغطى رأسه بكنزته لعله ينقذ ما يمكن إنقاذه.

حين علت صفارات شاحنات المطافئ وسيارات الإسعاف في الخارج، كان سكون مقيت قد عاد للسيطرة على مباني الشركة. سكون بارد قاتل، لا تقطعه سوى طقطقة النيران التي استمرّت في التهام بقايا الأشلاء المتناثرة.. السّكون الذي يتلو العاصفة.

قبل شهر واحد

البدايات

«منذ صغرها، توصيها أمّها بألا تتحدّث إلى الغرباء أو تأخذ منهم شيئًا..

لكنها حين التقت ذلك الغريب، رمت بكل وصاياها عرض الحائط»

obeikandl.com

obeikandl.com

-٢-

رنيــــــم

فتحـت رنيـم شـاكر عينيهـا بجهـد. رفرفـت أهدابهـا في توتـر قبـل أن تتذكـر أيـن هـي. لـم يكـن تأثير المخـدّر قـد تبخّـر بالكامـل، لا تشـعر بسـاقيها بعـد. إنّهـا العمليـة الجراحيـة الثانيـة الـتي تتعـرّض لهـا خـلال هـذا الشّـهر.. حالتهـا تدهـورت بعـد العمليّـة الأولى. أمضـت بضعـة أيـام في العنايـة المركـزة قبـل أن يقـرّر الأطبـاء تعريضهـا للجراحـة مـن جديـد. حرّكـت أصابعهـا بصعوبـة. مـا تـزال ذراعهـا ثقيلـة. لكنّهـا جاهـدت لتضغـط عـلى زرّ نـداء الممرّضـة. مضـت لحظـات قصـيرة مـن الانتظـار قبـل أن تدخـل هـذه الأخـيرة مبتسـمة:

- هل تحتاجين شيئًا؟

- ألم يتّصل ميشال؟

هزّت الممرّضة رأسها علامة النّفي ثمّ قالت مطمئنة:

- ربّما رفض الاستقبال تمرير المكالمة لأنّ حالتك ما تزال غير مستقرّة.

ردّ الممرّضـات لـم يتغـيّر في كلّ مـرّة سـألت فيهـا عنـه، لكنّهـا لـم تكـن مطمئنّـة. لـم تـره كثـيرًا بعـد العمليّـة الأولى. اتّصـل ليشـكرها، مـرّة واحـدة ثـمّ اختفـت أخبـاره. كان كلاهمـا قـد أخـذ إجـازة مطوّلـة، لذلـك رجّحـت خلـوده إلى الرّاحـة، وربّمـا يكـون بعـض أفـراد العائلـة إلى جـواره. الأمـر مختلـف بالنّسـبة إليهـا. لا عائلـة لديهـا في فرنسـا. لذلـك كانـت الممرّضـة تـأتي لزيارتهـا كلّ يـوم في شـقّتها، حـتّى أظهـرت الفحوصـات حاجتهـا إلى الإقامـة في المستشـفى تحـت المراقبـة، ثـمّ إلى جراحـة جديـدة.

- هل يمكنني استعمال الهاتف؟

- بالتّأكيد.

قرّبـت منهـا الممرّضـة الجهـاز وتشـاغلت بترتيـب الأغـراض لتمنحهـا بعـض الخصوصيّـة. اسـتمعت رنيـم إلى الرّنـين عـلى الطـرف الآخـر مـن الخـط لثـوانٍ طويلـة، ثـمّ وضعـت السّـماعة في يـأس. لا ردّ. قالـت بعـد تفكـير قصـير:

- متى يمكنني المغادرة؟

- لازلـتِ ضعيفـة آنسـتي.. والعمليـة كانـت جـدّ دقيقـة. لـن تغـادري السريـر

Obeikandi.com

قبـل أن يفحصـك الطبيـب المختـصّ.

- ومتى يأتي الطبيب المختصّ؟

- ربّما اليوم.. أو غدًا..

زمّـت رنيـم شـفتيها في اسـتياء ثـمّ تنهـدت في استسـلام وأغمضـت عينيهـا. يمكنهـا أن تنتظـر، ميشـال سـيأتي حتمًـا. تريـد أن تصـدّق ذلـك. عرّضـت نفسـها للخطـر لتنقـذ حياتـه. أهدتـه قطعـة مـن جسـدها ليعيـش، فهـل يطلـب يدهـا حـين تغـادر المستشـفى؟ لا شـك لديـه الآن في حقيقـة مشـاعرها تجاهـه، وهـو سـيكون ممتنًـا إليهـا لا ريـب. لا تريـد أن يرتبـط بهـا مـن بـاب الاعـتراف بالجميل، لا.. لكـن هـذه العمليـة سـتكون سـببًا في تمتـين علاقتهمـا، لا شـك.

دخلـت ممرضـة ثانيـة لتغيـير اللحـاف وتزويـد الأدراج بكميـات مـن القطـن واللفافـات. اقتربـت منهـا الممرّضـة الأولى وبعـد أن ألقـت نظـرة عـلى رنيـم الـتي أغمضـت جفنيهـا وبـدا أنهـا قـد اسـتغرقت في النعـاس، همسـت:

- أشفق عليها حقًا.. تبرّعت له بكليتها، فتحسّنت صحّته وتعكّرت صحّتها.

- هذا ما يسمى الحبّ!

- لكنه لم يسأل عنها منذ ذلك الحين.

- أشفق عليها!

- مسكينة!

هـزّت الثانيـة رأسـها في أسـف، ثـم غـادرت الممرّضتـان الغرفـة. لـم يخطـر ببـال أيٍّ منهمـا أن همسـهما قـد وصـل إلى مسـامع رنيـم الـتي تتظاهـر بالنـوم وحواسـها متيقظـة. الممرّضـات يشـفقن عليهـا! وهـي تهدهـد أمـلاً ووهميًّـا برؤيتـه عنـد بابهـا في كلّ لحظـة! هـل يمكـن أن يكـون قـد تخـلى عنهـا؟ لا، لـن يفعلهـا. لقـد أهدتـه كُلْيَـة! سـيعود مـن أجلهـا، هـذا مؤكـد! لا شـك أنـه يرتـب أمـورًا مـا إلى حـين تعافيهـا.

تحـاول طمأنـة نفسـها والتمـاس الأعـذار لغيابـه، لكنهـا لـم تسـتطع السّـيطرة عـلى غددهـا الدّمعيّـة المتمـرّدة. تسـارعت العـبرات لتسـيل عـلى وجنتيهـا في صمـت. لا يمكنهـا أن تستسـلم للهواجـس. يجـب أن تتأكـد بنفسـها وبـأسرع وقـت. كل دقيقـة تمـضي هـي سـتون ثانيـة إضافيـة مـن العـذاب النفـسي والشـكوك. أعصابهـا متعَبَـة مـن تأثـير الجراحـة والتخديـر، لذلـك فـإن ردود أفعالهـا مضاعفـة. أخـذت نفسًـا عميقًـا وهـي تحـاول الاسـترخاء.. زفـرت بقـوّة

وسـكنت حركتهـا.

لا تـدري كـم مـضى مـن الوقـت وهـي مسـتلقية في تلـك الوضعيـة. حرّكـت أصابعهـا لتقبـض عـلى مـلاءة السريـر، فاسـتجابت أطرافهـا لأمرهـا هـذه المـرّة. تنهّـدت في رضـا. ذهـب أثـر التخديـر وأصبـح بإمكانهـا التحكـم في جسـدها. أزاحـت ساقها اليـسرى حـتى وصلـت إلى حافـة السريـر وانزلقـت برفـق في اتجـاه الأرضيّـة المبلّطـة. حـين لامسـت قدماهـا الحافيتـان الأرض، سرت في جسـدها قشـعريرة بـاردة. عـاد إليهـا إحساسـها.

وقفـت بصعوبـة واتجهـت إلى خزانـة الملابـس. ارتـدت سروالاً وسـترة فـوق مريلـة المستشـفى، تناولـت حقيبـة يدهـا ثـم أطلّـت برأسـها مـن بـاب الغرفـة. كانـت الحركـة هادئـة في الممـرّ. تسـللت في هـدوء ومشـت بـأسرع مـا تقـدر حـتى وصلـت إلى بوابـة المستشـفى الخارجيّـة. وقفـت تلتقـط أنفاسـها. المسـافة الـتي قطعتهـا لـم تكـن كبـيرة، لكنّهـا تشـعر بإرهـاق شـديد مـن الجهـد المبـذول. تنتظـر يومًـا إضافيًـا حـتى يعاينهـا الطبيـب المختـصّ؟ سـتموت مـن الشـك والقهـر قبـل ذلـك!

أشـارت إلى أول سـيّارة أجـرة، وأعطـت السـائق عنـوان شـقة ميشـال، ثـم سرحـت بنظراتهـا عـبر النّافـذة الزّجاجيّـة. حـين جـاءت إلى مدينـة مرسـيليا الفرنسـيّة منـذ سـنتين، كانـت مخيّلتهـا مليئـة بالأحـلام، المهنيّـة والشـخصيّة. بعـد دراسـتها الجامعيّـة القاهريّـة، توصّلـت إلى اسـتنتاج مفـاده أنّ الشّـباب المـصريّ قاطبـة عـلى قـدر وافـر مـن التّفاهـة والسّـطحيّة! عمّمـت دون تـردّد وقـرّرت أنّهـا لـن ترتبـط بعـربيّ أبـدًا. سـافرت إلى فرنسـا وهـي تمـنّي النفـس بلُقيـا فارسـها الأشـقر، الـذي سـيأخذ بيدهـا إلى عالـم مـن الرّومانسـيّة الغربيّـة. كانـت ذاكرتهـا مترعـة بمخـزون سـخيّ مـن الأفـلام الأجنبيّـة، وفكّـرت أنّـه سـيكون مـن الرّائـع أن تعيـش أحـداث أحدهـا عـلى وجـه الحقيقـة.

ظنّـت أنّهـا أصابـت عصفوريـن بحجـر واحـد حـين تحصّلـت عـلى عقـد تربّـص في مكتـب ميشـال روسـو. في البدايـة كانـت محاميـة مسـاعدة بعقـد سـنة واحـدة. لكنّـه سرعـان مـا قرّبهـا منـه وجعلهـا سـاعده الأيمـن في القضايـا الهامّـة الـتي يتولاهـا، وأيضًـا في السّـهرات الخاصـة الـتي يقيمهـا في شـقته. لـم تكـن تضـع حـدودًا معينـة تقـف عندهـا طموحاتهـا، فهـي نشـأت في عائلـة جـدّ متفتحـة. لم يحاسـبها والداهـا يومًـا عـلى تصرّفاتهـا، ولـم يعاتباهـا عـلى إسرافهـا في أمـر مـا،

أيًّا كان. كانت دومًا سيّدة نفسها، وكان يحلو لها أن تلمح ذلك البريق الذي يلمع في أعين الرجال أمام غموض المرأة الشرقية التي تمثلها. نوعًا ما كانت التقاليد الدينية جزءًا من ذلك الغموض. هي نفسها لا يمكنها أن تفسّر تعلقها ببعض الأمور دون غيرها. رغم حضورها المجالس الخمرية، لكن يدها لم تمتدّ إليها يومًا. ورغم أنها لم تكن تصوم رمضان لكنها كانت تمتنع عن الأكل أمام الآخرين أثناء نهاره، وتحدّثهم بكثير من الحماس عن الأجواء الرّمضانية في مصر. ورغم التحرّر الشديد في طريقة لباسها، إلا أنها لم تسمح يومًا لأيّ رجل بلمسها أو تجاوز حدود الأدب معها. كانت حياتها مزيجًا من التضارب والتناقض، لكنها نجحت بشخصيتها الفريدة تلك في شق طريقها وسط المجتمع الفرنسي.. وهاهي تجدّد عقدها للمرة الثالثة في انتظار الترسيم الفعلي، وهاهي علاقتها بميشال تتخذ منحى جديًّا لا بدّ أن يسفر عن تغيير ملموس في حياتها.

كانت الشمس قد اقتربت من المغيب واصطبغت السماء بلون الشفق حين وصلت إلى المبنى المطلوب. لفّت السُّترة على جسدها النحيل حين أحسّت بنسيم المساء يدغدغ أطرافها. سرت في بدنها قشعريرة باردة. هل تكون محمومة؟ ستنظر في ذلك لاحقاً بعد أن ترى ميشال. ضغطت بعصبية على زرّ استدعاء المصعد. انتظرت لبضع ثوانٍ قبل أن تضغط مجدّدًا تستعجله. ما أن وصلت أمام الشقة المقصودة، حتى أخذت تقرع الباب بقبضتها، بما تبقى في جسدها من طاقة. كانت تكيل إلى الخشب الضربة تلو الأخرى في نفاد صبر، كأنّها تعاقبه على كل ثانية من انتظارها. وما أن فُتِح الباب أمامها، حتى تهاوت على الأرض.

- رنيم؟ ماذا تفعلين هنا؟

كان ميشال من فتح الباب. ساعدها على الوقوف وتقدّم بها بضع خطوات حتّى أجلسها على أريكة قريبة. أسندت رأسها على الوسادة التي قربها وتنهّدت. ميشال في شقته كما توقعت. لم يكن هناك من داعٍ للشك. لا يمكن أن يكون قد تخلى عنها، إنّما هو في حاجة إلى فترة نقاهة مثلها حتى يستعيد صحّته. ثم ذلك الجزع في صوته وهو يستقبلها، أليس دليلاً على قلقه من أجلها؟ كم أساءت الظنّ به حين تخيّلت شقراء مليحة تفتح لها الباب في ملابس خفيفة!

في تلك اللحظة دار مفتاح في قفل باب الشّقة وظهرت شابّة شقراء عند المدخل وهي تحمل أكياس مشتروات شتّى. ألقت تحيّة فاترة ومضت باتّجاه المطبخ. كتمت رنيم أنفاسها وهي ترى أسوأ كوابيسها يتجسّد حيًّا أمام عينيها. تابعتها بتقطيبة حتّى اختفت ثمّ التفتت إلى ميشال في تحفّز وانتظرت منه توضيحًا.

- هذه كلوديا، تساعدني بشأن المشاوير الخارجيّة.

توقعت رنيم أن تراها تخرج مغادرة، لكنّ غيابها طال بالدّاخل. سألها ميشال مرّة أخرى:

- رنيم..ما الأمر؟

- ما الأمر؟! هل تعلم أنني أرقد في المستشفى أعاني الألم والوحدة؟ ألم تفكّر في أنّني قد أحتاجك في هذه الفترة.. أحتاج دعمك وحضورك، ولو على الهاتف؟

كان صوتها قد تهدّج ومال إلى البكاء، لكنّها بقيت متماسكة. تحين منها التفاتة إلى المطبخ كلّ فترة، حيث اختفت الشقراء ولم تعد. جلس ميشال حذوها في صمت وقال في هدوء:

- رنيم.. ما فعلته من أجلي لن أنساه ما حييت. أنتِ أنقذتِ حياتي، وهذا لا ثمن له.. لكن إن شئت، دفعت لك الثمن الذي تطلبينه...

قاطعته في ذهول:

- تريد أن تدفع ثمنًا لماذا؟! لقطعة من جسدي وهبتها لك بحبّ؟!

أخذ نفسًا طويلاً، متمهّلاً. يستعدّ لطرح كلام صعب يعلم مسبقًا أنّها لن تفهمه ولن تتقبّله.

- رنيم.. تعلمين جيّدًا أنّ علاقتنا لا يمكن أن تنجح. أقدّرك وأحترمك كصديقة عزيزة، وسأظل.. مشاعرك الجميلة غالية عليّ، وكنت أتمنى أن نستمرّ معًا.. لكن، أنتِ تريدين الزواج.. وأنا لست مستعدًّا له بعد. لا أريد علاقة تقيّدني. الزواج ليس إلا عقدًا مكبّلاً.. وأنا أريد أن أحتفظ بحريتي، حتّى.. حتّى لا نُعقّد الأمور حين يملّ أحدنا الآخر.. أو حين تنتهي المشاعر. أريد أن أعيش اللحظة كما هي، بدون تعقيد.. وأتشاركها مع من يتفهم وجهة نظري، ولا يطلب مني أكثر مما أستطيع أن أعطي.

تردّدت نظراتها في صدمة بين ملامحه الباردة وباب المطبخ الموارب،

obeikandl.com

حيث اختفت الشقراء منذ قليل. إذن كان ذلك كل ما يريد؟ لم يكن ينوي الارتباط بها منذ البداية. استغلها. استغلّ سذاجتها ليحصل على الكلية التي يحتاجها. تركها تحلم بالزواج والارتباط وتخطط لأحلامها بمفردها، ثم سحب البساط من تحت قدميها ليتركها تسبح في الهواء. قالت في سخرية لاذعة:

- إذن كلوديا قدّمت لك ما تريد وفهمت شروطك؟

- لا تقحمي كلوديا في موضوعنا، إنّها مجرّد صديقة!رنيم، أنا لم أعدك بشيء.. عرضي كان واضحًا، وردّك كان واضحًا أيضًا.. لا يمكنني أن أظل مع امرأة لا تقدّم لي ما أحتاجه منها. تمنيّت أن تغيّري رأيك، لأنّني فعلاً كنت أميل إليك.. لكنّك -مع الأسف- أعند مما كنت أتوقع.

كانت تستمع إليه في شبه شرود، كأنّه يخاطب شخصًا غيرها. هل يلومها لأنها حافظت على عفتّها واشترطت الزواج لاستمرار العلاقة بينهما؟ هل يتخلى عنها ببساطة لأنها ليست مثل غيرها من الفتيات اللواتي يخالطهن؟ ليست رخيصة ولا بضاعة؟ لماذا تراه الآن على حقيقته للمرّة الأولى؟ لماذا اعتقدت أنها قادرة على التأثير عليه باسم الحبّ والتضحية والجميل؟ زفرت بقوّة، كأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة. لماذا يحصل معها كل هذا؟ لم تطلب الكثير.. بل آمنت بصدق العواطف وأعطت بقدر عمق إيمانها.

- رنيم.. أنتِ تنزفين!

كانت بقعة دم قد ظهرت على سترتها في موضع الجرح وأخذت تتسع.

- يجب أن تعودي إلى المستشفى.

وقفت بصعوبة وتقدّمت نحو باب الشقة بخطوات متعثرة. تشعر بإرهاق شديد، وأنفاسها المتلاحقة تكاد تنقطع. تخشى أن تخذلها قدماها، لكنّها تكابر. لن تريه المزيد من ضعفها. يكفيها العرض الذي قدّمته للتوّ مجانًا.

- انتظري.. سأرافقك.

استدارت في حركة حادّة لترميه بنظرة صارمة أوقفته مكانه.

- لا أريد أن أراك مجدّدًا.. غدًا تجد استقالتي على مكتبك.

نزلت درجات السّلم واحدة واحدة. لم تكن تريد الإسراع، ولم تكن تقدر عليه بأي حال. لم يتبعها، ولم يحاول استيقافها. اكتفى بمحاولة

يتيمة. هل كانت تنتظر منه استماتة في استرضائها؟ لم يعد أمامها سوى أن تطوي الصّفحة وتنسى.. نظرية عقلية منطقية، لكن أنّى لها التطبيق؟ وضعت كفها على موضع الجرح تتحسّسه ثم رفعتها أمام وجهها.. كانت مصطبغة بالدماء. في اللحظة التالية، كان جسدها الهزيل ممدّدًا أمام مدخل المبنى.. بلا حراك.

حين حكّمت القلب في أمور العقل، سقط الجسد ضحية بينهما.

*****

خرجت من العملية الثالثة وقد فقدت أكثر من كلية، أكثر من قطرات دم، أكثر من دمعات عين. فقدت حبّ الحياة. استلقت على سرير المستشفى في استسلام. لم يكن يقيّد حركتها مخدّر أو إرهاق عضلي، لكنها فقدت الرّغبة في كل شيء. عافت نفسها الكلام والطعام. لم تلمس الطبق الذي أحضرته الممرضة ذلك المساء، مثل المساء الذي سبقه. لولا أنبوب السائل المغذي المتصل بوريدها لكانت فقدت الوعي أكثر من مرّة.

- آنسة رنيم، يجب أن تأكلي.. لن تغادري المستشفى قبل أن تستعيدي صحتك.

أشاحت رنيم برأسها ولم تجبها. تنهدت الممرضة وهي تقترب منها أكثر. رفعت خصلات شعرها ووضعت المحرار في أذنها. انتظرت لبضع ثوانٍ قبل أن تسمع صفير الآلة الإلكتروني. سحبت المحرار ورفعته أمام عينيها. قرأت درجة الحرارة على الشاشة الصغيرة، ثم قالت بصوت عالٍ:

- حراراتك مستقرة.

واصلت وهي تلبس قفازات بلاستيكية وترفع قميص رنيم لتعاين الجرح:

- جيد.. يبدو بحالة جيّدة اليوم. عليك هذه المرة أن تلتزمي بالراحة حتى يلتئم جرحك نهائيًا.

لم تحرك رنيم ساكنًا ولم يبد على ملامحها التأثر بكلمات الممرضة، كأنّ جسدها لا يعنيها. لم تعد تهمّها صحتها من مرضها. تريد فقط أن تنعم بلحظات من الوحدة. لحظات من السكينة. انتظرت في ملل أن تنصرف الممرّضة التي أقلقت راحتها وتنهدت حين لمحتها بطرف عينها تنزع

القفـازات وتسـجل تطـور حالتهـا عـلى الدّفـتر المعلـق عـلى جانـب السريـر. تلـك الحركـة الروتينيـة تعـني انتهـاء الزيـارة واسـتعدادها للمغـادرة. لكـن أملهـا تبخّـر فجـأة حـين فُتِـح البـاب مجـدّدًا ودخلـت ممرضـة أخـرى. تجاهلتهـا في تأفّـف، حـتى سـمعتها تهتـف في مـرح:

- هناك باقة من أجلك.

استدارت إليهـا وقـد اسـتيقظت حواسـها دفعـة واحـدة. سـبقها عقلهـا في التحليـل والاسـتنتاج. لا أحـد يعلـم أنهـا في المستشـفى غـير ميشـال. كان هـو مـن اسـتدعى سيارة الإسـعاف بعـد أن غـادرت شـقته.. لا شـك لديهـا في ذلـك. لا بـدّ أنـه قـد نـدم عـلى مـا بـدر منـه في حقهـا. يريـد الاعتـذار ولكنـه لا يملـك الشـجاعة لمواجهتهـا! يعلـم أنهـا غاضبـة منـه. لا، الغضـب لا يكفـي لوصـف مـا يعتمـل في صدرهـا تجاهـه. لذلـك أرسـل إليهـا هـذه الباقـة.

- ممّن هي؟

هتفـت في لهفـة وهـي تتطلـع إلى باقـة الـورود البيضـاء. اللـون الأبيـض، أليـس لـون الاعتـذار؟ نظـرت إليهـا الممرّضتـان في دهشـة. كانـت تتكلـم للمـرة الأولى بعـد خروجهـا مـن غرفـة العمليـات. سـارعت الممرضـة الـتي أحـضرت الباقـة بإخـراج البطاقـة الـتي تصاحبهـا وقـرأت التوقيـع بصـوت عـالٍ:

- ميشال روسو.

تسارعت دقات قلبها وهي تمد يدها في اتجاهها:

- هاتِها.

لا تـدري كيـف تحـوّل الغضـب الهـادر الـذي كان يسـيطر عـلى كيانهـا منـذ لحظـات إلى نشـوة غريبـة. لـم تكـن تـدرك أنّ تعلقهـا بـه قـد بلـغ هـذه الدّرجـة مـن العمـق. مجـرد ذكـر اسـمه كان كافيًـا لتعـود الحيـاة إليهـا. مـاذا دهـاكِ يـا رنيـم ؟! تزاحمـت الأفـكار في رأسـها في تداخـل وهمجيـة. لـم تسـامحه بعـد.. لـن تسـامحه بهـذه السـهولة. اسـتجمعت شـتاتها بسرعـة واسـتعادت حزمهـا. حـين اسـتقرّت قصاصـة الـورق في كفهـا، كانـت أكـثر ثباتًـا.

«اتصلي على هذا الرقم ********٠٦» ميشال روسو.

كانـت تلـك الكلمـات الوحيـدة الـتي خُطَّـت عـلى البطاقـة. رقـم هاتـف محمـول فرنـسي. عقـدت حاجبيهـا في شـك. يريدهـا أن تتصـل بـه؟ لـم يكـن ذلـك الرقـم الـذي تعرفـه. هـل هـو رقـم جديـد؟ ربمـا حـاول الاتصـال بهـا

ووجـد هاتفهـا مغلقًـا. كانـت قـد أغلقتـه منـذ فـترة طويلـة، حـين تعرّضـت للجراحـة الأولى. لـم تكـن تريـد أن تتلقـى اتصالات مـن عائلتهـا، وهـم عـلى أي حـال لا يتصلـون كثـيرًا.

- أين هاتفي؟

تلفتـت حولهـا في ارتبـاك بحثًـا عـن هاتفهـا المحمـول. كان بإمكانهـا اسـتعمال هاتـف المستشـفى، لكنّهـا فكّـرت أنّـه قـد لا يـردّ عـلى رقـم غريـب. ألـم تذهـب محاولاتهـا السّـالفة كلهـا هبـاء؟ انضمّـت إليهـا الممرضتـان في البحـث وقـد سرّهمـا اهتمامهـا بالباقـة الـتي وصلتهـا. كان ذلـك تحـوّلاً حقيقيًـا في تصرفاتهـا، ربمـا يعطيهـا هـذا الحـدث رغبـة في الشـفاء والعـودة إلى الحيـاة.

- وجدته.

هتفـت إحداهمـا وهـي تُخـرج الهاتـف مـن أحـد الأدراج. سـلّمته إلى رنيـم الـتي سـارعت بتشـغيله، في حـين انسـحبت الممرّضتـان وهمـا تتغامـزان. سـتتركان لهـا الفرصـة للقيـام باتصالهـا الخـاصّ، لقـد انتظرتـه طويـلاً وتسـتحق أن تعيـش هـذه اللحظـة بمفردهـا دون أن يشـاركها فيهـا أو يعكـر صفوهـا أحـد. أمسـكت رنيـم الهاتـف بـين يديهـا في توتـر. هـل عليهـا أن تتصـل؟ ومـاذا سـتقول حـين تسـمع صوتـه؟ ليـس عليهـا أن تقـول شـيئًا.. سـتتركه يتكلـم. هـو طلـب منهـا الاتصـال، أليـس كذلـك؟ هـو الـذي سـيعتذر ويـشرح موقفـه. هـي سـتكتفي بالاسـتماع، ثـم تقـرر مـا سـتفعله بشـأنه/ بشـأن علاقتهمـا.

أخـذت نفسًـا عميقًـا وهـي تتنـاول القصاصـة مـن جديـد. ازدردت ريقهـا ثـم أخـذت تنقـر الأرقـام عـلى لوحـة المفاتيـح في ثبـات. انتظـرت في توجـس وهـي تسـتمع إلى الرنـين في الطـرف الآخـر للخـط. أخـيرًا، جاءهـا الـردّ:

- آلو؟

مهلاً، لم يكن ذلك صوت ميشال. ارتبكت. هل تغلق الخط؟

- آلو من على الخط؟

- أنا.. رنيم.. رنيم شاكر.

عضّـت عـلى شـفتها مـن النـدم. لمـاذا عرّفـت بنفسـها؟ كان عليهـا أن تطلـب ميشـال أو تغلـق الخـط. هـل تضطـر إلى تـرك رسـالة لميشـال الآن بمـا أنهـا هـي المتصلـة؟ لـم تكـن قـد حسـمت أمرهـا بعـد حـين هتـف مخاطبهـا وقـد بـدا عليـه أنـه تعـرّف عليهـا:

- آه أستاذة رنيم شاكر! شكرًا لاتصالك. ميشال روسو حدّثني كثيرًا عنك وشكر خصالك المهنية كثيرًا.

- خصالي المهنية؟! ماذا يقصد؟ ما الذي يحصل هنا؟

جاءها الصوت مجدّدًا:

- أعلم أن ميشال يجد صعوبة في التخلي عنك وهو يعتمد عليكِ كثيرًا، لكن بما أنك تنتقلين إلى باريس، يسرّني كثيرًا أن نعمل معًا. ستجدين في مكتبي كل الشروط التي ترضيكِ وأكثر. ميشال أوصاني بك خيرًا وأنا ممتنّ له لأن الكفاءات الشابة في مجال عملنا قليلة هذه الأيام.

استمعت إليه في ذهول. هكذا إذن.. ميشال يريد التخلص منها نهائيًا بإرسالها إلى باريس. حرص بنفسه على إيجاد عمل لها ليبعدها. لا يريد أن يتكرّر العرض الذي قدّمته في شقته منذ يومين مرّة أخرى. لا يمكنه أن يعيش هانئ البال وهي في الجوار، تذكّره بجميلها تجاهه وتُشعره بالذنب لنكرانه السافر. وضعت كفها على فمها لتحبس شهقة كادت تفلت منها، وتركت دمعة حارة تنساب على وجنتها في صمت.

- سأرسل إليكِ نسخة من شروط العقد التي أقترحها عليكِ. لا أنتظر منك جوابًا فوريًّا. خذي كامل وقتك للتفكير.. وأنا متأكد من أنك لن تضيّعي الفرصة.

- شكرًا.

تمتمت بصوت مخنوق، ثم أغلقت الخط. استلقت على سريرها واستسلمت للبكاء. كيف خامرها الأمل للحظة واحدة؟ ألقت الهاتف على الحائط بعصبية ثم انقضّت على البطاقة التي حملت الرسالة وأخذت تمزقها في جنون لتحوّلها إلى فُتات. أخفت وجهها بين كفيها في انهيار.. هذه المرّة انتهى كل شيء. انتهى حتمًا. لن تقبل صدقة منه.

مهما كانت خسارتها بفقدانه كبيرة، فالبكاء من أجله خسارة أكبر. إن كانت تعدّه اليوم على هامش مستقبلها، فهي كانت طيلة الوقت على هامش حياته.

-٣-
ياسمين

حطت الطائرة القادمة من تونس في مطار ليون «سانت أكزوبيري»* الدّولي في ذاك اليوم الممطر من صيف ٢٠٠٤. نزل المسافرون واحداً تلو الآخر وتوجهوا إلى مكاتب الجمارك لمراقبة وثائق سفرهم، ثم انسابوا في صخب إلى قاعة الأمتعة لتسلم حقائبهم. وسط جلبة المطار تلفتت ياسمين عبد القادر حولها في توهان. أجالتبصرها في مزيج من الارتباك والضياع والدّهشة. ارتباك لانشغال عقلها بما ينتظرها، وبما تركته وراءها. ضياع في تجربتها الأولى في مواجهة العالم وحيدة. دهشة للأمطار الغزيرة التي تهطل خارج مبنى المطار وهي قد غادرت الضفة الأخرى للمتوسط على حرارة وقيظ شديدين!

كانت تجرّ حقيبة رياضية من الحجم الصغير بصعوبة واضحة، وتتوقف كل بضعة أمتار لتلتقط أنفاسها. حجم الحقيبة بالغ الصغر يخفي حقيقة وزنها، فقد تراصت في فضائها المختزل ألوان من الأطعمة المنزلية التي أصرّت أمّها على أن تأخذها معها. ابتسمت وهي تذكر ملامح وجهها القلق وهي تودّعها في مطار تونس قرطاج، وتعيد على مسامعها توصياتها ثانية وخامسة وعاشرة.. إنّهما تفترقان للمرة الأولى في سنواتها الأربع والعشرين. تحسّ بالدوار في هذا الفضاء الفسيح كثير المداخل والاتجاهات. إنه أول عهدها بالمطارات والرّحلات الجوية. تضع قدميها على الأراضي الفرنسية للمرّة الأولى.. خطأ، ليست المرّة الأولى! كان ذلك منذ زمن بعيد. زمن منكمش في لاوعيها، ولا تحمل في ذاكرتها الواعية أدنى صورة عنه.

حين غادرت قاعة الأمتعة كانت قد تجاوزت مغامرتها الأولى. كادت تنسى حقيبة يدها على حافة المغسلة وهي تترك الحمّام، ثم أوشك رجل

---

*Antoine de Saint-Exupery : كاتب وطيار فرنسي. مات في مهمة من أجل فرنسا عام ١٩٤٤ حيث لاقى حتفه في أعقاب إحدى المهمات الاستطلاعية. تعتبر قصته التعبيرية المشهورة «الأمير الصغير» من أشهر قصص أدب الأطفال في العالم. أطلق اسمه على مطار ليون الدولي سنة ٢٠٠٠.

OpenArabic.com

عجوز يعاني قصرا في النظر أن يرحل بحقيبة ملابسها، وحين استلمت أخيرًا كل متاعها وهمّت بالعبور إلى الباحة، أوقفها مراقبان عند المخرج ليخضعا حقائبها لتفتيش دقيق.

تنفست الصعداء وهي تدلف الرّواق المفضي إلى بهو الاستقبال. ليس هناك من داع للقلق، ليس هناك من داعٍ للخوف. سيكون كل شيء على ما يرام. ما أن انفتح الباب الآلي على مصراعيه حتى اصطدمت أنظارها بالجماهير التي وقفت تنتظر الوافدين. تنقّلت نظراتها بينهم في سرعة بحثًا عمّن جاء لاستقبالها، وماهي إلا لحظات حتى لمحت كف إيلين تلوّح لها من بعيد. إيلين وحدها كانت تنتظرها. اختفت الابتسامة من عينيها. دفعت العربة في إحباط كأنها تدفع خيبتها حتى وصلت عند مضيفتها. عانقتها في ودّ، في حين سارعت إيلين لتوضح:

- والدك سافر البارحة بصفة مفاجئة لضرورة في العمل.. سيكون هنا في نهاية الأسبوع.

ابتسمت في امتنان وتركتها تقودها عبر ممرّات المطار حتى وصلتا إلى موقف السيارات. وما أن استقرّ بهما المقام في سيارة إيلين حتى سرحت نظراتها عبر النافذة، تتظاهر باكتشاف المحيط الجديد وتلوك أفكارًا قاتمة جاهدت لتبعدها عنها. كانت الأمطار قد توقفت في الخارج بعد أن غسلت الشوارع المعبّدة ومسحت الغبار عن زجاج السيّارات، فبدت المدينة أنيقة ونظيفة، على أهبة الاستعداد لاستقبال الوافدة التونسيّة الحالمة.

لم تكن إيلين بالشخص الغريب عن ياسمين. قدّمها والدها للعائلة منذ ثمانية عشر سنة. زوجته الجديدة. تعوّدت على رؤيتها كل صيف حين تأتي لقضاء بضعة أسابيع في شقة والدها الساحلية.. الشقة التي تقول والدتها إنها شاركت بالنّصف في كل المدخرات التي سمحت لوالدها بشرائها. ثم انضاف إلى العائلة وجهان صغيران جديدان، بفارق سنتين، ريان وسارة.. أخواها. غريبة هي تلك العلاقة التي تربطها بأخويها. تراهما كالدّمى الصغيرة ذات الجمال الأوروبي، يتحدّثان الفرنسية بطلاقة وبالكاد يردّدان بعض الكلمات العربية ذات الاستعمال المتداول.

- وصلنا.

قاطعها صوت إيلين وهي تشير إلى بناءشاهق تحيط به حديقة صغيرة.

OpenKandil.com

رفعت رأسها ببطء لتطالع واجهة البيت للحظات بنظرات خالية من التعبير. يبدو أجمل من الصور وأكبر. عند المدخل لفتت انتباهها لوحة خزفية لامعة مثبّتة قرب البوابة، كتب عليها بخط أنيق «إقامة عائلة كلود». كلود؟ ربما كان المالك السّابق للمنزل. عليهم أن يهتموا بتغييرها. نسيت أمرها بسرعة وأخذت تساعد إيلين على إخراج الحقائب من الصندوق.

لم تحقد يومًا على والدها ولم تعاتبه لأنه ميّز أخويها على حسابها. لم تحسدهما على هذا البيت الفاخر الذي رأته سابقًا في ألبومات الصور، ولم تقارن بينه وبين منزلها الصغير المتواضع. لكن وقوفها الآن هنا جعل كلمات جدّتها الحازمة ترنّ في أذنيها كأنّها تسمعها للمرّة الأولى:

- «أنتِ ابنته مثلما هما ابناه، ولديك حقوقك مثلما لديهما حقوقهما. اذهبي إليهم وطالبي بحقك! لن أسامحه ما حييت ما لم يعد حقك وحق أمك المسكينة».

أمها مسكينة فعلاً. نذرت حياتها للاهتمام بها وبتربيتها ولم ترغب في الزواج مرة أخرى. والدها كان الرّجل الوحيد في حياتها، وبانفصالها عنه أوصدت أبواب قلبها أمام كل الرجال. أما والدها فقد تزوّج مجدّدًا بأسرع ممّا تصوّرت.. لا يمكنها أن تلومه في نهاية الأمر، فذلك حقه. وهي تعوّدت أن تعيش دون أب، لم تشعر بحاجة إلى وجوده لسنوات طويلة. وهو كان بعيدًا معظم الوقت، وحتى زياراته القليلة لا يمكن وصفها بالممتدة. هل يلومها أحد على تجمّد عواطفها تجاهه؟

لكنها أحبّت الطفلين ريان وسارة. أحبّتهما كدميتين جميلتين تتمرّن معهما على التحدّث بالفرنسية. حين عادت بها والدتها إلى تونس لم تكن قد تجاوزت الرابعة من عمرها. كانت تتكلم الفرنسية بطلاقة، لكنها سرعان ما نسيتها وأهملتها لتندمج في مجتمعها الجديد. حين تعلمت الفرنسية في المدرسة، هنأتها مدرّستها على لهجتها الجميلة. كانت تتكلم مثل الفرنسيين، هكذا قالوا لها، وهي كانت سعيدة، خصوصًا حين جاء ريان ذو السنوات الثلاث ليشاركها تمارينها اللغوية. كانت في العاشرة من عمرها حينها، وكان معجمها أثرى بكثير من معجمه. لكن في السنوات التي تلت لاحظت أنه يتقن اللغة بسرعة أكبر منها، حينها أدركت الفرق بين العيش في تونس والعيش في فرنسا.

openkandi.com

- هذه ستكون غرفتك.

انتبهت من أفكارها حين فتحت إيلين باب غرفة في الطابق الأول وسبقتها إلى داخلها. وجدت نفسها في قاعة امتدت رفوف الكتب لتحجب معظم جدرانها وترتفع حتى تصل إلى السقف. على الأرضية أيضًا تكدّست كتب أخرى لم تجد لها مكانًا على الرّفوف. مكتب صغير وكرسي كانا يحتلان مركز الغرفة، وبدا أن زائرًا جديدًا انضاف إلى أثاثها منذ زمن قريب: السرير المخصص لها.

ركنت حقيبتيها إلى جانب السّرير وفتحت النافذة. أطلت على الحديقة الأمامية واستنشقت هواء الحديقة المعطّر، تأخذ كامل وقتها قبل اللقاء المرتقب مع أخويها. لم ترهما منذ سنتين. العائلة فضّلت استثمار عطلتها للانطلاق في وجهات جديدة. يعرفون تونس وفنادقها الشاطئية جيّدًا الآن. يعرفون المتاحف والمطاعم والملاهي أكثر ممّا يمكنها تخيّله، هي التي تسكنها منذ عشرين عامًا. لم تكن لديها الكثير من الفرص للسّياحة، لكنها تعرف حقيقة الحياة اليومية، تعرف الناس وحكاياتهم، تعرف كيف تكون المواصلات مزدحمة في الصّباح، والشوارع موحلة في الشتاء، والشمس حارقة في عزّ الظهيرة، وصعوبة المعاملات الإدارية في كلّ وقت. تعرف لبّ الحياة، لا القشور.

كبرت في منزل جدّتها، في حيّ «باب سويقة» قلب المدينة العتيقة، حيث البيوت المنخفضة المتلاصقة والأزقّة الضيّقة المتعرّجة، والنوافذ ذات الشباك المعدنيّة تطلّ على الشّارع مباشرة. لم تكن تلهو في حديقة يانعة، بل في فناء مبلّط، تتألق في وسطه نافورة تصبّ الماء في حوض فسيفسائي ضئيل، مكسور في أحد حوائطه الجانبيّة. لم يتمّ إصلاح شظاياه أبدًا. لعبت الكرة مع الصّبيان بين «زاوية سيدي محرز»*

*زاوية سيدي محرز: مقام للوليّ الصالح «سيدي محرز» الذي يعتبر من أشهر الأولياء في تونس، يقع في وسط العاصمة قرب باب سويقة وشرقي حي الحفصيّة.

و «جامـع بـاي محمـد» * ، وحصـدت قطـع الحلـوى مـن روّاد المعلمـين. وكانـت الزّاويـة بالـذات تثـير جـدلاً أزليًـا بـين أمّهـا وجدّتهـا، فتأخذهـا الثانيـة في المواسـم الدّينيـة لتلقـي السّـلام عـلى الـوليّ الصّالـح وتشـترك مـع الأهـالي في إعـداد الذّبائـح وطهيهـا، في حـين تنهرهـا الأولى، وتختـلي بهـا لدقائـق طويلـة تلقّنهـا مفاهيـم «الـشرك» الـذي تتجـاوز مفرداتـه فهمهـا الطفـولي. أحبّـت حيّهـا الشّـعبيّ بجدرانـه المتهالكـة المتسـاقط طلاؤهـا، وأسـفلته المغطـى في غـير تناسـق بقطـع الحجـارة متفاوتـة الأحجـام، وروائـح «الجـاوي» والبخـور الـتي يعبـق بهـا الجـوّ في كلّ حـين، مختلطًـا بنفحـات مـن ذكـر الله الحكيـم تعطّـر النّفـوس، وحفـلات مشـجّعي فريـق «الترجّـي الرّيـاضي» الـتي تجتـاح شـوارعه مثـل مـدّ جـارف، يحصـد الأخـضر ويخلّـف اليابـس مـن قواريـر المشروبـات وعلـب ورقيّـة وأعقـاب سـجائر، ليجمعهـا الصّبيـان ويدّخرونهـا لألعابهـم الارتجاليّـة. عاشـت طفولـة خصبـة جامحـة.. لكنّهـا بـدون أب.

- قهوة أم شاي؟
- شاي من فضلك.

نزلـت درجـات السّـلم إثـر مضيفتهـا ودخلـت المطبـخ. جلسـت إلى الطاولـة في إحـراج. صحيـح أنهـا تعـرف إيلـين، لكنهـا لـم يسـبق أن جمعهـا بهـا لقـاء حميمـيّ دون طـرف ثالـث. تتابـع عينيهـا الزرقاويـن وتموّجـات شـعرها الأشـقر بانتبـاه غريـب، كأنهـا تراهـا للمـرة الأولى. تبـدو مختلفـة تحت السّـماء الفرنسـية. منـذ مـتى تلبسـين الحجـاب؟

- منذ سنتين.

منـذ انقطعتـم عـن زيارتنـا. لـم تكمـل الجملـة بصـوت مسـموع، احتفظـت بعتابهـا لنفسـها.

وضعـت إيلـين أمامهـا كـوب الشـاي. تأملـت في دهشـة المـاء الـدافئ الـذي تسـبح عـبره قطعـة ورق صغـيرة مربعـة شـفافة، محشـوة ببعـض الحشـائش،

---

*مسـجد محمـد باي:يعـرف أيضـا باسـم جامـع سـيدي محـرز. يقـع بحـي تجـاري، قـرب بـاب سـويقة وقبالـة زاويـة سـيدي محـرز. شرع في بنائـه سـنة ١٦٩٢ مـن طـرف محمـد بـاي واسـتكمل بنـاءه بعـد وفاتـه أخـوه رمضـان بـاي سـنة ١٦٩٦. بـني المسـجد عـلى مسـطبة وهـو يرتفـع بأزيـد مـن أربعـة أمتـار عـن الطريـق المجـاور.

تتدلى من خيط رقيق يمنعها من الانحدار إلى قعر الكوب. حركت طرف الخيط فرأت موجات رقيقة ملونة تنساب من قطعة الورق خلال الماء الدافئ. هل هذا هو شايهم؟ وضعت قطعتين من السكر وحركت الملعقة ببطء، ثم رشفت منه في توجس. آه، تمامًا مثلما توقعت. نكهة شاي خفيفة، لا صلة لها بشاي جدتها الأخضر بالنعناع. عالم آخر من النكهات.

- ريان وسارة في النادي. أترافقيني لإحضارهما؟

ركبتا السيارة مرّة أخرى، واستمعت هذه المرة إلى إيلين وهي تعرفها على المباني المجاورة والمعالم التي تحفّ الطريق بين البيت والنادي. حاولت أن تركز وتهتم بكلامها رغم الأفكار التي تملأ رأسها.

يجب أن تتعلمي كيف تركبين المترو وكيف تذهبين إلى وسط المدينة، سآخذك غدًا في جولة.

- هزّت رأسها موافقة. لم تأتِ لزيارة العائلة والسياحة فقط. بعد يومين تبدأ مرحلة جديدة في حياتها الدّراسية. سجّلت في مدرسة خاصّة لعلوم الحاسب لتدارك تأخرها في هذا المجال، وفي نفس الوقت ستبدأ رحلة البحث عن شركة تحتضن مشروعها لرسالة الدكتوراه. كانت قد راسلت بعض الشركات من تونس وحصلت على مواعيد لتقديم ملفها.

توقفت السيّارة أمام النادي الرياضي. رأت شابًا وشابة في مقتبل العمر ينتظران أمام الباب، وما أن اقتربا حتى ميزت فيهما أخويها. أخويها؟ الدّميتان الصغيرتان كبرتا. لاحظت ذلك خلال السّنوات الماضية، لكن سنتين من الغياب جعلتا الفرق يبدو شاسعًا. ريان الآن يبلغ سبعة عشر ربيعًا وسارة خمسة عشر. نزلت لتعانقهما في اشتياق. كم بديا طويلي القامة! لم يخف عليها برودهما الغريب وابتسامتهما المُحرَجة. هل هو تأثير الحجاب؟ نعم، هي أيضًا تغيّرت في السنتين الماضيتين. ازدادت تمسكًا بهويتها المسلمة.. وازدادا غوصًا في الثقافة الفرنسية. تلمح ذلك في تنورة سارة القصيرة وفي قصة شعر ريان الغريبة. لكن لا داعي للقلق؛ ما يزالان صغيرين، أليس كذلك؟

حال عودتهم إلى البيت، أخذتها سارة لزيارة غرفتها. أرتها حاسوبها الخاص، ولعب الفيديو الخاصة، وملابس السهرة الخاصة بها. ثم جلست على طرف سريرها وهي تسألها في فضول جاهدت حتى تكتمه منذ رأتها:

obeikandi.com

- لماذا تغطين شعرك؟

- إنه الحجاب الذي يأمرنا به الإسلام.

- لكنك لم تكوني تلبسينه من قبل.

- نعم، لأنني لم أكن مستعدّة. ليس قرارًا سهلاً، والظروف ليست مناسبة في تونس. لكنني منذ سنتين حسمت أمري ولبسته.

- حسن. هذا شأن يخصّك.. مع أنّ شكلك أصبح مملّا، مثل جدّتي.

في جملة واحدة سخرت من جدّتها و استهزأت بتعاليم الإسلام دون أن يهتزّ لها جفن. كتمت ياسمين ضيقها وقالت في هدوء:

- سارة عزيزتي، هذا كلام غير مؤدّب.

بينما ضحكت سارة دون أن تعتذر، تابعت ياسمين في لهجة جادّة:

- أنت لم تعودي صغيرة. في سنك تصبح الفتاة مكلفة في الإسلام ومسؤولة عن أفعالها.

- الحمد لله! لا علاقة لي بالإسلام!

صعقت ياسمين وهي تسمع الكلمات التي ألقتها سارة في لامبالاة.لـمَ يبدو لها الأمر غريبًا؟ إذا كانت الأم التي تربيها ملحدة، فكيف ستنشأ؟ حاولت في إصرار:

- ربما لأنك لم تتعرّفي على الإسلام جيدًا.

- لقد رأيت كيف يعيش المسلمون في تونس.. وأنا حقيقة أفضّل حياتي هنا.

أطرقت ياسمين في ألم. معها حق. لا علاقة لها بالإسلام. حتى اسمها، أليس اسمًا عالميًا متداولاً في كل الثقافات؟ والدها فكر جيدًا في المستقبل حين اختار اسمي ابنيه. أراد لهما أسماء سهلة النطق بالفرنسية، ليسهل عليهما الاندماج في المجتمع حتى يذوبوا فيه ولا يرى أحد وجه اختلافهما. ريان، مثل الممثل الكندي «ريان رينولدز»، وسارة، مثل الممثلة الأمريكية «سارا جيسيكا باركر». مع أشكالهما الأوروبية، شعور ملساء كستنائية وبشرة بيضاء مشربة بحمرة، هل يمكن لأحد أن يشك في أصولهما العربيّة؟

- حان موعد العشاء.

سمعت نداء إيلين وهي تطل من باب المطبخ أسفل الدرج، فنزلت رفقة سارة للجلوس إلى المائدة. استمرّ انتظارهم لدقائق إضافية قبل أن

يـنزل ريـان مـن غرفتـه. غمـزت سـارة ياسـمين وهـي تهمـس في أذنهـا في خبـث:
- كان يهاتف صديقته.

ابتسـمت ياسـمين مجاملـة. لـم يكـن الأمـر مثـيرًا للمـرح بالنسـبة إليهـا. لكـن صفتهـا كأخـت كـبرى لا تخـوّل لهـا الكثـير مـن الصلاحيـات حـتى تتدخـل. رفعـت نظراتهـا إلى إيلـين الـتي انغمسـت في توزيـع قطـع السـجق عـلى الأطبـاق. هـل تـدرك مـا يعيشـه ابناهـا المراهقـان مـن تحـوّلات؟ أم أن الأمـر بالنسـبة إليهـا سـيان؟ حـين عاشـت هـي أولى تجـارب الإعجـاب بالجنـس الآخـر، كانـت أمهـا كاتمـة سرّهـا. كانـت تسـتمع إليهـا وتوجههـا حـتى لا تنسـاق وراء مشـاعرها. علّمتهـا أن فـترة المراهقـة هـي فـترة اكتشـاف وتقلـب، وأنّ مشـاعرها حينهـا قليـلاً مـا تكـون متينـة وثابتـة. علمتهـا أيضًـا الحفـاظ عـلى نفسـها مـن فخـاخ الهـوى، فلـم تصاحـب يومًـا. لكـن الوضـع بالنسـبة إلى أخويهـا يبـدو مختلفًـا. هـل عليهـا أن تقلـق مـن أجلهمـا؟

أنهـت إيلـين مـلء طبقهـا وطبـق ريـان وسـارة، ثـم تناولـت وعـاءً آخـر ووضعـت قطعًـا مـن اللحـم في طبـق ياسـمين، وهـي تقـول مبتسـمة:
- اشتريت لحمًا حلالاً من أجلك.

رفعت ياسمين عينيها في دهشة.
- من أجلي؟

ثـم خفضـت رأسـها وتمتمـت بكلمـات شـكر مبعـثرة بلسـان متلعثـم، وأخذت تـأكل في صمـت. تحـسّ بغصّـة في حلقهـا مـع كل لقمـة تبتلعهـا. تحـين منهـا نظـرات منكسرة تجـاه أخويهـا مـن حـين إلى آخـر. يـأكلان لحمًـا ليـس بحـلال.. يـأكلان لحمًـا ليـس بحـلال!

لا داعي للقلق، أليس كذلك؟

*****

تنظمـت حياتهـا في الأيـام التاليـة عـلى وقـع الأنشـطة الـتي حـدّدت مـن أجلهـا سـلفًا. كانـت تبـدأ نهارهـا بـدروس الحاسـب الـتي تمـلأ سـاعات الصبـاح، ثـمّ ترجـع عنـد الظهـر لتنـاول الغـداء رفقـة إيلـين، مـا لـم تكـن لديهـا مقابلـة عمـل. أمـا أوقـات فراغهـا الـتي تمتـدّ عـلى بـاقي سـاعات اليـوم، فقـد ملأتهـا

بهواياتها الأثيرة في نفسها، القراءة.

أخذت الإذن من إيلين حتى تطّلع على الكتب التي تملأ غرفة نومها. معظمها كان علميًا ويهمّ اختصاص والدها: الفيزياء. وهي لم تكن تنوي التعمق في الأمور العلمية الدقيقة التي فرّت منها فرارًا حين اختارت تخصّصها الجامعي. كانت مولعة بدراسة حقيقة النفس البشرية، لذلك اختارت علم الاجتماع. لم تكن تشبه والدها في هذه النقطة.

بإزاحتها الكتب العلمية من حسابها، كانت قد تركت خلفها معظم الرفوف. بقي قسم واحد من المكتبة اجتمعت فيه كتب الثقافة العامة. وقفت في ذلك الصباح تمرّر سبابتها على الكتب في بطء وهي تقرأ العناوين. كانت كلها باللغة الفرنسية، فيها الروايات والمقالات الفلسفية وحتى كتب التاريخ.. توقفت فجأة حين التقط عقلها كلمات بدت غريبة: «القرآن باللغة الفرنسية». تناولت الكتاب في فضول وجلست على طرف السرير. كانت هناك علامة على إحدى الصفحات تشير إلى موضع وصول القارئ. هل يقرأ والدها القرآن بالفرنسية؟ أم تراها إيلين هي التي تقرأ فيه؟

- ياسمين.. الفطور جاهز.

جاءها صوت إيلين وهي تستدعيها لتناول الوجبة الصّباحية. عليها أن تختار كتابًا بسرعة وتنزل للانضمام إلى مائدة الطعام. إيلين ستوصلها في طريقها إلى العمل إلى محطة المترو، ثم عليها أن تذهب بمفردها إلى درسها، مثل كل فتاة كبيرة. أعادت الكتاب إلى مكانه وألقت نظرة سريعة على بقية الرّف. دون تفكير كثير، التقطت كتاب«الهويّات القاتلة»، دسّته في حقيبتها وغادرت الغرفة على عجل.

حين ركبت المترو كانت الحركة في أوجّها مثلما هي العادة في أوقات الذروة. في يومها الأول أحسّت بكل الأعين تتّجه نحوها، تتفحّصها بصفاقة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها. لا تدري إن كانت هيئتها ما يجلب إليها الأنظار، أم أن خيالها المتآمر مع حساسيّتها المفرطة هيّأ لها أنها مراقبة من طرف جمع من المخبرين السّريين عديمي الخبرة! كان الانشغال بكتاب هو الحل الأمثل لتبديد الهواجس وشغل فراغها. لم تجد مكانًا شاغرًا، فأمسكت بأحد الأعمدة المعدنية وأخرجت كتابها.

«الهويات القاتلة» لأمين معلوف الكاتب الفرنسي لبناني الأصل. قرأت

obeikandi.com

الفقـرة المعرّفـة بالكاتـب عـلى الغـلاف ثـم فتحـت الكتـاب عـلى المقدّمـة. كان النـصّ يطـرح مثـال رجـل ولـد في ألمانيـا ووالـداه مـن الأتـراك. بالنسـبة إلى مجتمعـه الألمـاني الـذي كـبر وترعـرع فيـه فهـو نوعًـا مـا أجنـبي أو عـلى الأقـل ألمـاني مـن الدرجـة الثانيـة لأصولـه الأجنبيّـة. أمـا بالنسـبة إلى أبنـاء بلـده الأصـلي، فهـو لـم يعـد تركيـاً بالكامـل نظـرًا إلى ظـروف نشـأته.. فيجـد هـذا الشـخص نفسـه في أزمـة هويـة، لا يـدري إلى أي البلديـن ينتمـي. هـل يعـرّف نفسـه عـلى أنـه ألمـاني مـن أصـل تـركي، أم تـركي مولـود في ألمانيـا؟ يجـد نفسـه باسـتمرار أمـام مواقـف تدفعـه إلى تقديـم انتمـاء عـلى الثـاني، كأنـه لا يمكـن أن يكـون ذا انتمـاء مـزدوج بقـدر متسـاوٍ، ألمـاني وتـركي في وقـت واحـد.

لـم تسـتطع ياسـمين أن تمنـع نفسـها مـن إسـقاط الفكـرة عـلى وضعيـة أخويهـا. ريـان وسـارة ولـدا في فرنسـا ونشـآ فيهـا، لكـن والدتهمـا فرنسـية، بمعـنى أن كفـة الانتمـاء راجحـة منـذ البدايـة. تابعـت استنتاجاتها في مـرارة وهـي تسـترجع كلمـات سـارة حـين حدثتهـا عـن الحجـاب.. ليسـت هنـاك ازدواجيـة في الهويـة لديهمـا، فتونـس لـم تكـن يومًـا بالنسـبة إليهمـا سـوى وجهـة سـياحية مثـل غيرهـا. مـاذا عـن الأصـول؟ مـاذا عـن التاريـخ؟ تـراث حضـاري يـثري الاجتماعـات الثقافيـة والسـهرات الاجتماعيـة.. لا أكـثر.

فجـأة تأرجحـت عربـة المـترو بشـدّة مـع فرملـة السـائق. كادت ياسـمين تفقـد توازنهـا، لـولا أنهـا تشـبثت في الوقـت المناسـب بالعمـود المعـدني، حـتى لا تصطـدم بالمسـافر الـذي يقـف بمحاذاتهـا. لكـن الكتـاب أفلـت مـن يدهـا ووقـع عـلى الأرضيـة. همّـت بالانحنـاء لالتقاطـه، لكـن كفًّـا مـا سـبقتها وامتـدّت لتتناولـه. رفعـت رأسـها لتلمـح شـابًا ذا ملامـح عربيـة كان يقـف قبالتهـا. كانـت قـد لاحظـت انزوائـه حـال صعودهـا ليبتعـد عـن الأجسـاد البشريـة الـتي تتلامـس أحيانًـا وتتعانـق مـع شـطحات المـترو ورقصاتـه الارتجاليـة. كان بودّهـا لـو تحـذو حـذوه لـولا ضيـق المجـال. ناولهـا الكتـاب فأخذتـه منـه شـاكرة. قلبـت الورقـات في شيء مـن الارتبـاك بحثًـا عـن الصفحـة الـتي كانـت بصـدد مطالعتهـا. لكـن قبـل أن تنغمـس في القـراءة مـن جديـد، جاءهـا صوتـه هادئًـا بالفرنسـية:

- «الهويـات القاتلـة».. كتـاب يدعـو إلى التفكـير، خصوصًـا لمـن يعيـش غربـة الوطـن.

لـم يسـتقرّ الكتـاب في كفـه إلا للحظـات، لكنهـا كانـت كافيـة ليطلـع عـلى العنـوان. رفعـت ياسـمين رأسـها مجـددًا لتلتقـي نظراتهمـا لثانيتـين اثنتـين، أطرقـت بعدهـا وهـي تعلـق في حيـاء:

- لازلت في المقدمة، وأجدني أفكر بالفعل.

- آه.. لن أفسد عليك متعة الاكتشاف إذن.

ساد الصّمت للحظات. فكرّت في كلمات تـردّ بهـا، لكـن لسـانها لم يسـعفها. غلبهـا حياؤهـا.. فانتهـت المحادثـة عنـد ذلـك الحـدّ. هـل كان ينتظـر منهـا تعليقـاً؟ عـاد الشـاب ليسـتند إلى بـاب المـترو ويطـرق مركـزًا مـع تسـجيل تبثـه سـماعات صغـيرة تختفـي داخـل أذنيـه. وعـادت ياسـمين إلى كتابهـا تقـرأ كلماتـه في غـير انتبـاه، وتسـاؤل بليـد يلـح عـلى ذهنهـا: هـل كان عليهـا أن تـردّ؟

*****

داعبـت حادثـة المـترو الصّباحيّـة خيالهـا بشـكل متفـرّق طيلـة الـدّرس. كان في طبعهـا شيء مـن بـطء ردّ الفعـل، وغالبًـا مـا تنقـضي الفرصـة بينمـا هـي تفكـر في الـرّدّ المناسـب. ربّمـا هـو الخجـل يعقـد لسـانها، أو اهـتزاز في ثقتهـا بنفسـها. حاولـت أن تطـرد عنهـا تلـك الوسـاوس المزعجـة، وهـي تجلـس في قاعـة الانتظـار الخاصـة بالشركـة الـتي تحـدّدت لهـا فيهـا مقابلـة عمـل. لـم تكـن تحتـاج إلى مزيـد مـن التشـكيك في جاهزيّتهـا لهـذا الاختبـار الجديـد.

ضمّـت كفيهـا فـوق ركبتيهـا وأخـذت تحـرك أصابعهـا في توتـر بعـد أن تـمّ اسـتدعاؤها إلى الدّاخـل. أمامهـا، انكبـت سـيّدة أربعينيّـة عـلى تصفـح ملفهـا باهتمـام ظاهـر. رفعـت عينيهـا أخـيرًا ونزعـت نظاراتهـا قبـل أن تقـول وعـلى شـفتيها ابتسـامة ودودة:

- آنسـة ياسـمين.. ملفـك ممتـاز ويتمـاشى تمامًـا مـع المواصفـات الـتي تلزمنا.. بالإضافـة إلى نقطـة قـوّة أراهـا حاسـمة، هـي طلاقـة لسـانك وسلاسـة فرنسـيتك، فـلا أخفـي عليـك أن معظـم الإشـكالات الـتي لدينـا مـع الطلبـة الأجانـب تتمثـل في صعوبـات التواصـل.. والبحـوث الـتي سـيعنى المترشـح بإجرائهـا ترتكـز بالأسـاس عـلى التبـادل.

ابتسمت ياسمين في سرور وهي تستمع إلى محدثتها التي واصلت:

OpenKanz.com

- لذلك سأجعل منك مرشحتي الأساسية أمام اللجنة التي ستبتّ في الملف. كما تعلمين، رأيي وحدي ليس كافيًا. هناك مجموعة من الإداريين والمسؤولين من الشركة، ستقوم بمعاينة ملفات جميع المرشحين، ثم توافق على تمكيننا من التمويل المطلوب لإجراء الأبحاث.

- حسن، وهل سيأخذ ذلك وقتًا؟

شبكت الباحثة أصابعها على المكتب وهي تقول في جدّية:

- ذلك يعتمد على مدى تعاونك. فهناك نقطة واحدة قد لا تكون في صالحنا أمام اللجنة.. الأمر يتعلق.. بغطاء الرأس.

اختفت الدّماء من وجه ياسمين وغاضت ابتسامتها. اجتهدت حتى لا تبتل رموشها بعبراتها المختنقة. ازدردت ريقها وقالت بلهجة جافة وهي تسترجع ذكريات قديمة:

- آسفة. لباسي ليس قابلاً للنقاش.

لا أعلم بالضبط ماهي القناعات التي تملي عليك هذا اللباس بالذات، لكن في إطار العمل من الممكن أن يطلب منك المدير الالتزام بزي رسميّ في المكتب. أمام قانون داخلي للشركة يرفض غطاء الرأس وقناعات شخصية تملي عليك ارتداءه، أيّهما سترجحين؟

- كنت سألتزم بلباس رسميّ لائق يحترم بما أمكن قوانين الشركة، لكن دون التنازل عن الحجاب.

- لو وضعتك اللجنة أمام خيارين: الحجاب أو تمويل بحثك، هل تضحين بمستقبلك المهني وترفضين فرصة نادرة من أجل قطعة قماش؟

حسمت الأمر نظرة ياسمين المصمّمة وإيماءتها الصامتة، رغم العبرات المنذرة بهطول قريب. قالت الباحثة في ضيق وهي تجمع الملف وتضعه جانبًا كأنّها تجمع أمنيات ياسمين كلها وتنحّيها:

- سنفعل ما بوسعنا.. لكن لا تندمي إذا كان موقفك هذا حجر عثرة في طريق مستقبلك.

حين وقفت ياسمين لتصافح المرأة وتغادر المكتب، كانت تحس بمرارة مألوفة. مرارة عرفتها كثيرًا في تونس طيلة السنتين الماضيتين، منذ اتخذت قرارها بارتداء الحجاب. التضييق على المحجبات كان وما يزال رياضة وطنية يمارسها رجال الشرطة بكثير من المتعة في الشوارع والمؤسسات العامة

والتعليميـة، ويطبقهـا أصحـاب المؤسّسـات الخاصّـة عـن خـوف أو تخـاذل أو شـماتة. كل شيء بـدأ في عهـد الرئيـس السـابق الحبيـب بورقيبـة، حـين صـدر المنشـور ١٠٨ سيئ الذكـر سنة ١٩٨١، والـذي وصـف فيـه الحجـاب بــ «اللبـاس الطائفـي» غـير المتناسـب مـع عـادات البـلاد وتراثهـا. توالـت منـذ ذلـك الحـين حمـلات التنكيـل بالمحجبـات، فتشـتدّ عليهـن القبضـة الأمنيـة حينًـا وترتخـي حينًـا آخـر، لتعـاود الضغـط مـرّة أخـرى كلمـا جـدّ جديـد في السّـاحة السّياسـية.

اختـارت الحجـاب وهـي عـلى درايـة بـكل مـا ينتظرهـا مـن معوّقـات. مثـل أغلـب بنـات جيلهـا ممّـن أقدمـن عـلى الخطـوة في أتـون سـنوات الجمـر، لـم يكـن الحجـاب أكسسـوارًا تنسّـقه ليلائـم سروال الجيـنز الضيّـق والسـترة القصـيرة فاقعـة اللـون، تضعـه حـين يعـنّ لهـا وتتركـه لحضـور حفـل أو مناسـبة تسـتوجب أناقـة لا يضمنهـا الحجـاب! جيلهـا عـرف مـن المثبّطـات مـا يكفـي لتـدرك أيّ حـرب شـعواء تنتظرهـا حـين تختـار لباسًـا سـاترًا، في بلـد يعـلي مـن حريّـة المـرأة في التّجـرّد مـن ثيابهـا. كان عليهـا أن تقاتـل كلّ يـوم مـن أجـل حقّهـا في درء شـعرها عـن الأعـين! وتلعـب دور التّحـرّي لتحـدّد مواقـع دوريّـات الشرطـة وأوقـات مرورهـا، وتـراوغ وتتحايـل عـلى الحـرس الجامعـيّ لتحضـر مـا تحتاجـه مـن الحصـص حـتّى لا يتـمّ طردهـا أو تحـرم مـن اجتيـاز الاختبـارات، وتضـع أحذيـة رياضيّـة تمكّنهـا مـن الانطـلاق بالسرعـة القصـوى حـين تصلهـا إشـارة الخطـر، وتـتزوّد بأوشـحة إضافيـة لحـالات الطّـوارئ حـين تضطـر إلى تـرك وشـاحها عـلى مكتـب رئيـس مركـز شرطـة أو عميـد جامعـة. لا، لـم يكـن الحجـاب بالنسـبة إليهـا وأخواتهـا اللـواتي اخـترن طريقهـا مجـرّد قطعـة قمـاش تغطـي مـا تغطـي، وقـد تكشـف عـن مقدّمـة الشـعر أو الأذنـين أو النّحـر! كان خيـارًا مسـؤولاً، قناعـة ومنهـاج حيـاة. ولـم تثنهـا المعرقـلات، بـل زادتهـا إيمانًـا.

ظنـت أنهـا لـن تعـرف المشـكلات ذاتهـا في فرنسـا، المعروفـة بـ«بلـد الحريـات وحقـوق الإنسـان». لكـنّ أملهـا خـاب في بدايـة تجربتهـا. لـم تكـن تعلـم أن السّياسـة التونسـية ضـدّ الحجـاب اسـتهوت الرئيـس الفرنـسي جـاك شـيراك. وفي زيـارة لـه لتونـس أواخـر سـنة ٢٠٠٣ اغتنـم الفرصـة للاسـتفادة مـن تجربـة نظـيره التونـسي زيـن العابديـن بـن عـلي في ممارسـة القمـع الممنهـج. ومـا أن عـاد إلى قـصر الإيليزيـه في باريـس حـتى سـارع بتشـكيل لجنـة مهمتهـا صياغـة اقـتراح لقانـون جديـد يمنـع ارتـداء كل العلامـات الـتي تشـير إلى الانتمـاء الدّيـني.

فتحـوّل مبـدأ اللائكيـة، الـذي جـاء في الأصـل لتحريـر الدولـة مـن سـلطة الكنيسـة والمسـاواة بـين الأفـراد بغـض النظـر عـن انتماءاتهـم الدّينيـة، إلى أداة مسـخ لهويـة الأفـراد هدفهـا طمـس اختلافاتهـم خصوصًـا الدّينيـة منهـا. وفي فبرايـر ٢٠٠٤، صـوّت البرلمـان الفرنـسي لصالـح هـذا القانـون بأغلبيـة سـاحقة، معلنًـا الحـرب عـلى الحجـاب. ومـع أن القانـون كان يخـصّ كل العلامـات الدّينيـة البـارزة مثـل «الكيبـا» اليهوديـة والصّليـب النـصراني ذي الحجـم الكبـير و«التربـان» السّـيخي..لكن المتـضرّرات الحقيقيـات منـه هـن المحجبـات، اللـواتي اسـتهدفت بعضهـن تحـركات عنصريّـة وبشـكل متكـرّر. ومـع أن القانـون يخـصّ المـدارس العموميـة وحسـب، فإنـه أعطـى ذريعـة إضافيـة إلى كل مـن كان يسـتحي مـن كشـف وجهـه العنـصري.

حـين وصلـت ياسـمين إلى البيـت، كانـت تشـعر بكثـير مـن الضيـق. كانـت قـد فوّضـت أمرهـا إلى الله، لكـن القلـق طبـع بـشري لـم تتخلـص منـه بعـد. تناولـت العشـاء بعقـل غائـب ثـم صعـدت إلى غرفتهـا. أخرجـت هاتفهـا وكونـت بسرعـة رقمًـا تحفظـه عـن ظهـر قلـب. بعـد رنـة واحـدة جاءهـا صـوت والدتهـا المتلهـف:

- أنتِ بخير؟

تمنّـت أن تفضفـض إليهـا وتبثهـا شـكواها كمـا تعـوّدت، لكنهـا لا تريـد أن تشـغلها وهـي بعيـدة عنهـا بـلا فائـدة. حبسـت دموعهـا وقالـت مطمئنـة:

- لا تقلقـي؛ كل شيء عـلى مـا يـرام. دورة الحاسـب ممتـازة، تعلمـت الكثـير في اليومـين الماضيين.

- هل أعجبتك فرنسا؟

فاجأهـا السـؤال. أحسّـت بالانكسـار في صوتهـا. هـل تحـنّ إلى السّـنوات الخـوالي؟ تهرّبـت:

- لم أر منها الشيء الكثير بعد.

- هل تمنيت أنك عشت هناك مثل أخويك؟

-لمـاذا تصرّيـن عـلى تعذيـب نفسـك؟ فرنسـا كلهـا لا تسـاوي شـيئًا أمـام كل لحظـة في حضنك.أجابتهـا في ثقـة:

- لا يـا أمـي، تعلمـين أنـي راضيـة عـن حياتنـا.. لا، لسـت راضيـة. أنـا سـعيدة بحيـاتي معـك.

Obeikandl.com

تنهدت والدتها في ارتياح وهي تستطرد:

- تعلمين أنني هربت بديني منهم.. هربت بك لأُحسن تربيتك. ولم أرسلك هناك إلا بعد أن تيقنت من متانة تكوينك وقدرتك على المقاومة.. أثق فيك اليوم أكثر من ثقتي في نفسي حين كنت في مثل سنك.

ابتسمت وهي تستمع إلى هذا الاعتراف.

- لن أخيّب ثقتك إن شاء الله.

أغلقت الخط ولبثت متفكرة للحظات. إن كانت عاشت في فرنسا، هل تراها تكون مثل سارة وريان؟ أمّها ليست مثل إيلين. ربما كانت قادرة على تربيتها على تعاليم الإسلام، في منزل كبير مثل هذا، وفي مدينة جميلة مثل هذه.. ربما تسرّعت بقرار العودة إلى تونس، ربما. بين حياة مرفّهة في فرنسا وعيشتها القنوعة مع أمّها، هل يمكنها أن تفاضل أو تختار؟

نفضت عنها تلك الأفكار وقامت من مرقدها. كانت السّاعة قد اقتربت من التاسعة. في مثل هذا الوقت يصعد كل من ريان وسارة إلى غرفته، وتجلس إيلين أمام التلفاز. فكّرت في الانضمام إليها. خرجت من الغرفة ونزلت الدّرجات الخشبية ببطء حتى لا تَصرّ تحت قدميها. حين وصلت في مستوى البهو، لفت انتباهها ضوء خافت منبعث من المطبخ. غيّرت وجهتها وقطعت الخطوات القليلة التي تفصلها عنه، ثم دفعت الباب نصف المفتوح. كانت إيلين تجلس وحيدة إلى المائدة، تحتسي قهوتها في صمت وتنفث دخان سيجارتها. ابتسمت في شرود وأشارت إلى المقعد المقابل:

- تريدين بعض القهوة؟

أومأت في صمت و جلست متململة. قالت بعد صمت قصير:

- لم أكن أعلم أنك تدخنين.

- السيجارة تشغل عن الهموم وتلهي عن الوحدة.

انقبض قلب ياسمين، لكنها لم تعلق. استمعت إلى إيلين وهي تواصل:

- والدك غائب عنّا معظم الوقت. ربما كانت أطول فترات مكوثه معنا هي تلك التي نقضيها في تونس. عمله مقدّم على كل شيء وطموحه أكبر من أن يقاس.. أتركه يسافر مثلما يشاء وحين يشاء. المهم هو أن يعود إليّ في نهاية الرّحلة. لن أتركه يرحل مثلما فعلت أمك. لا أريد أن أنتهي وحيدة

obeikandi.com

مثلها.

تذكرت صوت والدتها المرتجف منذ قليل على الهاتف وتخيلتها وحيدة في بيتهم الصغير. نعم وحيدة.. إنها أكثر وحدة الآن من أي وقت مضى بعد أن أرسلتها إلى فرنسا. لاحظت إيلين إطراقها فغيّرت الموضوع:

- كيف كانت مقابلتك اليوم؟

هزّت كتفيها متظاهرة بعدم الاهتمام ورشفت من فنجان القهوة.

- لا أعوّل كثيرًا على مقابلة اليوم.. سأجرّب حظي مع شركات أخرى.

- بالتأكيد.. لا يضرّ أبدًا أن تتحصلي على عروض عدّة، ومن ثمّ يمكنك الاختيار.

يمكنها الاختيار؟ هل هي في وضع يسمح لها بذلك؟ كان بودّها أن تشاركها تفاؤلها، لكنّ محرار الأمل كان يسجل مستوى منخفضًا تلك الليلة. أطرقت لتستنشق القهوة بعمق. تهرب من دخان السجائر الذي بات يغمر المكان. تذكرت جولتها بين رفوف المكتبة ذاك الصباح، فقالت في فضول:

- وجدت كتاب قرآن مترجم إلى الفرنسية في المكتبة اليوم.. فكرت أنه قد يكون لك.

- آه.. كتاب قديم. أهداه إليّ صديق منذعشرين سنة أو أكثر.

- هل قرأته؟

- بدأت في قراءته.. لكنني لم أكمله أبدًا.

أحسّت ياسمين بالخيبة. إذن الكتاب مركون على الرف منذ عشرين سنة. خسارة.

- هل.. فكرت يومًا في الإسلام؟

التفتت إليها إيلين في حدّة وقالت في لهجة قاطعة فاجأت ياسمين:

- طوال هذه السنوات لم يحاول والدك التأثير عليّ أو إقناعي بالإسلام، وأنا أشكر له ذلك. لست في حاجة إلى دين ما لأميز الخير من الشر. ولا أظن أن اعتناق الإسلام أو غيره من الدّيانات قد يُحدث أدنى تغيير في طبعي وتصرّفاتي. وأنا راضية عن أخلاقي ومعاملتي.. لست في حاجة إلى أوامر ونواهٍ تسيّر حياتي. لذلك رجاء.. لا تحاولي إثارة هذا الموضوع مجدّدًا.

ارتبكت ياسمين وقد باغتتها إيلين بردّة فعلها العنيفة. هي أيضًا لا تريد أن تختار. تحتمي من دواعي التغيير وتتمسّك بواقع لا يهمّها إن كان أفضل

obeikandl.com

ما يمكنها الحصول عليه. كل ما يعنيها هو الاستقرار الرّاهن، رغم كل السّيئات التي قد تختفي وراء وجهه المطمئن. أطرقت ياسمين في ضيق وقد أصبحت رائحة الدخان لا تطاق. تمنّت أن تقدر على الاختفاء من الغرفة دون أن تحسّ لها إيلين صوتًا.

التفتتا بحركة واحدة حين تناهى إلى مسامعهما صوت مفتاح يدور في قفل الباب الخلفي المتصل بالمطبخ، وما لبث الباب أن فتح وظهر رجل متشح بالسواد يحمل حقيبة سفر. طالعتاه في دهشة لم تدم سوى بضع ثوانٍ.

- ماذا هناك؟ ألا يرحب بي أحد؟

وقفت ياسمين وعانقت والدها في حرارة. في حين امتدت ذراعه لتربت على ظهرها في حركة روتينية باردة، هكذا عوّدها. قامت بعدها إيلين في تثاقل وأطفأت سيجارتها قبل أن تنضمّ إليهما. عاجلها زوجها في شيء من الحدّة:

- كم مرّة طلبت منك ألا تدخني في البيت؟

- عزيزي..لم أكن أظنك ترجع اليوم من السّفر. وسارة وريان في غرفتيهما.

كانت لهجتها تنمّ عن لامبالاة غلبت التبرير أو الاعتذار. تزايد ارتباك ياسمين وهي تراقب المشهد الغريب الذي لم تتوقعه بين والدها وزوجته. فكرت في الانسحاب، لكن والدها بادرها قائلاً:

- سأصعد إلى الغرفة لأرتاح.. ياسمين، نتحدّث غدًا إن شاء الله.

هزت رأسها موافقة وسبقته في الصعود إلى الغرفة. ربما يحتاج إلى الانفراد بإيلين لبعض الوقت لتوضيح بعض الأمور المرتبكة بينهما. رافقها إحساس بالمرارة تلك الليلة.

لم يكن يومًا موفقًا.

obeikandl.com

-٤-

عمـــــر

انكبّ عمر الرشيدي علـى مجهـره الإلكـتروني يدقّـق في ذرّات تركيبتـه المبتكرة. عقـد حاجبيـه في تركـيز وهـو يلاحـظ تأثـير المحلـول الكيميـائي الـذي أضافـه للتـوّ عـلى المـادّة الـتي تشـغل تفكـيره منـذ أسـابيع. تنـاول مشرطًـا معدنيًـا حـادًّا وقرّبـه بيـد ثابتـة تنتعـل قفـازًا بلاسـتيكيًا أبيـض مـن الصّفيحـة الماثلـة أمـام عدسـة المجهـر. بحركـة دقيقـة قـام بتقسـيم المـادّة إلى جزأيـن، سـحب أحدهمـا ليضعـه عـلى صفيحـة جديـدة.

- مازلت هنا؟ الساعة تجاوزت السّابعة.

لـم يـردّ عـلى الصـوت الأنثـوي الـذي جـاء مـن ورائـه، وتحـرّك في حـرص في اتجـاه الجانـب الآخـر مـن طاولـة الاختبـارات. وضـع الصّفيحـة الـتي أعدّهـا للتوّ في وعـاء جديـد وأحكـم إغلاقـه.

- عمر.. متى تنتهي؟

تأفـف في داخلـه مـن إصرارهـا. نـزع القفـازات في هـدوء وانهمـك في كتابـة ملاحظاتـه عـلى قصاصـة لاصقـة، ثـم ثبتهـا عـلى الوعـاء حـتى يتذكـر تفاصيـل كل تجربـة يقـوم بهـا. رفـع رأسـه حـين أحـسّ بحركـة قريبـة منـه. انتفـض فزعًـا حـين ألفـى كارولـين تنحـني فـوق كتفـه لتطالـع مـا يعملـه، فأفلـت الوعـاء ليسـقط عـلى الأرض ويتحـوّل إلى شـظايا متناثـرة. التفـت إليهـا وهـو يكظـم غضبـه:

- لا تقتربي.. المادّة مجهولة التأثير وقد تضرّ البشرة.

تـرك القلـم ولبـس قفـازات جديـدة، في حـين كانـت كارولـين تتابعـه وهـي تلهـج بعبـارات الأسـف:

- كم أنا خرقاء! لم أرد أن أفسد عملك.. أنا آسفة حقًا.

استمع إليها دون تركيز وهو يتلفت باحثًا عن أدوات التنظيف.

- المكنسة في الاستراحة، سأحضرها.

هرعـت إلى الخـارج عـلى الفـور رغـم الصّمـت المطبـق الـذي قابـل بـه عمـر اقتراحهـا للمسـاعدة. حـين رجعـت كان ينحـني ليعايـن القطـع الزجاجيـة الـتي

تبعثرت تحت الطاولة والمقاعد، والمحلول اللزج الذي ترك آثارًا على الأرضية المجلزة.

- سأقوم بجمع الزجاج.. لا تلمس بيديك حتى لا تجرح نفسك.

أفسح لها المجال دون كلمة واحدة. وجد مبرراً ليشاجرها، أو على الأقل ليتجاهلها. في الفترة الأخيرة صارت تتعبه محاولاتها المستمرّة للتقرّب منه والحديث إليه. حاول أن يصدّها بشتى السبل، بالإعراض، بالتجاهل، بالصّمت الرّهيب.. لكنها كانت تلاحقه برقتها وأنوثتها.. وفتنتها. يعلم أن ليس هناك على الأرض فتنة للرجال أقوى من النساء، وهي كانت من النّوع الجذاب.. وهو كان يعيش وحيدًا.

يشعر بالحنق تجاهها وهو يرى لطف معاملتها رغم جفائه المستمرّ. كيف يبعدها عنه؟ لا يدري كيف يمكنه أن يطردها من مخبره، وهي لا تمل المحاولة. كانت الأضواء قد بدأت تنطفئ في مختلف المكاتب، وشرع الموظفون يغادرون المبنى. وهو وحده في المختبر.. معها. قال في صرامة وهو يأخذ المكنسة منها:

- شكرًا لك.. يمكنك المغادرة الآن..لديّ عمل يجب أن أنهيه.

سلّمته المكنسة وجلست على الكرسي القريب، تتابع حركاته وتتجاهل أوامره. انغمس عمر في التنظيف متجنبًا أن تلتقي عيناه بعينيها. حين وصل إلى فرنسا منذ سنوات اصطدم بالفرق الشاسع بين المجتمع المتفسخ أخلاقيًا في مدينتي «غرونوبل»التي درس فيها، و«ليون» التي يعمل بها منذ سنة، والمجتمع المحافظ الذي خلّفه وراءه في مدينة مراكش المغربية. فوجئ حال خروجه للشارع لأول مرّة بما تلبسه الفتيات من خِرَق شفافة وملابس مسرفة في القِصَر، تكشف أكثر مما تستر. رغم أن بوادر الانفلات بدأت تظهر على بنات مدينته المبهورات بالمجتمعات الغربيّة المتقدّمة، لكن البون ما يزال شاسعًا بينهن وبين القنابل البشرية التي تتجول في شوارع «ليون». صدمته مشاهدة العشاق في كل الزوايا، يجاهرون بالفجور، ومرأى السكارى يترنّحون آناء الليل وأطراف النهار كما يترنح الكحول في زجاجاتهم.

لم يعد يدري أين يوجّه بصره، تحاصره الفتن من كل جهة. اللافتات الإشهارية، واجهات المحلات وحتى المعلّقات في وسائل النقل والصور

في المجـلات وفي الجرائـد اليوميـة.. كلهـا تنضـح فتنـة وتنطـق بمـا وصـل إليـه ابتــذال الجسـد البـشري في المجتمـع الغـربي، الأنثـوي والذكـري عـلى حـدّ السـواء. رغـم مـرور السـنوات واحـدة إثـر الأخـرى، فـإنّ حواسّـه ترفـض أن تتعـوّد عـلى تلـك المشـاهد وتـأبى أن تتقبلهـا كجـزء مـن الحيـاة اليوميـة. فحكـم عـلى نفسـه بالعزلـة في سـجنه الاختيـاريّ وولى العالـم الخارجـيّ ظهـره، إلا عـن اضطـرار.

- اعتــذار عـلى مـا سـببته لـك مـن متاعـب، أدعـوك إلى العشـاء الليلـة.. مـا رأيـك؟

كانـت تبتسـم في إغـراء وهـي تقـدّم اقتراحهـا. لـم يلتفـت إليهـا وهـو يقـول في لامبـالاة:

- شكرًا على الدّعوة، لكنني لم أكمل ما يجب عليّ عمله.

كان قـد انتهـى مـن التنظيـف الـذي حـاول إطالـة أمـده قـدر الإمـكان. تنهـد وهـو يعـود إلى معدّاتـه. سـيقوم بإعـادة التجربـة. مازالـت لديـه كميـة مـن المـادّة الخـام الـتي يـدرس خاصيّاتهـا. يتعمّـد أن يبقـى في المختـبر إلى وقـت متأخـر كل يـوم. في معظـم الأحيـان، حـين يغـادر الشركـة يكـون الظـلام قـد حـل في الخـارج.. يخفـف عليـه ذلـك مهمّـة غـض البـصر المرهقـة، ويكفيـه شرّ الوحـدة والوسـاوس حـين يكـون بمفـرده في شـقته. لكـن النهـار في الصيـف يـزداد طـولاً، والمسـاحة المكشـوفة في الأجسـاد البشريـة تـزداد امتـدادًا أيضًـا.

جـاءه صـوت كارولـين مـن جديـد وهـي تقـترب مـن مجلسـه وتتنحنـح لتلفـت انتباهه:

- احممم.. يمكنك مواصلة العمل غدًا.. ما رأيك في بعض الترفيه؟

لـم يلتفـت إليهـا. انغمـس في عملـه مأخـوذ اللـبّ كالمعتـاد، يغالـب نفسـه حـتى ينـسى وجودهـا معـه في نفـس القاعـة. سـمع تنهيدتهـا اليائسـة، ثـم صـوت حذائهـا ذي الكعـب العـالي وهـي تبتعـد. ابتسـم في ارتيـاح وهـو ينهمـك في التجربـة.

*****

دخـل كافتيريـا الشركـة ذلـك الصبـاح، طلـب قهـوة ووقـف عنـد المنضـدة ينتظرهـا. لـم يكـن يـترك مختـبره إلا نـادرًا. حـين يسـتبدّ بـه التعـب ويحتـاج إلى شـحذ ذهنـه يلجـأ إلى وقـوده المفضـل، القهـوة. يقولهـا سـاخرًا: «نـوع مـن الطاقـة النظيفـة»، مثـل تلـك الـتي يعمـل عـلى اسـتنباطها.

حانـت منـه التفاتـة إلى الطـاولات القريبـة. كان بعـض زملائـه الباحثـين يجلسـون غـير بعيـد عنـه. لـم يفكـر في الانضمـام إليهـم. علاقتـه بهـم لا تتعـدّى التّحيّـة العابـرة والابتسـامة المجاملـة. منـذ أيـام عملـه الأولى في الشركـة بـنى حـول نفسـه سـورًا لـم يسـمح لأحدهـم بتجـاوزه. اسـتمرّ عـلى نفـس النسـق الـذي وضـع أسسـه أيّـام الدّراسـة. لكـنّ تغيـير المـكان كان يعـني أيضًـا جهـدًا جديـدًا حـتى يألـف زمـلاؤه الجـدد طبعـه ويعرفـوا حدودهـم.

نظـرة واحـدة مـن مكانـه عنـد المنضـدة إلى المائـدة الـتي يتحلقـون حولهـا كانـت كافيـة لتمـيز زجاجـات الجعـة الخـضراء الـتي يشربهـا بعضهـم في كل أوقـات اليـوم. لا تخلـو منهـا وجبـة طعـام أو أمسـية أو سـهرة، وهـو يواصـل فـراره المحمـوم مـن حكـم «جليسـهم». بعـد أن امتنـع عـن الانضمـام إليهـم في المـرّة الأولى ثـم الثانيـة، لـم تعـد تصلـه دعـوات مـن طرفهـم. حـتى الموظفـون حديثـو العهـد، يحاولـون الاحتـكاك بـه في البدايـة، ثـم يتعلمـون طبعـه وينصرفـون عنـه مثـل غيرهـم. فيسـترخي مرتاحًـا داخـل قوقعتـه الافتراضيـة. وحدهـا كارولـين كانـت تـصرّ عـلى اقتحـام عالمـه.

- عمر.. كيف حالك؟

التفت إلى الصوت الذي ميّزه.

- آه.. السلام عليكم. لم أنتبه إليك.

كان وليـد الراجحـي زميـلاً مـن أصـل جزائـري يعمـل في قسـم المحاسـبات. انضـمّ إلى الشركـة قبلـه بسـنوات عـدّة، وطـاب لـه المقـام بهـا. تنـاول عمـر فنجانـه وجلـس قبالتـه. ربمـا لـم يكـن وليـد مـن أفضـل أصحابـه، لكـن مجالسـته لا تـضرّ. بعـد أن تبـادلا التحيـات والسـؤال عـن الأخبـار، قـرّب وليـد رأسـه مـن أذنـه وهمـس بصـوت خفيـض:

- اسـمع.. جلسـت هنـا صدفـة منـذ قليـل، فوصلـني بعـض الـكلام الـذي يهمّـك.

- كلام يهمني؟

obeikandi.com

- اششش.. أخفض صوتك حتى لا ينتبهوا.

نظر عمر في الاتجاه الذي أشار إليه وليد برأسه. كانت شلة الباحثين ما تزال هناك.

- ما الأمر؟ ماذا هناك؟

واصل وليد في صوت أشبه بالوشوشة:

- صامويل وكريستوف.. كانا يتحدّثان عن اختباراتك. لم أفهم الشيء الكثير، لكن يبدو أنهما مهتمّان جدًّا بما تفعل.

هزّ عمر كتفيه في استهانة:

- اختباراتي؟ كان الأجدر بهما أن يسألاني عنها.

- أنت لا تفهم. هناك أمور كثيرة تحاك في الظلام. القدامى غالبًا حين يبدون اهتمامًا كبيرًا بعمل ما، فهذه ليست بُشرى خير. إمّا أن يشاركوا فيه وإما يعملون على إفشاله.. لذلك انتظر اتصالاً من أحدهما عن قريب. كان الله في عونك!

لم يرد عمر أن يصدّق تلك الشائعات السّخيفة. لكن نظرات وليد الجادّة ولهجته الحذرة أسلمته إلى عدوى الريبة. لم يكن قد استوعب الأمر بالكامل، حين قال وليد مغيّرًا الموضوع:

- هل ستذهب إلى حفل الشركة السنوي؟

هكذا هو وليد يقفز من موضوع إلى آخر بدون تمهيد. يمارس رياضة ذهنية حين يتحدّث إليه، فيحاول تعقّب أثر أفكاره المرنة دون جدوى. حفل الشركة السّنوي؟ كان قد نسي أمره بالكامل. ذلك الحفل الذي تقدّمه الإدارة لموظفيها في شهر أكتوبر من كل سنة احتفالاً بذكرى تأسيسها. ينفقون أموالاً طائلة، ابتداءً من الموقع الذي عادة ما يكون فندقًا راقيًا في وسط المدينة، مرورًا بالأطعمة والشراب، وصولاً إلى الفرقة الموسيقية ومنشّطي السهرة. لينتهي الحفل في الساعات الأولى من الصباح، بأجساد مترنحة ثملة وعقول غائبة استباحها اللهو. ابتسم عمر وهو يقول:

- لا أعتقد.

لن يكون البروفيسور دانيال مسرورًا.

اتسعت ابتسامة عمر:

- وهل يهتمّ البروفيسور دانيال لأمري إلى هذه الدّرجة؟

- اسمع، في المرّة الماضية سمعت الكثير من التعليقات. بعضهم يقول إنك إنسان معقد ومنغلق لا يعرف معنى المرح.

- حقًا يقولون ذلك؟

هتف وليد مستدركًا:

- هذا ليس رأيي.. لكن إن شئت الصّراحة، معهم حق. فهم لا يرونك إلا في المختبر، وما أن يتعلق الأمر بفسحة أو نزهة إلا امتنعت.

- لا عليك. رأيهم فيّ لا يهمني بأي حال.

- لا يهمّك؟ حقًا؟

أخذ عمر رشفة من فنجانه وهو يهز رأسه مؤكدًا.

- لقد تعوّدت أن أكون مختلفًا في هذا المجتمع، ولم يعد يعنيني رأيهم في اختلافي. لست ساعيًا لإرضائهم أو نيل مباركتهم، ولن أغيّر مساري لأنه لا يعجبهم.. لذلك من العبث الاهتمام بما يقولون.

جاء دور وليد كي يطالع صاحبه في دهشة:

- أغبطك على برودة دمك هذه. لست أدري لو وصلني منهم كلام مثل الذي يقولونه عنك كيف كنت لأتصرّف! حين أنسحب من مجالسهم أتخيّلهم يشتمونني في غيابي كما يشتمونك. مجرّد التفكير في هذا يشعرني بغضب جارف. مجتمع منافق.

- هنا الجميع يبتسم في وجهك ويجاملك. لا أحد يتجرأ على إطلاق كلمات وقحة أو منافية للأخلاق وجهًا لوجه. لكن الألسنة تنفلت حين يطلق الكحول لها العنان.

- لكنك تحتاج إلى التعامل مع هذا المجتمع وتندمج فيه، حتى لا تعيش على هامشه.

- ستظل على هامشه يا صديقي طالما لم تتنازل عن كل مبادئك. ما دمت لا تحترم «قواعد اللعبة»، لا تدخن، لا تشرب الكحول، لا تصاحب النساء ولا تلعب القمار، فلن تندمج في نظرهم أبدًا.

ابتسم وليد في حرج وفرّ بنظراته بعيدًا عن عيني عمر، حتّى لا تنفضح اختلاجته العابرة. كثيرون مثله كانوا يعتبرون أنفسهم مجبرين على احترام قواعد اللعبة حتى يقبلهم المجتمع الفرنسيّ. قال وهو يشير إلى مدخل الكافيتيريا:

- على ذكر النساء، صديقتك وصلت.

رفـع عمـر رأسـه ليلمـح كارولـين الـتي سـبقتها رائحـة عطرهـا النفـاذة، لتديـر رؤوسًـا كثـيرة في الكافتيريـا. كانـت قـد انهمكـت في دفـع ثمـن مشروبهـا ولـم تنتبه إلى وجـوده هنـاك بعـد.

- يجب أن أذهب الآن. أراك لاحقًا.

انسـحب خارجًـا مـن البـاب الخلفـي، قبـل أن تلمحـه كارولـين، كالفـارّ مـن الطاعـون. إلى مـتى سـتظل تهـرب منهـا يـا عمـر؟ سـيأتي وقـت المواجهـة عاجـلاً أم آجـلاً. فأنـت رجـل عـلى هامـش مجتمعهـا، وهـي امـرأة عـلى هامـش مبادئك. لا مجـال لتقاطـع طريقيكمـا.

لا يـدري لمـاذا وكيـف قفـزت إلى ذهنـه صـورة فتـاة المـترو الـتي رآهـا صبيحـة الأمـس. خرجـت مـن لاوعيـه لبضـع ثـوانٍ مـن حيثـلا يشـعر، وجـد نفسـه يقارنها بكارولـين.. الحيـاء وحشـمة اللبـاس صفـات يفتقدهـا. تنهّـد وهـو يمحـو الصـورة مـن ذهنـه.. «حفظ الله بنـات المسـلمين!».

obeikandl.com

-٥-

الشقة الباريسيّة

وقفت رنيم على رصيف محطة القطارات وهي تهزّ ساقها في توتر. طالعت هاتفها للمرّة الألف، تتثبت من السّاعة ومن الاتصالات الواردة. لا شيء. بقيت أمامها دقائق قليلة قبل انطلاق القطار المتّجه إلى باريس. لم تكن تحمل سوى حقيبة صغيرة تحوي حاجياتها الضرورية. منذ يومين قامت بإرسال القسم الأكبر من حقائبها عبر خدمة نقل البضائع، وحال وصولها يمكنها استلامها من المصلحة المختصّة في محطة باريس.

غادرت المستشفى منذ أسبوع. بعد مقاومة طويلة لتعليمات الأطباء ورفض صبياني للشفاء، انتهت بالتسليم لقدَرَها. لم تكن يومًا ضعيفة ولا عديمة الإرادة. لكنها كانت أولى تجاربها مع الخيبة والخذلان. تطلبت بعض الوقت حتى تستعيد توازنها وتقيّم وضعها بواقعية. ليست نهاية العالم. فقدت قطعة من جسدها، وحبيبًا، وعملاً. لكنها ليست نهاية العالم؟ ضربة للصّحة والعاطفة ومورد الرزق في نفس الوقت. لكنها رنيم. كان يمكن أن تكون نهاية العالم بالفعل، بالنسبة إلى أي شخص آخر، لكن ليس بالنسبة إليها هي.

كانت مقاتلة منذ البداية. قاتلت في رحم أمّها وتشبّثت بالحياة، فجاءت إلى الدّنيا بعد إجهاضين. ثمّ كانت لها رحلة مضنية في حضّانة المستشفى الخاصّة، لتنهي شهور الحمل صناعيًّا، بعد أن لفظها الرّحم وهي جنين غير مكتمل النّموّ. لا تذكر علاقتها الوطيدة تلك بالمستشفيات والأسلاك والآلات، لكنّها أدركت في وقت مبكّر أنّها مختلفة عن بقيّة الأطفال.

في طفولتها، عانت من مشكلات في النطق أثّرت على قدرتها على التواصل، وتسبّبت في الكثير من السّخرية من قِبل الأطفال في سنّها. استمرّ والداها في عرضها على الأخصائيين النفسيّين ومدرّبي النطق وأطباء الأعصاب حتّى سنتها السادسة عشرة، حين أعلنت أنّها لن تدخل عيادة بعد ذلك. كانت تتلعثم وتعضّ لسانها حين تتعرّض إلى موقف مربك، وأحيانًا ينقطع تنفّسها وتعجز لبرهة عن النطق بكلمة واحدة. وحين تنفرد بنفسها في

غرفتها مساء، تغرق وسادتها بدموع القهر.

لكنّها بمرور الوقت، صمّمت طريقتها الخاصّة لتجاوز مشكلتها. حين تطلب منها المدرّسة أن تقرأ نصًّا أمام طلاب الفصل وتستعصي عليها البداية، كانت تضيف حرفًا وهميًّا يسبق الكلمة المقيتة التي تشلّ لسانها. واستمرّت بتلك الطريقة، تشتّت انتباهها عن الحرف الأوّل الذي يسدّ حلقها وتفاجئه بحرف جديد يستهلّ الجملة بشكل مضحك أحيانًا.. وسرّها أن تلحظ أنّ إعاقتها كانت آخذة في التّراجع مع الزّمن.

والمدهش في الأمر هو أنّها لم تكن تلقى إشكالاً بتاتًا مع نصوص الأغاني التي تحفظها عن ظهر قلب وتستظهرها دون تركيز، فأيقنت بأنّ الحفظ هو المفتاح. حين ركّزت على الحفظ، أصبح بإمكانها تجاوز كلّ الصعوبات التي ظنّتها لا تقهر في وقت سابق. شاركت في العروض المسرحيّة في المدرسة، وقدّمت خطابات في حفل نهاية السّنة، وتعلّمت لغات جديدة في وقت وجيز. كانت ملكة الحفظ لديها قويّة، وكلّما تفانت في شحذها جاءت النتائج مبهرة. لذلك فقد فاجأت عائلتها يومًا حين أعلنت أنّها تنوي دراسة المحاماة. لم يكن أحدهم يتخيّل أن تقف تلك الطفلة المتردّدة ذات اللسان المعوجّ يومًا في قاعة المحكمة وترافع أمام حشود غفيرة جاءت لتستمع إليها.

لكنّ رنيم فعلت. وهي تثبت لنفسها كلّ يوم بأنّها قادرة على تذليل كل الصعوبات التي تواجهها. وما تلك التجربة إلا محنة جديدة لن تخرج منها إلا وهي تحمل كأس البطولة، لتضيفها إلى قائمة بطولاتها الشخصيّة التي لا يعلم أحد غيرها عنها شيئًا.

لم تستطع منع نفسها من التفكير في اقتراح ميشال.. بعقلانية أكبر هذه المرّة. لا أمل لها في استرجاعه أو في نسيان هزيمتها أمامه. ولا شيء أمامها تفعله في مرسيليا، سوى اجترار الألم. إن كانت قد فقدت عملها فإن حياتها هنا لم يعد لها معنى. لا قوّة لديها لاستئناف عملية البحث، والبحث يعني مقابلات عمل، وتلك الأخيرة تتطلب توصية من مستخدمها السابق.. ميشال روسو. ولم يكن من الوارد أن تتواصل معه بعد الآن مهما كان الدّافع.

بقاؤها في مرسيليا يعني هواجس مستمرّة. ستلمح خياله في كل شارع

openkand.com

وتنتظر ظهوره عند كل منعطف. لن تشفى من تعلقها به بسهولة وهو قريب منها. باريس وجهة ممتازة.. تفصلها عنه نحو سبعمائة كيلومتر. ستمنح نفسها فرصة بداية جديدة بعيدًا عنه. خصوصًا أن هناك عملاً ينتظرها. لذلك لم يكن قبول العرض هزيمة لكبريائها بقدر ماهو انتصار لتفكيرها العقلاني.

ميشال كان واسطتها للحصول على هذه الوظيفة.. لكن لا أهمية لهذا. لو لم تكن محامية ذات كفاءة لما تورّط في التوصية. لقد استحقت هذا العمل ولم يكن عليها إلا أن تتحرّك وتُعجِّل بإمضاء العقد قبل أن تضيع الفرصة. كانت قد مزّقت القصاصة التي وصلتها مع باقة الورود، لكن الرقم محفوظ في ذاكرة هاتفها ضمن الأرقام التي اتصلت بهامؤخرًا. تذكرت محتوى تلك المكالمة القصيرة التي أجرتها منذ أيام قليلة. كان عليها أن تقول جملة واحدة ليتغيّر مسار حياتها:

- موافقة على عرضكم.

حين أنهت الاتصال كان ارتياح غريب قد سرى في أوصالها. ستطوي الصفحة أخيرًا وتبدأ مرحلة جديدة في حياتها. بعد سنتين من إقامتها في فرنسا ستحلّق إلى باريس، مدينة الأنوار. سبق لها أن زارتها مرّات في إجازاتها، لكنها تحسّ بإثارة خاصة للإقامة فيها. بعض الحماس يا رنيم، هذا كل ما يلزمها لتستعيد حياتها. سلمت مفتاح شقتها منذ قليل لتسدل الستار على فصل من مغامرتها الفرنسيّة، تريد تجاوزه بأسرع ما يمكن. اضطرت إلى دفع ثمن شهر إضافي من الإيجار لأنها لم تُعلم الوكالة برحيلها في الآجال المحددة. لا يهمّ. حين يتعلق الأمر بالمادّة، فوالدها موجود.

- آه هاهو أخيرًا.

كان هاتفها يرنّ. أجابت على الفور وهتفت بصوت امتزج فيه الدلال بالاستياء:

- أين كنت؟ أحاول الاتصال بك منذ الصباح.

جاءها صوت والدها من الجهة الأخرى في رصانة واقتضاب:

- كنت في اجتماع مغلق مع مجموعة من الموظفين السّامين. ما الأمر؟

- أحتاج إلى بعض السيولة؛ سأنتقل إلى العيش في باريس.

- باريس؟ مشكلات في العمل؟

- لا أبدًا.. وجدت وظيفة أفضل براتب أوفر وامتيازات.
- لماذا السّيولة إذن؟
عضّت على شفتها في انزعاج. كان بإمكانها التوفير من راتبها السابق لحماية نفسها من الطوارئ الممكنة، لكنها فضّلت تبديد كل مدخراتها على المشتروات التي يرسم ملامحها نمط حياتها الممعنة في البذخ.
- أرجوك.. لا تحاسبني على ما مضى. أحتاج إلى بعض النقود لبدء حياتي الباريسية.
- حسن. أي طلبات أخرى؟
- نعم، أحتاج إلى من يكفلني لأستأجر الشقة.
- لماذا الكفيل؟ ألم تقولي إن الراتب أوفر؟
تنهدت في تململ:
- أنت تعلم، في باريس الشقق الواسعة إيجارها مرتفع جدًا! لذلك أحتاج كفيلاً من معارفك الأثرياء.
لم تكن في حاجة إلى شرح غلاء الأسعار الباريسيّة لوالدها، الذي طوّف بالدّنيا من شرقها إلى غربها في شبابه، وما يزال يفعل كلّما سنحت الفرصة. يعرف جيّدًا تلك الصناديق المعلّقة المتراصّة عموديًا، والتي تسمّى شققًا في باريس. ولم يكن لمحامية مبتدئة مثل رنيم أن تطمع في أكثر من ثلاثين مترًا مربعًا. لكنّها تريد أكثر! والحصول على ذلك الأكثر له شروطه وتكاليفه.
حين يتعلّق الأمر باستئجار شقّة، يعاملك الباريسيّون كما يُعامل الخاطب المتقدّم بطلب زواج. بالإضافة إلى كشوف الحساب المتعلقة بالأشهر الثلاث الأخيرة -التي يجب أن تتضمّن دخلاً يتجاوز ثلاثة أضعاف الإيجار المطلوب- تطلب الوكالات العقارية شهادة عمل، ووصل سداد من المؤجّر السّابق، ومبلغًا محترمًا للتأمين على الشقة من تلف تجهيزاتها.. ثمّ تعرض ملفات المتقدّمين إلىالمؤجّر الذي يتخيّر من بينها -مثل العروس- ما يناسبه، دون مراعاة الأولويّة أو الأحقّية، ودون تقديم توضيح لأيّ كان. لذلك، نعم، بدون الكفيل قد تمضي رنيم شهورًا في ضيافة الفنادق حتى تعثر على شقة أحلامها، ممّا سيقضي حتمًا على مدّخراتها الضئيلة المتبقية.
- طيب، سأقوم ببعض الاتصالات.

هتفت في ظفر:

- شكــــــــــــــــــرًا.. أنـت أفضـل أب في الدنيـا. والآن عـليّ أن أغلـق الخـط، القطـار وصـل.

أغلقـت الخـط بسرعـة قبـل أن تسـمع ردّه، بينمـا ارتفـع صـوت هديـر القطـار وهـو يدخـل المحطـة، وأعلنـت المضيفـة عـبر مكـبرات الصّـوت عـن انطلاقتـه القريبـة نحـو باريـس. توجّهـت رنيـم نحـو عربـة الدّرجـة الأولى في خطـى ثابتـة.

مثـل كلّ ابنـة وحيـدة لعائلـة مرفهـة، قبـل أن تـأتي شـقيقتها رانيـة إلى الدّنيـا، بعـد محـاولات يائسـة للإنجـاب مـن جديـد دامـت زهـاء السـنوات العـشر، عاشـت عـلى نمـط يرتكـز عـلى الـترف والإنفـاق. كان والداهـا يعوّضـان غيابهـما المتواصـل عـن الفيـلا العائليّـة الشـبيهة بالقصـور في جـاردن سـيتي بإدخالهـا أرقى المـدارس وإلباسـها أغـلى الثيـاب ووضعهـا بـين يـدي أفضـل المربّيـات. دخلـت المدرسـة الفرنسـيّة لا لـشيء إلا لأنّ والدهـا سـطر خطـوات حياتهـا بـدلاً عنهـا، أو هكـذا ظـن أنـه فاعـل قبـل أن تتمـرّد عـلى إرادتـه.

حـين أنهـت دراسـتها الثانويـة، أراد أن يدخلهـا تخصّصًـا علميًـا أو اقتصاديًـا. لكنهـا اختـارت المحامـاة وأصرّت عليهـا. فعلـت مـا أرادت هـذه المـرّة، ووجـدت لذلـك حـلاوة فأعـادت الكـرّة. منـذ ذلـك الحـين، أصبـح والدهـا مزوّدهـا الرسـمي بالاحتياجـات المادّيـة فقـط لا غـير. في تلـك الصفقـة، خـسر دورًا وحيـدًا، هـو دور المخطـط لمسـار حياتهـا. بقيـة الأدوار المفترضـة لـكل أب جديـر بهـذا اللقـب، لـم يكـن قـد امتلكهـا يومًـا حـتى يفقدهـا. أو لعلـه سـها عنهـا في وقـت مبكـر مـن طفولتهـا.. في وقـت لا تذكـر هـي عنـه شـيئًا.

اسـتقرّت في مقعدهـا واسـترخت. تحتـاج بعـض الهـدوء والتركـيز. في سـاعات الرحلـة الثـلاث عليهـا أن تفكـر فيمـا سـتفعله في الفـترة المقبلـة. سـتكون أيامهـا القادمـة محمّلـة بالأحـداث. البحـث عـن شـقة، ثـم تسـلّم عملهـا الجديـد، وأيضًـا الكثـير مـن التسـوّق. ابتسـمت عنـد هـذه الفكـرة. التسـوّق هـو نشـاطها المفضـل بامتيـاز. تحتـاج إلى أثـاث جديـد، أوانٍ جديـدة، سـتائر، سـجاد، لوحـات.

*****

أجالت بصرها عبر الشقة الخالية في نظرة متفحصة. من الواضح أن المكان يحتاج إلى بعض الطلاء ليستعيد رونقه. تقدّمت في خطوات متأنّية وهي تواصل تخطيطها. هذه النافذة الكبيرة تلزمها ستارة سميكة وأخرى شفافة حتى تتحكم في كمية الضوء التي تتسرّب إلى القاعة. في ذلك الركن ستضع مصباحًا عموديًّا يعكس الضوء على السّقف لإضفاء جوّ أنثويّ ناعم. الأريكة العريضة مكانها تجاه النافذة وجهاز التليفزيون في الركن المقابل.. انتهت من تخيّل فضاء الجلوس وتوجهت إلى المطبخ المفتوح عليه. كان شكله العصري أكثر ما شدّها في زيارتها السّابقة، وهو ما جعلها تتمسك بهذه الشقة في الحال. لم تكن تحتاج إلى مستلزمات كثيرة لملء الأدراج والرّفوف، فهي لا تطبخ على الإطلاق. لكنه فضاء ضروري لتسخين البيتزا والأطباق المجمّدة التي تقتات عليها حين لا تأكل في المطاعم، وخصوصًا للسّهرات رفقة الأصدقاء. تخيّلت نفسها وراء المنضدة تسكب العصائر وترصف قطع الحلوى في الأطباق وتبتسم لضيوفها المنسجمين في أحاديث حلوة على أرائك صالتها المريحة.

كانت هناك غرفتان أخريان. الغرفة الأكبر بينهما ستكون غرفة نومها، أما الغرفة الثانية فستنظر في أمرها لاحقًا. من الأفضل أن تكون هناك غرفة إضافية تضع فيها كل الحقائب والعلب الفارغة والأدوات التي لا تجد لها مكانًا في الخزانات والرفوف.. وربما تجعل منها غرفة لملابسها. أحسّت بحماس أكبر لهذه الفكرة. إنها في باريس، عاصمة الموضة. ومع هوسها بالتّسوّق، ستقضي أوقاتًا ممتعة حتمًا.

ارتفع رنين الهاتف ليقاطع أفكارها.

- مرحبًا بابا، كيف حالك؟ احزر أين أنا الآن؟ لقد تسلمت مفتاح شقتي الجديدة.. إنها ممتازة حقًا.

تحركت باتجاه النافذة وهي تسترسل في الكلام. فتحتها على مصراعيها، فطالعها الجزء العلويّ من برج إيفل، يطلّ على استحياء من وراء البنايات التي تفصلها عنه. كانت شقّتها على بعد شوارع قليلة من نهر السّين والمنطقة الخضراء التي ينتصب البرج في نهايتها.

- أشكرك على الكفيل الذي أرسلته. صحيح أنه متقدّم في السن وسمج الحديث، لكن دخله السنوي يتكون من أرقام كثيرة، وهذا يكفيني!

قالت ذلك وهي تضحك في مرح، ثم أضافت وقد تذكرت شيئًا هامًّا:

- هل أرسلت إليّ المبلغ الذي طلبته منك؟

- للأسف سيحصل تأخير في التحويل.. يبدو أنني قد تجاوزت المبلغ السنوي الذي يمكنني تحويله إلى خارج البلاد، لذلك يجب أن ننتظر بعض الوقت ريثما أجد حلاً بديلاً.

هتفت رنيم في فزع:

- لاااااا.. تأخير؟! وماذا سأفعل في الانتظار؟ لقد دفعت كل ما بقي من مدّخراتي للوكالة العقارية حين وقّعت عقد الشقة، والآن لديّ الكثير من المصاريف لتهيئتها وتأثيثها. كما أنني لم أعمل هذا الشهر.. وبقي أمامي بضعة أيام لتسلم الوظيفة الجديدة.. ماذا أفعل الآن؟

- اصبري فقط.. هذا كل ما لديّ. كان عليك أن توفري القليل قبل تقديم استقالتك.

كان في صوته نوع من اللوم، وهي لم تكن في حاجة إلى ذلك. قالت في لهجة جافة:

- مع الأسف، الأمور سارت هكذا.

أنهت الاتصال وسرحت للحظات. ما الذي ستفعله الآن؟ والدها تركها لأوّل مرّة تعيش أزمة ماليّة دون أن يسعى إلى إنقاذها! فليكن. إن كان يريد اختبار جدارتها فستثبت له أنّها قادرة على إيجاد حلول عمليّة بمفردها. يبدو أنها ستؤجل مشاريعها الشرائية لبعض الوقت، لكنها أبدًا لن تتنازل عن شقتها الباريسية الواسعة التي طالما حلمت بها. تحتاج إلى سيولة بشكل سريع حتى تدفع الإيجار قبل نهاية الشهر. أتطلب سلفة من مستخدمها؟ عبست عند هذه الفكرة. ستترك لديه انطباعًا سيئًا وهي لم تبدأ العمل بعد. تقدّم دروسًا خصوصيّة؟ سيتطلب الأمر الكثير من الوقت، ريثما تضع الإعلان وتتلقى الطلبات وتحضر الدروس.. ثم، المبلغ كبير وبعض الدروس لن تكون كافية. زفرت بقوة وقد تزايد قلقها. أنتِ في ورطة يا رنيم. رصيدها البنكي يقترب من الصفر، ولا يمكنها الحصول على تغطية بمبلغ كافٍ لتأثيث الشقة. تحولت نظراتها إلى الغرفة الإضافية، فلمعت فجأة فكرة جديدة في رأسها. ربما أمكنها أن تستغلها بشكل مختلف مؤقتاً. ربما يمكنها أن.. تؤجرها مثلاً؟

obeikandl.com

obeikandl.com

-٦-

لقاء آخر

ركض عمر بسرعة باتجاه محطة المترو، وكفّه تقبض على حقيبة أوراقه. قفز على عجل بعد أن تجاوز حاجز التثبت من التذاكر وارتمى عبر باب المترو الواقف في المحطة. في الثانية التالية كانت الأبواب الآلية تغلق كلها دفعة واحدة قبل أن ينطلق المترو نحو المحطة التالية. أخذ يلهث بقوّة ثم ألقى نظرة على ساعته وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظفر. نجح اليوم في تحطيم رقمه القياسي السّابق. ثلاث دقائق وثلاثون ثانية هو الوقت الذي قطع خلاله المسافة الفاصلة بين شقته ومحطة المترو. لم يكن يريد أن يفوّت هذه العربة، وإلا اضطر إلى الانتظار ربع ساعة إضافية قبل أن تأتي العربة الموالية.

تسلل بهدوء بين المسافرين حتى وصل إلى مكانه المعتاد الملتصق بالأبواب المغلقة. في ذلك الركن يضمن ألا يزعجه أحد وألا يطلب منه أحد أن ينزاح جانبًا، طالما الأبواب تفتح من الجهة المقابلة. وضع سمّاعاته في أذنيه وشغل جهاز التسجيل. انطلق صوت ترتيل العفاسي في انسياب ليملأ أذنيه ورأسه. يمكنه الآن أن يغمض عينيه وينفرد في عالمه مع ورده اليومي من القرآن الكريم. قبل أن يحكم إغلاق أسوار عزلته، حانت منه التفاتة إلى جانبه الأيمن. فالتقطت عيناه وجهًا مألوفًا. كانت هي، تلك الفتاة التي تقرأ كتابًا.

هناك، على بُعد بضعة أمتار من موقفه، كانت ياسمين قد انكبت على مطالعة كتاب جديد. كانت قد مرّت أيام قليلة على لقائهما الأول ويبدو أنها انتهت بسرعة من كتاب «الهويات القاتلة». تطاول بعنقه وانحنى برفق على جانبه، يحاول قراءة عنوان الكتاب. لم يكن واضحًا من موقعه وكان فضوله قويًا ذلك الصباح. بهدوء، تحرّك من مكانه بخطوات بطيئة ليقترب أكثر دون أن يثير انتباهها. حين أصبح على قيد خطوات منها، أصبحت الكتابة جلية أمام عينيه. قرأ العنوان وما لبث أن عقد حاجبيه في شك: «سيرة الإمام الخميني».

- شيعية؟

كان يفكر بصوت عالٍ، لم يشعر كيف أفلتت الكلمات من بين شفتيه بالعربية. حاول أن يتدارك خطأه، لكن بدا أن الأوان قد فات ووصلت عبارته إلى مسامعها. احمرّ وجهه حين رفعت رأسها مستغربة، ثم ما لبثت أن تعرّفت عليه. قالت في فرنسيّة مرتبكة:

- لا أبدًا.

كان بإمكانها أن تردّ بالعربية، لكنها لم تفعل. شيء ما جعلها تحافظ على المسافة بينهما. أن تتكلم معه بالعربية في محيط لا يفهم لغة تحاورهما يوحي إليها بنوع من الخلوة، كأنهما في حديث خاصّ بلا رقيب.. وهي لم تكن لتسمح لنفسها بذلك.

تمالك عمر نفسه وتابع الكلام بالفرنسية، كما أرادت هي. لم يعد بإمكانه التراجع وقد جاءت منه المبادرة:

- أنا آسف. لكن الكتاب...

- آه الكتاب، نعم.. أقرؤه لمجرّد الثقافة العامّة. وجدته في مكتبة والدي.

ساد بينهما الصّمت للحظات. كانت ياسمين غارقة في حرجها، في حين كان عمر يلوم نفسه على تسرّعه. لكن بساطة ردّها خففت ضيقه وجعلته يتجرأ ويسألها:

- أرى أنك أنهيت «الهويات القاتلة».. كيف وجدتِه؟

هزت رأسها بعلامة الإيجاب ثم قالت محاوِلة السيطرة على حرجها:

- الأفكار مقبولة إجمالاً.. لكنني لم أحبّ طريقة الكاتب في تبرير التصرّفات الإرهابية.

كان الكلام ينساب بهدوء، وبهدوء أيضًا أخذ الحرج يتبخر. ربّما لأن النقاش كان يتخذ منحى جديًّا. أجاب عمر في لهجة دفاعية:

- الكاتب لم يبرّر الإرهاب، لكنه فسّر دوافعه. والفرق شاسع.

قالت ببساطة:

- ربما، لكن تفسيره لم يعجبني..

- هلا وضّحتِ؟

لم يرقه كثيرًا أن تقدح في كتابه المفضل. لكنه لم يكن يمانع في الاستماع إلى رأي مخالف.

obeikandi.com

- الكاتـب يقـول إن الغـرب يغـذي في مجتمعـات العالـم الثالـث عقـدة نقـص مـن حيـث تخلفهـا الحضـاري.. ثـم يـزرع الشـك في الموروثـات العقديـة والدينيـة، وهـذا مـا يدفـع بعـض الأفـراد إلى الانتقـام لدينهـم ومعتقداتهـم. لكنـني أعتقـد أنهـا عقـدة فوقيّـة وليسـت عقـدة نقـص أبـدًا. فالإرهابيـون في الغالـب لديهـم إحسـاس عميـق بأنهـم فهمـوا أسرار الكـون وعليهـم أن يمسـكوا بزمامـه. بـل أنّ منهـم مـن يـدرس في الجامعـات الغربيـة ويختلـط بالمجتمـع الغـربي، لكنـه ينغمـس فيمـا يعتقـده جوهـر الرّوحانيـات. ينسـبون تصرّفاتهـم إلى الديـن.. والديـن منهـم بـريء.

استمع إليها عمر في انتباه محاولاً استيعاب وجهة نظرها. سألها فجأة:

- هل سبق لك أن التقيت إرهابيًا؟

رفعت حاجبيها في دهشة وهتفت مستنكرة:

- أبدًا..

- عفوًا.. لكنك تبدين واثقة من نظريتك.

ابتسـمت ياسـمين ثـم أطرقـت في إحـراج وأخـذت تقلـب صفحـات كتابهـا في توتـر. انتبـه عمـر إلى حركتهـا وأدرك أن الحديـث قـد طـال أكـثر ممـا ينبغـي. قـال في اعتـذار وهـو يتراجـع خطـوة:

- حسن، أتركك الآن مع كتابك.. وآسف على الإزعاج.

هـذه المـرّة، لـم تـتردّد ياسـمين وهتفـت بسرعـة متجـاوزة خجـل المـرّة السـابقة:

- ليـس هنـاك إزعـاج أبـدًا.. كل مـا في الأمـر هـو أنـني سـأنزل في المحطـة القادمـة.

- آه.. يومًا سعيدًا إذن.

حـين رفـع عمـر عينيـه، رآهـا تبتعـد وتختفـي وسـط زحـام المسـافرين عـلى الرّصيـف. لـم تلتفـت، وبشـكل غريـب أعجبـه ذلـك. سرح بنظراتـه عـبر زجـاج النافـذة، وبشـكل غـير إرادي أخـذ يسـترجع كل كلمـة قيلـت في حوارهمـا منـذ قليـل. كان مندهشًـا مـن نفسـه. لـم يكـن مـن عادتـه التبسّـط في الحديـث مـع الفتيـات. بـل أن محـاولات كارولـين لاسـترعاء انتباهـه كانـت تثـير غضبـه واحتقـاره. لكـن يبـدو أن هـذه الفتـاة، بشـكل مـا.. تعجبـه.

*****

في بداية الظهيرة، كانت ياسمين تجلس على مقعد منفرد في عربة المترو،الذي أخذ ينساب مثلي دودة عملاقة في الأخاديد تحت الأرضية التي أنشأها البشر تحت شوارع ليون النابضة بالحياة. لم تكن العربة مزدحمة في ذلك الوقت من النهار ولم يكن هناك ما يمنعها من التركيز، فغاصت في كتاب جديد تشغل نفسها بالقراءة. لكنّ مزاجها لم يكن طيبًا. مقابلة جديدة وخيبة أخرى تنضاف إلى خيباتها التي لم تعد تريد أن تحصيها. كانت تتمكن من الحصول على مواعيد بسهولة. تلقى سيرتها الذاتية ترحيبًا من طرف معظم الشركات التي تتصل بها، وتنجح عبر المكالمات الهاتفية في تحديد موعد المقابلة. لكن ما أن تقف بحجابها أمام مسؤولي التوظيف، حتى تنقلب الموازين.

تعوّدت أن تواجَه بالرفض. أحيانًا يكون رفضًا مباشرًا مصحوبًا بإشارات صريحة إلى شكلها ولباسها، وأحيانًا يكون مواربًا خلف تعليلات سخيفة تدرك ما وراءها، وفي أحيان أخرى يكون رفضًا يحمل قناع قبول مشروط.. هو رفض في نهاية الأمر، لأن الشروط التي تتعدّى على حريتها الشخصية هي إهانة في حدّ ذاتها. تعوّدت على الرفض، لكنها قطعًا لم تتقبله. مازالت تأمل فرجًا قريبًا. فرجًا مُلحًّا. فرجًا عاجلاً يهبط مثل قدَر لا تدري كيف ولا متى حلّ. تتمسّك بحبل أمل خفي تخشى أن يتبخر مع مرور الوقت. ولم يكن لديها حلّ آخر.

في البيت، كانت تعمل على تحسين العلاقة مع أفراد العائلة. فكرت أنها وإيلين يمكنهما أن تكونا صديقتين. أصبحت مرافقتها الرّسمية في مهمّة شراء حاجيات المنزل، مهمة يترفّع عنها أخواها لأنها لم تعد تليق بشابين في سنّهما، وتقوم بها ياسمين عن طيب خاطر. والحقيقة أن إيلين كانت تعاملها بشكل جيّد. تشتري لها الهدايا بمناسبة أو بدونها، وتفتح عينيها على الكثير من تفاصيل الحياة اليومية الغريبة عنها، وتتحدّثان في أمور شتى خلال نزهاتهما الثنائية. ويكفي أن إيلين تكلّف نفسها عناء الطبخ من أجلها. ريّان أشار مرّة إلى أن الوقت الذي تقضيه في المطبخ تضاعف منذ مجيئها. فبعد أن اعتادوا لسنوات أن يقتصر العشاء على شرائح اللحم المدخّن والسجق، أو الجبنة والسلطة، أو البيتزا ورقائق البطاطا، أو أطباق الأطعمة المجمّدة في أحسن الأحوال، شرعت إيلين في تحضير أطباق متقنة

وبعناية ملحوظة. وفي حين كانت تتطلع كل مرّة إلى زوجها منتظرة عبارة شكر أو مديح تشيد بالتغيير الإيجابي، كان كمال يكتفي بإيماءة باردة، هذا إن لم ينتقد بأسلوب لاذع نقص الملح أو وفرة الدّهون أو قسوة اللحم المطهو. كان بارعًا في إيجاد الخلل وتصيّد الأخطاء.

أصبحت الجلسات العائلية ثقيلة مع التوتر المكشوف الذي تلمحه بين والدها وزوجته. حتى عندما يتعلق الأمر برحلة عائلية لتغيير الجوّ والنزهة، كان والدها يفسد كل شيء ببراعته المعهودة. عنّف إيلين بفظاظة لأنها أخطأت في قراءة الخارطة ووجّهته نحو المدخل الخطأ حين كانوا يقصدون «حديقة الرأس الذهبية»*، وأمضى بقية اليوم في عبوس مزمن معكرًا على الجميع متعة تنفس الهواء النقي بسلام. ثم امتنع عن مشاركتهم ركوب الدّراجة الهوائية الجماعيّة التي أقبل عليها الأولاد في حماس، وحين وقفت إيلين بعفوية لتشارك في لعبة مرتجلة مع البنتين، سخر منها ووصفها بالمراهقة.. لم تكن ياسمين تدرك أنّ والدها سيئ الطّباع إلى تلك الدّرجة. لم يكن ذلك عهدها به منذ سنتين على الأقل. وظهرت تداعيات تصرفات كمال في فتور إيلين تجاه ياسمين، كأنها تعاقبها على ذنب والدها.

لذلك حاولت أن تتقرّب من سارة. حين تنتهي من دروس الحاسب ومقابلات العمل، كانت تجد الوقت أحيانًا للمرور إلى مدرسة أختها ومرافقتها إلى البيت. لم تكن تفصلها عن نهاية الإجازة الصيفية سوى أسابيع قليلة، لكن كانت هناك تمارين كرة السّلة وحصص الرّقص التي تقام في فضاء الرياضة التابع للمدرسة والتي تشغل جزءًا من فراغ سارة. وجدت ياسمين في مرافقتها فسحة مسلية تمكنها من ممارسة رياضة المشي والتفرّج على المدينة، لكنها اضطرّت إلى التخلي عنها سريعًا.

في البداية كانت تدخل إلى ساحة المدرسة مثلما يفعل الأولياء الذين يأتون لاصطحاب أبنائهم، وتنتظرها قرب ملعب الكرة. ضحكت كثيرًا حين قدّمتها سارة مرّة إلى رفيقة صهباء لها، كمن يقدّم تحفة فنية نادرة، فتسألها رفيقتها في فضول صبياني:

---

*Parc de la tête d’or: من أكبر الحدائق العامة الفرنسية. دشنت سنة ١٨٥٧ وتضمّ بحيرة صناعيّة وحديقة حيوان.

- هل هي تونسية حقيقية؟ تتكلم اللغة «التونسية»؟

أضحكها أن تظن الفتاة اللهجة التونسية لغة قائمة بذاتها، وأضحكها الفضول الذي أثاره وجودها في ذلك المكان لدى فتاة لم تتعوّد التقاء الغرباء. في حين كانت الجامعة المرحلة المثالية للتعرّف على أجانب من أصول عرقية مختلفة، فإن اختلاط طلاب المدرسة الثانوية بالأجانب يكاد يكون منعدمًا. لكنها أدركت أيضًا أنّ سارة لم تكن تونسية حقيقية، فهي لا تتكلم اللهجة «التونسية» فضلاً عن العربية الفصحى. وأدركت أيضًا أنها لولا تردّدها على تونس لسنوات بمناسبة الإجازات لكانت نظرت إليها بنفس فضول رفيقتها. إنها تنتمي حتمًا إلى الجهة الأخرى من المتوسّط.

وفي إحدى المرّات، بينما كانت تنتظر سارة في السّاحة، اقتربت منها الناظرة وأفهمتها بلطف أن وجودها في المدرسة غير مرغوب فيه، لأنّ قانون حظر الرّموز الدّينية يطال السّاحة والرصيف الملتصق بالمدرسة وينطبق على الطلبة وذويهم، حتى في وقت الإجازات. إن كان عليها أن تنتظر سارة من جديد، فعليها أن تقف في رأس الشارع! منذ ذلك الحين، توقفت عن الذهاب إلى مدرسة سارة.

لم يكن أمامها إلا أن تنغمس في القراءة. كانت هوايتها المفضلة، ونما ولعها بها في الفترة الأخيرة، حتى صار الكتاب صديقها الرّسمي والوحيد. لا يرفضها ولا يطلق عليها أحكامًا، وفي حضرته يتسع مجال حريّتها ليتجاوز الحدود الجغرافيّة. تلجأ إليه لتنفس عن ضيقها فيلاقيها بترحاب. تسرح فيه ومعه وعبره. تقرأ في المترو وفي غرفة المكتب حين تعود إلى المنزل، وبعد العشاء أيضًا حين تنطلق الشرارة الأولى بين والدها وإيلين، فتتركهما وتنزوي في عالمها. وحين تسكن الدنيا من حولها، تطلق العنان لأفكارها. أفكار مربكة تتأرجح بشكل خطر بين التفاؤل والتشاؤم. نوع من الحوار الحضاري في رأسها. نوع من الحياة في داخلها، لا قدرة لها على إسكاتها.. ربّما لأن في استمرارها توازنها. إن لم يمكنها الفضفضة لأحد، فلتفضفض لكتبها.

وسط الضغوطات الكثيرة التي تحيط بها، كانت هناك فسحة يوميّة قصيرة تخرجها من الرّتابة المعتادة. حين تكون صباحًا في عربة قطار الأنفاق، تنتظر بفارغ الصبر ما تسميه «لقاؤها الثقافي اليومي». ذلك

الشـاب الغريـب كان يركـب معهـا المـترو كل يـوم وفي نفـس الموعـد.

منـذ صغرهـا توصيهـا والدتهـا بـألا تتحـدّث إلى الغربـاء أو تأخـذ منهـم شـيئًا. لكنهـا حـين التقـت ذلـك الغريـب، رمـت بـكل وصاياهـا عـرض الحائـط. لـم يكـن يفصـل صعـوده عـن نزولهـا سـوى دقائـق معـدودة. لكنهـا كانـت كافيـة لتأخـذ رأيـه في كتـاب مـا، أو تناقـش رأيـه في فكـرة أخـرى. كان يثـير إعجابهـا بثقافتـه الواسـعة ومطالعاتـه متعـدّدة الآفـاق. ثـم فلتعـترف بأنهـا كانـت في حاجـة إلى نفـس مسـلمة تبـدّد الوحشـة الـتي تحيـط بهـا. كانـت بحاجـة إلى شـخص تشـعر تجاهـه بالألفـة ويقلـص إحساسـها بالغربـة والوحـدة. كانـت هنـاك دقائـق الحـوار القليلـة.. ثـم سـاعات القـراءة الـتي تمتـدّ عـلى مسـاحات مـن نهارهـا وليلهـا، ثـم سـاعات أخـرى تسـترجع فيهـا مـا قيـل في الصبـاح، وتتخيـل مـا سـيقال صبـاح الغـد.

كانـت تفكـر فيـه ذلـك المسـاء وهـي تسـير عـلى مهـل في اتجـاه مـنزل والدهـا، بعـد أن غـادرت المـترو. كانـت فـترة تدريبهـا عـلى الحاسـب قـد قاربـت عـلى الانتهـاء، ولا تعلـم إن كانـت سـتراه بعـد ذلـك. توقفـت حـين لمحـت سـيارة إيلـين تقـترب مـن الجهـة المقابلـة. لبثـت قـرب البوابـة تنتظـر نزولهـا وعـلى شـفتيها ابتسـامة. لوّحـت لهـا إيلـين عـبر زجـاج نافذتهـا قبـل أن تظهـر عـبر البوابـة محمّلـة بالأكيـاس.

- أدوات مدرسيّة للأولاد!

- هل أساعدك؟

- بل أحضري الرسائل من صندوق البريد، لو سمحتِ.

امتثلـت ياسـمين لطلبهـا ثـم تبعتهـا عـبر الممـرّ الحجـري المـؤدي إلى بـاب المطبـخ الخلفـي.

- هلا نظرت إن كانت هناك رسالة من البنك؟

- بالتأكيد.

طالعـت ياسـمين الرسـائل ثـم رفعـت رأسـها في اسـتغراب. كانـت هنـاك خمـس رسـائل، اثنتـان منهـا مجـرّد إعلانـات تجاريـة، واثنتـان تبـدوان مثـل الفواتـير، في حـين كانـت الأخـيرة تحمـل علامـة بنـك معـروف. لكـنّ الغريـب في الأمـر هـو أنهـا جميعهـا كانـت تحمـل اسـم «سـامي كلـود». تذكـرت اللافتـة الخزفيـة عنـد المدخـل الـتي تحمـل اسـم «عائلـة كلـود». هـل مـازال المالـك السّـابق للمـنزل

يتلقى مراسلاته على هذا العنوان؟

- إيلين.. جميع الرسائل تحمل اسم «سامي كلود».

- نعم، هل بينها رسالة من البنك؟

- آه، نعم.

قالت ذلك وهي تقدّم إليها الرسالة. كانت إيلين قد تخلصت من حملها على طاولة المطبخ، فأخذت منها المظروف وفضته على الفور. ألقت نظرة متفحّصة على محتوى كشف الحساب البنكي، قبل أن تطلق زفرة لم تدرك ياسمين لها معنى. أعادت الورقة إلى المظروف ثم وضعته على رف قريب وانصرفت لترتيب حاجياتها. لكنّ ياسمين التي انتابها الفضول لبثت تتابع تنقلاتها وعلى شفتيها سؤال متردّد.

- امممم.. إيلين.. من هو سامي كلود؟

- رفعت إيلين رأسها وحدّقت فيها في دهشة حقيقية.

- ياسمين، ما هذا السّؤال الغريب؟

- أنا آسفة.. لم أقصد التدخل فيما لا يعنيني.. لكن اللوحة على الباب...

قاطعتها إيلين في دهشة أكبر:

- لم أقصد ذلك. أعني.. ألا تعرفين من هو حقًّا؟

هزت ياسمين كتفيها في حذر. هل من المفترض بها أن تعرف؟

- ياسمين، ما اسم والدك؟

- كمال عبد القادر!

- طبعًا.. لكنني لم أقصد ذلك الاسم. أعني اسمه على بطاقة الهوية الفرنسية.. الاسم الذي يحمله منذ خمسة عشر عامًا.. منذ حصوله على الجنسية الفرنسية!

- لديه اسم جديد؟!

أومأت إيلين برأسها موجبة:

- نعم، سامي كلود! نحن عائلة كلود. إيلين كلود. ريان كلود. سارة كلود. كلود هو اسم عائلتي قبل الزواج، ووالدك اختار الانضمام إلينا وغيّر اسمه حين تسنّت له الفرصة.

حان وقت ياسمين لتتسمّر مكانها دهشة. كانت تسمع للمرّة الأولى عن حكاية تغيير الاسم هذه. ريان وسارة كانا يناديانه «بابا» وإيلين تكتفي

بـــ«عزيـزي»، أحيانًـا تكـون جافـة وبـاردة وقـد تحمـل بعـض المـرارة في أحيـان أخـرى، لكنهـا الكلمـة الوحيـدة الـتي تناديـه بهـا. لـو أن أحدهـم ذكـر اسـم «سـامي» أمامهـا لكانـت انتبهـت أو اسـتغربت. لكـن لمـاذا سـامي؟ أليـس اسـمًا عربيًـا مثـل كمـال؟ آه نعـم، هـو اسـم عالمـي الاسـتعمال، مثـل سـارة وريـان. لـم يكـن ذا عينـين ملونتـين أو بـشرة فاتحـة، لكـن سـمرته المحببـة وعينـاه السـوداوين تجعلـه شـبيهًا بمواطـني جنـوب إيطاليـا. رغـم ذلـك والدهـا بقـي كمـال عبـد القـادر في أعـين كل مـن يعرفـه في تونـس. تتسـاءل كيـف سـتكون ردّة فعـل جدتهـا لـو بلغهـا الخـبر؟

قاطعت إيلين أفكارها وهي تقول:

- قـد يبـدو لـك الأمـر غريبًـا في البدايـة، لكـن إذا فكـرتِ جيّـدًا لوجدتـه قـرارًا صائبًـا.. يحتـاج المـرء الاسـم المناسـب في المـكان المناسـب. لا أريـد الإهانـة، لكـن اسـمًا فرنسـيًا يسـهل الاندمـاج ويسـاعد عـلى شـق الطريـق.. خصوصًـا في مجـال البحـث العلمـي الـذي يخوضـه والـدك.

فكـرت ياسـمين في ارتيـاع. هـل تحتـاج هـي أن تكـون «جاسـمين كلـود» حـتى تجـد تمويـلاً لبحثهـا؟

obeikandl.com

-٧-
غربة الياسمين

حين تحدّثتا عن موضوع السّفر لأوّل مرّة، تكلّمت أمّها فاطمة بشيء من الفلسفة. حدّثتها عن نبات الياسمين الذي أعطتها اسمه. مثل الياسمين، ربّتها على القناعة والاكتفاء بالقليل. فهو نبات لا يحتاج إلى الكثير من العناية. تكفيه دفعة واحدة من السّماد في ربيع كلّ عام، وتربة رطبة دون فيض من السقيا.

جميع أنواع الياسمين تفضل النّموّ في مكان مشمس، لكنّها تتحمّل وجود شيء من الظلّ. وشمس تونس كانت مواتية لنضجها وتكوين شخصيّتها، وقد أصبحت جاهزة لتحمّل شيء من ظلال أوروبا ذات المناخ البارد. مثل الياسمين الأبيض المتوسّطي، كانت رقيقة في مظهرها، لكنّ شخصيّتها قويّة وثابتة، مثل رائحة الياسمين النفّاذة والفريدة التي تبثّ إحساسا بالدّفء لاتملكه الورود الأخرى.

لم تتكلّم عن دلالة الياسمين العاطفيّة التي بحثت ياسمين عنها مذ اهتمّت بمدلولات الزهور في بداية مراهقتها. عرفت أنّ إهداء زهر الياسمين لامرأة يعني «لماذا لا تحبّين أبدًا؟». والدها أهداها هي، ياسمين، إلى والدتها. كانت آخر عطاياه لها حين تخلّى عن حضانتها إثر الطّلاق. وهي «لم تحبّ بعده أبدًا». كانت جديرة بتقبّل زهرة الياسمين.

تفتقد أمها كل يوم أكثر من اليوم الماضي. مع مرور الوقت تزداد يقينًا من ضياعها بدونها. كانت تعلم أن الغربة ليست تجربة سهلة، ومع ذلك وافقت على سفرها. علّمتها كيف تكون ياسمينة حقيقيّة. لكن لعلّها غفلت عن حقيقة مرّة. زهرة الياسمين تذبل بسرعة حين تغادر تربتها وتنسّق في شكل «مشموم» جميل.

نزلت الدّرج مسرعة. مرّت على المطبخ وتناولت فنجان القهوة وازدردته دفعة واحدة، ثم هتفت وهي ترتدي سترتها وتتجه ناحية الباب:

- أنا ذاهبة.

- انتظري، سأوصلك.

كان والدها ينهي تناول قهوته ويطالع جريدة في الصّالة. فوجئت به وهو يقف بدوره ليضع حذاءه. تمتمت في ارتباك:

- لا داعي لذلك.. سأركب المترو كالعادة.

ركوب عربة المترو أصبح مغامرة يوميّة. لم تعد تفوّت مترو الساعة الثامنة، كأنها على موعد. وذلك اليوم أيضًا، لم ترد أن تضيّع الموعد. لم يكن موعدًا متفقًا عليه، بل موعدًا ضمنيًا، بدون وعود. يركبان نفس المترو كل يوم ويترقب كل منهما ظهور الآخر. كانت تجلس في نفس الموقع من العربة وتنتظر أن يصل المترو إلى محطته. وهو أيضًا كان يصعد من نفس الباب. ويتجه إلى موقعها. أصبحت عادة لكليهما. عادة بريئة ولذيذة في آن. لم يكن بينهما أكثر من الأحاديث العامّة حول الكتب.. نادرًا ما كانت حواراتهما تخرج عن ذلك السّياق. وفي المرات القليلة التي ينزلق فيها الحديث إلى مواضيع شخصية، كان يتدارك الأمر بسرعة. كأن بينهما اتفاقًا غير معلنٍ. كل منهما كان يقنع نفسه بأن تلك الفسحة اليومية جائزة طالما توقفت عند النقاشات الفكرية. يدركان بلا شك أن تكرّر الانزلاق يعني حتمًا نهاية المغامرة.

في ذلك اليوم، أصرّ والدها على اصطحابها. كان يقصد الجامعة لتحضير جدول أعمال السنة الدراسية الجديدة، وبدا أنه يريد أن يبادلها الحديث على الطريق. أذعنت في شيء من الامتعاض. هل كان يجب أن يمثل دور الأب المثالي اليوم بالذات؟ كانت قد أنهت كتاب طارق رمضان حديث الصّدور «مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام» الذي اتّفقا على قراءته، وكانت في شوق لمناقشة بعض الأفكار معه. تذكره بـ «هو» حين تفكر فيه في سرّها. لم تكن تعرف له اسمًا، ولعلها لم تحاول أن تعرف.

صعدت إلى جانب والدها وعقلها غائب في عوالم أخرى. أيقظها من أفكارها حين بادرها:

- هل من جديد بخصوص الدكتوراه؟

- ليس بعد.

- ربما لن أدهشك إذا قلت إن الحجاب سبب رئيسي في تقليص فرصك.

رمشت في توتر ولم تعلق. للمرّة الأولى يتحدّث معها بشأن حجابها. لم يكن له يومًا دخل بشيء يخصّها. اكتفى بدور المتفرّج. وكانت تغلي من

الداخل مذ عرفت أنه غيّر اسمه من أجل النجاح المهني. لذلك لم تكن لتقبل منه أدنى نصيحة، تعلم تمامًا في أي اتجاه تصبّ أفكاره.

فاجأها حين تابع:

- لكنني لن أطلب منك التخلي عنه أو أنصحك بذلك حتّى.. أعلم أنك عنيدة مثلما كانت والدتك حين كانت في سنك.

التفتت إليه في انتباه. للمرّة الأولى يأتي على ذكر الخلاف الذي كان بينه وبين والدتها في السنوات الخوالي. غيّر الموضوع بسرعة:

- لكنني سأحاول المساعدة. سأتصل ببعض معارفي.

كانت الكلمات تتدافع على طرف لسانها، حادّة ولاذعة. لا تريد مساعدة منه وهو الذي لم يهتمّ بأمرها يومًا. ربما لو عرض التدخل منذ أسبوع واحد، لقبلت ذلك من كمال عبد القادر. لكنها تجد صعوبة في تقبله من «سامي كلود». لو لم يكن موضوع البحث يؤرقها، وقد أصبح أمر التمويل ملحًّا أكثر من أي وقت مضى، لكانت تركت العنان لاستيائها حتى يعبّر عن نفسه. لكنها كبحت اندفاعها بصعوبة، فهو يبقى والدها. وموروثاته الجينية تسكن كل خلايا جسدها، حتى وقد تغيّر اسمه.. وقد تكون في حاجة إلى دعمه أيضًا. دعمٌ مشروعٌ لن يفي بقدر يسير من حقوقها لديه.

- لديّ صديق قديم يترأس فريق أبحاث في شركة كيميائيات في المنطقة.. سأتصل به، فربما يجد مكانًا لك في فريق عمله.

- شكرًا لك.. مازالت لديّ مقابلة أخيرة اليوم. إن لم تسفر عن نتيجة مرضية، سأخبرك.

رسمت ابتسامة صغيرة قبل أن تشيح بوجهها عنه. لا يمكنها أن تنكر أنها لفتة طيبة منه في نهاية الأمر، أن يفكر في دراستها ومستقبلها. ربما يحاول أن يلعب دور الوالد معها، حتى إن كان قد وصل متأخرًا. حتى وهو يحمل اسمًا مختلفًا. سألته بغتة مستغلة بوادر التواصل التي ظهرت بينهما ذلك الصباح:

- هل أنت سعيد في فرنسا؟

ابتسم بدوره دون أن يلتفت إليها:

- إن كنت تقصدين الإنجازات المهنية، المحاضرات الدولية، المرتب والعلاوات، تحصيل العلم وتكوين الذات.. نعم أنا سعيد.

- قصدت العائلة، الاستقرار، الراحة، الرضا عن النفس...

اختفت ابتسامته وغزت سمرته سحابة قاتمة، وهو يعقد حاجبيه في شيء من الانزعاج:

- لا يمكن أن نحقق السّعادة في كل المجالات. يجب أن نضحي بأشياء لننجح في أشياء أخرى. كلها مسألة اختيارات وأولويات. والرضا المطلق عن النفس ليس واردًا.

- نعم الأولويات. العائلة لم تكن يومًا من أولوياتك سيّد كمال. ولعلها لن تكون من أولويات سامي أيضًا! تمتمت بصوت خفيض:

- إيلين لا تبدو سعيدة.

حاول الحفاظ على هدوئه:

- ماذا قالت لك؟

هزت كتفيها وهي ترد في بساطة:

- لم تقل شيئًا.. لكنني قرأت في ملامحها.

استمر الصّمت بينهما لثوانٍ عدّة، قبل أن يقرّر الكلام:

- هناك خلافات بيننا حول تربية الأولاد. ريان مدلل جدًّا. إيلين أصرّت على إدخاله إلى نادي الكرة وجعلته يغرم بالمباريات واللقاءات، حتى صارت الدّراسة مسألة ثانوية.. وسارة لا تصغي إلى أحد. دللتهما كثيرًا ولم تستمع إليّ يومًا بشأن توجيههما. والآن فات الأوان ولم يعد بإمكاني الإصلاح.

- كنت تريدهما أن يتعلما العربية ويتعرفا على الإسلام؟

- كنت أريد لهما ثقافة عالية وسلوكًا مستقيمًا. حذق اللغات الأجنبية جزء منها، وأصلهما العربي كان ينبغي أن يكون ميزة.

ميزة؟ من أجل ذلك سعيت إلى تغيير اسمك يا بروفيسور سامي؟ فاجأها وهو يقول بلهجة جادّة:

- أمك على الأقل أحسنت تربيتك.

تطلعت إليه، تحاول قراءة أفكاره. هل يظنّ ذلك حقًّا؟ واصل كأنه يخاطب نفسه:

- أنا وفاطمة كان يمكن أن نتفق.. بل كنا متفقين كثيرًا، قبل أن تتغيّر هي. كانت بيننا مشاعر حقيقية.. وكان يمكنني أن أتعايش مع التغيير الذي طرأ عليها.. لكن هي أرادت أن تغيّرني معها، وذلك ما لم أقبله. علاقتي

بفاطمة لم تصمد طويلاً.. لكن زواجي من إيلين كان خطأ منذ البداية.. ربما أكون قد تسرّعت في إنهاء زواجي الأول، لذلك لم أتحمل إعلان فشل زواجي الثاني.

تنهد وهو يستطرد:

- حين تزوجت فاطمة كنا منسجمين وكان يمكن أن نستمرّ. لكن مخاوف بشأن دراستك وتربيتك بدأت تراودها وأرادت العودة إلى تونس.. حاولت إقناعها بالانتظار، لكنّ شكواها كانت تتزايد. لم تعد تريد استقبال أصحابنا الذين عرفناهم منذ أيام الجامعة. ساءت علاقتنا بهم لأنها امتنعت عن السهرات والزيارات.. ثم لبست الحجاب. وفي مرحلة أخرى أصبحت تنشط في الدعوة إلى الإسلام. توزع نسخ قرآن مترجم إلى الفرنسية، وبعض الكتيبات الدينية على الأصدقاء وحتى على المارة في الشوارع.

ابتسمت ياسمين وهي تستمع إليه يتحدّث عن والدتها وفي صوته شيء غريب. ربما حنين، وربما عتاب. كانت فخورة بوالدتها، وحزينة من أجلها. تساءلت هل يمكن أن يكون والدها قد ندم على تفريطه فيها؟ عشرون سنة من الفراق، أليست كافية لمراجعة النفس؟ غيّر اسمه منذ خمسة عشر عامًا واختار أن يحمل اسم زوجته الفرنسية. لكنه اليوم لم يعد سعيدًا معها. قد يرغب سرًّا في العودة إلى الوراء وشطب كل تلك الأخطاء من حياته.

قد يفعل. لكنه لن يفصح عن ذلك أمامها. هذا مؤكد.

*****

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تطرق باب المكتب. فتح الباب وظهرت من ورائه المسؤولة التي اتصلت بها منذ يومين لمعاينة ملفها. لوهلة، بدا أنها ستهتمّ أولاً بمعاينة شكلها، فقد توقف الزمن لثانيتين حين أخذت تحملق فيها بعينين فاحصتين. أخيرًا تكلمت وهي تدعوها إلى الدخول:

- خذي راحتك.. يمكنك أن تنزعي معطفك.

- معطفي؟

تساءلت ياسمين وهي تتثبت ممّا تلبسه. كانت ترتدي سترة صيفية

خفيفة.. ذات أكمام طويلة. آه، نعم ربما كان ذلك هو السّبب. الأكمام الطويلة. إذن تبدو سترتها مثل المعطف مقارنة بـــ.. رفعت بصرها لتتثبّت من هندام مخاطبتها. نعم، مقارنة بقميص النوم الذي تلبسه هي. ابتلعت الإهانة وتجاهلتها وهي ترسم ابتسامة هادئة. فلتحافظ على برود أعصابها. جلست دون أن تعلّق، لكن يبدو أن مخاطبتها لم تكتف بعد. أضافت وهي تضع الملف أمامها:

- يمكنك أن تنزعي غطاء رأسك.. أشعة الشمس لا تصل إلى هنا.

- أشعة الشمس؟ هل تعتقد فعلاً أنها تغطي رأسها للحماية من الشمس؟ أم أنها تتعمّد استفزازها؟ للمرّة الثانية، حاولت أن تتجاهل وقاحتها، لكن دون أن تشعر كانت حماستها للمقابلة آخذة في الفتور. قالت في برود:

- أنا مرتاحة هكذا.. لا تقلقي بشأني.

رمقتها المرأة بنظرة طويلة كأنها تسبر أغوارها، ثم قالت مغيّرة الموضوع:

- حسن، حدّثيني عن خبراتك؟

أخذت ياسمين تتكلم بلهجة واثقة يشوبها الكثير من اللامبالاة. كأنها لم تعد تريد إقناع مخاطبتها بكفاءتها.. أو كأنّ المقابلة كلها لم تعد تهمّها. كانت تعلم في قرارة نفسها أنها مجرّد مضيعة للوقت. كانت تريد الانتهاء بسرعة والعودة إلى البيت. حين تنتهي من كل هذا يمكنها أن تترك العنان لدموعها وتنفّس عن غضبها. ليتها تقوى على إنهاء تلك المهزلة والخروج من المكان على الفور. لماذا الاستمرار في لعب هذا الدّور وكلتاهما تدرك مسبقًا نتيجة المسرحية؟ قاطعت أفكارها مضيفتها وهي تسألها:

- كل هذا ممتاز.. لكنك تبدين غير مهتمّة بالعمل معنا. لماذا جئت اليوم؟

ابتسمت ياسمين في مرارة وهي تقول:

- في الحقيقة، كنت مهتمّة حين وصلت.. لكنني رأيت أن اهتمامكم بلباسي كان أكبر من اهتمامكم بكفاءتي.

سارعت مخاطبتها تقول في تبرير:

- نحن يهمّنا بالتأكيد أن تكون ظروف عمل موظفينا ملائمة للعطاء، لأن المردودية تعتمد على ذلك. واللباس المريح جزء من ظروف العمل التي يجب أن تتوفر.

obeikandi.com

خرجـت ياسـمين مـن المقابلـة وهـي تشـعر بالانكسـار. كانـت قد اسـتنفدت كل فرصهـا ولـم تجـد بابًـا واحـدًا مفتوحًـا أمامهـا. لـم تعـد لديهـا خيـارات كثـيرة. أخرجـت هاتفهـا واتصلـت بوالدهـا:

- ماذا بشأن صديقك؟ متى يمكنك الاتصال به؟

obeikandl.com

obeikandl.com

-٨-

اللصّ والبروفيسور

وصل عمر إلى مكتبه ذلك الصباح في شرود غير معهود. تجربته أصبحت على وشك الانتهاء ونتائجها المتوقعة ستكون مبهرة حتمًا. يقينه بذلك كبير. «الاندماج البارد»، أسطورة علميّة توشك أن تغدو حقيقة على يديه! وكانت الفكرة تغمره بالنشوة وترفع مستوى الأدرينالين في دمه. لكنه في ذلك الصباح بدا ساهما وفارغا من كل حماس. كان عمله يملأ كل وقته وينسيه وحدته وغربته. لكن في الأيام الأخيرة، أصبح هناك نشاط جديد يعطي لصباحه دفعة من التفاؤل ويمنح رحلته الروتينية في المترو طعمًا مختلفًا في كل مرّة، هو ذاته طعم النقاشات الثرية التي يتبادلها مع تلك الفتاة الغريبة.

كان يحاول التركيز على عمله ذلك الصباح، لكن بلا شعور منه كانت أفكاره تحمله إليها. ربّما بسبب غيابها غير المتوقع. وربما كان لكلمات شقيقتها البارحة على الهاتف دور في ذلك أيضًا. نعم، لقد بلغ مستوى من النضج والرّخاء المادّي الذي يدعوه إلى التفكير في الاستقرار. إلى متى الشقة الكئيبة والقلب الخالي؟ حين ذكرت عائشة موضوع الزواج، ظهر وجهها دون غيرها بين عينيه. ألم يكن ذلك غريبًا؟ لم يفكر في بنات خالاته أو بنات عمّاته، مع أنه يعرفهن ويعرف أخلاقهن. ربما كان ذلك هو عين السبب. يعرفهن، لكن لم يسبق له أن خاطب عقولهن. لم يعرف هذه الحرفية في نقاشه واستفزاز أفكاره في إحداهن.

- عمر، هل تريد كوبًا من القهوة؟

التفت في ذعر حين وصله صوتها. ليس مجدّدًا. ليس كارولين. كانت ترسم ابتسامة واسعة على شفتيها وتحمل كوبين من الورق المقوى يحملان شعار ماركة معروفة لصنع القهوة، ويتصاعد منهما بخار لذيذ محمّل بنكهة مغرية أخذت تداعب أنف عمر. تركها تتخذ مقعدًا قبالته دون أن يعترض. دفعت إليه الكوب وقد اتسعت ابتسامتها حتى باتت تملأ وجهها. ربما تمنّي نفسها بانتصار جزئي. بادرته على الفور وكأنها قد

وجـدت فرصتهـا أخـيرًا:

- متى كانت آخر مرّة ذهبت فيها إلى السينما؟

تعلّقـت نظراتـه بكـوب القهـوة أمامـه. السّـينما؟ لـم يضـع قدميـه يومًـا في إحـدى قاعاتهـا. ربّمـا راودتـه الرّغبـة في أوقـات متفرّقـة، لكـنّ غيـاب الرّفقـة المناسبة ونـدرة الأشرطـة المحترمـة في الـدّور الفرنسـيّة جعـل الأمـر مسـتعصيًا. لـم يكـن قـد فكّـر في ردّ بعـد حـين أردفـت كارولـين في حمـاس:

- هـل تـودّ أن ترافقـني الليلـة؟ هنـاك شريـط خيـال علمـيّ يعـرض في قاعـة قريبـة.. سـيعجبك، أنـا متأكّـدة!

أخـذ رشـفة مـن القهـوة وهـو يقلـب بعـض الأوراق أمامـه متمهـلا. يفكّـر، كيـف يصـدّ عرضهـا.

- لا شك أنّك ترهق نفسك بالعمل ولا تحظى بالكثير من فرص التسلية!

كانـت تلـحّ في حيويّـة معديـة، لكـنّ عمـر ظـلّ منيعًـا أمـام محاولاتهـا الجاهدة لاخـتراق حصانتـه. أخـيرًا، تكلـم في اقتضاب:

- لا أحبّ السّينما.

- ماذا تحبّ إذن؟ اختر النشاط الذي يناسبك ودعنا نستمتع قليلاً.

كانـت تضـع سـاقا عـلى أخـرى وترنـو إليـه في دلال لا يقـاوم. حـزّ في نفسـه أن يكسر خاطرهـا وهـي تبـدي تجاهـه كلّ هـذا الاهتمـام. لكنّـه مضطـرّ؛ إلى مـتى يسـتمرّ في المراوغـة والمماطلـة؟ تنهّـدفي ضيـق ثـم أخـذ نفسـا عميقـا قبـل أن يقـول في هـدوء:

- كارولـين.. أظـن أنـك لـم تفهمـيني جيّـدًا. لـم أرد أن أكـون فظًـا، لكنـني مضطـر إلى توضيـح هـذا الأمـر مـرّة واحـدة وإلى الأبـد. لسـت مـن النّـوع الـذي تعتقديـن.. أو تريديـن. لا أؤمـن بالصداقـة بـين الشـاب والفتـاة، ولسـت مهتمًـا لا بعلاقـة جـادّة أو عابـرة ولا غـير ذلـك. لسـت مهتمًـا، فقـط. هـل تفهمـين؟

طالعتـه بعينـين زائغتـين مـن الصّدمـة. لـم تكـن تتوقـع منـه تلـك الصّراحـة؟ رآهـا تقـف فجـأة دون أن تتفـوّه بكلمـة واحـدة وتهـرول باتجـاه البـاب لا تلـوي عـلى شيء. هـل كان قاسـيًا عليهـا؟ كان يجـب أن يكـون. لـم يكـن هنـاك حـل آخـر.

زفـر في اسـتياء وهـو يعـود إلى أوراقـه. اسـتياء مـن نفسـه ومنهـا، ومـن الموقـف السّـخيف كلـه. أغمـض عينيـه، يحـاول طـرد الضيـق المفاجـئ الـذي

سيطر عليه. كان يتوقع أن يشعر بالارتياح بعد أن يصدّها. لكنّ ذلك لم يحصل. ربّما لأنّه وضع نفسه مكانها للحظات. تخيّل نفسه يُردّ خائبًا. تساءل، ماذا لو صارحها؟ وماذا لو قابلته بالإعراض؟ فتاة المترو تلك. كلّ الحديث بينهما يدور في فلك الأفكار والكتب والنّظريات، لم يتطرق يومًا إلى الأشخاص. يجهل كل شيء عن شخصها: اسمها، سنّها دراستها أو عملها، حتى جنسيتها وأصلها.. فرنسيتها ممتازة ولا تفضح أي انتماء جغرافي أو عرقي. هيئتها فقط تدلّ على أنها مسلمة، وذلك كان يكفيه إلى حدٍّ ما. لكن مع مرور الوقت أصبح يطمح إلى أكثر من الصّداقة الأدبية. وطموحه ذلك أصبح يهدّد العلاقة البريئة المجرّدة من كل النيات والمخططات التي تصنع متعة يومه. ماذا لو صارحها برغبته في علاقة إنسانية جادّة بين شخصين، لا بين عقلين كما كانت إلى تلك الآونة؟

- دكتور عمر.. هل يمكنني أن آخذ دقيقة من وقتك؟

رفع رأسه ليجد البروفيسور كريستوف نوارو عند الباب.

مرحبًا.. تفضل.

تقدّم كريستوف واتخذ مجلسه على المقعد المقابل، حيث كانت تجلس كارولين منذ دقيقتين.

- كيف تسير الأمور هذه الأيام؟

- بخير.. كل شيء على ما يرام.

- سمعت أنك تعمل على مشروع جديد.. لتوليد الطاقة المتجدّدة؟

أجاب بحذر وقد عادت إلى ذاكرته كلمات وليد الراجحي منذ بضعة أسابيع:

- نعم، هذا صحيح.

- شخصيًا، أؤمن كثيرًا بالقدرات الشابة وأشجعها على العطاء والتقدّم.. لكن هذا ليس بالضرورة شأن المدير. كما تعلم، لا يمكنه المجازفة بتمويل كل المشاريع التي يقترحها الباحثون.. بل يجب أن ينتقي منها تلك التي يضمن أن تكون ذات مردودية سريعة وعلى المدى الطويل أيضًا.

سكت للحظات ليتأكد من متابعة عمر لحديثه ثم أردف مواصلاً:

- لذلك أهتم شخصيًا بمتابعة الأبحاث الجديدة. إن وجدت عملك في المستوى المطلوب، فيمكنني دعم ملفك أمام المدير.

- شكرًا.. هذا من لطفك.
- طبعـا إن أردت رأيي لتقييـم العمـل والقيـام بالتجـارب النهائيـة، فأنـا في الخدمـة.
صافحـه عمـر شـاكرًا وتابعـه بنظـرات مليئـة بالشـك وهـو ينـصرف. حـاول العـودة إلى الأفـكار الـتي كانـت تشـغله، لكـن زيـارة كريسـتوف نـوارو كانـت قـد عكّـرت مزاجـه بـلا رجعـة. عـاد بحثـه ليحتـل المسـاحة الأوفر مـن تفكـيره. انتهت الفسـحة إذن. إلى العمـل. ازدرد مـا تبقـى مـن كـوب القهـوة دفعـة واحـدة ثـم خـرج مسرعًـا باتجـاه المختـبر.

*****

لـم يرهـا ذلـك الصبـاح. تفقّـد المـكان حولـه للحظـات، يبحـث عنهـا بعينيـه. أطـال النظـر عـلى غـير العـادة وجـاب العربـة مـرّات عـدّة في تفتيـش دقيـق. لـم تكـن هنـاك. أحـسّ ببعـض الضيـق، أو ربمـا غلبـه القلـق! حـين ركـب المـترو في المسـاء في طريـق العـودة، عـادت إليـه أفـكار الصبـاح. تخطـر عـلى بالـه فجـأة كلمـا انجـرف في زحـام المـترو. منـذ اقتحمـت عالمـه في ذلـك اليـوم العـادي، أصبحـت الدقائـق اليسـيرة الـتي يقضيهـا برفقتهـا محطـة يوميـة مميـزة تعطـي يومـه شـحنة مـن الطاقـة الإيجابيـة. واليـوم لـم تكـن هنـاك. لا عجـب أن نهـار عملـه لـم ينقـض بصفـة عاديّـة.
لازمـه ضيـق غريـب طيلـة رحلـة العـودة. لمـاذا اختفـت هكـذا وبـدون سـابق إنـذار؟ هـل تكـون مريضـة؟ أم تراهـا غـيّرت عاداتهـا أو انتقلـت إلى مـكان آخـر؟ هـل يكـون قـد تجـاوز الحـدّ أو ضايقهـا فقـرّرت تجاهلـه؟ أم تكـون قـد تنبـأت بمـا سـيقوله، أو لمسـت تغيـيرًا في تصرفاتـه فقـرّرت الانقطـاع مـرّة واحـدة؟ تنهـد في وجـوم وشـغّل المسـجل. أغمـض عينيـه وانسـجم مـع الصّـوت الشـجيّ. لا فائـدة مـن الاستسـلام للهواجـس.. ليسـت هنـاك، ولـكل غائـب حجـة.
فجـأة سـمع صرخـة عاليـة طغـت عـلى أزيـز المـترو وضوضـاء مسـافريه. التفـت في فـزع فلمـح امـرأة متقدّمـة في السّـن تتمسّـك بحقيبـة يدهـا في اسـتماتة، في حـين كان شـاب سـيّئ الهيئـة تبـدو عليـه الفاقـة يحـاول سـحبها منهـا بالقـوّة. كان صراخ المـرأة يمـلأ العربـة في حـين كان المسـافرون الذيـن

يحيطـون بهمـا يتراجعـون في حـذر لحمايـة حاجياتهـم. تلفـت عمـر حولـه في دهشـة، كان المـترو قـد توقـف في المحطـة، واللـص يحـاول الوصـول إلى البـاب دون أن يُقـدِم أحـد عـلى التدخـل وسـدّ الطريـق أمامـه. هتـف مخاطبًـا رجـلاً كهـلاً يقـف قريبًـا مـن زرّ طلـب النجـدة:

- اضغط على الزرّ.. يجب إيقاف المترو!

تلـكأ الرجـل وتحـرّك بـتردّد واضـح، وقبـل أن تصـل يـده إلى الـزرّ الأحمـر المقصـود ارتفـع صـوت سـيدة أنيقـة كانـت تتابـع المشـهد في عـدم رضـا:

- نريد أن نصل إلى بيوتنا. فكّوا النزاع خارج المترو!

لـم تكـن السـيدة العجـوز قـد توقفـت عـن الـصّراخ، لكـن مقاومتهـا كان قـد انهـارت وأفلتـت الحقيبـة مـن يدهـا. قفـز اللـصّ المختلـس وهـو يضـمّ غنيمتـه تحـت ذراعـه وتجـاوز بـاب المـترو الـذي كان مفتوحًـا عـلى مصراعيـه وقـد تدافـع المسـافرون للـنزول بعـد أن تملـك الفـزع معظمهـم. لـم يفكـر عمـر كثـيرًا، بـل اندفـع وراء اللـصّ. كان الزحـام شـديدًا عـلى الرّصيـف ممـا عطـل حركـة الشـاب الهـارب ومكّـن عمـر مـن اللحـاق بـه سريعًـا. بـدون تـردّد، قفـز في الهـواء وانقـض عليـه ليطيـح بـه أرضًـا ويسـقط فوقـه. اسـتعاد توازنـه عـلى الفـور وانحـنى عـلى ركبتيـه مكبـلاً يـدي السّـارق وراء ظهـره مثبّتًـا إيـاه عـلى الرّصيـف ووجهـه إلى الأرض. جلـس فـوق ظهـره وهـو يلهـث ليشـل حركتـه ويمنعـه مـن المقاومـة، ثـم انـتزع مـن قبضتـه الحقيبـة المسروقـة. اقتربـت صاحبتهـا -الـتي كانـت قـد نزلـت مـن المـترو- بأوصـال مرتجفـة. بادرهـا عمـر وهـو يقـدّم إليهـا حاجتهـا:

- سيدتي، خذي حذرك في المرّة القادمة.

أخذتها منه ولسانها يلهج بكلمات شكر فيّاضة. فأضاف قائلاً:

- سأسلمه بنفسي إلى الشرطة.

وقـف وأجـبر اللـصّ عـلى الوقـوف بـدوره. أمسـكه مـن ياقـة قميصـه وسـحبه إلى خـارج المحطـة.

كان عمـر يجـرّه بقسـوة وحـزم بيـده اليمـنى، في حـين أحكمـت قبضتـه اليـسرى شـد معصميـه. كانـا قـد ابتعـدا عـن الزحـام سـيرًا عـلى الأقـدام، صعـدا الدرجـات المؤديـة إلى الشـارع وأخـذا يعـبران الطريـق.

فوجئ حين كلّمه الشّاب بالعربية في توسّل:

openkanzi.com

- أنت عربي أليس كذلك؟

توقّف عمر والتفت إليه بكلّيته وهتف في حميّة:

- أنا عربي، ولا أتشرّف بالعرب أمثالك! مرّغتم رؤوسنا في الوحل بتصرّفاتكم غير المسؤولة! بعضنا يجاهد ليشق طريقه بشرف وكرامة، في حين أنّ البعض من أمثالك يسيؤون إلى سمعتنا كل يوم.. يعطون فرصة إلى كل من يريد الطعن في عزّتنا وفي ديننا ويغذون الكراهية والاحتقار تجاه المهاجرين العرب! لذلك لا تخاطبني باسم عروبتك المزعومة!

لم يكن قد أنهى تعنيفه حين فوجئ باللصّ ينفجر باكيًا دون استئذان. شعر بالرّجفة التي سرت في أوصاله وهزّت جسده الهزيل كله. وكأنّ قدميه لم تعودا قادرتين على حمله، أقعى على الرّصيف وقد ازداد نحيبه قوّة. لم يكن تمثيلاً. لم تكن مراوغة للفرار. هل كانت كلماته بتلك القسوة؟ أفلت عمر معصميه وتركه يمسح عبراته السّاخنة بكفّيه. جلس إلى جانبه في إطراق وقد غلب عليه الرثاء لحاله. كان يتأمل هيأته للمرّة الأولى.. انتبه إلى الكدمات الكثيرة على ركبتيه، وإلى الخدوش التي تملأ ذراعين وساقين كشفت عنها ثيابه الممزقة. تكلم الشاب أخيرًا في أسى بعد أن استفرغ دموعه:

- لم أرد أن أكون كذلك. لم أرد أن أسيء إلى أحد.

لم يكن قد سيطر على شهقاته المتقطعة. استطرد بعد برهة:

- لم آكل شيئًا منذ يومين. أعيش على الفضلات وبقايا المطاعم منذ أكثر من أسبوعين.. أنام في العراء، بدون لحاف أو فراش. أشرب من المياه الآسنة ومن النافورات العمومية..

أضاف بصوت يميل إلى الصراخ:

- لا أحد يريد مساعدتي.. كيف يمكنني أن أعيش دون أن أسرق أو أخطف؟ هل أنتظر الموت على قارعة الطريق؟

ثم انهار باكيًا من جديد. شلّت الصّدمة عمر فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة. فكر بالنّهوض والانصراف دون أن يشعر به الرجل، لكنّ شيئًا ما كان يشدّه في موقعه. انتظر أن ينتهي الشّاب من الصراخ والبكاء، ثم قال بصوت هادئ:

- حسن.. لن آخذك إلى الشرطة. لكن عدني بألا تعاود الكرّة.

openkanz.com

التفت إليه الشاب في دهشة وهو لا يصدّق أذنيه، وهمس بصوت مخنوق من التأثر:

- أعدك.

وقف عمر ونفض كفيه ثم وضعهما عند خصره. جال ببصره في المكان وهو يزمّ شفتيه. ما الذي سيفعله بشأنه الآن؟ لم تبدُ على الشابّ الرغبة في الهروب أو الذهاب إلى أي مكان. نظر إليه عمر مطوّلاً، ثم قال بلهجة آمرة:

- حسن.. اتبعني.

رفع الشاب رأسه إليه في دهشة ولم يتحرّك. أحسّ عمر بحيرته فقال مطمئنًا:

- أنا ذاهب إلى المسجد.. تعالَ معي.

وقف على الفور وقد راوده شيء من الأمل. أخذ يمشي وراء عمر خطوة بخطوة دون أن يحاول اللحاق به. يعلم أن شكله الرث وهيئته البالية يحرجان كل من يقترب منه، فضلاً عن مرافقته جنبًا إلى جنب. التفت إليه عمر فجأة وسأله:

- ما اسمك؟

- آآ.. نادر.

- من أيّ بلد أنت؟

- الجزائر.

- اقترِب يا نادر.. لماذا تمشي خلفي؟ تعالَ، لن أؤذيك.

تقدّم نادر في حرج ومشى مطرقًا. بعد برهة قصيرة، رفع رأسه وقال في حياء:

- هل يقدّمون طعامًا في المسجد؟

ابتسم عمر في ارتباك. كان يجب أن يفكر في ذلك منذ البداية.

- انتظرني هنا.

كان هناك مطعم عربيّ صغير في أوّل الشارع. غاب عمر داخله لدقائق قليلة ثم ظهر وهو يحمل كيسًا ورقيًا، سلّمه إلى نادر وعلى شفتيه ابتسامة واسعة. أخذه منه هذا الأخير في لهفة لم ينجح في إخفائها. رائحة البطاطس المقلية المقرمشة والدّجاج المشوي الشهي كانت تدغدغ أنفه

بقـوّة وإلحـاح. تلـك الرائحـة كانـت تخـتزل كل شـهوات الحـاضر والمـاضي الـتي قاومهـا في أيـام الحرمـان. لـم يكـن يومًـا منهـا بهـذا القـرب، وبـات الكيـس الـذي يسـتقر في يـده بمثابـة العطيّـة الغاليـة. لـم يكـن بإمكانـه الانتظـار أكـثر، بـل انقـض عـلى الوجبـة يبتلعهـا لقمـة وراء اللقمـة في نهـم كبـير. أشـاح عمـر بوجهـه وانشـغل بهاتفـه لبضـع دقائـق حـتى لا يحرجـه. حمـد الله في سره لأنـه لـم يجـرب الحرمـان يومًـا.. لا يمكنـه أن يقـدّر مـا يعيشـه الفقـراء طالمـا لـم يجـرّب بنفسـه ولـم يـرَ بـأم عينـه. ربمـا كان قاسـيًا عـلى الرجـل. حـين أنهـى وجبتـه، بـادره مسـتفسرًا:

- حدّثني يا نادر، كيف وصلت إلى هنا؟

ظهرت ابتسامة صفراء ساخرة على شفتي الرّجل.

- بمـاذا أحّدثـك يـا سيّدي؟ عـن حيـاة البطالـة المدمّـرة عـلى قارعـة المقاهـي؟ أم عـن رحلـة المـوت في قـارب يعـبر المتوسّـط؟ أم عـن التـشرّد والفاقـة في شـوارع مارسـيليا؟ عـن الفـرار المسـتمرّ مـن دوريّـات الشّرطـة أم عـن عصابـات السّرقـة والتّسـوّل في ليـون، أم... أم... أم...؟

للحظـة أحـسّ عمـر بالعجـز يجتاحـه. شـعر بالصّغـر أمـام مخاطبـه، كأنّـه لـم يعـرف شـيئًا عـن مصائـب الدّنيـا. في اللحظـة المواليـة، كان قـد غـدا طواعيّة مسـؤولاً عـن الرّجـل.

*****

إنها ليلة واحدة.. سأجد له مكانًا آخر في الغد.

بعـد الصّلاة، فكّـر عمـر في حـلّ منطقـيّ لإيـواء نـادر وإعالتـه. لـم يكـن هناك مـن سـبيل إلا بقـاؤه في المسـجد تلـك الليلـة. حـاول إقنـاع رئيـس الجمعيّـة المسـؤولة عـن تسـيير أمـور المسـجد بذلـك التدبـير المؤقـت. لكنّـه اصطـدم بنفـي قاطـع. كانـت لهجـة الشـيخ حازمـة وهـو يقـول:

- يـا ولـدي، هـذا مـكان يخضـع لإشراف الدّولـة، وليـس مـن وظائفـه اسـتقبال فاقـدي المـأوى.. لـو تركتـه يبيـت هنـا الليلـة، فسـتطالبني السـلطات غـدًا باسـتقبال المشرّديـن مـن جميـع الفئـات!

- ربما يمكنك أن تجد له عملاً مؤقتًا في الجمعية.. في تنظيف الأرضيةمثلاً؟

تبادل الشيخ مع إمام المسجد نظرات صامتة ثم تكلم الإمام:
- لا نحتاج أحدًا في الوقت الحالي. سأُعلمك إن تغير الوضع.
أصرّ عمر في محاولة أخيرة:
- إنّه أخ لنا في الله! من له إن لم نقف إلى جانبه؟
أشاح الرّجلان بوجهيهما في إعراض، فتنهد عمر في إحباط. عليه أن يتصرّف بنفسه. قام من مجلسه ومضى في اتّجاه نادر بخطوات متثاقلة، كأنه يأخذ وقته ليجهز الكلمات المناسبة. أحسّ بعيني الشابّ تتعلقان بشفتيه في لهفة وترقب. لم يستطع أن يردّه خائبًا. قال في هدوء:
- قم بنا.. ستبات عندي الليلة.

*****

طرق باب المكتب برفق ثم قال مخاطبًا السّكرتيرة:
- هل المدير موجود؟
أشارت الفتاة الصّهباء إلى مقاعد الانتظار وهي تقول:
- نعم موجود، لكن سيكون عليك الانتظار.. لديه ضيف بالداخل.
تنهد عمر وهو يتوجه إلى المقاعد المتفرقة التي تشغل المدخل الفاصل بين مكتب السكرتيرة ومكتب مديرها، والذي تطلق عليه عادة اسم «قاعة الانتظار».
الانتظار.. لم يحبّ هذه الكلمة يومًا. توحي إليه بالفراغ والملل وتضييع الوقت. تملؤه إحساسًا بالعجز وقلة الحيلة أمام فاصل زمني مفروض. لذلك لم ينتظر حركة الطرف الآخر وأمسك بزمام المبادرة. قرّر أن يتخذ خطوة جادّة بنفسه. لن يترك الفرصة لكريستوف وصامويل وأمثالهما لابتزازه واستغلاله. عليه أن يوصل عمله إلى المدير شخصيًا. قام بطبع ملف كامل يحمل تقديمًا لمشروعه وعرضًا شاملاً للجانب العلمي والتطبيقات الممكنة، إضافة إلى تقييم مالي لتكلفة المشروع.. عمل ليلاً ونهارًا مستنفدًا ساعات اليوم الماضي إلى حدّ التخمة، ليسبقهم بخطوة.
- السيد دانيال بروكس موجود؟
رفع عمر رأسه حين تناهى إلى مسامعه صوت قادم جديد، ما لبث أن

انضمّ إليه في قاعة الانتظار. يبدو أن دانيال مشغول اليوم. فكر عمر في ضيق. لم يُرِد أن يتصل على الهاتف، بل فضّل أن يسلمه الملف يدًا بيد حتى يعطيه الوقت الكافي لشرح فكرته. أمله أن يطلب المدير اجتماع لجنة تقييم في أقرب الآجال. نظر إلى ساعته في نفاد صبر، كان ينتظر منذ عشر دقائق والزائر الذي دخل قبل وصوله لم يغادر بعد. ثم هناك القادم الجديد الذي قد يكون على موعد مع المدير، ممّا قد يعني مزيدًا من الانتظار. كان عليه أن يطلب موعدًا.

نظر إلى الرّجل الذي جلس على بُعد بضعة مقاعد. بدا له شكله مألوفًا. تفرّس فيه للحظات.

- بروفيسور سامي كلود؟

كان يفكر بصوت عالٍ لمرّة أخرى. رفع الرّجل رأسه والتفت إليه وقد بدت على وجهه المفاجأة:

- نعم؟

وقف عمر في حرج واقترب منه:

- معذرة بروفيسور، كنت قد حضرت محاضرتك السنة الماضية عن الطاقة البديلة في النرويج، وقد أعجبت بأفكارك كثيرًا. سعيد للقائك هنا مجدّدًا.

صافحه سامي كلود (أو كمال عبد القادر) وهو يبتسم في شيء من الزهو. ذلك الاعتراف بتفوقه العلمي كان يروق له، ووجوده أمام بعض المعجبين بأفكاره المستنيرة كان يمثل تسلية مجانية تبدّد ملل الانتظار في تلك القاعة الباردة.

- إذن دانيال أرسلك إلى النرويج لتتجسّس على أعمالي وتكتب عنها تقريرًا؟

احمرّ وجه عمر في ارتباك، لكن كمال ما لبث أن أطلق ضحكة عالية جعلته يتفطن إلى المزحة.

- لديّ اهتمام شخصي بالطاقات البديلة التي أظنها ستغيّر خريطة العالم من حيث الثروات. وقد جئت اليوم خصوصًا لأقدم للسيد بروكس رؤيتي للموضوع. لديّ مشروع جديد أظنه سيصنع فرقًا في المستقبل.

استمع إليه كمال في اهتمام وقد أعجبته نبرة الثقة والحماس في صوته:

- هذا جيّد. سأكون سعيدًا بالتواصل معك بخصوص مشروعك.

أخرج بطاقته الشخصية وسلمها إلى عمر وهو يضيف:

- اتصل بي لنتحدث أكثر في الموضوع، وسأكون سعيدًا بتقديم أي نصيحة أومساعدة.

أخذها عمر في سرور وهو يقول ممتنًّا:

- شكرًا جزيلاً لك. سأتصل بك حتمًا.

في تلك اللحظة، فتح باب مكتب المدير وظهر دانيال وهو يودّع زائره. ما أن ألقى نظرة على مقاعد الانتظار حتى هتف مرحبًا:

- بروفيسور كلود. مرّ زمن يا رجل!

صافحه كمال في حرارة، ثم قال مشيرًا إلى عمر:

- هذا الشاب وصل قبلي. سأنتظر قليلاً ريثما تنتهي من أمره.

وقف عمر على الفور وهو يقول:

- لا بأس.. يمكنني الانتظار. تفضل أنت. لا نريد إضاعة المزيد من وقتك سيدي.

شكره كمال وهو يبتعد باتجاه المكتب رفقة دانيال. وصلت كلماته إلى عمر وهو يقول قبل أن يختفي في الداخل:

- أوصيك بهذا الشاب خيرًا. يبدو على قدر عالٍ من الذكاء والجدية.

جلس عمر مجدّدًا وعلى شفتيه ابتسامة راضية. نظر إلى البطاقة الثمينة التي بين يديه في سرور. جاءت إليه بسهولة ويسر، بل دون أن يسعى إليها. يبدو أن مشروعه يسير في الاتجاه الصحيح. ربما يحتاج خبرة السيد كلود، لكنه بالتأكيد يحتاج إلى دعمه لمشروعه أمام دانيال. بما أنه خبير في الميدان، ربما يجعله ضمن لجنة التقييم. إلى أن يتمّ ذلك، عليه أن ينتظر مجدّدًا.

*****

خرج عمر من مكتب المدير وابتسامة جذلة تعلو شفتيه. لم يذهب انتظاره عبثًا. توجّه رأسًا إلى مكتبه وقام بطباعة نسخة جديدة من ملف أبحاثه. وضع الأوراق في حرص في حافظة أوراقه وتنهّد. سيحتفظ بهذه النسخة في شقته. تعلم من تجاربه السابقة أن يحتفظ بأكثر من نسخة

وفي أماكن مختلفة تحسُّبًا لكل الظروف والكوارث الممكنة، الطبيعية منها والبشرية أيضًا. لا يدري بعد ما الذي يدبّر له في الخفاء من قِبَل زملائه. لذلك يجب أن يكون متيقظًا وحذرًا. نعم، سيرسل أيضًا نسخة إلكترونية إلى البروفيسور كلود حتى يحيطه علمًا بتقدّم الأبحاث.

شغله التفكير في العمل طوال النهار. وما إن غادر مكتبه حتى عادت إليه ذكريات الأمس. لقد ترك شخصًا غريبًا في شقته ذلك الصباح. لم يتردّد كثيرًا ليلة البارحة. دموع الرجل، صلاته الخاشعة وعلامات الندم على وجهه.. كل ذلك جعله يرؤُف بحاله ويحنو عليه. لم يستطع أن يتركه في الشارع وهو يعلم حقيقة ظروفه. ربما لو كان متسوّلاً عاديًّا لكان اكتفى بمدّه ببعض القطع النقدية. ربما لو كان مجرّد مشرّدلكان اكتفى بإهدائه وجبة عشاء ساخنة. لكنه كان مسلمًا.. مسلمًا غريبًا وفاقدًا لكل سند. لم يستطع أن يرجع إلى شقته الدّافئة وينام في اطمئنان وهو يعلم أنه سيبيت في العراء.. ويعود إلى السّرقة.

لكن على طريق العودة، أخذت الهواجس تراوده. لقد ترك شخصًا غريبًا في شقته ذلك الصباح. شخص غريب ومُعدم. أوقفه البارحة وهو بصدد الاختلاس. ماذا لو أعاد الكرة اليوم؟ ماذا لو عض اليد التي أطعمته وأكرمته؟ لم يكن لديه الكثير من الممتلكات غالية الثمن في الشقة.. حاسوب محمول، جهاز تليفزيون، فرن كهربائي، أدوات المطبخ وملابس رجالية. حاجيات عادية، لكنها قد تسيل لعاب أيّ لصّ محترف. إضافة إلى ذلك، لن يكون عليه أن يخلع أو يكسر. يمكنه أن يأخذ ما خفّ وزنه وغلا ثمنه ويخرج من الباب بكل يسر. ازدرد عمر ريقه بصعوبة. ماذا لو تحقّق هذا السيناريو؟ ماذا لو يدخل الشقة ليجدها خالية؟ تركه كامل النهار بمفرده.. ثماني ساعات كافية جدًّا لينقل كل محتويات الشقة. زفر بقوة وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. حاول أن يطرد عنه تلك الوساوس. كان استقباله لذلك الشخص الغريب مخاطرة حقيقية. لكنه لم يفكر كثيرًا، تصرّف باندفاع في موجة كرم عارمة. هل كان ساذجًا؟ هل يكون جزاء معروفه مثل جزاء سنمار؟

نزل من المترو وحث الخطى في اتجاه مبنى إقامته. كان وجيب قلبه يرتفع أكثر مع كل خطوة. سيكون كل شيء على ما يرام. لا يمكن للرّجل أن

يخونه. لم يعطه ثقته إلا لأنه توسّم فيه الخير والشهامة. سأل الله أن لا يكون حدسه قد أخطأ. حين وصل إلى باب الشقة، أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يدخل المفتاح في القفل. كان الباب مغلقًا.. مثلما تركه ذلك الصباح. دفع الدّفة ببطء وتسللت نظراته لتتفقد المكان. قبل أن يجرُد محتويات شقته، فوجئ بعبير زكي يغمر حواسّه. عقد حاجبيه في شك. كانت رائحة طعام شهي تأتي من مطبخه. تقدّم في ذهول وسط البخار الذي ملأ الغرفة وفتح النافذة حتى تتنفس الشقة. جائه صوت نادر من المطبخ وقد أحسّ بوجوده:

- مرحبًا.. الطعام على وشك أن يجهز.

اقترب عمر ليلقي نظرة على الوعاء الذي يغلي فوق النار، في حين توجّه نادر إلى الفرن ليخرج صينية البطاطس التي نضجت للتوّ. تابعه عمر بنظرات مندهشة:

- أنت تجيد الطبخ؟

ضحك نادر في فخر وهو يقول:

- تعلمت أيام الجامعة. كنت أقيم مع عدد من الشباب في شقة عزوبيّة، وكنت طباخ الفريق.

رمقه عمر في إعجاب وهو يأخذ قطعة من البطاطس الحارّة بأطراف أصابعه ويتذوقها في حذر.

- ما تزال ساخنة. استرح قليلاً ريثما أضع الأطباق على المائدة.

انصاع عمر دون اعتراض، وقصد الحمام ليغسل أطرافه ويغيّر ملابسه. ابتسم في ارتياح وهو يطالع وجهه في المرآة ثم تنهّد بقوة. الحمد لله. لم تكن سوى هواجس.

obeikandl.com

-٩-

باريس.. مرّة أخرى

مـا أن سـمعت ياسـمين صـوت بـوق السّـيارة حـتى هبّـت إلى النافـذة مستطلعة. ألقت نظرة خاطفة ثـم هرولت باتجاه الـدّرج والتهمت بخطوات واسعة المسافة الـتي تفصلها عـن المدخـل في بضع ثـوانٍ. استرجعت أنفاسها ثـم فتحـت البـاب لتسـتقبل والدهـا. للحظـات أحسّـت بحـرج موقفهـا، لـم تكـن قـد رحّبـت بـه أو ترقبـت وصولـه مـن قبـل. وهاهـي الآن تتشـوق لرؤيتـه، لا لـشيء إلا لأنهـا تنتظـر منـه البـشرى لشـأن يخصّهـا. أنانيـة؟ ربّمـا، لكـن لـم يعـد بإمكانهـا أن تعـود أدراجهـا وتنتظـر في وداعـة أن يناديهـا.

- أنت هنا؟

ابتسـم وهـو يعـبر العتبـة ويضـع حقيبـة أوراقـه عـلى الأرض. تبعتـه إلى الصالـة حيـث اسـتلقى عـلى الأريكـة ونـزع حذائـة. التفـت إليهـا كأنـه يسـتغل الموقـف:

- هلا أحضرت الشبشب؟

انصاعـت ياسـمين وعـادت وهـي تحمـل إليـه مـا طلـب. وقفـت غـير بعيـد عنـه في انتظـار. ولمّـا طـال صمتـه وشروده، بادرتـه في صـوت هـادئ:

- هل من جديد؟

- آه.. نعم. لديك موعد، يوم الإثنين.. شركة اتصالات.. في باريس.

أفرغ جعبته دفعة واحدة، ففغرت ياسمين فاها قبل أن تهتف في دهشة:

- باريس!

قال في لامبالاة وهو يتصفّح جريدة المساء:

- دانيـال لا يمكنـه اسـتقبالك في فريـق عملـه في الوقـت الحـاضر، لنقـص في التمويـل في القسـم الـذي يعمـل بـه. لذلـك فقـد اتصـل بأحـد معارفـه في باريـس وطلـب لـك موعـدًا، مـع توصيـة جيّـدة.

تابع في ثقة وهو يضع ساقًا فوق أخرى:

- خدمتـه كثـيرًا في السّـابق، لذلـك كان عليـه أن يـؤدي إليّ هـذه الخدمـة. تعلمـين في مجتمعنـا اليـوم.. واحـدة بواحـدة.

كـرّرت في دهشـة وهـي تصعـد درجـات السّـلم في بـطء. باريـس! تذهـب وحدهـا إلى باريـس! حـين جـاءت إلى فرنسـا، كانـت تريـد أن تتقـرب مـن أخويهـا، أن تتعـرف أكـثر عـلى والدهـا، وأن تشـاركهم حياتهـم اليوميّـة.. لكـن هـذه السّـفرية المفاجئـة لـم تكـن في حسـابها. مهـلاً، رويـدك ياسـمين.. لـم يتقـرّر سـفرها بعـد. ماهـي إلا مقابلـة أخـرى. زفـرت في ضيـق. تمنّـت مـن كل قلبهـا أن تنتهـي دوامـة المقابـلات الفاشـلة. حـتى لـو كان الثمـن سـفرها إلى باريـس.

- سأذهب إلى باريس.

جاءها صوت والدتها الهادئ عبر سماعة الهاتف:

- هذا جيّد.

ابتسمت وهي تصغي إلى كلمات والدتها المفعمة بالحماس.

- جاءت الفرصة أخيرًا.. ستذهبين إذن لزيارة خالتك زهور.

خالتهـا زهـور، ليسـت شـقيقة والدتهـا، لكنهـا أقـرب إليهـا مـن كل مـن يصلهـا بهـم رابـط الـدم. كانـت الوحيـدة الـتي ساندتها حـين اختـارت طريقهـا الجديد. بـل لعلهـا كانـت السـبب في ذلـك التغيـير الـذي طـرأ عليهـا.

- سـتكون سـعيدة جـدًا برؤيتـك. ميسـاء وهيثـم وعمـك عبـد الحميـد، كلهـم ينتظـرون زيارتـك.

هـي أيضًـا مشـتاقة لرؤيتهـم. كانـت تسـمع عنهـم الكثـير مـن أمهـا في سـنيها الأولى، ثـم كانـت زيارتهـم التاريخيـة لتونـس في صيـف سـنواتها التسـع.. سـنة ١٩٨٩. زيـارة لـم تتكـرر لأسـباب أمنيـة كمـا تقـول فاطمـة. حينهـا لـم تـدرك ماهيـة تلـك الأسـباب، لكـن مـع مـرور الوقـت اتضحـت الرؤيـة في ذهنهـا. كان لعمّهـا عبـد الحميـد زوج خالتهـا نشـاط سياسيّ مـع بعـض جماعـات المعارضة، وبعـد الانتخابـات التشريعيـة لسـنة ١٩٩١ عمّـت البلبلـة البـلاد، مـع شـنّ القـوّة الحاكمـة حملـة واسـعة للقبـض عـلى المعارضـين وإيداعهـم السـجون لتكميـم أفواههـم مـرّة واحـدة. والرّاجـح أن أحـد المطارديـن الفاريـن ممّـن وصلـوا إلى باريـس طالبـين اللجـوء السـياسي أفـضى إلى عبـد الحميـد بـأن اسـمه قـد ورد في بعـض التحقيقـات عـلى لسـان أحـد المسـتجوبين. لذلـك بـات مـن غـير الآمـن لـه ولعائلتـه أن يـزوروا تونـس في الوقـت الرّاهـن. لكـن «الوقـت الراهـن» امتـدّ لسـنوات طويلـة تجـاوزت الثلاثـة عـشرة سـنة. لكـن الرسـائل والمكالمـات الهاتفيـة لـم تنقطـع بـين المرأتـين. كانـت تتباعـد وتشـح في بعـض الآونـات،

لكنها لم تنقطع. حتمًا لم تنقطع.

استلقت ياسمين على سريرها وسرحت في ذكريات الماضي. حين كانت في العاشرة من عمرها، اختارت مدرستها عددًا من الطلبة لمراسلة آخرين في فرنسا. وكانت الشروط الأساسية للاختيار اتقان اللغة الفرنسيّة والإمكانيات المادية.. لتبادل الهدايا مع المراسل، ثم للتمكن من السفر إلى فرنسا في ضيافته ولاستقباله أيضًا في فترة الإجازات. لم تكن هذه الشروط متوفرة في ياسمين. كانت متميزة في اللغة، نعم، لكن عائلتها لم تكن مترفة ولم تكن ظروفها المادية تسمح بالرّحلات خارج البلاد.. لذلك لم يتمّ اختيارها. لتعوّض عنها والدتها ذلك الحرمان، جعلتها تراسل ميساء ابنة الخالة زهور التي كانت تصغرها بعامين. لسنوات، استمرّت بالكتابة إليها مرّة كل بضعة أسابيع. كانت تجفّف زهور الحديقة وتلصق بتلاتها على ورق الرّسائل وتصنع لها حليّا يدوية من الخرز وبطاقات معايدة تزيّنها بالورق الملوّن. وكانت تستقبل أيضًا رسائلها المليئة بالرّسوم الزاهية وتنتظرها بفارغ الصبر، الرّسوم التي كان يبدع في إنجازها هيثم شقيق ميساء الأكبر. وحين تصلها منها صور لأفراد العائلة، كانت تجلس طويلاً مع والدتها لتعلقا عليها وتتندرا بها في مرح طفولي. مرّت سنوات على آخر رسالة وصلتها منها. كان ذلك في المدرسة الثانوية. لم تعودا طفلتين.

قامت من مرقدها وانحنت إلى الأرض لتخرج صندوقًا صغيرًا مغلفًا بورق الهدايا من تحت السرير.. صندوق كنوزها الذي يرافقها أينما حلت. أزاحت الغطاء وأخذت تخرج القطع التي تراصت فيه جنبًا إلى جنب.. رسائل، رسومات، صور، بطاقات،حاملات مفاتيح متنوعة الأشكال. سرحت مع كل واحدة منها وهي تسترجع ذكريات الطفولة التي مضت. الآن جاءت الفرصة لتراهم جميعاً من جديد، الخالة زهور، العم عبد الحميد، ميساء وهيثم.. ثم هناك وائل، آخر العنقود. هذا الأخير لم تره إلا في الصّور. حين جاؤوا لزيارتهم لم يكن قد أتى إلى الدّنيا بعد.

ابتسمت وهي تتخيل اللقاء المرتقب مع زوار صيفها الذي تعتبره الأكثر متعة على الإطلاق ضمن سنوات طفولتها.. ذلك الصّيف الأخير الذي سبق سنوات الجمر القاسية وعهد الظلمات المستمرّ.

*****

حـين تجـاوزت بوابـة الشركـة، سرت في أوصالهـا رجفـة غريبـة. كانـت الأنظـار تتجـه إليهـا بشـكل لافـت، لـم يكـن ذلـك مـن وحـي خيالهـا. كثـيرًا مـا أحسّـت بالنظـرات المسـتغربة، المحتقـرة أو المسـتفزة.. لكـن قطعـًا ليـس بهـذا الشـكل. ربمـا لأنّهـا تعطـي اهتمامًـا أكـبر مـن العـادة لمقابلتهـا هـذه، مقابلـة الوقـت بـدل الضائـع؟ ربّمـا.

قطعـت ياسـمين الخطـوات الـتي تفصلهـا عـن مكتـب الاسـتقبال عـلى عجـل، ووقفـت أمـام الموظفـة. ابتسـمت وهـي تقـول:

- لديّ موعد مع السيد دافيد كيلير.

حـين عرفـت أنّ مقابلتهـا مـع شـخص يدعـى «دافيـد»، انتابهـا فتـور مفاجـئ. لا يمكنهـا أن تتوقّـع انطباعـه عـن شـكلها. الاسـم يوحـي بنـوع مـن التعلّـق الدّيـني. قـد يكـون تعلّقًـا إيجابيًّـا، يقـدّر لـدى الآخريـن انتماءاتهـم، وقـد يكـون تعلّقًـا متطرّفًـا يرفـض الاختـلاف.

نظـرت الموظفـة في الجهـاز أمامهـا ثـم رفعـت رأسـها لتقـول بلهجـة شـبه آليـة:

- الطابق الثامن، المكتب الثاني. المصعد على اليمين.

بدايـة مشـجعة. خمّنـت ياسـمين في سرّهـا في شيء مـن السّـخرية. شـكرتها ثـم توجّهـت نحـو المصعـد. كان هنـاك رجـلان وامـرأة في الانتظـار. وقفـت مُطرِقـة عـلى مقربـة، تتنفـس بعمـق تهيّـؤًا للمقابلـة. حـين وصـل المصعـد وأصبـح الجميـع بالدّاخـل، بادرهـا الرّجـل الأقـرب إلى لوحـة المفاتيـح:

- أيّ طابق؟

- الثامن.. شكرًا.

توقـف المصعـد في الطابـق الخامـس ونزلـت المـرأة والرجـل الآخـر. مـا يـزال أمامهـا ثلاثـة طوابـق. شـبكت أصابعهـا في توتـر وحاولـت شـغل نفسـها عـن نظـرات مرافقهـا المتبقـي الفضوليـة.

- تعملين هنا؟

أجابت بعد تردد قصير:

- جئت من أجل مقابلة.

- لكنّ إدارة شؤون الموظفين في الطابق الأرضي.

- موظفة الاستقبال أخبرتني أن مكتب السيد دافيد كيلير في الطابق الثامن.

noor-book.com

- دافيد؟! منذ متى يهتم دافيد بتوظيف عاملات التنظيف؟

أحسّت بوجهها يشتعل. عاملات التنظيف؟ هل يسخر منها؟ كان باب المصعد قد فتح مع وصوله إلى الطابق الثامن. رمته بنظرة حادّة وهي تقول في برود:

- مقابلتي تخصّ رسالة دكتوراه في العلوم الاجتماعية.

ثم غادرت المصعد دون أن تنتظر ردّه. مشت بعصبية في اتجاه المكاتب. كان تعليقه السّخيف قد أثار حنقها وأفسد كل عمليات التركيز والاسترخاء التي عملت على ممارستها في طريقها لإفراغ ذهنها من كل طاقة سلبية. هل كان هندامها مهملاً إلى هذا الحدّ؟ أم أنه يفترض بكل من تلبس حجابًا أن تكون عاملة تنظيف؟ لم تكن ردّة فعلها احتقارًا لعاملات التنظيف أو استهزاء بهن، لكنها لا تصدّق أن يتمّ الربط المباشر والتلقائي بينها وبين تلك المهنة بدون أي أدلة أو علامات.

كانت قد وصلت أمام المكتب الثاني. أخذت نفسًا عميقًا وحاولت أن تمسح كل التوتر المجاني الذي سببه لها ذلك الرجل الغريب. كادت تلعنه في سرّها، لكنها أحجمت ودعت له بالهداية. فليكن، لن تُضيّع وقتها بالتفكير في كلامه أكثر مما فعلت. الآن أمامها أمور أهمّ.

طرقت الباب بلطف وانتظرت. مرّت بضع ثوانٍ قبل أن يُفتح. كان السيد دافيد رجلاً كهلاً ممتلئ الجسم، بدا عليه المرح والبساطة. دعاها إلى الدخول ثم اتخذ مكانه خلف المكتب.

- آنسة ياسمين، حدّثيني عن نفسك.

خلال الدقائق التي تلت، أمسكت ياسمين بدفة الحوار. تحدّثت عن مسارها الدّراسي وعن التجارب المهنية القصيرة التي مرّت بها. ناقشها السيد دافيد في المشاريع التي قدّمتها لبضع دقائق إضافية ثم تنحنح ليقول معلنا:

- والآن دوري لأحدثك عن مشروع البحث. أخبريني أولاً، هل لديك روح المغامرة؟

ابتسمت ياسمين رغم استغرابها وقالت:

- أظن أنني أمتلك بعضًا منها.

- الفكرة جاءتني بعد أن تزايدت في السنوات الأخيرة محاولات الانتحار في

محيطنا المهنيّ. ليس في شركتنا بالذات، بل في الشركات المشابهة بصفة عامّة.. هذه المحاولات المتكرّرة لا شك أن وراءها سلسلة من الأسباب والعوامل التي تشترك في تفعيل تلك الرّغبة المفاجئة في القطع الكامل مع الحياة. العمل من المفترض أن يكون مصدر العيش الكريم، بل هو غالبًا مجال تحقيق الذات والإبداع. قد ينطوي على بعض المشكلات، نعم. قد يشعرنا ببعض الضغط من حين إلى آخر، بالتأكيد. وإن زاد الأمر عن الحدّ أمكننا تركه والبحث عن غيره؛ ليس زواجًا كاثوليكيًا لا طلاق فيه مثلاً! لذلك فإنه من المدهش أن يكون العمل سببًا في التفكير في الموت. أعني.. قد يصاب عاطل عن العمل باليأس، هذا مقبول. لكن ماذا بشأن من يزاول مهنة لائقة ومحترمة؟ ألا توافقينني؟

هزت ياسمين رأسها علامة التأييد وواصلت الاستماع في انتباه.

- يبدو لي أن الأمر يستحق دراسة معمّقة، من حيث الأسباب المباشرة في محيط العمل، ثم الحلول الممكنة من وجهة نظر الدراسة الاجتماعية.. أقصد ما يجب على الشركة أن توفّره، عن ثقافة التواصل في إطار الشركة وما إلى ذلك.

نقر بأصابعه على المكتب وهو يتابع:

- اختلفت مع المدير حول الموضوع، فهو يرى أن البحث لن يفرز جديدًا نجهله.. في حين أعتقد أنه قد يقدّم إجابات مدهشة وغير متوقعة. هل ترين نفسك أهلاً لهذا المشروع؟

أجابت ياسمين في حماس:

- نعم، أعتقد أنني قادرة على خوض هذه المغامرة.

ضحك دافيد في سرور وهو يسألها:

- أرسلك السيد دانيال، أليس كذلك؟

هزّت رأسها موافقة، فأضاف:

- لم أحبّ يومًا العمل بالوساطة، لكنني محظوظ اليوم لأنهم أرسلوكِ إليّ.

ثم عاجلها بلهجة جادّة هذه المرة:

- إذن.. متى تبدئين؟

همست في غير تصديق:

- إذن فقد قبلتني؟!
- تريدين التراجع؟
- لا أبدًا. لكن يلزمني بعض الوقت حتى أجد شقة في باريس و...
قاطعها في حزم:
- إذن نبدأ الشهر القادم. سأطلب تحضير مكتبك. في الأثناء رتبي أمورك كلها. اتفقنا؟

خرجت من المكتب وهي لا تصدّق ما حصل للتوّ. لقد تمّ قبولها، ومن قبل شخص اسمه «دافيد»! لقد وجدت تمويلاً لرسالة الدكتوراه! و «حبّة الكرز على الكعكة»* (كما تقول العبارة الفرنسيّة) هي موضوع البحث ذاته. لم تتوقّع أن يستأثر القدر من أجلها بهذه الفرصة المميّزة، وهي التي تعوّدت على الرّفض والمنافذ المسدودة. كانت ابتسامة عريضة تزيّن شفتيها وهي تتوجّه إلى المصعد. نعم، ستقيم في باريس للسنوات الثلاث القادمة على الأقل.

فجأة تقلصت ابتسامتها حين لمحت بطرف عينها الشاب الذي عكّر صفو صباحها بتعليقه السّمج. لكن فرحتها كانت أكبر من أن تمحوها حادثة عديمة القيمة. كان مزاجها في تلك اللحظة يسمح بفائض من الصفح والتّجاوز. تابعت سيرها دون أن تلقي إليه بالاً، لكنّه بادرها على الفور:
- آنسة..آآ.. أنا آسف حقًا بشأن ما قلته سابقًا، لم أقصد الإهانة.
- لا بأس؛ نسيت الأمر.
- أرجو أن مقابلتك كانت موفقة.
- نعم، كانت موفقة.

هل كانت تريد إغاظته؟ أم أن صدرها ضاق بالفرحة فأرادت أن تشاركها شخصًا ما؟ أضافت في جذل:
- لقد قُبلت.

هل كانت الدّهشة هي ما قرأتها في وجهه مع كلماتها الأخيرة؟ من الواضح أنه لم يتوقّع تلك الإجابة، لكنه أردف بسرعة مداريًا ارتباكه:
- تهانينا إذن. يبدو أننا سنصبح زملاء.

*La cerise sur le gâteau

كان المصعـد قـد وصـل. حيّتـه ياسـمين بكلمـات مختـصرة وابتعـدت في اتجـاه المصعـد. مـا أن انفـردت بنفسـها حـتى تنهـدت بقـوّة وتركـت العنـان لدمـوع الفـرح.

في الأثنـاء، عـاد الشـاب أدراجـه في اتجـاه المكتـب الثـاني مـن الطابـق الثامـن. قـرع البـاب بسرعـة ثـم فتحـه دون أن ينتظـر الإذن. جلـس قبالـة دافيـد وهـو يهتـف في غـير تصديـق:

- هل صحيح أنك قبلتها؟

رفع دافيد عينيه وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، ثم قال في هدوء مستفز:

- مرحبا باتريك.. عمّ تتحدث؟

- تلـك الفتـاة الـتي تلبـس غطـاء رأس. رأيتهـا تخـرج مـن مكتبـك وقالـت بأنـك وافقـت عـلى عملهـا هنـا.

- آه، الآنسة ياسمين؟ إنها شخصية نادرة، وآمل أن تنجز بحثًا مميزًا.

هتف باتريك في انفعال:

- أنت جادّ؟ هل نظرت إليها جيّدًا قبل أن تتخذ قرارك؟

حدجه دافيد بنظرة طويلة، ثم قال في تأنٍّ:

- لـم أنظـر فقـط إلى شـكلها.. بـل إلى سـيرتها الذاتيـة، إنجازاتهـا، تجاربهـا.. وتحدّثـت إليهـا أيضًـا، وأظنهـا الكفـاءة اللازمـة لإنجـاز البحـث المطلـوب.

- لكـن.. كيـف تكـون كفـاءة وهـي تخضـع لقوانـين عرفيـة تجبرهـا عـلى أن تغطـي جسـدها؟

- تريـد رأيي؟ لا يهمـني بمـاذا تؤمـن وماهـي معتقداتهـا. مـن الناحيـة العلميـة، هـي مناسـبة للعمـل الـذي انتدبتهـا مـن أجلـه. طالمـا تقـوم بدورهـا كمـا يجـب، فشـكلها لا يقلقـني.

- أشك في أن هذا سيكون رأي المدير وبقية فريق العمل.

عقد دافيد ذراعيه أمام صدره في ثقة وهو يقول:

- دعني أرد عليهم إذن.

تابع بعد صمت قصير:

- صدّقـني، اختلافهـا سـيمكنها مـن تقديـم رؤيـة جديـدة ومختلفـة. لـن يكـون اندماجهـا سـهلاً، لكنهـا إن نجحـت فـإن نجاحهـا سـيكون باهـرًا.. ونجاحهـا هـو

نجاح للشركة كلها.

*****

نظرت ياسمين مرة أخرى إلى قصاصة الورق التي كتبت عليها عنوان الخالة زهور وهي تسير عبر الشارع الهادئ في ضاحية «مونترُويْ» * الباريسية. ما أن علمت زهور بمجيئها إلى باريس حتى أصرّت على قضائها الليلة عندها. زيارتها كانت من ضمن المهام القليلة التي أوصتها بها والدتها. ليست مهمّة بأتم معنى الكلمة، فهي رغبتها أيضًا.. أن ترى كيف صارت تلك العائلة التي تخزن في ذاكرتها صورًا مشرقة عنها. بنت بريئة وولد شقي وأقلام تلوين. بقايا ذكريات عذبة تسافر إليها الذاكرة كلما انتباها الحنين إلى وداعة الماضي.

لكن فاطمة كانت ترى الأمر بشكل مغاير. إقامتها في ليون كانت مع عائلتها، والدها وأخويها، لكنها عائلة لا تمتّ إلى الإسلام بصلة. لم تكن في حاجة إلى أن ترى بعينيها ما عاينته ياسمين منذ وصولها لتدرك ذلك. فهي لم تنس -وأنّى لها أن تنسى- أن تلك النقطة الخلافية كانت السبب المباشر لانفصالها عن كمال. لذلك فإنها حرصت على أن تجعلها تلتقي زهور وذويها، ربما لتذكرها أنّ إلى جوارها من يمكنها أن تثق فيهم وتعتمد عليهم في وقت الحاجة، مثلما اعتمدت هي عليهم في السّابق، في بداية مشوارها. وربما لتطمئنها إلى أنها ليست المسلمة الوحيدة على الأراضي الفرنسية.

ابتسمت ياسمين عند ذلك الخاطر. يمكن لوالدتها أن تطمئن، ليست المسلمة الوحيدة في ليون. خطر على بالها شاب المترو فجأة. لم تكن قد رأته منذ أيام. منذ أن تحوّلت وجهة أفكارها إلى باريس. شعرت بالانقباض وهي تفكر في رحيلها القريب عن ليون.. قد لا تراه بعد ذلك.

- ياسمين؟

كانت تقف أسفل الشارع وهي تبحث عن البناية المقصودة، حين

---

*Montreuil: تقع في الضاحية الشرقية لباريس. تتميّز بتنوّعها الإثني، حيث يقيم بها أفراد من ٩٠ جنسية مختلفة.

Opeikangj.com

شابة تصغرها بسنتين اثنتين. طالعتها بابتسامة ثم سألتها بدورها:
- ميساء؟

تعانقتا في ودّ ثم سارتا يدًا بيد حتى منزل العائلة. يا الله! كم تغيّرت ميساء! كبرت كثيرًا وأصبحت أكثر جمالاً وإشراقًا من الطفلة التي يظهر وجهها على معظم الصور التي تملأ صندوق كنوزها. كانت كل منهما تتأمل الأخرى كأنها تبحث في تقاسيمها عن ملامح الطفولة الغابرة.. ثم استرسلت الألسن في الحديث كأنهما تواصلان حوارًا قديمًا لم يكتمل أبدًا.

حين تجاوزتا سور الحديقة، لمحت ياسمين الخالة زهور تقف عند رأس السّلم الحجري، تترقّب وصولها في لهفة واضحة. ما أن وصلت إلى مستواها حتى عانقتها بحرارة وحفاوة. أخذت بيدها وقادتها إلى الدّاخل. أجلستها إلى جانبها على الأريكة وراحت تتأمل وجهها في حنين وشوق، كأنها تسترجع عبر ملامحها ذكريات قديمة. تكلمت أخيرًا وفي صوتها كثير من اليقين:
- تشبهين والدتك تمامًا حين كانت في مثل سنك.

خلال ساعات طويلة استمرّت زهور تحدّثها عن مواقف شتى جمعتها بوالدتها في سنوات الشباب. استمعت إليها ياسمين في متعة وامتنان. تحاول استشفاف المسكوت عنه في حكايات أمّها عن التاريخ الذي مضى عبر نوادر خالتها زهور المتفرّقة. ترقع الثقوب وتسدّ الفراغات وتكمل ما نقص بتوقعاتها. رغم لقائها الوحيد بهما في الماضي، ورغم الزمن الذي باعد بين سبلهما، لم تحس بالغربة وهي بينهما أبدًا. كأنها تلتقي صديقتين حميمتين وتتبارى كل منهنّ على إفراغ جعبتها من الحكايا المضحكات والمبكيات عن زمن الفراق..لعله تّتداركن ما فات.

حين فتح الباب الخارجي، كانت الجلسة قد انتقلت إلى المطبخ، فانهمكت زهور في إعداد طعام العشاء دون أن تفوّت كلمة ممّا تقوله البنتان. كان عبد الحميد وولداه هيثم ووائل قادمين من المسجد. هيثم الذي كان يكبرها بثلاث سنوات كان قد أنهى دراسته الجامعية في كلية الهندسة ويعمل منذ سنتين في شركة متخصّصة في علوم الحاسب. شعرت بالرّهبة وهي ترى رجلاً يحاكي في طوله العمالقة يقف أمامها. وجدت صعوبة كبيرة في الرّبط بينه وبين الطفل الذي كان يرسل إليها رسومًا بقلمه يذيّلها بنكات مضحكة وخربشات شقية. دون أن تشعر تسللت بسمة خفيفة إلى شفتيها

وهي تطالعه في ارتباك. أما هو فقد لبث يقف بعيدًا وهو يخفي كفيه في جيوبه وشكله يوحي بمعاناته من ارتباك مماثل. حيّاها وسأل عن أحوالها باقتضاب ثم انصرف إلى غرفته بعد أن أدّى الواجب. كان النضوج قد محا شقاوة الصبا، لا شك.

أما وائل الذي كان في العاشرة من عمره فقد جلس إلى المائدة في بساطة وأخذ يستمع إلى أحاديثهن وهو يؤرجح ساقيه بشكل متواتر. في حين انسحب عبد الحميد إلى غرفة الجلوس وشغل التليفزيون على مباراة رياضية، ثم انهمك في مطالعة جريدة قديمة في انتظار أن يجهز طعام العشاء.

استطردت زهور التي كانت مسترسلة في حديثها:

- لست أدري إن كان بإمكاني أن ألوم فاطمة لأنها رحلت بك عنا. في ذلك الحين ظننتها قد تسرّعت.. لكنني أعلم في نفس الوقت أن تربية طفلة صغيرة بمفردها لم يكن سهلاً. لو لم يكن عمّك عبد الحميد هنا يباشر توجيه الأولاد أولاً بأول لما نجحت تربيتهم. ومع ذلك.. انظري إلى وائل، لم يفلت من جرعة دلال زائدة. آخر العنقود!

قالت ذلك وهي تضحك في حين أطرق المعني بالأمر وقد احمرّت وجنتاه وعلى وجهه علامات احتجاج مكتومة. شاركتها ياسمين الضحك، ثم سألتها في شك:

- ربما لو لم تكن والدتي قد سافرت.. ربما لم تكن لتنفصل عن والدي؟

نظرت إليها زهور نظرة مطوّلة وكأنّ في خاطرها كلامًا تشفق عليها منه، ثم قالت في لهجة حانية:

- العلاقة بين والديك كانت منتهية قبل أن يحصل الطلاق وقبل أن تسافر فاطمة. لم يكن هناك حل آخر.

سرحت ياسمين بنظراتها ولم تعلق. هل كانت تريد أن توقع اللوم على والدتها لأنها حرمتها من وجود أب في حياتها؟ أو ربما كانت تحاول إيجاد مبررات لوالدها الذي يبدو تعيسًا هذه الأيام؟ في نهاية الأمر، كلاهما تعيس هذه الأيام.. وإن اختلفت الأسباب.

سألتها ميساء لتغير الموضوع:

- متى تبدئين العمل؟

- الشهر القادم إن شاء الله.

هتفت ميساء في حماس:

- ممتاز.. إذن ستأتين للإقامة بيننا؟

ثم التفتت إلى والدتها تطلب تأييدها:

- أليس كذلك يا أمي؟ هناك مساحة كافية في غرفتي لوضع سرير إضافي.

هزت زهور رأسها موافقة فابتسمت ياسمين في امتنان:

- أشكركم كثيرًا على هذا الكرم.. لكنني أفضّل البحث عن غرفة في سكن طلابي حتى لا أضيّق عليكم.

كانت تعلم أنه لا مجال للتضييق على أحد في منزل واسع ذي طابقين، لكن زهور استوعبت حرجها من نظرة واحدة، لذلك لم تلحّ عليها. وجود ثلاثة رجال أجانب عنها- إذا ما تمّ احتساب وائل المعتدّ برجولته على صغر سنّه- في البيت عامل لا يمكن الاستهانة به. استطردت ميساء في أسف:

- كان بودّي أن أتقاسم معك الغرفة، لكن لا بأس.. سأنط إلى مسكنك كل يوم إن استوجب الأمر.

اتسعت ابتسامة ياسمين وهي تقول:

- على الرّحب والسعة. يجب أن أسافر غداً إلى ليون، ثم أعود في نهاية الأسبوع للبحث عن شقة.

- ممتاز.. وتظلين معنا حتى تجدي شقة، أليس كذلك؟

لم تستطع أن تمتنع هذه المرّة، فأومأت في تسليم.

- أين تقع الشركة التي ستعملين بها؟

- في ناطحة سحاب ذات ثلاثين طابقًا، في منطقة «لاديفونس»* التجارية.

- ممتاز، أذهب كثيرًا إلى المركز التجاري هناك للتسوّق في أوقات التخفيضات. ثم هيثم يعمل في شركة في نفس المنطقة.. لن يكون من الصّعب إيجادك!

قاطعهن صوت باب غرفة داخلية وهو يفتح في حركة قوية، ظهر على إثرها هيثم وهو يهتف

---

* La Défense:أول منطقة تجارية أوروبية باعتبار المساحة. و تقع في نهاية المحور التاريخي لباريس، والذي يبدأ من متحف اللوفر مرورا بالشانزلزيه وقوس النصر، ثم إلى جسر نويي، ثم أخيرا إلى قوس لاديفونس.

في انفعال قبل أن يتوجه إلى غرفة الجلوس:

- أمر لا يصدّق.. انفجار فظيع في ليون!

تحرّك الجميع في اندفاع غريزي نحو غرفة الجلوس، حيث كان التليفزيون مفتوحًا على مباراة رياضية. اعتذر هيثم من والده وحوّل الإرسال إلى محطة إخبارية. وما لبثت النظرات أن توقّفت مذهولة أمام الشاشة التي تنقل صورًا مروّعة. اتسعت الأعين عن آخرها وهي تتابع الخبر العاجل الذي تنقله جميع المحطات التليفزيونية الفرنسيّة مباشرة من قلب مدينة ليون.

ظهر المراسل وهو يضع كمامة بيضاء على وجهه أمام المبنى الذي انهار قسم منه بالكامل واشتعلت النيران الحارقة في بقاياه، بينما انهمك رجال الإطفاء في محاولات السّيطرة على الحريق. صفارات سيارات الإسعاف كانت تتردّد بصوت حادّ مع تواصل عمليات إجلاء المصابين من مكان الحادث.

- الانفجار الذي دوّى منذ نصف ساعة في قلب مدينة ليون شعر به كل سكان المدينة بدرجات متفاوتة، فالهزة الأرضية التي تلته كانت بقوة ٢٫٥ على مقياس رختر وكان لها تأثير ملموس على المباني المجاورة التي تحطمت واجهاتها الزجاجية وظهرت بعض علامات التصدّع في أماكن متفرقة من الجدران والأسقف. عدد الضحايا يرتفع إلى ثمانية أشخاص حتى الآن، كلّهم من موظفي شركة الكيميائيات، مصدر الانفجار.. بالإضافة إلى بضع إصابات حرجة. معظم الإصابات خارج المبنى خفيفة ومتوسطة وناتجة في أغلبها عن تناثر الشظايا إثر الانفجار، ويتجاوز عددها الثلاثين حالة. لا نعلم بعد ماهو مصدر الحادثة وكيف يمكن أن يتطوّر الوضع.

التفت المراسل إلى رجل كان يقف إلى جانبه ويضع بدوره كمامة وخوذة حماية:

- معنا على عين المكان الأستاذ برنار الخبير في حوادث التفجير.. سيدي، هذه الحادثة تذكرنا بحادثة أخرى لم يمض عليها زمن طويل، أليس كذلك؟

- بالفعل، الانفجار في شكله يذكرنا بما حدث في مدينة تولوز في المصنع التابع لشركة طوطال في الـ٢١ من سبتمبر سنة ٢٠٠١. مع الفارق من حيث عدد الضحايا وقيمة الخسائر. فحادثة تولوز ذهب ضحيتها ما يفوق

ثلاثـين شـخصًا.. لا ننـسى أنهـا وقعـت في نحـو العـاشرة صباحًـا، أي في ذروة نشـاط المصنـع.

- هـل تتوقعـون سـيدي أن تكـون العمليـة اعتـداء إرهابيًـا مثلمـا حصـل في تولـوز؟

- في الوقـت الحـالي، جميـع المـؤشرات تدفعنـا إلى الاعتقـاد بحصـول حادثـة، وإن كنـا لا نملـك لهـا تفسـيرًا واضحًـا. حـتّى حادثـة تولـوز الـتي مـرّت عليهـا سـنوات ثـلاث لـم يقـع البـتّ في أمرهـا بعـد. لكـن الاعتقـاد بوقـوع اعتـداء إرهـابي أتى في الأسـاس مـن التقـارب الزمـني بينهـا وبـين اعتـداءات الحـادي عـشر مـن سـبتمبر عـلى البرجـين التوأمـين بنيويـورك.

- شـكرًا لـك سـيدي. أعـزائي المشـاهدين، نعـود إليكـم بعـد قليـل حـين تردنـا معلومـات إضافيـة.

تحركـت ياسـمين مـن أمـام الشاشـة في توتـر وتناولـت هاتفهـا. انتظـرت للحظـات في لهفـة وقلـق قبـل أن يأتيهـا صـوت سـارة المنفعلـة مـن الإثـارة:

- لقـد سـمعت الانفجـار مـن غرفـتي، والبيـت كلـه أخـذ في التأرجـح لعـدّة ثـوانٍ.. لقـد أصبـت برعـب حقيقـي.

- هل الجميع بخير؟

- كلنا بخير لا تقلقي.

تنهـدت في ارتيـاح ثـم هـزّت رأسـها مطمئنـة، إجابـة عـلى التسـاؤل القلـق في الأعـين المحدقـة بهـا. في نفـس الوقـت أخـذ كمـال السـماعة مـن سـارة وسـألها في اهتمـام:

- ياسمين، متى تعودين؟

- أركب القطار غدًا صباحًا.

قال في صوت أراده هادئًا لكنّها لمست فيه شيئًا الاضطراب:

- مـن الأفضـل أن تبقـي هنـاك لبعـض الوقـت. الحركـة معطلـة في وسـط المدينـة.. لـم يتـمّ التعـرّف عـلى نوعيّـة المخلفـات الـتي أفرزهـا الانفجـار.. ربمـا تكـون خطـرة. رجـال الحمايـة يحـاصرون المـكان والمطلـوب مـن الجميـع البقـاء في منازلهـم حـتى إشـعار آخـر.

أجابت في ضيق:

- حسن.. سأبقى هنا يومين إضافيين إلى أن تستقر الأمور.

openkandal.com

قالـت ذلـك وهـي تنظـر إلى الخالـة زهـور تطلـب إذنهـا. ابتسـمت المـرأة في حنـوّ وهـي تهـز رأسـها علامـة التأييـد. شـكرتها ياسـمين بنظـرات صامتـة وعـادت إلى اتصالهـا:

- طمئنّي أولاً، جميعكم بخير؟

- الجميـع بخـير. حيّنـا بعيـد عـن مـكان الانفجـار، لكـنّ الوضـع مضطـرب وسـط المدينـة. يجـب أن أذهـب الآن.. تلقيـت دعـوة للانضمـام إلى فريـق الخـبراء. سـنعمل عـلى تحديـد نوعيـة المخلفـات بـأسرع مـا يمكـن.

أضاف فجأة بلهجة ذات معنى:

- هـل تعلمـين؟ الانفجـار حصـل في شركـة دانيـال.. الصديـق الـذي أعطـاك التوصيـة.

فتحـت ياسـمين عينيهـا عـن آخرهـا في ذهـول ولـم تنبـس ببنـت شـفة. كانـت مجريـات ذلـك اليـوم العجيـب منـذ بدايتـه تلجمهـا وتسـتفزّ أفـكارًا في أعماقهـا.. عـن عجائـب القـدر.

o p e i k a n d l . c o m

obeikandl.com

-١٠-

الانفجار

كان ينبغـي أن تسـير التجربـة عـلى مـا يـرام. لـم يكـن الانفجـار متوقعًـا أو ممكنًـا.

ما حصل يتجاوز قدرة استيعابه.

يتجاوز إدراكه.

يتجاوز إحساسه الملتهب بحرارة المكان من حوله.

لكنّ قدره كان مختلفًا عن كلّ التوقعات.

Obeikandl.com

obeikandl.com

ما بعد الانفجار

التداعيات

«ربّما كانت اللحظة التي أدركت فيها تغيّر نظرتها إلى الأمور هي اللحظة الفاصلة في مسيرتها الشخصيّة. تكّة موسيقيّة، تسمعها وحدها، ترنّ في وعيها فجأة لتعلن مرورها إلى مرحلة أخرى».

obeikandl.com

obeikandl.com

-١١-
مشتبه به

داخل قسم الطوارئ في المستشفى المدنيّ بليون، انتشر الجرحى الذين بلغ عددهم بضع عشرات برفقة ذويهم على مقاعد قاعة الانتظار، وتهاوى آخرون على الأرضيّة المبلطة بعد حصولهم على الكشف المبدئيّ، بينما توالى نقل الجثث إلى غرف المشرحة. استمرّت عمليّة الإنقاذ لساعات عدّة، وكانت الحالات الحرجة ومتوسطة الخطورة تنقل إبّان ورودها إلى غرف العمليات التي غصّت بفرق جراحة تمّ استدعاؤها على وجه السرعة لاستيعاب الأزمة.

كان أخصائيّ نفسيّ يجوب أنحاء المكان لطمأنة المصابين والتأكد من تجاوزهم الصّدمة، يتبعه محققان من الشرطة بلباس مدنيّ. راحا يجولان بالقاعة ويستجوبان شهود العيان الذين بدا عليهم الوعي الكامل. استمرّ عملهما لساعات طويلة بحثًا عن كلّ الأدلة الممكنة، مؤشرات أو حتى تفاصيل إضافية عن توقيت الحادث وملابساته. لكن لم يكن لأحدهم أن يدرك كنه شلالات النيران الحارقة التي تدفّقت على حين غرّة لتغرق الشارع بمن فيه. «شلالات»، هكذا وصفها الشهود، في حين استعمل آخرون لفظ «بركان». غُدر به المارّون عبر الشارع الذي تطلّ عليه نوافذ مبنى شركة الكيميائيات، ورآه بوضوح أكبر الجلوس في المطاعم الصغيرة المتاخمة له، والتي لم يكن غيرها من المحلات يفتح في تلك الساعة من الليل. أمّا من شاهد الحادث من نوافذ المباني البعيدة فقد وصف الانفجار بفقاعة ضخمة ارتفعت في السّماء قبل أن تنفجر وتفيض حممها.

بعد تدقيق مطوّل عبر القاعات الخارجيّة، تحرّك الرّجلان باتجاه غرف العناية التي يرقد فيها أصحاب الإصابات العميقة. لم تكن حال أغلبهم تسمح بالاستجواب الفوريّ. توالى النقر على الأبواب المغلقة وتكرّرت إشارات الممرّضات السلبيّة. ليس الآن. أخيرًا توقّفا عند غرفة أرشدتهما إليها إحدى الممرضات ورفع أحدهما شارته الخاصّة أمام الطبيب، الذي كان ينهي تدوين ملاحظاته عن الحالة. سأل المحقق وهو يلقي نظرة على

الرجل المسجي على السرير وعيناه تحدقان في سقف الغرفة:

- هل يمكن استجوابه؟

أومأ الطبيب برأسه علامة الإيجاب ثم اتجه إلى المريض الرّاقد وخاطبه برفق:

- سيدي، الشرطة تريد شهادتك في شأن الحادثة. هذا الرجل سيطرح عليك بعض الأسئلة. هل تحسّ في نفسك القدرة على الإجابة؟

التفت إليه الرجل في رعب وهتف على الفور:

- لقد كان الأمر فظيعًا.. فظيعًا للغاية.. هؤلاء الشبان المساكين.. لن ينجو أحدهم!

جذب المحقق كرسيًا واستوى قرب رأسه مترقّبًا كل كلمة:

- نريد منك أن تحدّثنا بما حصل مساء اليوم بالتفصيل.

تنهد حارس الشركة الليلي في إعياء ثم أخذ نفسًا عميقًا وراح يسرد تفاصيل الأمسية المأساوية:

- وصلت على السّاعة الثامنة كعادتي، توجّهت إلى الاستقبال حيث كان موظف النّهار ينهي مهامّه.. سلمني المفاتيح وانصرف. بدأت دوامي مثل كل مساء بجولة عامّة عبر مباني الشركة، لأتثبت من مغادرة الجميع.. أطفئ الأنوار وأغلق الأبواب التي نُسيت مفتوحة وأتفقد غرف الاستراحة متصيّدًا أعقاب السجائر المشتعلة.. أطمئن إلى توفّر كل ظروف السلامة.

- أعقاب سجائر مشتعلة؟!

- لا، ليس هذه الليلة. أنا أعمل في الشركة منذ ثماني سنوات، ولم تحصل أبدًا أي حرائق أو انفجارات طوال هذه الفترة. في الأصل، المختبرات لا تحتوي إلا على كميات بسيطة من المواد القابلة للاحتراق.. والمعمل الذي تخزّن فيه هذه المواد يبعد عن الشركة نحو ستة كيلومترات خارج المدينة. لذلك فإن احتمال حصول حادثة من هذا النوع ضئيل جدًا.

- هل كان هناك أحد غيرك في المبنى حين وصلت؟

- كان هناك عدد قليل.. في مبنى الأبحاث، في الطابق الرابع، كان هناك احتفال بترقية أحد الباحثين الشبان استمر إلى وقت متأخر. حين مررت قرب غرفة الاستراحة، سمعت صوت ضحك وصخب. طلبت منهم الانصراف، فدعوني إلى مشاركتهم الكعكة.. لكنني اعتذرت وحثثتهم على

Obeikandi.com

إكمال احتفالهم بسرعة حتى أغلق الأبواب، وعوّلت على المرور بعد عشر دقائق لتفقد الأمر.. لكن الانفجار فاجأنا جميعًا! لا شك أنّه قد أودى بحياتهم، هؤلاء المساكين في ريعان الشباب!

- هل كان هناك غيرهم؟

- نعم، كان هناك دكتور يتابع عمله في المختبر. تعوّدت أن أراه يعمل إلى ساعة متأخرة طيلة الأسبوع الماضي. إنسان جديّ ويستحق الاحترام.

- في المختبر؟ هل كان موقعه قريبًا من مكان الانفجار؟

- نعم، المختبر يقع في الطابق الرابع أيضًا.. غير بعيد عن غرفة الاستراحة.

التفت المحقق الأول إلى زميله الذي وقف عند رأسه يدوّن كل ما يقوله الشاهد وقال:

- هل تعتقد أنها تجربة ما في المختبر تحوّلت إلى كارثة؟

هز الآخر رأسه مؤيدًا وهو يقول في تجهّم:

- احتمال وارد جدًا.

- واصل من فضلك.

- طلبت من الدكتور أن يغلق المختبر حين ينتهي من عمله وواصلت جولتي. لم يكن هناك أحد في بقية الأقسام.

استدرك فجأة:

- كانت هناك سيدة شابة رأيتها تعدو على السلالم نازلة من الطابق الرابع.. كنت حينها قد أنهيت تفتيش مكاتب الطابق الثالث. وبعد أن سمعت الانفجار الأول، رأيتها تركض إلى الخارج. لا شك أنها قد فزعت وخافت على حياتها فنجت بجلدها.

- قلت الانفجار الأول؟

أجاب وهو يحاول استرجاع التسلسل الزمني لأحداث تلك الليلة:

- نعم، أذكر جيّدًا ما حصل.. بعد أن مررت بالمختبر نزلت إلى الطابق الثالث، وبعد أن سمعت الدكتور يصلي بدقيقتين تقريبًا دوّى الانفجار الأوّل. بعد ثوانٍ قليلة، مرّت السيدة راكضة أمام بوابة الطابق الثالث نازلة السلالم.. كانت قادمة من الطابق الرابع لا شك.. ثمّ...

قاطعه المحقق في تحفّز وكأنه قد أمسك بخيط ما:

- قلت إنك سمعت الدكتور يصلي؟

- نعـم، أعتقـد أنـه كان يصـلي.. سـمعته يقـول كلمـات يردّدهـا المسـلمون في صلاتهـم.

أثـارت تلـك النقطـة انتبـاه المحققـين. إذن الدكتـور الـذي كان في المختـبر مسـلم. هـذا يغـير الكثـير.

- ماذا كان يقول بالضبط؟

- لا أذكـر الكلمـات بدقّـة.. لكنـني أقطـن في حـيّ شـعبيّ ولـديّ جـيران مسـلمون منـذ سـنوات طويلـة، وقـد رأيتهـم يصلـون مـرات كثـيرة في الشـوارع.. يـوم الجمعـة غالبًـا. والنـداء الـذي يردّدونـه في الصّـلاة يشـبه الكلمـات الـتي سـمعتها هـذا المسـاء.. «الله أكـبر».. نعـم تلـك هـي «الله أكـبر».

- كيـف سـمعتها بمثـل هـذا الوضـوح وأنـت في الطابـق الثالـث والمختـبر في الطابـق الرابـع؟

- لأنه كان يصرخ بصوت عالٍ.

- يصرخ بصوت عالٍ «الله أكبر»؟

هـزّ الحـارس رأسـه موافقًـا في شيء مـن الارتبـاك. ربمـا كان ذلـك غريبًـا فعـلاً. لـم يـر الدكتـور عمـر يصـلي في المختـبر مـن قبـل، فضـلاً عـلى أن يسـمعه يـصرخ في الليـل والشركـة شـبه خاليـة. هـل كان يجـدر بـه أن يشـك في الأمـر؟ يبـدو أن الأمـر يثـير شـكوك المحققـين بشـكل مـا.

في تلـك اللحظـة، علـت جلبـة شـديدة في الممـرّ وكـثر الركـض واللغـط. وقـف رجـلا الشرطـة عـلى الفـور وخرجـا مـن الغرفـة للتحقّـق مـن الأمـر. كانـت سريـر نقـال يدخـل المستشـفى في تلـك اللحظـة وقـد تجمّـع حولـه عـدد كبـير مـن الأطبـاء والممرّضـين، وقـد انشـغل كل منهـم بتقديـم نـوع مـن الإسـعافات الأوّليـة، في حـين كان أحدهـم يجثـم عـلى صـدر المريـض محـاولاً إقحـام أنبـوب التنفـس في حنجرتـه. رفـع المحقـق شـارته للتعريـف بنفسـه أمـام أحـد الممرّضـين، كان يركـض خلـف السريـر الـذي اختفـى داخـل إحـدى غـرف العمليـات. هتـف المحقـق في لهجـة حازمـة:

- ما الذي يحصل؟

- حالـة خطـيرة.. شـاب ثلاثيـني مـن أصـل عـربيّ تـمّ العثـور عليـه تحـت الأنقـاض، وقـد أصيـب صـدره وأطرافـه بكسـور عديـدة وحـروق مـن الدّرجـة

obeikandl.com

الثالثة تغمر نصفه الأسفل.

- هل هو على قيد الحياة؟

- لا ندري إن كان سيعيش، حنجرته متورّمة وعملية إدخال أنبوب التنفس تبدو عسيرة. حين وجدناه كان قلبه متوقفًا. قمنا بتدليك الصدر للحصول على نبض ضئيل.. الصعقات الكهربائية لم تكن ممكنة مع انتشار الحروق على صدره وفي كل أرجاء جسمه.. الأطباء يقومون بكل المستطاع لإنقاذ حياته.. لكن فرص النجاة ليست كبيرة، خصوصًا أنه كان قريبًا جدًا من مصدر الانفجار.

ابتعد الممرّض في خطوات واسعة ليلحق بالركب، في حين تسمّر المحققان في مكانيهما. تبادلا نظرة طويلة لا تحتمل إلا معنى واحدًا وعبارة «من أصل عربي» تتردّد في ذهنيهما.

لدينا مشتبه به.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٢-
تقاطع

الجامعـات في باريـس نوعـان، النـوع الأول حديـث التّشـييد، تجـده غالبًـا في الضواحـي القصيّـة، يتّسـم بالواجهـات البلّوريـة اللامعـة والتقليعـات العصريـة في الشـكل والهندسـة. أمـا النـوع الثـاني فيتربّـع في قلـب المدينـة القديمـة، لـولا اللافتـات الـتي ترشـد إليـه لأخطأتـه العـين بسـهولة. بنـاءات شـامخة، حجـارة ملسـاء ضخمـة وأعمـدة رخاميـة تحمـل تاريخًـا وتحـكي قصـة عـن حيـاة الـترف والبـذخ الـتي كانـت تتهـادى في أنحائهـا، بعـد أن كانـت قصـورًا ملكيّـة في حيـاة سـابقة. في عـصر لـم يكـن للعلـم فيـه قيمـة ومقـام، كانـت الفخامـة حكـرًا عـلى الملـوك وحاشـياتهم. حـين سـقطت الملكيّـة تحوّلـت القصـور والملكيـات الخاصّـة إلى متاحـف أو مبـانٍ حكوميـة أو مـدارس وجامعـات.

ولـم تكـن «جامعـة باريـس ديـدرو»، نسـبة إلى الفيلسـوف الفرنـسي «ديـدرو»*، متعـدّدة التخصّصـات الـتي ترتادهـا ميسـاء لتشـذّ عـن القاعـدة. بالإضافـة إلى بنائهـا العتيـق الهائـل وموقعهـا المهيـب عـلى ضفـاف نهـر السـين، كانـت تحيـط بهـا حديقـة مترامـية الأطـراف يكسـوها عشـب نـضر تناثـر فوقـه عـدد مـن الطـلاب جلوسًـا ورقـودًا، يتسـوّلون أشـعة الشـمس لتكسـو جلودهـم الباهتـة حمـرة وسـمرة. تخطـت ياسـمين بوابـة الجامعـة رفقـة ميسـاء وهـي تتطلـع حولهـا في فضـول. كانـت تدخـل جامعـة فرنسـيّة للمـرّة الأولى وكان المشـهد كلـه يوحـي بنـوع مـن الهيبـة. ليسـت هيبـة العلـم بقـدر ماهـي تطـاول للبنيـان.

- انتظريني هنا، سأطلع على جدول الدّروس وأعود إليك.

ابتعـدت ميسـاء بخطـوات واسـعة في اتجـاه بهـو الاسـتقبال، في حـين أخـذت ياسـمين تتمـشى وسـط السـاحة في تـأنٍّ وسرحـان. لـم تنـم كثـيرًا ليلـة البارحـة. الأحـداث تسـارعت حولهـا بطريقـة غـير متوقعـة. قبولهـا في الشركـة

---

* Denis Diderot : كاتـب و فيلسـوف فرنـسي مـن المشـاركين في الحركـة الإصلاحيـة الفكريـة والثقافيـة في القـرن الثامـن العـشر و الـتي عرفـت بحركـة الأنـوار.

الباريسية، لقاؤها مع ميساء وعائلتها، وأخيرًا الانفجار الذي حدث في شركة الكيمائيات في ليون.. كل ذلك يوحي إليها بأن مرحلة جديدة من حياتها ستبدأ أخيرًا في باريس. سيكون عليها أن تستقرّ هنا، وأن تشرع على الفور في البحث عن سكن. وحدها. في غربة حقيقية.

الأسابيع الماضية لم تكن سوى تدريب على الاستقلالية، والدها وإيلين كانا إلى جانبها، يعوّضان قدرًا من دور والدتها الذي انفردت به لسنوات. الآن ستقطع الحبل السُّري مرة واحدة وتتوقف عن التصرف كطفلة مدللة. الآن فقط ستعرف معنى الحريّة المسؤولة.

اتجهت نظراتها نحو فضاء مفتوح في جانب من الساحة علقت عليه لافتة كبيرة كتبت بالفرنسية «تبحث عن سكن مشترك؟ انضم إلينا». تقدّمت في اهتمام وهي تعاين المكان بنظراتها. كانت هناك لوحة بيضاء في أحد الأركان علقت عليها عروض السكن، كل قصاصة تحمل رقمًا مرفقًا بوصفٍ مختصرٍ للشقة وتعريفٍ موجزٍ بساكنيها. بادرتها الشابة التي وقفت في الاستقبال وهي تمدّ إليها ببطاقة فارغة:

- تبحثين عن سكن؟ اكتبي سنك، جنسك، وثلاث صفات تميّزك، وعلقي البطاقة على اللوحة.

ثم ناولتها بطاقة أخرى تحمل نفس الرّقم وأضافت موضّحة:

- علقي هذه على صدرك حتى يتعرّف عليك أصحاب العروض. هذه اللوحة تمكنك أيضًا من اختيار العروض التي تناسبك ثم التعرّف على أصحابها من خلال الأرقام التي يحملونها.

بدا الأمر في غاية البساطة. كانت قد انبرت تملأ البطاقة حين فاجأتها ميساء:

- أخيرًا وجدتك.. ماذا تفعلين؟

- أبحث عن سكن.. يبدو أن المهمّة أسهل مما توقعت!

- تبحثين عن سكن؟!

لم يكن صوت ميساء هو الذي جاء من ورائها. استدارت البنتان لتجدا أمامهما فتاة ذات ملامح عربية ترسم ابتسامة ودودة وهي تطالعهما. كانت تقارب ياسمين في السنّ ذات خصلات كستنائية ناعمة وقصيرة، تتهادى على كتفيها برشاقة كلّما أمالت رأسها أو دفعت أصابعها لتتخلّل شعرها في حركة

لا شعوريّة تداري بها ارتباكها. مدّت كفها لتصافح ياسمين وهي تقول في ودّ تسلل من عينيها العسليّتين ليأسر مخاطبتها على الفور:

- مرحبا أنا رنيم، أقيم بمفردي في شقة متكوّنة من ثلاث غرف: غرفة معيشة إلى جوار مطبخ مفتوح، وغرفتا نوم أستعمل إحداهما. هل تريدين استئجار الثانية؟

طالعتها ياسمين لثوانٍ قليلة، ثم هتفت دون تردّد:

- نعم أريد!

- ممتاز. متى تريدين الانتقال؟

- بعد أسبوعين. عليّ أن أسافر إلى ليون لإنهاء بعض الترتيبات وإحضار أمتعتي و...

قاطعتها رنيم وهي تقول في حماس:

- جيّد. تريدين رؤية الشقة؟

همست ميساء بالقرب من أذنها بلهجة محذرة:

- لن نذهب بمفردنا.. مع هذه الغريبة.

قالت رنيم على الفور وقد تناهت إليها همسات ميساء:

- إن شئت نذهب إلى الوكالة العقارية أولاً، تتفرجين على صور الشقة وتطلعين على العقد.. ثم ترافقنا موظفة من الوكالة لزيارة المبنى. هل يناسبك هذا؟

لم تكن كل منهما تتخيّل أن البحث عن شريك سكن سيكون بتلك البساطة. حين خرجت رنيم ذلك الصباح من شقتها، كانت تفكر في الحلول الممكنة للخروج من أزمتها المالية. تأجير الغرفة الإضافية كان القرار الذي استقرّ عليه رأيها، لكنّه لم يكن خاليًا من الخطورة. أن تُدخل شخصًا غريبًا إلى شقتها وهي فتاة وحيدة لم يكن رأيًا حكيمًا. لم تفكر في نشر إعلان في الجرائد أو على المواقع المخصّصة على الإنترنت، فكلها وسائل معتمدة من قبل المجرمين والسفاحين لتصيّد النساء الوحيدات واقتناص الضحايا.

اتجهت إلى الجامعة القريبة من مسكنها وفي رأسها فكرة واضحة. ستجد هناك الكثير من الطالبات صغيرات السنّ اللواتي يبحثن عن مسكن لبضعة أشهر، أو ربّما إلى نهاية السّنة الدراسيّة. فهي لا تريد أن يحتلّ المستأجر

obeikandi.com

الغرفة لوقت طويل، إنّما بما يكفي لتغطية عجزها المالي للفترة المقبلة. ثمّ إنّ الطالبات يعدن إلى ديارهن في الإجازات وأحيانًا في نهاية كل أسبوع، ممّا يترك لها الحرية الكاملة في شقتها معظم الوقت.

كانت واثقة من أنها ستجد زبونة جيّدة، فموقع الشقة مناسب جدًّا وعلى مسافة سير لا تتجاوز الدّقائق العشر من الجامعة. كتبت إعلانها وطبعته وقامت بتعليقه منذ الصباح على اللوحة في المدخل، وسرعان ما أقبل عليها الطلبة المهتمون بالشقة. أخذت الكثير من أرقام الهواتف وتحدّثت إلى الكثيرين. وعدتهم بالنّظر في ملفاتهم في نهاية النهار على أن تتّصل بمن يقع عليه الاختيار. لكن حين وقعت عيناها على ياسمين، عرفت أنها قد وجدت ضالتها. فتاة عربية مسلمة؟ ممتاز. يعني أقل ما يمكن من الشغب والتّهريج والأصحاب والسّهرات. كان ذلك انطباعها الأول، أو الحكم الذي أطلقته عليها حين رأت حجابها. في عرفها، الفتاة التي تلبس الحجاب هي فتاة محافظة أكثر من غيرها. وذلك يناسبها.

- تدرسين هنا؟

- لا، أبدًا.. سأبدأ الإعداد لرسالة الدكتوراه الشّهر القادم.. في شركة اتصالات.

- آه.. فهمت.

- ميساء تدرس هنا.. جئت لمرافقتها. وأنت تدرسين هنا؟

- لا، أنا أعمل محامية.

ضحكتا في مرح، ثم قالت رنيم وهي تغمزها:

- يا للصّدفة الغريبة!

بادلتها ياسمين الابتسامة وهي تقول في لهجة جادّة:

- لا أسميها صدفة.. بل قدرًا.

-١٣-
الفـــراق

- معنـا الخبـير في الطاقـة البروفيسـور سـامي كلـود. سـيّدي هـل يمكنـك أن تخبرنـا عـن نتائـج التحاليـل الـتي أجريتموهـا في مـكان الحادثـة؟

- قمنـا بتحليـل شـامل للغـازات المتسرّبـة مـن الانفجـار والترسّـبات الكربونيّـة الـتي تكوّنـت عـلى الشـظايا، للتعـرف عـلى نوعيّـة المـواد المتفجّـرة ومـدى خطورتهـا عـلى صحّـة الإنسـان.. وقـد تبـيّن لنـا أنّهـا مـن نوعيـة غـير سـامّة عـلى الإطـلاق ولا تمثـل تهديـدًا للمحيـط الطبيعـي أو البـشري.

- إذن فقد تمّ تفنيد الشكوك القائمة حول الطابع النووي للانفجار؟

- مواصفـات انفجـار الأمـس كانـت شـبيهة جـدًا بمـا نعرفـه عـن الانفجـارات النوويّـة، مـع الاختـلاف الشـديد في الحجـم طبعًـا. لكـن بمـا أنّـه لـم يتـمّ العثـور عـلى مـواد مشـعّة في مـكان الحادثـة، يمكنـني القـول دون تأكيـد بأنّـه نوع مـن التجـارب النوويّـة محـدودة الحجـم والأثـر، بحيـث تتبخّـر المـواد المشـعّة في وقـت وجـيز إثـر الانفجـار ويكـون الأثـر التدمـيريّ بسـيطًا. إذا قارنناهـا بقنبلـة هيروشـيما مثـلًا، تكـون نسـبة قوّتهـا واحـدًا إلى مائـة ألـف. والأمـر الثـاني الـذي تتـمّ دراسـته حاليًـا هـو أن تكـون مـواد مختلفـة عـن اليورانيـوم أو البلوتونيـوم -وهـي المـواد المسـتعملة عـادة في توليـد الطلقـة النوويّـة- قـد اسـتخدمت في التجربـة.

- يعني أن تلك المواد تمثل نوعًا من الطاقة النظيفة؟!

- ذلـك مـا ترجّـح لدينـا وإن كنّـا لـم نتعـرّف بعـد عـلى الماهيـة الدقيقـة لتلـك المـواد. الأبحـاث مازالـت متواصلة.

- شـكرًا لـك سـيدي. بنـاء عـلى هـذه النتائـج، مـن المتوقـع أن يتـمّ رفـع حظـر التّجـول في وسـط مدينـة ليـون ابتـداءً مـن هـذا المسـاء.

لـم تحتـاج ياسـمين إلى الاتصـال بوالدهـا لتسـتعلم عـن جديـد الوضـع في ليـون، فقـد ظهـر ذلـك اليـوم في كل النـشرات الإخباريـة يُطمْـئن سـكان المدينـة وزوّارهـا إلى زوال الخطـر. ركبـت القطـار في اتّجـاه العـودة بعـد أن زارت شـقّتها الجديـدة ووقّعـت عقـد الإيجـار. تعلـم أن شراء شـقة باريسـية يفـوق بمراحـل

obeikandi.com

ميزانيتهـا المتواضعـة، لذلـك بـدا عـرض رنيـم المحاميـة مغريًـا. ويكفـي أنّهـا ارتاحـت لتلـك البنـت منـذ اللحظـة الأولى. شيء مـا فيهـا، في نظراتهـا وروحهـا، جعلهـا تشـعر بأنهـا تعرفهـا منـذ زمـن بعيـد. ذلـك الـشيء المجهـول الـذي يجعـل غريبـين يتآلفـان فوريًّـا دون حاجـة إلى معرفـة الكثـير عـن الطـرف الآخـر.

- كيف كانت الزيارة؟

سـألتها والدتهـا عـلى الهاتـف في لهفـة. كانـت مسـتلقية عـلى سريرهـا في غرفـة المكتـب في مـنزل والدهـا في ليـون. أمسـكت الهاتـف كعادتهـا كل ليلـة لتحدّثهـا عـن أحـداث يومهـا. لـم تسـمع صوتهـا منـذ يومـين، منـذ بشرتهـا بشـكل سريـع بقبولهـا في الشركـة، وقـد حـان موعـد التفاصيـل.

- رائعـة.. أمضيـت وقتًـا ممتعًـا مـع ميسـاء والخالـة زهـور. كانتـا متشـوقتين جـدًّا لمعرفـة جميـع الأخبـار.

- و... هيثم؟

تعجبت ياسمين من لهجة والدتها الغامضة وسألتها في شك:

- ماذا عن هيثم؟

- هل رأيته؟ كيف بدا لك؟

- لم أره كثيرًا، كان في عمله طيلة النهار وفي غرفته طيلة المساء.

- طيّب.. هذا كل شيء؟

- ما الأمر؟ ماذا قالت لك خالتي زهور؟

ضحكت فاطمة وقدأدركت أنّ أمرها قد كشف. لم تكن تتقن المواربة:

- لـم أرد أن أفاتحـك في الموضـوع قبـل أن تسـتقري في عملـك وتنهـي ترتيبـات الانتقال.

- أيّ موضوع؟

تـسرّب الفضـول إلى ياسـمين وقـد اشـتمّت رائحـة مؤامـرة تحـاك بـين أمّهـا وخالتهـا زهـور.

- زهور اتصلت بي هذا الصباح وحدّثتني بشأنك.

- بشـأني؟! كتمـت ياسـمين أنفاسـها وانتظـرت تتمّـة الجملـة الـتي سـمّرتها مكانهـا:

- تريد أن تخطبك لهيثم.

سـكتت فاطمـة لعلهـا تستشـفّ ردّة فعـل في صـوت ياسـمين، لكـنّ هـذه

الأخـيرة لـم تعلـق. هـل كان صمتهـا حيـاء أم دهشـة أم صدمـة؟ لـم تكـن تسـمع سـوى صـدى أنفاسـها المضطربـة. واصلـت فاطمـة:

- طلبـت منهـا أن تنتظـر قليـلا ريثمـا تنتقلـين إلى باريـس وتشرعـين في العمـل.. ثـم أجـسّ نبضـك.

ابتسمت ياسمين وهمست:

- لكنك لم تنتظري.

ضحكت فاطمة وهي تقول:

- لم أستطع الانتظار.

قالت بعد لحظات بلهجة جادّة:

- تعلمـين، حـين تركتـك تسـافرين إلى ليـون كنـت مطمئنـة إلى وجـودك مـع والـدك وعائلتـه. لـم أحسـب حسـابًا لإقامتـك وحـدك في باريـس.. لذلـك أريـد أن أطمـئن إلى راحتـك وحمايتـك.

- لسـت بحاجـة إلى خطبـة وزواج لأشـعر بالأمـان. المبـنى الـذي سـأقيم فيـه يقـع في حـيّ راقٍ وآمـن. جميـع المداخـل مـزوّدة بكامـيرا مراقبـة. المدخـل الأول يفتـح برقـم سريّ والمدخـل الثـاني يحتـاج إلى بطاقـة ممغنطـة.. كمـا أنـني لا أقيـم وحيـدة في الشـقة. يعـني اطمئـني يـا أمـي، سـأكون بخـير إن شـاء الله.

- طيّب. لكن هذا لا ينفي أنّ هيثم شاب ممتاز ومناسب لك.

سكتت ياسمين ولم تعلق، فواصلت فاطمة في هدوء ورقة:

- خذي وقتك وتعرّفي عليه. إلا إذا..كان هناك شخص آخر يشغل تفكيرك؟

ارتبكت ياسمين وتلعثمت وهي تقول بسرعة:

- لا.. أبدًا.. ليس الأمر كذلك.

لا يمكنهـا أن تدّعـي وجـود شـخص آخـر في حياتهـا. ذلـك الغريـب، مـاذا يكون بالنسـبة إليهـا؟ ومـاذا تمثـل هـي بالنّسـبة إليـه؟ أصبحـت تلـك التسـاؤلات ملحّة أكـثر مـن أيّ وقـت مـضى وأصبـح عليهـا أن تجـد لهـا إجابـات سريعـة. لـم تتعـوّد أن تخفـي شـيئًا عـن والدتهـا الـتي كانـت عـلى الـدّوام أقـرب صديقاتهـا، وإخفاؤهـا لتلـك القصـة بالـذات كان دليـلاً عـلى وجـود لبـس مـا، أغمضـت عينيهـا عنـه طويـلاً. أصبحـت وخـزات ضميرهـا المتكـرّرة تدعوهـا إلى توضيـح الشـكّ الـذي يحـوم حـول تلـك العلاقـة حـتى تكـون صادقـة مـع نفسـها قبـل كل شيء.

obeikandl.com

- إذن تتعرفين عليه؟

تنهّدت في تسليم وهي تهمس:

دعيني أفكر.

****

فتح عمر عينيه ببطء وراح يستعيد وعيه تدريجيًّا. قبل أن يبصر شيئًا من حوله عاد ليغمض جفنيه بقوّة مع موجة الألم العنيفة التي اجتاحت جسده وغطّت على كل حواسّه. تصلبت عضلاته وهو يحاول أن يصرخ بكل قوّته، لكنّ الصّوت لم يخرج من حلقه. كان شخير مرعب يتسرّب من ثقب في وسط عنقه. راح جسده ينتفض من الفزع والعذاب، كأنّ عددًا هائلاً من المسامير المنتشرة على جسمه تدقّ عظامه بقوّة وعمق حتّى النّخاع. حاول أن يحرّك أطرافه ليقاوم الألم لكنّها لم تستجب، بل أخذ جسده يتخبط كالذبيحة مشدودة الوثاق.

وسط عاصفة الألم الجارفة أخذ عقله يسترجع دون وعي اللحظات الأخيرة العالقة بذاكرته. كانت الدنيا تشتعل من حوله والنار تلتهم كلّ شيء. حمم حارقة أحاطت به من كل جانب، التهمت ثيابه وغزت جلده فالتهب دفعة واحدة. ردّد الشهادتين مرّات عدّة في داخله، حتى تكون آخر ما يرد على لسانه قبل أن يصير من أهل العالم الآخر، فقد أدرك أنها النهاية لا محالة. ثم اختفى إحساسه بما حوله كليًّا.

لم يكن يدرك أين يكون. هل هو حيّ أم ميت. لكن الألم هو الشيء الوحيد الطاغي على كلّ ما عداه. ربما يكون عذاب القبر.. لتقصير في عباداته، ولخطايا ارتكبها في وقت غفلة حسبها هيّنة وشأنها عند الله عظيم. سالت العبرات حارة على وجنتيه، فلسعته ملوحتها في منطقة بين الجلد والعظم. ربما كان ليتمّنى الموت والراحة الأبدية في حال كان على قيد الحياة. لكن أين المفرّ من عذاب الخلود؟ سأل الرّحمة من رب العالمين بلسان ثقيل مرهق. طلبها بكل جوارحه التي فاق عذابها قدرة تحمّله، وبكل ما يحمله قلبه من إيمان.

فجأة، أحسّ بتيار بارد يتسلل إلى خلاياه ويتدفّق خلالها بقوّة حتى غطّى

على احتراقها وجعل الألم يتلاشى ويتبخر بشكل لا يُصدّق. حين استكانت أطرافه لذلك الخدر اللذيذ الذي لفّ جهازه العصبي ونشر في جسده راحة غريبة ظنّها أملاً بعيد المنال، حينها فقط فتح عينيه من جديد. للحظات ظل يحدّق في الأشياء التي تحيط به في دهشة ممزوجة بالفرح. لم يكن في قبره أو في غرفة تعذيب ما. كان في فضاء يشبه غرف المستشفيات، بأجهزتها الدّقيقة والبياض الذي يلفها.

- تهانينا على سلامتك.

التفت إلى مصدر الصّوت الذي باغته. كانت ممرّضة تقف إلى جواره بمعطفها وقبعتها الأبيضين، وابتسامة مطمئنة على شفتيها. كانت تمسك إبرة في يدها وهي تقول:

- لقد أعطيتك حقنة مخدّرة ليهدأ الألم. سأقوم بتجديدها كل اثنتي عشرة ساعة حتى موعد العملية الجديدة.

كانت تلك يد الرحمة التي امتدّت من العدم لتوقف عذابه الجارف. حاول أن يتكلم. أن يستفسر عن حالته. أين يكون وكيف وصل إلى هناك. لكنه فوجئ بالصّفير المزعج الذي خرج من الثقب.. الثقب الذي في عنقه. لم يكن كابوسًا. لم يكن خيالاً. الثقب موجود. كان ينتبه للتوّ إلى الأنبوب الممتدّ الذي يخرج من عنقه ويصدر فحيحًا خافتًا مع كل نفس يدخل صدره أو يفلت منه.

- لا يمكنك الكلام الآن. هذا الأنبوب يمّكنك من التنفس في الوقت الحالي.

كان يكتشف ما حلّ بجسده بعينين زائغتين. اللفافات البيضاء كانت تغطي جذعه وذراعيه وساقيه وقد ربط من أربع إلى هيكل معدني يعلو السرير الذي يتمدّد فوقه، بشكل يشلّ حركة أطرافه تمامًا. أنبوب السائل المغذي الذي يصبّ في وريده، وبقية الأجهزة المعقّدة التي تراقب نبضات قلبه وضغطه ونسبة الأكسجين في دمه.. واصلت الممرضة شرحها:

- أربعة ضلوع مكسورة وحروق من الدرجة الثالثة والرابعة تنتشر في أماكن مختلفة على جسدك. علاجها سيكون طويلاً ومرهقًا. من حسن حظك أنك حميت وجهك من الانفجار فأنقذته من التّشويه.

أضافت وهي تنهي تدوين جرعات الدواء التي حقنته إياها للتوّ على

الملـف المعلـق في طـرف سريـره:

- سأكون هنا، عند الطرف الآخر من الغرفة.

تحـرّك رأسـه في بـطء وحـذر متابعًـا حركـة ذراعهـا. هنـاك حيـث أشـارت، رأى الفاصـل الزجاجـيّ الـذي يقسـم الغرفـة إلى مسـاحتين غـير متسـاوية الأبعـاد. عـلى الجانـب الآخـر، كانـت أسرّة متجـاورة لمـرضى العنايـة المركّـزة الآخريـن، في حـين انـزوى سريـره وحيـدًا في ذلـك القسـم الانفـراديّ.

حـين أصبـح وحـده في الغرفـة الهادئـة، استسـلم لبـكاء صامـت. أخـذ صـدره يعلـو ويهبـط بشـكل مضطـرب مـع انهمـار دموعـه الـتي لـم يعـد يشـعر بحرارتهـا بفعـل المخـدّر. حمـد الله في نفسـه عـلى نجاتـه. كانـت تجربـة المـوت امتحانًـا عسـيرًا. ارتجـف قلبـه بـين ضلوعـه مـع ذكـر تلـك الآلام المبرحـة الـتي أنهكتـه منـذ بضعـة دقائـق، وخطـرت ببالـه الآيـة:

{قُلْ نَارُ جَهَنَّمِ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُواْ يَفْقَهُوْن}.

تعالـت شـهقاته المكبوتـة في لوعـة. نـار جنّهـم أشـدّ حـرًّا مـن كل مـا أصابـه. كيـف لبـشر أن يتحمّلهـا؟ يـا ربّ رحمتـك. مـرّت بذاكرتـه صـورة المحتفلـين في غرفـة الاسـتراحة، فارتعـدت أوصالـه مـن جديـد. هـل حالفهـم الحـظ بالنجـاة أيضًـا؟ أم كانـوا حطبًـا لنـار الدّنيـا قبـل جهنّـم ؟

*****

زرعـتْ حلمًـا وتعهدتـه بالرّعايـة. نمـا بـين جنبيهـا حـتى صـار جـزءًا منهـا، ومـن قلبهـا. تركتـه يكـبر وتمتـدّ جـذوره في كيانهـا حـتى أنسـاها طبـع الأحـلام المتمرّد. نسـيت أنهـا تضيـع وتتبخـر حالمـا تتـسرّب خيـوط الصّبـح الأولى. نسـيت أنهـا تذهـب مـع نسـمات الفجـر حالمـا يغـادر النّعـاس أجفانهـا.

جلسـت ياسـمين في عربـة المـترو وفي عينيهـا استسـلام حزيـن. كانـت حقائبهـا جاهـزة في غرفتهـا. أنهـت جميـع اسـتعداداتها وهـي متأهّبـة للسّـفر بعـد الظهـر. لكنّهـا اسـتيقظت باكـرًا ذلـك الصبـاح، اختـارت كتابًـا عـلى الـرّف وضعتـه في حقيبتهـا وخرجـت. أخـبرت إيلـين الـتي اسـتوقفتها عنـد البـاب أنّهـا ذاهبـة إلى مدرسـة الحاسـب لتتسـلم شـهادتها. لـم يكـن إلا عـذرًا واهيًـا. كان بإمكانهـا أن تتسـلمها عـبر البريـد، لكنهـا أصرّت عـلى الخـروج ذلـك الصبـاح. لتركـب مـترو

ليـون، ربمـا للمـرّة الأخـيرة.

كانـت تجلـس في نفـس المـكان منـذ زمـن. لـم تغـادر العربـة حـين وصـل المـترو المحطـة النّهائيـة. انتظـرت أن تخلـو العربـات مـن الـركاب، ثـم يغـيّر المـترو اتجاهـه ويمتـلئ مـن جديـد. مـرّت أمـام محطتهـا مـرّات عديـدة ذهابًـا وإيابًـا لكنّهـا لـم تـنزل. لـم تكـن تقـرأ كتابًـا مثـل عادتهـا. لـم تكـن تطالـع وجـوه المسـافرين. لـم تكـن تبحـث عـن شـخص مـا. كانـت تجلـس في اسـترخاء وخـواء داخـليّ يغمرهـا.

حـين صعـدت في البدايـة، أخـذت تترّقـب وصولهـا للمحطـة الّـتي يركـب منهـا ذلـك الغريـب. انتظـرت في شـوق ونفـاد صـبر. لكـنّ أبـواب المـترو أغلقـت وابتعـد المـترو عـن المحطـة دون أن تـرى ملامحـه بـين الوجـوه. لـم تـر خيالـه يتقـدّم، ثـم يقـترب منهـا كالعـادة وفي عينيـه نفـس الابتسـامة الغامضـة. لـم يكـن هنـاك. بحثـت عنـه بنظراتهـا في العربـة كلهـا، لعلـه صعـد مـن بـاب آخـر. ثـم غـيّرت العربـة مـرّة إثـر المـرّة لتبحـث عنـه في كل المـترو. لكنـه لـم يكـن هنـاك. لـم يكـن بينهمـا غـير ذلـك الموعـد الضمـنيّ كل صبـاح عـلى السـاعة الثامنـة، الموعـد الـذي تخلفـت هـي عنـه لعـدّة أيـام مضـت. حـتى أنـه لـم يعـد ينتظـر ظهورهـا؟

قـد يكـون ركـب المـترو السـابق أو التـالي، أو لـم يركـب المـترو ذلـك اليـوم. لـم يعـد ذلـك مهمًّـا بعـد الآن. كانـت تلـك فرصتهـا الوحيـدة والأخـيرة لـتراه، لتعتـذر عـن غيابهـا، لتسـأله عـن اسـمه وسـنّه وعملـه و... لمـاذا لـم تطـرح كل تلـك الأسـئلة البسـيطة مـن قبـل؟ تسـاءلت في حسـرة وألـم. كان بإمكانهـا أن تحصـل عـلى كل المعلومـات الـتي تخصّـه بعفويّـة وسـهولة. وأن تحدّثـه عـن نفسـها أيضًـا. لكنهمـا اختـارا أن تكونـا لقاءاتهمـا عـلى تكرارهـا للفكـر والعقـل وحسـب. وكتـب لهـا أن تضـل كذلـك، إلى الأبـد.

استسـلمت لتلـك الفكـرة. بعـد أن غـيّر المـترو اتجاهـه للمـرّة الـــــ.. عـاشرة؟ هـل كانـت تتوقـع أن يكـون بينهمـا يومًـا مـا هـو أكـبر وأعمـق مـن صداقـة المـترو؟ هـل كانـت تنتظـر أن تتحـوّل علاقتهمـا إلى شيء جـادّ وشـخصي؟ أحـلام المراهقـة سـيطرت عـلى تفكيرهـا في الأسـابيع الماضيـة وجعلـت خيالهـا يحيـك قصـة مثـل قصـص الروايـات، تلعـب هـي دور بطولتهـا. تنهّـدت بعمـق. ابتسـمت. حـين غـادرت عربـة المـترو، كانـت أفـكار مختلفـة قـد أخـذت تشـغل ذهنهـا.

obeikandl.com

-١٤-

لا تختبر صبري!

وقفت فوق الكرسيّ على أطراف أصابعها ومدّت ذراعيها لتقوم بتثبيت ورق الجدران على الجانب العلويّ من الجدار، في حين جلست ميساء على الأرض وراحت تقصّ قطع الورق حسب الأبعاد المطلوبة. هتفت وهي تقف وتقترب من ياسمين:

-القطعة الأخيرة.

بعد لحظات، كانت ياسمين تنزل من موقعها الشاهق وهي تنفض كفيها علامة الانتهاء. ابتسمتا وهما تبتعدان لبضع خطوات وتطالعان في تفحص عملهما. هتفت ميساء في سرور:

- ممتاز.

في حين زوت ياسمين ما بين حاجبيها وهي تدقق النظر:

- الجانب العلوي يميل إلى اليمين أكثر من اللازم. ألا تجدين ذلك؟

دفعتها ميساء في احتجاج في اتجاه السرير وهي تضحك:

- قلت انتهينا. والنتيجة ممتازة. لن نعيد العمل الآن.

في تلك اللحظة، سمعتا باب الشقة يفتح ولمحتا رنيم عبر فرجة باب الغرفة نصف المفتوح، وهي تتمايل بخطواتها الرّشيقة، حاملة أكياسًا مليئة بالمشتريات.

- مرحبًا يا بنات!

حيّتهما في مرح وهي تلوّح بكفها قبل أن تختفي داخل غرفتها. همست ميساء في قلق:

- أنتِ واثقة من اتخاذك القرار الصواب؟ ألا ترين أنّك تسرعت قليلاً بانتقالك إلى هنا؟

- لماذا؟ ألا يعجبك المكان؟

اقتربت منها ميساء أكثر وقالت بصوت أكثر خفوتًا:

- بل ما يقلقني هو صاحبة المكان. لم أرتح إليها.

- ما بالها رنيم؟ تبدو طيّبة.

- طيبة؟ ألا تلاحظين نظراتها المتعالية، ومشيتها المليئة بالخيلاء؟ ثم طريقة لباسها المتفسخة، وتسريحة شعرها المستهترة، وأصباغ وجهها الصّارخة.

سكتت ياسمين للحظات ثم همست بدورها:

- ربما كان مظهرها يوحي بذلك بالفعل. لكن بداخلها روحًا طيبة.

- تلك طيبتك أنت يا عزيزتي، تريك الطيبة في الجميع!

ابتسمت ياسمين ولم تعلّق. ربّما كانت ساذجة في نظر الكثيرين، تثق في حدسها حين يتعلّق الأمر بتقييم المعدن البشريّ. تُستغلّ أحيانًا أو تسمح للآخرين باستغلالها عن طيب خاطر. فيها طيبة أصيلة تجعلها ترى الخير فيمن حولها وتستفزُّه في دواخلهم. حتّى حين يخيب ظنّها لا يراودها النّدم. فحسن الظنّ خير من سوئه، والإثم الذي ينجرّ عن الثّاني يغلب الأذى الذي قد يتأتّى من الأوّل. أحيانًا تتساءل حقًّا إن كانت قد تجاوزت حدود الطيبة وتوغّلت في مجال السّذاجة. لكنّها تأبى مراجعة خطّ سيرها. يكفيها أن تضع رأسها على الوسادة مساء وهي راضية مرتاحة البال، ليس في قلبها ضغينة على أحد.

- حسن، افعلي ما شئتِ. يجب أن أذهب الآن. أميّ تحتاجني في المطبخ.

قالت ميساء ذلك وهي تتجاوز باب الغرفة.أضافت حين أصبحت في مستوى باب الشقة:

- لا تنسي العشاء الليلة.

قبل أن تنطق ياسمين بكلمة واحدة، كان الباب الخارجي يغلق وتختفي ورائه ميساء. تنهّدت في ضيق وهي تستلقي على سريرها وتحتضن وسادتها. عشاء في بيت الخالة زهور؟ لم تكن قد ذهبت إلى هناك بعد عودتها من ليون هذه المرّة. أحضرت حقائبها وجاءت على الفور إلى شقتها الجديدة. اتّصلت بميساء التي هبّت لمساعدتها دون تفكير. كانت تنضمّ إليها بعد حصّة الجامعة الصّباحية وتقضي معها بقية النهار. تتناولان الغداء وتخططان لأعمال اليوم. مضت أيامها الأولى في باريس بين التّسوق والأشغال حتى أنهت ترتيب الغرفة. كلما دعتها ميساء لقضاء الليلة في منزل العائلة، تعذرت بالحقائب والتحضيرات. لكنها اليوم انتهت من كل شيء، ولم يعد بإمكانها التّهرب من دعوة العشاء. منذ عرفت بنوايا زهور تجاهها

أصبح حرجها كبيرًا. لا شك أنّها تحدّثت إلى والدتها مؤخرًا وعلمت منها أنها «جسّت نبضها» وأصبحت على علم بالمخطط. حتى ميساء، رغم أنها لم تصرّح لها بشيء لكنها تلمح في نظراتها وحركاتها بعض التلميحات الخفيّة. فكيف تذهب إلى المصيدة المعدّة من أجلها بقدميها؟ وهل يسعها أن تتخلّف؟

*****

في الغرفة المجاورة، كانت رنيم تعاين مشترياتها الجديدة. انتقت الفستان الذي سترتديه في الغد ووضعته بعناية فوق الكرسي تمهيدًا لعمليّة القياس المغرية، ثمّ أتمّت ترتيب بقيّة الحاجيات في الخزانة. ابتسمت في رضا وهي تتبختر أمام مرآتها مثل عارضات الأزياء، تقطع مساحة غرفتها جيئة وذهابًا في خطوات مدروسة ناعمة ومسيطرة، ثمّ تتوقّف مجدّدًا عند صورتها وتتأمل هيئتها الأنيقة. غدًا سيكون أوّل أيّامها في مكتبها الجديد. تعمل على إحكام مقوّمات «الانطباع الأوّل». الشكل، الابتسامة، الثقة. فجأة، أحسّت بوخز مؤلم تحت قفصها الصّدريّ. انحنت قامتها وكفها تشدّ على موضع الألم. قطعت الخطوات القليلة التي تفصلها عن سريرها في بطء، واستلقت على المرتبة. استرخت، أغمضت عينيها وأخذت تتنفس بعمق وهي تحسّ بالوجع يتضاءل حتى تلاشى تمامًا بعد بضعة دقائق.

أرهقت نفسها كثيرًا في الفترة الأخيرة وضربت بكل توصيات الطبيب عرض الحائط. كانت تريد أن تنسى آلام قلبها فشغلت نفسها بالتسوّق وتأثيث الشقة والمشاوير المتكرّرة، ولم تعط جسدها الوقت الكافي للنّقاهة التامّة. لم تكن تريد أن تنفرد بنفسها وأفكارها فتعود الذكريات المؤلمة لتطفو على السطح. لكنّ كل مجهوداتها كانت تذهب هباء حين تنهك جسدها فيغلبها الألم الذي يذكرها بعمليتها الجراحية وكليتها المفقودة. اندفعت العبرات لتغرق وجهها في بكاء صامت. كان يجب أن تلفظ تلك الأوجاع التي تنخرها من الدّاخل.

ابتسمت بين دموعها وآلامها. كانت تحقّق رقمًا قياسيًا جديدًا. لم تبك قدرها الأليم منذ أسبوع كامل. جيّد يا رنيم، أنتِ تسيرين على المسار

obeikandl.com

الصحيح. حين تبدئين العمل وتشغلين كل وقتك به لن يتسلل إليك شبح ميشال روسو مجدّدًا. فقد كانت بعض القضايا تسكنها ليلاً ونهارًا حتى تستبد بأحلامها. تعلم ذلك من منطلق تجربتها السابقة في العمل مع ميشال. ميشال.. بدا اسمه غريبًا على شفتيها في تلك اللحظات. وقريبًا سيصبح جزءًا من الماضي البعيد.. قريبًا جدًّا.

*****

جلست ياسمين إلى جانب ميساء على الأريكة العريضة وأخذتا تلتهمان الفشار في نهم وتتابعان شريطًا بوليسيًّا على الشاشة في تركيز وانسجام. استرخت ملامحها ونسيت توترها الذي لم يكن له داعٍ طيلة العشاء. لم يظهر هيثم كعادته على المائدة، بل بدا أنه لم يكن في البيت أصلاً. وخالتها زهور لم تتلفظ بكلمة واحدة بخصوص الموضوع. بإمكانها إذن أن تستمتع بوقتها دون أن تعكر تلك المسألة صفوها، إلى أجل ما.

انتبهت حين تناهى إليها صوت الباب الخارجي وهو يُفتح، تليه خطوات متثاقلة تعبر الممرّ. لم يكن لديها أدنى شك في هويّة القادم. وقفت زهور على الفور وفي عينيها نظرة مستاءة وانضمّت إلى هيثم في المدخل، في حين ثبّتت ياسمين عينيها على الشاشة متظاهرة بعدم الاهتمام، لكنّ ضربات قلبها كانت تتسارع بشكل مضطرب. لماذا كل هذا القلق؟ وماذا لو رأته؟ هل يحسبها وقاحة منها أن تزورهم في بيتهم وهي تعلم برغبته في خطبتها؟ غاصت في مقعدها في حرج وقد أخذ جبينها يتفصّد عرقًا. ميّزت بمشقة صوت زهور الهامس:

- هل تناولت طعام العشاء؟

- نعم، كنت في المطعم مع بعض الأصدقاء.

- ألم أطلب منك أن ترجع باكرًا هذا المساء؟

خفتت الأصوات تدريجيًّا وحلت مكانها همهمات مكتومة، ولم تنتبه ياسمين إلا حين لمحت هيثم بطرف عينها يدخل القاعة بهدوء ويلقي التحية. جلس في الطرف الآخر من الغرفة على أريكة منفردة دون أن يضيف كلمة واحدة. أطرقت ياسمين في إحراج وحبست أنفاسها. كان صمت مرتبك

قد سيطر على الجلوس ولم يعد يسمع غير صوت التليفزيون. بعد دقيقتين، أحُست ياسمين بهمهمة خافتة، سمعت بعد حين صوت العم عبد الحميد وهو يقوم وجريدته في يده:

- اعذروني.. أنا متعب. أظنني سآوي إلى الفراش.

بعد بضع لحظات، سمعت نفس الهمهمة تتكرّر، بعدها همست ميساء وهي تتوجّه إلى المطبخ:

- سأقوم بغسل الأواني.

هتفت ياسمين وهي تهمّ بالانضمام إليها:

- أساعدك؟

لكن كفّ زهور قبضت على ذراعها بسرعة وهي تقول مستبقية إياها:

- لا داعي.. الأواني ليست كثيرة، ستفرغ منها بسرعة. ارتاحي أنت.

بادلتها الابتسامة في توجّس. لم تمض دقيقة واحدة، حتى وقفت زهور بدورها وهي تقول:

- سأصنع بعض الشاي.. من منكما يريد قدحًا؟

«منكما»؟ تلفّتت ياسمين حولها في ارتباك لتكتشف أنه لم يعد هناك في الغرفة غيرها.. وهيثم. هكذا إذن. كانت خطّة مقصودة سعى أفراد العائلة إلى تحقيقها حتى تجد نفسها معه، وحدها. مرّت لحظات من الصّمت المتوتر بينهما بعد أن غادرت زهور. كانت تسمع قرقعة الصحون التي تغسلها ميساء وغليان الشاي الذي تحضّره زهور.. وصوت أنفاسها المضطربة. جاء صوته أخيرًا من الطرف الآخر من القاعة.

- إذن تحضرين رسالة الدكتوراه؟

هزّت رأسها علامة الموافقة دون أن تتكلم. فأردف:

- في أي مجال؟

همست بصوت حييّ خافت:

- علم الاجتماع.

ردّ في برود ظاهر:

- آه.. هل اخترتِ تخصّصًا أدبيًا لأنك لم تكوني متفوقة في العلوم الصّحيحة؟

رفعت رأسها في دهشة وقد صدمها سؤاله. قالت في تماسك:

obeikandl.com

- ليس الأمر كذلك. أنا أرفض التّمشي الذي يفرِض على الطلبة المتفوقين اتباع التخصّصات العلمية، وعلى الطلبة الأقل تفوقًا التخصّصات الأدبية. كل طالب يجب أن يختار تخصّصه حسب قناعاته وميوله دون أن يجعل نظرة المجتمع وأفكاره المسبقة تحدّد توجّهاته.

هزّ رأسه مؤيدًا، لكنه ما لبث أن قال متظاهرًا باللامبالاة:

- رأي معقول.. لكنني صراحة أفضِّل التعامل مع أصحاب الميول العلميّة، لأنهم يكونون أكثر عقلانية لتعوّدهم على التحليلات المنطقية التي ترتكز عليها العلوم الصّحيحة.

غصبًا عنها كان مستوى الحوار يسير نحو الحدّة.

- ربّما تكون أغفلت أن علم المنطق من العلوم الأساسية التي يتناولها طلاب التخصّصات الأدبية؟

- طبعًا.. طبعًا.

قال ذلك وهو يمط شفتيه في استهانة وكأنه يماشيها في رأيها، حركة رأت فيها الكثير من التكبر والاستعلاء. هل يقصد استفزازها؟ لم تكن تصرّفاته تحمل معنى آخر، لأنها كانت خالية من الذوق.

- وماهو موضوع البحث؟

- ظاهرة الانتحار في موقع العمل.

ردّت في فتور، لكنها فوجئت به وهو يضحك في سخرية:

- الانتحار؟ وهل يستحق ذلك بحثًا وتمحيصًا لسنوات عدّة؟ الأسباب: غياب الوازع الديني. الحلول: الرجوع إلى الدين. انتهى البحث.

عضّت على شفتها السفلى في قهر. كان لديها كلام كثير لتقوله، إنّ البحث يجب أن يكون متماشيًا مع خصائص المجتمع.إنّ تحليل الأسباب وتقديم الحلول يجب أن يخاطب عقل المتلقي ويقنعه حتى يكون ناجعًا. إن تقديم الدين كحل في مجتمع يعمّ فيه الإلحاد سيعرّضها للسخرية ويؤكد لدى رئيسها كل الأحكام المسبقة التي يوحي بها شكلها و... أشياء كثيرة أخرى. كانت تحاول ترتيب أفكارها، لكن استمرار صمتها أشعرها بالعجز، وأشعره بالتفوّق لا محالة.

- ماهي مشاريعك بعد الدكتوراه؟ تريدين العودة إلى تونس؟

فوجئت بتغييره للموضوع، لكنها كتمت غيظها وأجابت:

- نعم، أعتقد ذلك.. لا نية لي في الإقامة في فرنسا على المدى الطويل.

- لم تعجبك باريس؟

تردّدت للحظات:

- أقمت في ليون قرابة الشهر.. وباريس لم آتها إلا منذ أسبوع. المدينة تبدو جميلة.. لكنّ المجتمع كثير التعقيد. لم أنجح في الحصول على تمويل للدكتوراه إلا بمشقة. إضافة إلى غربة البلد أستشعر غربة الروح.. وأشك في أن الأمور ستتحسّن مع الوقت. لذلك لا أنوي الإطالة.

استمع إليها في انتباه، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة مستفزة:

- إذن تشكين في قدرتك على الاندماج في المجتمع الفرنسي؟

ظنت للحظات أنه تخلى عن طريقته الفجّة، لكنها كانت مخطئة. ردّت في تحفز:

- ليست لي نيّة بالاندماج. الاندماج يعني التخلي عن الهوية والمبادئ والذوبان في المجتمع حتى يتقبلني الآخرون. وهذا لا يناسبني.

- إذن تعتقدين أننا تخلينا جميعًا عن هويّتنا ومبادئنا حتى يتقبّلنا المجتمع؟ أمي، أبي، ميساء؟

يتعمّد محاصرتها بأسئلة حادّة ومحرجة. هل هذا هو أسلوبه في «التعارف»؟ تنهّدت وهي ترسم ابتسامة على شفتيها وتقول في هدوء:

- خالتي زهور وعمي عبد الحميد كانا موفّقين، وأنا أقدّر فيهما قوّة الشخصية والحرص على حسن توجيه أولادهما رغم الصّعوبات.. وأعتقد أنهما وفِّقا.. إلى حدّ ما.

قالت عبارتها الأخيرة بلهجة خاصّة لم يغفل هو عن معناها. واصلت بعد صمت قصير:

- لكنّ هذا النّجاح ليس عامًّا، وهناك شواهد كثيرة على النتيجة المعاكسة. وأصبح من الصّعب السيطرة على ما يبثه المحيط المباشر، ابتداءً من المدرسة من سموم في نفوس الأطفال النقيّة.

تجاهل تلميحها السّابق وقال ببرود:

- إذن تعترفين بأنك لا تثقين في قدرتك على تحقيق توازن نفسيّ في المجتمع الفرنسيّ؟

لم تعد تحتمل أسلوبه الغريب الذي لم تكن تدري سببه. هل يعقل

أن يكـون وقحًـا بطبعـه؟ أجابـت بلهجـة قاطعـة وفي نفسـها رغبـة بإيقـاف ذلـك الحـوار السّـخيف.

- نعم، أعترف.

كانـت نظـرة التّحـدّي في عينيهـا مناقضـة لعبارتهـا. ابتسـم ولـم يجـب عـلى الفـور. رفـع نظراتـه ليلمـح والدتـه وهـي تحمـل طبـق الشـاي وتمـشي عـلى مهـل في اتجاهـهمـا. وقـف في هـدوء وهـو يقـول بصـوت وصـل إلى مسـامع زهـور:

- أظنّ أننا نختلف في أمور كثيرة.

أجابت ياسمين في ثقة وهي تهزّ رأسها موافقة:

- لا أعتقد أننا نتفق على شيء أكثر من اتفاقنا على هذه النقطة.

نقلـت زهـور نظراتهـا بينهمـا في دهشـة وهـي تضـع الطبـق عـلى المائـدة المنخفضـة. في حـين هـزّ هيثـم كتفيـه في اسـتهانة وابتعـد في اتجـاه غرفتـه، وكأنّـه قـد حقـق نـصرًا مـا. أمّـا ياسـمين فإنّهـا رسـمت ابتسـامة هشّـة عـلى شـفتيها متظاهـرة باللامبـالاة، في حـين كانـت تغـلي في داخلهـا.

- تريدين بعض الشاي؟

لمسـت الـتردّد والقلـق في صـوت زهـور وهـي تمـدّ إليهـا كوبًـا. أخذتـه منهـا شـاكرة، لكـنّ مقاومتهـا كانـت آخـذة في الانهيـار. أخـذت بضـع رشـفات ثـم وقفـت معتـذرة. دخلـت غرفـة ميسـاء وارتمـت عـلى السريـر لتطلـق العنـان لدموعهـا. لـم تشـعر بالإهانـة مـن قبـل أكـثر ممّـا أحسّـت بهـا اليـوم. سـامحك اللـه يـا أمـي! سـامحك اللـه يـا خالـتي زهـور! إذا كان الرجـل غـير مهتـمّ، فلمـاذا تضعـاني في هـذا الموقـف المحـرج؟

-١٥-

القضية

جلس جورج برنار إلى مكتبه وانهمك في مطالعة بعض الأوراق في اهتمام، لكنّ تركيزه كان يعود بسرعة إلى المكالمة الهاتفيّة الغريبة التي وصلته باكرًا ذلك الصباح. كان ينتظر بفارغ الصبر أن تصل شريكته في مكتب المحاماة فيفيان مونغومري حتى يحدّثها بشأنها. على السّاعة التاسعة تمامًا، سمع دقات موقعة على باب مكتبه ثم أطلت فيفيان برأسها لتلقي التحية. ابتسم وهو يناديها في حماس ظاهر:

- فيفيان، تعالي.. يجب أن نتحدث.

ألقت نظرة على ساعتها وهي تقول بسرعة:

-لا يجب أن أتأخر عن المحكمة، مرافعتي تبدأ بعد نصف ساعة.

- لن أؤخرك كثيرًا. هناك أمر هامّ يجب أن نناقشه.

اقتربت حتى وصلت أمام مكتبه العريض. وضعت حقيبة يد مثقلة بالملفات وجلست قبالته. بادرها على الفور:

- مكتب المدّعي العام اتّصل هذا الصباح، وعرض علينا قضية جديدة.

هزّت فيفيان رأسها متابعة. حتى الآن لم يكن هناك شيء غريب. المدّعي العام يتّصل باستمرار ليعرض عليهم قضايا وعلى غيرهم من مكاتب المحاماة، حين يكون المتّهم غير قادر على توكيل محامٍ بنفسه.

- هل تعلمين أي قضية هي؟

هزّت رأسها نافية. لم تكن قد سمعت عن قضية مميّزة مؤخرًا في دائرة باريس لتكون جديرة بشدّ انتباهها.

- الحادثة التي حصلت في ليون، الانفجار العظيم في شركة الكيميائيات.

قالت في دهشة:

- حقًا؟! لكنّها تابعة لدائرة ليون القضائيّة، فلماذا يريد منّا المرافعة فيها؟

شبك ذراعيه أمام صدره وهو يقول في فخر من بحوزته أخبار هامّة وحصريّة:

سيتمّ نقلها قريبًا إلى دائرة باريس. رئيس الجمهورية بنفسه طلب ذلك، حتى تنظر فيها المحكمة المختّصة في الإرهاب.. وحتّى يتمكّن من متابعة المستجدات فيها عن كثب.

- رئيس الجمهورية؟

- نعم، هناك اعتقادات شبه أكيدة بأن خليّة إرهابيّة كانت وراء الحادثة، والشاب المتّهم كان المنفّذ.

- دعني أحزر.. المدّعي العام يطلب منّا تمثيل الإرهابي؟ إنها قضية خاسرة لا محالة!

أخذ جورج يحرّك كرسيه الدوّار يمنة ويسرة في تفكير ثم قال:

- قد تكون قضيّة خاسرة، لكنها دعاية مجّانية لنا بالتأكيد. القضية ستتمّ متابعتها من قبَل وسائل الإعلام، وسنحصل على لقاءات تليفزيونية عديدة. سنصبح من المشهورين يا عزيزتي.

سكتت فيفيان للحظات ثم سألت في شكّ:

- هل ترافع أنت في القضية؟

قال في حذر:

- فكرت أنّك الشخص المناسب.

وقفت في استياء وهي تهتف:

- كنت أعلم أنك ستضع العبء عليّ.

حاول تهدئتها:

- أي عبء يا عزيزتي؟! إنّه المجد. إنّها الشهرة! أمّا البحث والتقصي وإعداد المرافعات، فهناك شخص آخر مناسب لها.

- من تقصد؟

ارتفع في تلك اللحظة رنين هاتف مكتبه. رفع السّماعة مبتسمًا دون أن يردّ على فيفيان. جاءه صوت السكريتيرة الخاصّة وهي تقول:

- الآنسة رنيم شاكر وصلت.

- دعيها تدخل.

وضع السماعة وقال مخاطبًا فيفيان:

- الشخص المناسب وصل للتوّ.

كانت قضية خطرة، وقبولها مجازفة حقيقيّة. بإمكانها أن تأخذهم إلى

شهرة ساحقة، كما يمكنها أن تلوّث اسم المكتب وترسله إلى الحضيض. لم يكن يريد أن يورّط اسمه في الأمر حماية لمستقبله المهنيّ. لذلك يستخدم فيفيان مونغومري والمحامية الجديدة التي تبدأ عملها اليوم في المكتب، رنيم. كان توقيت انضمامها ممتازًا.

*****

أدارت رنيم المفتاح في القفل ودفعت الباب برفق. خطت إلى داخل الشّقة ورمت بحقيبة يدها وفردتي حذائها بصفة عشوائية، قبل أن ترتمي على الأريكة التي تحتلّ القسم الأعظم من غرفة الجلوس.

- مرحبًا.

استدارت في فزع وهي تضع كفها على صدرها حين جاءها صوت ياسمين من المطبخ.

- أنت هنا؟

ابتسمت ياسمين في اعتذار وهي تتقدّم نحوها، وبيدها إبريق شاي تفوح منه رائحة الأعشاب الطبيعيّة.

- لم أرد أن أفزعك. تريدين بعض الشاي؟

هزّت رنيم رأسها موافقة، فأحضرت ياسمين كأسين وصحن كعك انتهت من صنعه للتوّ وجلست إلى جانبها. أخذت تملأ الكؤوس بحركة محترفة وهي تقول:

- تبدين متعبة. كيف كان يومك الأوّل؟

تنهّدت رنيم وهي تلتقط قطعة كعك وتقضم منها في شراهة.

- سترين حين تبدئين العمل.. اليوم الأول ينقضي في ملء الاستمارات وتوقيع العقود ومختلف الأمور الإدارية المملة والمرهقة.

أشارت إلى الكعكة ورفعت إبهامها في استحسان ثم أضافت وقد التمعت عيناها بإثارة واضحة:

- لكنّ القضية الأولى التي سأعمل عليها تستحق التّضحية. ستكون مختلفة جدًّا عن كل القضايا السّابقة.

- حقًا؟ هذا رائع.

- هل تذكرين الانفجار الذي حصل في ليون الأسبوع الماضي؟

- انفجار شركة الكيميائيات؟

هزّت رنيم رأسها في اعتزاز وهي تقول:

- نعم، هو ذاك. سأقوم بالمرافعة في تلك القضيّة، تخيّلي؟! لم أتصوّر أن يمنحني جورج برنار فرصة ذهبيّة كهذه لإثبات نفسي، وبمثل هذه السّرعة أيضًا.

ابتسمت ياسمين مدارية الخواطر الكئيبة التي تثيرها في نفسها ذكرى تلك الحادثة، وقالت في دعابة:

- لا شك أن توصيتك متينة!

تلاشت الابتسامة من على شفتي رنيم فجأة وارتسم الوجوم على ملامحها. لماذا يحوم الحديث حول ميشال بشكل أو بآخر طوال النهار؟ لم يتوقف جورج وفيفيان عن الثّناء عليه واسترجاع الذكريات التي جمعتهما به.. وهما يعتقدان في ذلك محاباة لها. يجهلان تمامًا عمق الجرح الذي تركه في نفسها. وهاهي الآن زميلتها في السّكن تذكرها به دون دراية منها.

- أنا آسفة، لم أقصد الإساءة.

- لا عليك. تلك قصّة طويلة.. ربما أحدّثك عنها يومًا.

خيّم الصمت عليهما للحظات. أخذت كل منهما ترشف من كأسها ببطء ونظرات سارحة. تكلمت رنيم أخيرًا وهي ترمق ملامح ياسمين المتجهمة والعصابة التي تشدّها على رأسها:

- ما الذي حصل معك؟ توقعت ألا تعودي قبل المساء. ثم أين ميساء؟ ظننتكما لا تفترقان أبدًا.

قالت ذلك وهي تضحك، فابتسمت ياسمين بدورها. صحيح، لم تكن تفترق عن ميساء في الأيام الماضية. منذ مجيئها إلى باريس وهي ترافقها في كل مكان وتساعدها على قضاء كل شؤونها. لكنها تسللت باكرًا ذلك الصباح وتركتها نائمة في سريرها. ودّعت خالتها زهور التي لم تستطع أن تلحّ عليها في السّؤال وعادت إلى شقتها. لم يكن هناك ما تسألها عنه. كل شيء كان واضحاً أمام عينيها. لم يكن هناك مجال للاتفاق بينها وبين هيثم. انتهى الموضوع.

تنهّدت بدورها وهي تقول في لؤم مقلدة لهجة رنيم:

obeikandl.com

- تلك قصّة طويلة.. قد أحدّثك عنها يومًا ما.

ضحكت رنيم بقوّة ثم استوت في جلستها وهي تقول في اهتمام:

- هكـذا إذن، واحـدة بواحـدة.. تعـالي. سـأحدثك بقصـتي، ثـم تحدّثينـي بقصتـك. اتفقنـا؟

رغـم أن الجـرح في نفسـها كان مايـزال يافعًـا، والحديـث عنـه سـينكؤه ويجـدّد آلامهـا إلا أنهـا اندفعـت وقـد راودتهـا رغبـة في تقاسـم ذلـك الحِمـل مـع شخـص آخـر. رمقتهـا ياسـمين طويـلاً ولـم يخـف الـتّردّد في عينيهـا هـي الأخـرى. كانـت قـد اتصلـت بوالدتهـا ذلـك الصبـاح وطلبـت منهـا أن تنهـي الأمـر مـع خالتهـا زهـور. رغـم إلحاحهـا، لـم تـرضَ بإخبارهـا عـن التّفاصيـل. لـم تخـبر أحـدًا عـن تفاصيـل الحديـث السّـخيف الـذي دار بينهمـا. لا داعـي لإحـراج ميسـاء وخالتهـا زهـور وعمّهـا عبـد الحميـد، فهـم لا يسـتحقّون ذلـك. أمـا ابنهـم الوقـح، فلـن تجعـل لـه اعتبـارًا بعـد اليـوم. أبـدًا. تنهّـدت مـرّة أخـرى وهـي تقـول:

- طيب.

ابتسمت رنيم وقالت في مرح لتخفّف توترها:

- يا ويلك مني إن كان مجرّد شجار بينك وبين ميساء!

طفـرت الدمـوع مـن عيـني ياسـمين مـع اختـلاط ضحكهـا بألـم الذكـرى، فتابعـت رنيـم وقـد تسـلّل إليهـا الـتّردّد:

- ليـس الأمـر سـهلاً بالنسبة إليّ أيضًـا. ظننـت أنـني سـأحتفظ بهـذه القصـة لنفسـي إلى الأبـد.

استمعت إليهـا ياسـمين في انتبـاه وهـي تـروي مغامرتهـا المؤلمـة مـع المدعـوّ ميشـال روسـو. دمعـت عيناهـا حـين وصلـت في روايتهـا إلى فقدانهـا للوعـي أمـام البنايـة الـتي يسـكنها، بعـد هروبهـا مـن المستشـفى. حـين توقفـت رنيـم عـن الـكلام، احتضنتهـا ياسـمين بقـوّة وهـي تهمـس:

- حمـدًا لله عـلى سـلامتك! ذلـك الشـخص الحقـير لا يناسـبك ولا يسـتحقك. عيبنـا نحـن بنـات حـواء أن مشـاعرنا تسـيّرنا وقلوبنـا تتحكـم بنـا.

مسـحت رنيـم دموعهـا بأطـراف أناملهـا وهـي تهـزّ رأسـها موافقـة، فواصلـت ياسـمين بلهجـة قويّـة:

- لكـن هـل تعلمـين؟ الله يحبـك، لأنـه أراد لـك النجـاة مـن هـذه التجربـة دون الوقـوع في معصيـة كبـيرة. صحيـح أنـك فقـدت كليـة، وهـي ليسـت بالأمـر

الهـيّن. لكـن علاقتـك بميشـال هـذا كانـت خطـأ منـذ البدايـة. حـتى لـو توّجـت بالـزواج فهـي خطـأ. لأن المـرأة المسـلمة لا يصـح أن تـتزوّج غـير المسـلم!

- آه، نعم.

غمغمـت رنيـم في وجـوم. لـم تكـن المعلومـة غائبـة عنهـا. لكنهـا مثـل كل معلوماتهـا الدينيّـة مجـرّد «معلومـات» أمـا التطبيـق فـشيء آخـر. وأن تضـع ياسمين قصّتهـا العاطفيّـة الحزينـة تحـت مجهـر الدّيـن ضايقهـا حتمًـا. قالـت مغـيّرة الموضـوع:

- كانت هذه تجربتي باختصار.. والآن دورك!

- ربّمـا كانـت قصـتي أقـل ألمًـا وأهميـة مـن قصتـك.. أعـترف أنـي أحسسـت بتفاهـة مـا حصـل معـي بعـد أن اسـتمعت إليـك.

هتفت رنيم في إلحاح:

- لا يهمني، أريد حكاية.. حتى لو كانت تافهة!

قصّـت عليهـا ياسـمين تفاصيـل سـهرة البارحـة والحـوار المتشـنج الـذي دار بينهـا وبـين هيثـم. ضربـت رنيـم بكفهـا عـلى الطاولـة في غضـب وهـي تقـول:

- ذلـك الحقـير. مـن يعتقـد نفسـه؟ مـا بالهـم أصحـاب التخصّصـات الأدبيـة! هاه؟!

ابتسمت ياسمين وهي تقول مداعبة:

- هل تدافعين عني أم عن نفسك؟

- أدافـع عنّـا الاثنتـين يـا عزيـزتي! سـوف نلقّنـه درسًـا قاسـيًا شـقيق ميسـاء هـذا.. قلـت إن اسمه.. هيثـم؟ سترى يـا هيثـم، إن لـم أعلمـك كيـف تخاطـب الفتيـات الرّقيقـات، لـن أكـون أنـا رنيـم!

ضحكت ياسمين وهي تقول مهدّئة:

- رويـدك، مـن قـال إنـي أريـد تلقينـه درسًـا؟ الموضـوع انتهـى عنـد هـذا الحـدّ ولا نيّـة لي في الحديـث إليـه مـرّة أخـرى، مهمـا كانـت الأسـباب.

عقدت رنيم حاجبيها في تحدٍّ ووقفت هي تقول في تأنٍّ وبحركات مسرحيّة:

- هـذا شـأنك يـا عزيـزتي، بإمكانـك التّخـلي عـن حقوقـك الشـخصية إن أردت. لكـن بمـا أن الحكايـة وصلـت إليّ فهـي قـد أصبحـت قضيـة رأي عـام، والمدّعـي العـام يجـب أن يقتـصّ مـن الجـاني باسـم الحقـوق المدنيـة العامّـة!

ضحكـت ياسـمين بمـرح طفـوليّ وقـد أمسـت همـوم الأمـس تسـلية اليـوم.

شاركتها رنيم ضحكها وهي تستلقي إلى جوارها على الأريكة. رغم الدّموع والحكايات الحزينة، كانت أمسية ممتعة. استمّر سمرهما لساعات، حضّرتا وجبة عشاء سريعة معًا، تناولتاها وهما لا تتوقفان عن الضحك والكلام. لم تعتقد أيّ منهما أنّ الفضفضة ستزيح عن صدرها حملاً ثقيلاً وتورثها مثل ذلك الارتياح اللذيذ. كانتا تستمتعان للمرّة الأولى بذلك النّوع من المصارحة. الانفتاح الكامل أمام شخص غريب لا يعرف عن ماضيك شيئًا، لا يطلق عليك أحكامًا ولا يحاول قراءة أفكارك.

الصّداقة بين غريبين تبدأ أحيانًا بكلمة، بلفتة حانية، بلحظة صراحة نادرة. في اللحظة التي تليها يصبح الغريب صديقًا، بل لعله يكون قد حصل في ثوانٍ على أكبر أسرار الآخر وأعمقها. فغالبًا ما تكون ساعات الصّداقة الأولى هي الأكثر غزارة وسخاء من حيث منسوب الأسرار المتدفقة من الجانبين. ربما لأن كليهما لا يحسبها صداقة في تلك الآونة، بل مصبًّا مؤقتا للأزمات النفسيّة.

تنّهدت رنيم أخيرًا وهمست في ضيق:

- هل تعتقدين أن الرجل الذي يناسبني.. موجود؟ في مكان ما من هذا العالم؟

ابتسمت ياسمين في صمت وسرحت للحظات وفي عينيها نظرة حالمة. تعلم على الأقل أن الرّجل المناسب لها موجود، في مكان ما من الأراضي الفرنسية.. في مدينة ليون بالتحديد. لكن هل تلقاه مجدّدًا، يومًا ما؟ هل تلتقي طرقهما مرة أخرى، بقدر ما؟ حدجتها رنيم بنظرة يملؤها الشك وهتفت:

- أنا أكلمك، هل تسمعين؟ ثمّ ما هذه النظرة الغريبة؟ وراءك حكاية أخرى، أليس كذلك؟

قفزت ياسمين من مكانها مبتعدة لتفرّ من قرصات رنيم المؤلمة. صرخت في احتجاج وهي تركض لتتوارى خلف باب غرفتها. هتفت وهي تدفعه لتمنع رنيم من الدخول:

- حكاية واحدة في اليوم.. لا تكوني طمّاعة!

صرخت رنيم في استياء صبياني وهي تواصل ضرب الباب بقبضتها:

- تحتفظين لنفسك بالقصّة الأفضل، هذا ليس عدلاً.. افتحي الآن!

تعالـت ضحـكات ياسـمين وهـي تواصـل دفـع البـاب. ليسـت مسـتعدّة بعـد للحديـث عـن تلـك التجربـة. سـتحتفظ بهـا لنفسـها لبعـض الوقـت رغـم إيقانهـا بـأن كل شيء قـد انتهـى، وبانعـدام الأمـل بعـد انتقالهـا إلى باريـس. ربّمـا تتحـدّث بسرّهـا الصّغـير إلى رنيـم في الغـد، أو في أمسـية لاحقـة.. لسـبب تجهلـه لـم تواتِهـا الجـرأة حينهـا. تلاشـت ضربـات رنيـم عـلى البـاب وسـمعت خطواتهـا وهـي تبتعـد وتتوعّـد.

- ليلة سعيدة.

كانـت تلـك آخـر كلماتهـا قبـل أن تغلـق بـاب غرفتهـا هـي الأخـرى. اسـتلقت رنيـم عـلى سريرهـا ونـثرت شـعرها بحريـة عـلى الوسـادة. تشـعر بتلـك الحريـة نفسـها تغمـر كيانهـا بعـد أن تخلصـت مـن سرّهـا الثقيـل. لـم يعـد سرّهـا وحدهـا. للمـرّة الأولى تعـبّر عـن ألمهـا بالكلمـات وتصـف بدقّـة تفاصيـل تجربتهـا المريـرة. ربمـا كانـت تلـك خطـوة أخـرى نحـو الخـلاص النهـائي والكامـل مـن جـرح صدرهـا.

تعالت دقات خفيفة على باب غرفتها. هتفت دون أن تقوم من مكانها:

- ياسمين، ماذا تريدين؟ جئت لتقصي عليّ الحكاية قبل النوم؟

ضحكت ياسمين وهي تمدّ رأسها عبر فتحة الباب وقالت:

- أقصّها عليك في وقت لاحق.. في الأثناء، استمتعي بهذا.

وضعت على المنضدة القريبة كتابًا، ثم أضافت قبل أن تختفي:

- اقرئي فيه كلما أحسست بالضيق.. سيسرّي عنك.

استقامت رنيم في فضول ومدّت يدها لتتناول الكتاب. كان كتاب قرآن.

obeikandl.com

-١٦-
الإرهابي

فتح عمر عينيه بصعوبة، ثم عاد ليغمضهما بقوّة حين بهرت الأضواء التي تملأ الغرفة بصره. آه، نعم. إنه في غرفته الجديدة في المستشفى الجديدة. تذكر في تشوّش رحلته الغريبة على متن المروحيّة الخاصّة. كان يحلم منذ صغره بركوب إحدى تلك الطائرات العموديّة المثيرة، لكنه لم يتخيّل أبدًا أن يركبها في مثل هذه الظروف، ليحل ضيفًا على الخدمة الرئاسيّة بعينها!

- أخيرًا استيقظت.

فوجئ حين سمع صوتًا لم يألفه، مع بروز رجل غريب من ركن الغرفة المظلم، كأنه يقبع هناك منذ أمد بعيد، يترقب استيقاظه. أردف الرجل وهو يقف عند رأسه:

- حسب أبحاثنا، ليست لديك عائلة في فرنسا، وليس لديك محامٍ خاص. أليس كذلك؟

هزّ عمر رأسه ببطء. هل كان يتوقع أنّه سيحتاج إلى محامٍ؟طيلة أيّام صمته الاضطراري تنامت في عقله قناعة مؤلمة بأنّ اختباره كان السّبب في الانفجار الذي حوّل الشركة إلى أنقاض ورماد. وإن كان لا يستوعب بعد كيف أمكن حصول ذلك! لقد رأى بأمّ عينه كرة اللهب التي أحرقت كلّ شيء في طريقها. وتساءل في رعب حقيقيّ عن مصير زملائه الذين لم يسمع لهم صوتًا وهو يحاول اقتحام الطابق الرابع ليطفئ المحرّك.

لم يكن قد أدلى بإفادته بعد بخصوص الحادث، فهو لم يسترجع القدرة على النطق إلا منذ يومين، قبيل نقله إلى باريس بزمن يسير. وهذا الرّجل قد جاء بالتأكيد من أجل هذا الغرض.

- المدّعي العام قام بتعيين محامٍ عنك بالنيابة. إن كان لديك اعتراض يمكنك رفعه للمحكمة حال بدء المداولات في القضية.

انفرجت شفتاه بصعوبة وجاهد حتّى ينطق بكلماته الأولى:

- هل.. هل هناك.. ضحايا؟

ردّ المحقّق في جفاف:

- ثمانية قتلى. عددهم قد يزيد بسبب الإصابات الحرجة. وأكثر من ثلاثين جريحًا.

- يا إلهي!

تسرّبت العبرات من جفنيه في ألم. ثمانية؟! صامويل، ألبير، كارولين.. وكل الزملاء من قسم الأبحاث، هل قضوا؟ سأله مرّة أخرى في لوعة:

- هل هم من شركة الكيميائيات؟ كانوا في غرفة الاستراحة في الطابق الرابع؟

سكت المحقّق للحظات ثمّ قال في برود:

- أفهم أنّك ترغب في التأكد من نتائج العمليّة، لكنني هنا لأوجّه إليك الأسئلة لا لأجيب عنها. ومع ذلك، سأردّ. نعم، كلهم موظفون من الشركة. المنفذ الوحيد من غرفة الاستراحة كان مسدودًا. و البعض علق في المصعد. لم يتمكنوا من الخروج، فاختنقوا بالدّاخل. والآن أخبرني، ما الذي حصل بالضبط؟

رغم الصّدمة التي سيطرت عليه، تكلم عمر باضطراب وأخذ يقصّ تفاصيل ذلك المساء بكل ما أمكنه من دقّة. كان يتوقف حين تؤلمه حنجرته. لم يكن قد استعاد صوته تمامًا والكلام يتعبه. في حين شغّل المحقق آلة التسجيل وتابع كلماته في انتباه. حين أنهى عمر روايته مع حصول الانفجار، أطرق الرجل ثم قال بعد صمت قصير:

- حسن. هذه الرواية الرسميّة التي لقّنوك إياها.. والآن أريد الحقيقة!

طالعه عمر بنظرات مبهوتة وهتف بما سمحت به طاقته:

- لكن.. هذه هي الحقيقة كلها يا سيّدي!

اسمع يا هذا، الملف الذي بين يديّ وما يحمله من شهادات وقرائن كافٍ لإدانتك بكل سهولة. لكن إن ساعدتنا في كشف كل الأطراف المشاركة في المؤامرة، فستجد منّا تعاونًا. قد نتوصّل إلى اتفاق يمكّنك من الحصول على حكم مخفّف. عشرون سنة فقط بدل السّجن المؤبد.

حدّق فيه عمر بعينين زائغتين وأنفاس مبهورة وهمس بحبال صوتية منهكة:

- السّجن المؤبد؟

- وهـل يحكـم عـلى الإرهابيـين الذيـن يهـدّدون أمـن البـلاد بأقـل مـن ذلـك؟ مـن حسـن حظـك أن عقوبـة الإعـدام قـد ألغيـت مـن القانـون الفرنـسي.

تسـمّرت عينـا عمـر عـلى ملامـح الرجـل القاسـية وهـو لا يصـدق مـا تسـمعه أذنـاه. إرهـاب. يتهمونـه بالإرهـاب! لـم يكـن يسـتوعب شـيئًا. رأسـه تـكاد تنفجـر. مـع كل الألـم والعلامـات الشـوهاء الـتي تمـلأ جسـده، مـع خسـارته البدنيّـة والنفسيّـة والماديّـة الفادحـة، مـع كل هـذا يريـدون وضعـه عـلى كـرسي الاتهـام؟

- الملف يشير إلى سوابق في سجلك...

سوابق؟ فغر عمر فاه غير مصدّق.

- إدارة جامعـة غرونوبـل بلّغـت عـن طالـب ذي «سـلوك مريـب» مـن المشـتبه انتمـاؤه إلى جماعـة متطرفـة. هـل تـمّ تجنيـدك في تلـك الفـترة؟ جماعـة محلّيـة أم عـلى الحـدود السـويسريّة؟

«سـلوك مريـب»؟ كل هـذا مـن أجـل سـنتيمترات لحيـة عفـا عنهـا مقـص الحـلاق لزمـن يسـير؟ و تعفـف عـن حيـاة الصخـب الجامعيّـة؟

- العمليّـة اسـتهدفت ثلّـة مـن خـيرة الباحثـين الشّـبّان في بلادنـا. هـل كان مـن بينهـم هـدف محـدّد؟ مـن هـو؟ أم أنّهـا عمليّـة عشـوائيّة؟ هـل تسـعى مجموعتـك إلى سـلاح كيميـائي مـا؟

انهالـت الأسـئلة الغريبـة مـن فـم المحقّـق أمـام صمـت عمـر المفجـوع. كلّ شيء كان غـير قابـل للتّصديـق.

- ربّمـا كانـت حياتـك لا تهمّـك، فأنـت كنـت تنـوي الخـلاص منهـا في عمليّتـك الانتحارية.لكنّـني سـأضمن لـك أن تعيـش أكـثر، وتتمـنّى المـوت كل يـوم أكـثر مـن مـرّة.. مـع الأشـغال الشـاقة الـتي سـنخصّك بهـا. صدّقـني هـذا مـا سـيحصل إن اسـتمررت عـلى عنـادك. لا يمكنـك أن تحمـي جماعتـك إلى الأبـد، لكـن يمكنـك أن تخفـف عـن نفسـك المسـؤولية.

-أيّ جماعة وأيّ مسؤوليّة؟ أنا لم أفعل شيئًا! كان مجرّد حادث!

زفر المحقق وقال في امتعاض:

- أنصحـك بالتشـاور مـع محاميـك قبـل أن تتخـذ موقفًـا متسرّعًـا. إمكانيّـة الاتفـاق مازالـت متاحـة.

ثـم توجّـه إلى البـاب معلنًـا نهايـة الجلسـة. قبـل أن يغـادر الغرفـة الزّجاجيّـة،

استدار ليقول في لهجة محذرة:

- لا تتأخر في اتخاذ القرار الصائب، فقد أغير رأيي وتضيع فرصتك الأخيرة.

****

تقدّمت رنيم كعادتها بخطوات رشيقة متزنة باتجاه مكتب الاستقبال في المستشفى المدني لضاحية باريسيّة مرموقة. للمرّة الأولى كانت تزور موكلاً في غرفة مستشفى. وليس أيّ موكل. إرهابيّ. رنّت الكلمة في رأسها فاقشعرّ لها جسدها.

- غرفة عمر الرشيدي من فضلك. المحتجز على ذمّة العدالة.

رفع إليها موظف الاستقبال نظرة متحفزة:

- معذرة، الزيارة ممنوعة.

أخرجت بطاقتها والتوكيل الذي حصلت عليه ذلك الصباح من مكتب المدّعي العام وقالت:

- أنا محاميته.

- من هنا من فضلك.

قال ذلك بعد أن عاين الأوراق الرّسمية، ثم توجّه إلى المصعد في آخر الممر. تبعته رنيم وقد أخذها التوجس. ستكون بمفردها في غرفة مغلقة مع إرهابيّ. لم تكن قد فكرت في تفاصيل اللقاء وملابساته من قبل، فقد غلبت الحماسة على إعمال العقل. لكن مع اقتراب الموقف من التّحقق فقد بدأت تدرك مقدار دقّة وضعها. لمحت عن بُعد الشرطي ذا البزّة الرّسمية الذي وقف أمام إحدى الغرف، فأيقنت أنّها الغرفة المعنيّة. وقع بصرها على الحاجز الزجاجي الشفّاف الذي يفصل المريض عن حارسه فتنهدت في ارتياح. لن يمكنه أن يؤذيها، وكلّ ما يحصل داخل الغرفة مرئيّ من خارجها. لكن لماذا قد يفكر في أذيتها وهي تكلف نفسها عناء الدّفاع عنه وتمثيله في هذه القضية الشائكة؟

بعد إجراءات التثبت من الهويّة، سمح لها الشرطيّ بالمرور. كانت اللفافات البيضاء قد تراءت لها وهي وراء الزجاج من الجانب الآخر، لكنّ المشهد عن قرب كان أشدّ وطأة. كانت تعلم أنّ المتّهم قد نجا بأعجوبة

مـن الانفجـار، لكـنّ رؤيـة العـين شيء آخـر. رمقتـه في شيء مـن الرّثـاء الممـتزج بالرّهبـة. مـن حسـن حظـه أن الحـروق لـم تطـل وجهـه الوسـيم. مـن موقفهـا ذاك لمحـت نظرتـه الكسـيرة الـتي ارتخـت عنهـا أهدابـه الكثيفـة، والصلابـة الـتي تشـدّ عضـلات فكّـه، وقـد أطـرق في تفكـير ظاهـر التوتـر.

تنحنحـت لتنبّهـه إلى وصولهـا. فرفـع عمـر نظراتـه تجاههـا ببـطء، ألقـى عليهـا نظـرة سريعـة ثـم أشـاح بوجهـه في ضيـق واضـح. حـين واجهتهـا نظراتـه لمحـت الضمـادة الـتي تغطـي عينـه اليـسرى وقسـمًا مـن وجنتـه. إذن فقـد طالـت الحـروق وسـامته.

- مرحبًا.

قالت في لهجة ودودة، لكن إجابته كانت باردة وصارمة:

- ماذا تريدين؟

جذبـت كرسـيًّا وجلسـت قـرب السريـر وهـي تقـول محاولـة الحفـاظ عـلى لهجتهـا المطمئنـة:

- أنا رنيم، المحامية المكلفة بالدّفاع عنك.

لمحت شبح ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يقول باستفزاز متعمّد:

- أنا متهم بالإرهاب، هل تعلمين؟

سرت في جسـدها قشـعريرة بـاردة مـرّة أخـرى، ازدردت ريقهـا وهـي تقـول بصـوت خافـت:

- نعم أعلم.

قال دون أن ينظر إليها:

- هل تعتقدين ببراءتي؟

تردّدت للحظات. لا تملك إجابة بعد. أردف في إصرار:

- لا شـك أنّـك قـد اطلعـت عـلى ملـف القضيـة. هـل تظنّـين أنّـني نفّـذت الانفجـار؟

تمتمت في توتر:

- لست أدري. أنا هنا لأستمع إليك و...

قاطعها بصوت حازم:

- إذن مع السّلامة. لا أريد محاميًا غير مقتنع بالقضية التي يترافع فيها!

قالت في احتجاج:

Opeikandl.com

- لكنّني تسلمت ملف القضيّة البارحة. لم يكن لديّ ما يكفي من الوقت لأكوّن فكرة شخصيّة عن الأحداث. ومن المفترض أن يكون هذا اللقاء فرصة لتوضيح الرؤية ودراسة خط الدفاع الممكن.

قال ببرود أدهشها:

- رنيم، أليس كذلك؟ أنت مسلمة؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب دون أن تدرك علاقة سؤاله بالقضيّة. تابع عمر في ازدراء:

- هل نظرت إلى شكلك في المرآة؟

خفضت رنيم نظراتها في ضيق لتعاين شكلها. امتدّت كفّها على الفور لتجذب تنورتها القصيرة إلى الأسفل بعد أن انحسرت عن ركبتيها حال جلوسها، ثم قامت بتزرير أعلى قميصها لتغطي ما انكشف من نحرها. رغم حرجها هتفت في حدّة:

- ما علاقة شكلي بعملي؟ أنا هنا كمحامية لا غير.

قال في نفس البرود القاتل:

- أنت مثلهم، بل لعلك أسوأ منهم. يعتقدون أن كلّ من يقول «الله أكبر» يهمّ بعملية انتحارية. وأنّ كل مسلم ملتزم هو بالضرورة مشروع إرهابيّ. ربما أفهمهم لأنّهم يجهلون كل شيء عن ديننا ورؤوسهم مليئة بالأفكار المشوّهة. أماّ أنت، أيتها «المسلمة المحترمة»، تعرفين الإسلام كل المعرفة.. ومع ذلك تولينه ظهرك وتنكرينه بعقلك وتتمرّدين على تعاليمه بشكلك. أنت التي تدينين به لا تحترمينه كما ينبغي لك أن تفعلي، فكيف أثق بك كترجمان يقنع هذا المجتمع ببراءتي؟ كيف تدافعين عن معتقد وأنت تتنكرين له بعد أن نشأت بين أحضانه؟ لذلك لا أريدك للدفاع عنّي. أرجوك ارجعي من حيث أتيت.

أحسّت ببرودة لاذعة تسري في أوصالها وتجمّدت نظراتها في الفراغ للحظة. ثم وقفت في هدوء، وتوجهت نحو باب الغرفة دون أن تنطق بكلمة واحدة.

-١٧-

عنصريّة

وقفت ياسمين في المحطة تنتظر حافلتها. كان يومًا شاقًا في الشركة. انغمست لساعات في ملء الاستمارات والملفات، تقودها موظفة الإدارة من مكتب إلى آخر لإنهاء الإجراءات الخاصّة بتمويل بحثها ومختلف التفاصيل الإداريّة الضروريّة. تنقلت معها عبر مختلف الأقسام لتعرّفها على الموظفين الذين ستتعامل معهم طيلة فترة الدكتوراه. ثمّ أخذتها أخيرًا إلى المكتب الذي أعدّمن أجلها في الطابق الثامن، حيث مكتب دافيد كيلير رئيسها المباشر. تذكرت كلمات رنيم عن يومها الأوّل فابتسمت. بدايات متشابهة. ربما كانت رنيم أكثر حماسًا منها بقضيّتها الأولى، فهي لا تجد صعوبة تذكر في الاندماج والحصول على القبول من طرف زملائها.. كوني متفائلة يا ياسمين، فزملاؤك أيضًا ليسوا سيئين. جاءت جولي وмарينا للترحيب بها اليوم. كانتا في غاية اللطف والكرم. شربتا معها القهوة بعد الظهر حين انتهت من إجراءاتها الكثيرة واستلمت مكتبها.

لمحت الحافلة تقترب فتهيّأت. جاء دورها أخيرًا، وقفت أمام الجهاز القارئ للرّقاقات الإلكترونية ومرّرت بطاقتها. تلك البطاقة التي تمّكنها من التجوّل في كل أنحاء باريس دون أن تدفع ثمن التذكرة في كل مرّة. وللتحقّق من صلاحيّة بطاقتها كان عليها المرور باختبار الجهاز القارئ للرّقاقات كلما صعدت المترو أو الحافلة. فوجئت بالمصباح الأحمر يضيء والجهاز يصدر طنينًا مزعجًا معلنًا عن بطاقة غير معتمدة. ارتبكت ياسمين وهي تعاين بطاقتها في استغراب. لقد حصلت على البطاقة يوم أمس، واستعملتها في رحلتها الصّباحيّة. لماذا لا تعمل الآن؟ وصلها صوت السائق وهو يصرخ في انزعاج:

- ما الأمر يا آنسة؟ ألم تشحني بطاقتك؟

مدّت إليه البطاقة في توتّر وهي تقول في احتجاج:

- بلى فعلت، لكنها لا تعمل.. لست أفهم!

قلب البطاقة بين يديه وهو يعقد حاجبيه ثم هتف في برود:

- إن كانـت البطاقـة لا تعمـل فيجـب أن تدفعـي ثمـن التذكـرة.. ولا تنـسي أن تشـحنيها فيمـا بعـد.

هتفت ياسمين في إصرار:

- لكنني شحنتها البارحة. أنا واثقة من ذلك!

تفحصها السائق في استياء ثم قال في عجرفة:

- هكـذا إذن.. لا تريديـن أن تدفعـي؟ لا داعـي لتضييـع الوقـت لأن لعبتـك مكشـوفة. يمكنـني تمييـز الأشـخاص أمثالـك جيـدًا، لا داعـي للتمثيـل!

تجمّعت العبرات في عيني ياسمين لكنّها قالت بصوت واثق:

- مـن فضلـك، لا تخاطبـني هكـذا.. هـذا يومـي الأول في العمـل. اشـتريت البطاقـة البارحـة وشـحنتها، كانـت تعمـل هـذا الصّبـاح.

واصـل الرّجـل في سـخط وقـد تعالـت اعتراضـات المسـافرين عـلى تأخـر انطـلاق الحافلـة:

- هـذه ليسـت مشـكلتي. والآن لا وقـت عنـدي أضيّعـه. سأسـمح لـك هـذه المـرّة بالركـوب حـتى لا أعطـل بقيـة الـركاب. لكـن حـذار أن تكـرّري المحاولـة مـرّة أخـرى. فملامحـك طبعـت هنـا.

قـال ذلـك وهـو يشير بسبابته إلى رأسـه وفي عينيـه نظرة حـادّة. لـم تـردّ عليه ياسـمين. ابتلعـت الإهانـة وتقدّمـت في الممرّ الضّيـق المـؤدي إلى آخـر الحافلـة. كانـت العربـة مليئـة بالـركاب في وقـت الـذروة. اسـتندت إلى أحـد الأعمـدة المعدنيـة في صمـت، وسـؤال واحـد يـتردد في ذهنهـا. لمـاذا لـم تـنزل؟ كان بإمكانهـا أن تـترك الحافلـة وتركـب غيرهـا، لكنهـا لـم تفعـل. تحمّلـت صفاقـة السـائق وبقيـت هنـاك. ربّمـا لأنهـا كانـت تخـشى أن يتكـرّر الموقـف مـع سـائق آخـر؟ ربّمـا لأنهـا تعـرف تلـك اللهجـة العنصريّـة ولا تريـد أن تسـتمع إلى المزيـد منهـا؟

اقتربت منها سيدة مسنّة وهمست في لطف:

- اذهبي إلى مكتب الاشتراكات واطلبي منهم التثبّت من البطاقة.

رفعـت إليهـا عينـين حمراويـن اعترتهمـا الدّهشـة. هـزت رأسـها علامـة الموافقة وهمسـت بكلمـات شـكر مرتبكـة. سـتفعل بالتأكيد. سـتفعل.

*****

مـرّت سـاعات النهـار بسرعـة. انغمسـت في العمـل بالكامـل ونسـيت -أو كادت- حادثـة الأمـس المزعجـة. كان عليهـا أن ترسـم تخطيطـاً دقيقًـا لمسـار بحثهـا وتحـدّد الخطـوات اللازمـة ومدّتهـا الزّمنيّـة التقريبيّـة، مـن عمـل ميـداني واسـتجوابات للموظفـين وبحـوث نظريـة. نظـرت إلى سـاعتها. كانـت تشـير إلى السادسـة مسـاءً. لـم تغـادر المكتـب منـذ وصولهـا. أحـضرت معهـا شـطيرة منزليـة التّحضـير، تناولتهـا عـلى مهـل أمـام حاسـبها الآلي قبـل أن تسـتأنف العمـل. لـم يكـن ذلـك مبالغـة منهـا في الجدّيّـة، لكنّهـا كانـت تشـعر بالحـرج من الانضمـام إلى زملائهـا في ركـن الاسـتراحة أو الالتحـاق بهـم في المطعـم لتنـاول وجبـة الغـداء. مـرّت مارينـا بمكتبهـا واقترحـت عليهـا مرافقتهـا، لكنّهـا اعتـذرت. لـم تتعـوّد بعـد عـلى أجـواء الشركـة، وهـي كانـت متحفّظـة بطبعهـا. ثـم لا تـدري أيّ المطاعـم يرتـادون وهـل يمكنهـا أن تجـد ضمـن لائحـة أطعمتـه مـا يناسـبها.. لذلـك فضلـت اعتزالهـم لبعـض الوقـت.

كانـت قـد جمعـت حاجياتهـا وتهـمّ بإغـلاق جهازهـا حـين سـمعت دقـات موقعـة عـلى بابهـا. رفعـت رأسـها لتلمـح السـيّد دافيـد كيلـير، رئيسـها المبـاشر. قـال وعـلى شـفتيه ابتسـامة ودودة:

- كيف حالك ياسمين؟ وكيف هو العمل؟

استوت في وقفتها في ارتباك وقالت دون تردّد:

- كل شيء بخـير.. لقـد شرعـت في تحضـير التّخطيـط الكامـل للبحـث. أتريـد رؤيتـه؟

- لا داعـي. خـذي كل وقتـك للاطـلاع عـلى البحـوث الموجـودة والتفكـير في تخطيـط مميّز. سـأتّصل بـك قبـل نهايـة الأسـبوع لنتحـدّث أكـثر. عمـلاً موفقًـا.

حـين ابتعـد عـن مكتبهـا، لمحـت الرجـل الـذي كان يرافقـه. باتريـك. عرفـت اسمه مـن جـولي الـتي عرّفتهـا عـلى موظفـي قسـم البحـوث في جلسـة إرشـادية سـابقة. تشـك في قدرتهـا الآن عـلى وضـع الاسـم الصحيـح عـلى كل وجـه، لكـن باتريـك.. كيـف يمكنهـا أن تنـسى ملامحـه؟ هـزّت كتفيهـا في لامبـالاة. لا شـأن لهـا بـه، طالمـا ظـل بعيـدًا عنهـا ولـم يضايقهـا.

ابتعـد باتريـك رفقـة دافيـد وفي رأسـه فكـرة غريبـة. حـين غـادرا المصعـد واقتربـا مـن موقـف السّـيارات، نظـر إلى دافيـد وهـو يقـول في لهجـة خاليـة مـن كل اهتمـام:

- تسافر الأسبوع المقبل إلى برلين، أليس كذلك؟

هزّ دافيد رأسه علامة الإيجاب وهو يضغط على زرّ التّحكم ليفتح سيارته ويلقي حقيبته على المقعد المجاور للسّائق. أردف باتريك بنفس اللهجة اللامبالية:

- هل تريد أن تفوّض إليّ بعض الأعمال في فترة غيابك؟

رفع إليه دافيد نظرة مليئة بالدّهشة. لم يتعوّد من باتريك أن يطرح عليه مثل هذه الاقتراحات السخيّة.

- أنت متأكد؟ يمكنك أن تهتمّ ببعض الملفات؟

وضع باتريك كفيه في جيبي سترته وهزّ كتفيه مع ابتسامة عريضة:

- طبعًا.. نحن صديقان.

- ممتاز. سأضع على مكتبك غدًا بعض الدّفاتر التي تخصّ ملفًا مستعجلاً. كنت سأعهد إلى ياسمين بأمره، مع أنني كنت متخوّفًا من عدم قدرتها على الاهتمام بالأمور الإدارية نظرًا إلى حداثة انضمامها إلى الشركة. لكن بما أنك تعرض ذلك، فهذا يناسبني جدًّا.

التمعت عينا باتريك بنظرة غريبة وقد راقه كثيرًا ما سمعه من دافيد للتوّ:

- إن شئت، يمكنني أن أدرّب ياسمين في فترة غيابك وأجعلها تعمل على الملف تحت إشرافي.

رفع دافيد حاجبيه في دهشة متزايدة:

- هل غيّرت رأيك بشأن ياسمين بهذه السرعة؟ أشك أنها وضعت شيئًا في قهوتك هذا المساء.

ضحك وهو يربت على كتف الرجل في مودّة. قال باتريك بلهجة غامضة:

- لم يتغير رأيي أبدًا.. لكن بما أنها هنا، فلنر ما في جرابها من إمكانيّات.

****

وقفت من جديد في محطة الحافلات وهي تهزّ ساقها في توتّر. ذهبت ذلك الصّباح إلى مكتب الاشتراكات وتأكدت من صلاحيّة بطاقتها. وحتى تثبت براءتها، أخذت من الموظفة فاتورة الشراء التي تحمل رقم البطاقة

opeikandil.com

وتاريخ شحنها. ستؤدّب ذلك السّائق حتمًا. كانت تتمنّى أن يكون على متن الحافلة القادمة حتى تلقّنه درسًا على وقاحته مساء أمس. لم يكن توتّرها سوى حماسا وتوقا إلى لحظات المواجهة المقبلة.

هل كانت تعتقد أنّ متاعبها ستنتهي حالما تجد تمويلاً لبحث الدكتوراه؟ أبدًا. كانت تدرك أنّ أعينًا تتربّص بها وبشبيهاتها من المسلمات، وعنصريّة مزمنة تنخر قلوبًا لن تتركها في سبيلها. ومهما تأجّلت المواجهة مع مخاوفها، فإن ذلك لا يعني النّجاة منها إلى الأبد. حين كانت على وشك الاستقرار والاستسلام لحياة الرتابة، فاجأتها بظهورها على السّطح في توقيت وشكل غير متوقعين، كنوع من الإثارة وتغيير الرّوتين! فليكن إذن، إن كان لا بدّ من المواجهة، فلتشحذ أسلحتها وتشمر عن ساعديها!

أخيرًا توقفت الحافلة التي تقلّها إلى شقتها. ألقت نظرة على مكان السّائق. نعم إنّه هو. تقدّمت بخطوات واثقة تحت نظراته الباردة. من الواضح أنّه قد تعرّف عليها أيضًا. «ملامحك طبعت هنا»، كانت تلك كلماته. أخرجت بطاقتها ومرّرتها أمام الجهاز في حركة متحدّية وانتظرت. ولدهشتها الكبيرة، أضاءت الإشارة الحمراء معلنة عن خلل ما. فغرت ياسمين فاها وتسمّرت مكانها في فزع. ما الذي يحصل؟ لماذا لم تعمل بطاقتها؟ سارعت بتمريرها مرة ثانية وثالثة في إصرار. لكنّ النتيجة كانت واحدة. البطاقة لا تعمل. رفعت رأسها لتلمح نظرة الشماتة المتغطرسة التي تطل من عيني السّائق. جاءها صوته الكريه:

- أنت مرّة أخرى؟! ألم أحذرك من معاودة الكرّة؟ لكنّك مصرّة على قلة الأدب.

كتمت ياسمين غيظها مع سيل الشتائم التي انسابت من شفتيه، وأخرجت الفاتورة التي حصلت عليها ذلك الصّباح من الموظفة. أبرزتها أمام عينيه وهي تهتف بقوّة:

- بطاقتي سليمة. لقد شحنتها منذ يومين، وهذه الفاتورة. إن كان جهازك لا يعمل، فتلك مشكلتك.

أخذ منها السّائق البطاقة والفاتورة في شك وألقى عليها نظرة سريعة، ثم أطلق ضحكة ساخرة وهو يلقي إليها أوراقها في احتقار:

- كيف تملكين الجرأة لتقومي بهذه الحركة الرّخيصة؟ من أين حصلت

علـى هـذه الفاتـورة؟ هـاه؟ لا شـك أنّـك التقطتهـا مـن الأرض لأنهـا بالتأكيـد ليسـت لـك. الرّقـم الـذي تحملـه مختلـف عـن رقـم بطاقتـك!

أخـذت ياسـمين البطاقـة وقـد شـلتها المفاجـأة. دليـل براءتهـا لـم يفدهـا بشـيء، بـل زجّهـا في مـأزق آخـر لـم تحسـب لـه حسـابًا. تجمّعـت العـبرات في عينيهـا منـذرة بالهطـول. لـن تبـكي. لـن تبـكي. قاومـت في استماتة، لكـنّ الطوفان بداخلهـا كان أقـوى مـن دروعهـا الهشـة. فاضـت أمواجـه وفـارت حـتى انحـدرت علـى شـواطئ عينيهـا وتدفقـت السّـيول لتغـرق وجنتيهـا. أخـذت دموعهـا تتسـاقط تباعًـا وهـي مطرقـة إلى الأرض فـرارًا مـن كل الأعـين الـتي تتابع المشـهد. كانـت تشـعر بنظـرات شـفقة وسـخرية وشـماتة تطالعهـا مـن كل جانـب. كانـت فرجـة مسـائية ملهمـة. كل مـن يزعجـه حجابهـا، لا شـك قـد اسـتمتع بالعـرض المجّـاني. ارتفعـت شـهقاتها المكتومـة مـع تواتـر أفكارهـا القاتمـة.

وكأنّ دموعهـا الصّادقـة أزعجـت السـائق، فـصرخ بهـا وهـو يشـير إلى الـركاب الذيـن وقفـوا ينتظـرون دورهـم للصّعـود:

- والآن ابتعـدي مـن أمامـي. إن كنـتِ تصرّيـن علـى عـدم شراء تذكـرة فـلا تعطليـني أكـثر مـن هـذا. اركـبي مـن البـاب الخلفـي إن شـئت تكـرار التجربـة، لكـن لا أريـد أن أرى دمـوع التماسـيح هـذه بعـد الآن.

مسـحت ياسـمين عينيهـا بظهـر كفهـا وانسـحبت في انكسـار إلى آخـر الحافلـة. لـم تكـن يومـا بهـذه الهشاشـة. اختـبرت ظروفـا صعبـة في تونـس مـن قبـل، وأبـدت صمـودا جديـرا بالإشـادة. لكـن هنـا، الآن، مـاذا دهاهـا؟ أهـو البعـاد عن الأهـل و السـند؟ أهـي غربـة فـوق غربـة أنضبـت معـين قوّتهـا؟ تجـاوزت اختبـار مقابـلات العمـل دون أن تـذرف دمعـة واحـدة، وأنهـت المرحلـة عـن نجـاح وانتصـار. لكنّهـا تعلـم أنّ هـذه الشـتائم وتلـك النظـرات لـن تكـون مرحليّـة أو آنيّـة، تختفـي باختبـار تجتـازه وتتجـاوز عمّـا سـبقه بجـرّة قلـم علـى ملفّـات الذاكـرة. بـل لعلهـا تكـون معلمـا مـن معالـم حياتهـا الباريسـيّة المقبلـة، ركنـا قـارّا في برنامـج يومهـا. تصطبـح علـى شـتيمة وتمسـي علـى نظـرة احتقـار حارقـة. فهـل تحتمـل؟ هـل تـرضى؟ هـل هنـاك مـا يسـتحقّ أن تتنـازل مـن أجلـه عـن كرامتهـا وتتجـرّع الـذلّ والهـوان في كل روحـة وجيئـة؟

أخرجـت هاتفهـا واتّصلـت علـى الفـور برنيـم. كانـت الشّـخص الوحيـد الـذي يمكنهـا أن تشـاركه مأسـاتها في تلـك اللحظـات.

Qoeikanoi.com

- رنيم أرجوك، هل يمكنك إيجاد رقم شركة النقل من أجلي؟

ارتعبت رنيم وهي تسمع صوتها المختنق من العبرة.

- ما الذي جرى يا عزيزتي، أخبريني؟

قصّت عليها ياسمين حكاية البطاقة التي تكرّرت مرتين، فقالت رنيم بلهجة حازمة:

- أعطني رقم بطاقتك ورقم الحافلة والرّمز الذي ترينه خلف مقعد السائق.. ودعيني أتصرّف.

أملت عليها ياسمين ما طلبت، ثم أغلقت الخط. رنيم ليست من النوع الذي يستسلم بسهولة. لا شك أن عملها في المحاماة أورثها طبعًا قتاليًا حادًّا، وهي ستفعل المطلوب لتعيد إليها حقها بالتأكيد. كانت واثقة. مضت بضعة دقائق قبل أن يرنّ هاتفها. سارعت لتردّ في لهفة. فجاءها صوت رنيم مشبعًا بمتعة الانتصار:

- بطاقتك سليمة. اتّصلت بالشركة وقدّمت شكوى بالسّائق الذي تصرّف بعنصرية واضحة وتطاول على زبونة بألفاظ سوقيّة ومسيئة على أساس اختلافها العرقي والدّيني. إن لم يتصرّفوا معه بما يستوجبه الموقف نرفع قضية لدى المحكمة ونحصل على تعويض ضخم!

وجدت الابتسامة طريقها إلى وجه ياسمين التي استرجعت بعض ثقتها.

- كنت أعلم أنك الشخص المناسب!

أغلقت الخطّ وقد تسللت إليها بوادر الارتياح. لن يضايقها السّائق بعد الآن، فقد صارت لديها محامية مستعدّة للدّفاع عنها في كل وقت. سمعت رنينًا يرتفع عند مقدمة الحافلة فرفعت رأسها لتلمح السائق وهو يردّ على اتصال خارجي على هاتفه اللاسلكي. لم تكن الكلمات تصلها من موقعها ذاك لكنها أيقنت أن لرنيم يدًا في الأمر.

حين توقفت الحافلة في الموقف الخاصّ بها، خطت في اتّجاه الباب الأماميّ. لكنّ السائق استوقفها حين همّت بالنزول. فوجئت به وهو يشير إليها بالاقتراب عبر المرآة العاكسة. تقدّمت باتجاهه في شك. ماذا يريد منها الآن بعد؟ ما أن اقتربت حتى لمحت ابتسامته المتملقة التي حلت مكان التّكشيرة، وازدادت دهشتها حين تكلم بصوت هادئ ولهجة تقترب من الاعتذار:

- يبدو أن سوء تفاهم حصل بيننا. المشكلة في البطاقة جعلتني أفقد صوابي وأشك بأمرك. تعلمين في مهنتنا هذه نتعامل مع اللصوص والمحتالين كل يوم، لذلك يجب علينا الحذر و...

أجابت ياسمين ببرود:

- وهل يجب عليكم إهانة الركاب أيضًا؟ أم أنني أبدو لصّة أو محتالة؟

تلعثم الرجل وهو يبحث عن تبرير:

- لكن البطاقة لم تعمل. والرقم على الفاتورة لم يكن واضحًا. لذلك كان عليّ أن أكون صارمًا.

- تأكد أننا أيضًا سنكون أكثر صرامة في المرّة القادمة!

استدارت ياسمين والسائق إلى مصدر الصوت. كانت رنيم التي جاءت لانتظار ياسمين في المحطة قد تقدّمت باتجاه الباب المفتوح. أضافت بلهجة متعالية حازمة من خلف نظاراتها الشمسية:

- هذه المرّة اكتفينا بإنذار، لكننا مستعدّون للتّصعيد إن تكرّرت قلة الأدب والإهانات.

حدجها السائق بنظرة منزعجة:

- وأنتِ من تكونين؟

وضعت رنيم بطاقتها المهنيّة أمامه وهي تقول في تحدٍّ:

- أنا محاميتها.

انتظرت للحظات ريثما يستوعب الرّجل المأزق الذي وضع نفسه فيه، ثم أردفت:

- لم تقرّر الاعتذار بعد؟

- أنا آسف. أنا آسف حقًا.

حين ابتعدت الم تكن كلمات الاعتذار على شفتي الرجل قدتوقفت عن التّدفّق. احتضنت ياسمين رنيم في امتنان وهي تهتف:

- لستِ هيّنة حقًا. لا أدري ماذا كان ليحل بي دونك!

ضحكت رنيم وهي تقول في ثقة:

- أنسيت أنّ هذا عملي؟ لكنني لن أطالبك بالأتعاب هذه المرّة. فلنقل إنها هدية ضيافة.

ثم مالت عليها لتهمس في أذنها:

- بالنسـبة إلى بطاقتـك، احفظيهـا بعيـدًا عـن الهاتـف الجـوال، فموجاتـه الكهرومغناطيسـية تفسـد عمـل الرّقاقـات الإلكترونيـة.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٨-
اعترافات مسائية

منذ يومين أصبح عمر قادرًا على التّحكم في أصابع يده اليمنى وطيّ ذراعه دون أن يسبّب له ذلك آلامًا مبرحة. أوجاع خفيفة يقدر على احتمالها. لينتقل من وضعية الجلوس إلى وضعية الاستلقاء، يكفيه أن يمدّ كفّه باتّجاه لوحة التّحكّم الإلكترونية التي تمكّنه من تعديل انحناء المتّكأ حسب الحاجة. ابتسم في سخرية وهو يعاين مستوى الرّفاهيّة في الخدمات التي تقدّمها المستشفى. كل هذه العناية حتى يشفى سريعًا ويتمكنوا من محاكمته.. وينزلوا به أشدّ العقوبات. الطبيب كان واضحًا في زيارته الأخيرة. العمليات الجراحية التي سيجريها ستعالج الكسور والتمزقات العضلية وتصلح التخريب الذي لحق بأليافه العصبيّة، لكنّها أبدًا لن تعيد إليه جلده المحترق. لن تتكفل الدّولة بأي حال بعمليّات التّجميل الدّقيقة والباهظة التي من شأنها أن تخفي التشوّهات بالكامل.

اهتزّ من الدّاخل حين وقعت عيناه على صورته في مرآة لأوّل مرّة منذ الحادثة. حدّق في تلك المومياء البشريّة زائغة العين في صدمة. كانت الضمادات تكاد تغطي كلّ شبر من جسده وعين واحدة تطلّ على العالم، في حين نجت العين اليسرى بأعجوبة بعد أن طالتها الشظايا الملتهبة. لم يفقد بصره وإن كان شكل عينه قد غدا شائهًا. حمد الله على تلك النعمة وقد أدرك كم كان قريبًا، شديد القرب من الموت. نجاته كانت معجزة حقيقيّة. رفاقه الباقون لم يكن حظهم مثل حظه.

قد يظل مشوّهًا طول حياته. ولكنه قد يقضي بقية حياته في السّجن أيضًا. هل يبالي بتشوّه جلده حين يفقد حريّته وكرامته؟ أطرق في إرهاق وقد أعياه التفكير. لقد طرد المحامية منذ يومين. من سيدافع عنه الآن؟ هل يمكنه أن يقف كالبطل في مواجهة القاضي والمحلفين ويرافع بنفسه؟ ربما لا يتقن مراوغات المحامين واستراتيجياتهم الملتوية، لكنه سيكون صادقًا وشفافًا. هل يعجزون عن قراءة البراءة في كلماته المستميتة؟

زفر بقوّة وأغمض عينيه. رحمك الله يا أمي! رحمك الله يا أبي! لم يعيشا

ليريـا ابنهمـا الأصغـر يعيـش المهانـة والمذلّـة. لـو كانـا عـلى قيـد الحيـاة، لقتلهمـا الخـبر! وحدهـا شـقيقته عائشـة بقيـت عـلى اتصـال بـه بعـد سـفره. كان يتّصـل بهـا مـرّة في الأسـبوع، وربمـا كل أسـبوعين. كان ذلـك الاتصـال هـو كل مـا يربطـه بالمغـرب منـذ مجيئـه. لـم يـترك الكثـير ليتحسّر عليـه. حـتى عائشـة قـد لا تكـون قـد افتقدتـه هـي الأخـرى. تكفيهـا همـوم البيـت والـزوج والأولاد. ليـس بحاجـة لإزعاجهـا بمشـكلاته الآن. سـيتّصل بهـا حـين تشـفى حنجرتـه بالكامـل. يسـأل عـن الأحـوال كالعـادة، يقـصّ عليهـا نـادرة أو اثنتـين عـن ليـون والشركـة والمجتمـع الغـربي الـذي يثـير في ذهنهـا أحلامًـا دفينـة. لكنـه قطعًـا لـن يخبرهـا عمّـا حـلّ بـه. سـيصيبها الجنـون وينكّـد عليهـا حياتهـا دون أن تملـك المجـيء لمسـاندته. حـين ينتهـي كل شيء، ويصـدر الحكـم النهـائي، وقتهـا فقـط سـيخبرها بمـا نـزل بـه. قـد يعتـذر لأنـه لـن يزورهـا الصيـف المقبـل، ولـن يحـضر هدايـا للأطفـال، وربمـا لـن يزورهـا لصائفـات عديـدة بعـد. وقـد يعلمهـا بعـودة نهائيّـة ليسـتقرّ إلى جوارهـا. ذلـك يعتمـد عـلى المسـار الـذي سـتتخذه المحاكمـة..

رفـع رأسـه حـين فتـح البـاب فجـأة. حـدّق في عـدم تصديـق حـين ظهـر أمامـه وجـه مألـوف وغريـب في آن. مألـوف لأنـه يعرفـه كل المعرفـة، وغريـب لأنّـه لـم يتوقـع أن يـراه هنـاك البتـة. هتـف في دهشـة:

- كارولين؟ كيف..؟!

قبـل أن ينهـي تسـاؤله، كانـت قـد قطعـت الأمتـار الـتي تفصلهـا عنـه وارتمـت عليـه تعانقـه بقـوّة وحـرارة. لـم يسـتطع أن يصدّهـا أو يدفعهـا عنـه. فقـد تعاونـت ذراعاهـا الـتي طوّقتـه مـع اللفافـات القطنيـة الـتي تكبّلـه مـع عطرهـا الأنثـوي النّفّـاذ الـذي كاد يقطـع أنفاسـه. حـين ابتعـدت عنـه واتخـذت مجلسًـا عـلى طـرف سريـره سـألها في لهفـة وقـد تزاحمـت الأسـئلة عـلى طـرف لسـانه:

- أنت بخير؟ كيف نجوت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

ابتسمت في حزن وهي تكفكف دموعها التي أسالت كحل عينيها وقالت:

- أنـا بخـير.. غـادرت المبـنى قبـل ثـوانٍ مـن الانفجـار القاتـل. كنـت محظوظـة. حـين عرفـت أنّـك هنـا، اتصلـت بأصدقـاء لي في النّيابـة العموميّـة، ودبّـرت إذنًـا بالزّيارة.

- والآخرون؟ هل نجوا؟

هـزّت رأسـها في أسى علامـة النفـي، فأطـرق متألمًـا. كان سـؤالاً عقيمًـا، فقـد سبق وأنبـأه المحقـق عـن الضحايـا الثمانيـة. لكـنّ معجـزة ظهـور كارولـين أمـام عينيـه ذلـك الصّبـاح غـذّت في نفسـه أمـلاً مسـتحيلاً. فوجـئ بهـا وهـي تمسـك كفـه نصـف المضمـدة بـين يديهـا الناعمتـين، في حـين أخـذت الكلمـات تتدفّـق مـن فيهـا وهـي ترنـو إليـه في حنـوّ:

- أنـا آسـفة.. أنـا آسـفة للغايـة لـكل مـا حصـل معـك. شيء فظيـع، فظيـع جـدًّا. كيـف أمكنهـم أن يوجهـوا إليـك هـذه التهمـة؟ ألا يكفـي مـا ألـمّ بـك مـن أذى جسـديّ؟ حـين علمـت أنّـك كنـت هنـاك سـاعة الحادثـة لـم أسـتطع النّـوم. أصابـني الفـزع.. منـذ علمـت بمـا أصابـك وأنـا أحـاول الوصـول إليـك بـأي طريقـة. حـين بلغـني نقلـك إلى باريـس، سـافرت عـلى الفـور وقمـت بـكل الاتصـالات الممكنـة حـتى أكـون هنـا اليـوم. لا شـك أن الفـترة السـابقة كانـت قاسـية جـدًّا عليـك.. الألـم والوحـدة حـين يلتقيـان.

سـحب عمـر كفـه بهـدوء وقـد ألجمتـه كلماتهـا الرقيقـة. رغـم كل مـا فعلـه في السـابق لصدّهـا ورغـم الإهانـة الـتي طالتهـا منـه في لقائهمـا الأخـير، لكنّهـا كانـت الوحيـدة الـتي اهتمـت لأمـره وجـاءت لمواسـاته. هـل يطردهـا كمـا طـرد المحاميـة مـن قبـل؟ هـل يفضّـل أن يبقـى وحيـدًا بـدون معـين في محنتـه هـذه الـتي تزلـزل الجبـال؟ في أوقـات الوحـدة والاحتيـاج، لا تنتظـر صديقًـا حقيقيًـا.. مجـرد صديـق، يفـي بالغـرض. بادرتـه مـن جديـد قبـل أن يتكلـم:

- كيف يمكنني أن أساعدك؟

أطـرق في صمـت للحظـات. هـو نفسـه لا يـدري كيـف يمكنهـا أن تسـاعده. هـل هنـاك شـخص قـادر عـلى إخراجـه مـن مأزقـه ذاك؟ ربمـا لـم يعـد يثـق في الأشـخاص، لكـن...

ردّدت في إصرار:

- اطلب منّي أيّ شيء.. أيّ شيء يمكنه أن يخفّف عنك هذه الأزمة؟

قال دون تردّد:

- أريد كتاب قرآن.

*****

جلست ياسمين على مقعدها المواجه لطاولة المطبخ وأخذت تقضم قطعة الخبز المحمّص المدهونة بالمربى دون شهيّة. مضى أسبوع كامل منذ رأت ميساء آخر مرّة. لم تتّصل بها بعد تلك الليلة السّوداء التي أهانها فيها شقيقها. ربّما تعتقد أنّها غاضبة منها وغير راغبة في لقائها؟ أو ربّما تكون هي غاضبة لأنها تظنها قد نبذت أخاها؟ أيًّا كانت الاحتمالات، يجب أن تبادر بالاتصال بها قريبًا لتذيب الجليد القائم بينهما. لا تريد لعلاقتها بميساء وبقيّة العائلة أن تتأثر بتلك الحادثة. لا يمكنها أن تضيّعهم مرّة أخرى وهم سندها الوحيد في غربتها الباريسيّة. أخذت جرعة أخيرة من حليبها الدافئ ووقفت وقد استقرت على قرار. ستتصّل بميساء في استراحة الغداء.

التفتت حين سمعت صرير باب الغرفة المقابلة يفتح وتخرج منه رنيم. ألقت عليها تحية سريعة وهتفت وهي متّجهة إلى غرفتها لتأخذ حقيبتها:

- تركت بعض الحليب السّاخن على الطاولة.

حين خرجت من جديد، كانت رنيم قد أخذت مكانها في المطبخ. بادرتها هذه الأخيرة مداعبة:

- كيف حال سائقك؟

ضحكت ياسمين ثم قالت في سخرية:

- أصبحنا صديقين.

- حقًّا؟

- هناك محاولات من جانبه على الأقل. يستقبلني بابتسامة واسعة كل يوم وتحيّة مؤدبة.

- استمتعي بوقتك يا عزيزتي.

كانت ياسمين قد وصلت إلى باب الشقة الخارجي وتهمّ بالانصراف، حين استوقفتها رنيم في تردّد:

- لحظة.. هل تعطينني رأيك؟

- في ماذا؟

قبل أن تردّ رنيم، انتبهت ياسمين إلى هندامها المتغيّر. كانت رنيم قد ابتعدت عن الطاولة التي كانت تحجب نصفها السفليّ ووقفت في وسط الغرفة. كانت ترتدي فستانًا طويلاً أسود، كأنه فستان سهرة، ووضعت

openkandil.com

فوقه سترة عنّابية طويلة الأكمام مزررة بالكامل. رفعت ياسمين حاجبيها في دهشة، فقالت رنيم وقد تضرّجت وجنتاها حرجًا:

- هذا الفستان الطويل الوحيد الذي أملكه.. ما رأيك؟

لم يبد على ياسمين أنّها قد استوعبت الطلب، فقالت ببساطة:

- فستان جميل.

لوت رنيم شفتيها في امتعاض وهي تقول دون أن تواجه نظراتها:

- ذلك المتّهم الذي أخبرتك عنه، أهانني في المرّة الماضية بسبب ثيابي. أريد أن يكون لقاؤنا هذه المرّة جادًّا ومثمرًا.. لذلك أودّ أن تعطيني رأيك لأنّه.. لأنّه يبدو من نفس الصّنف.

- نفس الصّنف؟

كان حرج رنيم يتزايد وهي تقول في ارتباك ظاهر:

- أعني، أنت وهو.. من نفس الصّنف. يتحدّث عن الإسلام والالتزام والملابس المحتشمة.

ضحكت ياسمين وقالت مخففة عنها:

- نعم، نعم.. فهمت. هكذا ممتاز.

ثم أضافت وهي تتجه إلى الباب:

- إن شئت، يمكنك استعارة بعض ثيابي.

حين صارت وحدها في الشارع، تسللت ابتسامة واسعة إلى شفتيها. لم تعتقد أن رجلاً غريبًا يقبع وراء القضبان ستكون له اليد الأولى في تأديب رنيم. لو كانت تلقت نصيحة منها أو من غيرها لاعتبرتها اعتداءً على حريّتها الشخصيّة. أما في إطار العمل، فهي قادرة على تقديم كل التّضحيات حتى تنجح في قضيّتها.

أيًّا كنت أيّها الغريب المجهول، جزاك الله خيرًا!

*****

كانت السّاعة تشير إلى الثانية عشرة والربع حين باغتتها جولي وهي تدخل مكتبها في ضوضاء مرحة. ضربت بكفّها على المكتب ثم جلست قبالتها وهتفت في لهجة حازمة:

obeikandl.com

- موظفو القسم يتناولون غداءً جماعيًا اليوم.. هي عادة شهريّة لدينا. فكرت أن الدّعوة ربّما لا تكون قد وصلتك، لذلك مررت لاصطحابك. ستأتين أليس كذلك؟

بعد محاولات عدّة لجعلها تنضمّ إليهم هاهي تحاصرها بشكل لا يسمح بالمراوغة. حين لمحت تردّدها قالت وهي تستعجلها:

- لقد سبقونا جميعًا. وأنا تأخّرت وأخبرتهم أنني سأمرّ عليك.

تنحنحت ياسمين وهممت في ارتباك:

- في الحقيقة...

لم تكن قد أنهت جملتها حين تعالت طرقات جديدة على الباب، جعلت كلتيهما تلتفت. تسمّرت مكانها في دهشة حين طالعها آخر شخص قد تتوقّع رؤيته هناك.. هيثم! خاطبها بالفرنسية متجاهلاً وجود جولي، قال وهو يشير إلى ساعته كأنّه يذكرها بموعد ما:

- تأتين للغداء؟

وقفت جولي معتذرة وهو تقول:

- يبدو أن لديك موعدًا آخر.. لا بأس هذه المرّة.

تنحّى هيثم عن الباب قليلاً ليترك مجالاً كافيًا لانصراف جولي. في حين راقبتهما ياسمين في حيرة. كانت ممتنّة لهيثم لأنه أنقذها من دعوة جولي المحرجة، لكنّها لم تنسَ بعدُ كلماته الموجعة في آخر لقاء لها به. حدجته بنظرة صارمة وهي تقول:

- نعم، بماذا أخدمك؟

تنهّد وهو يشيح بوجهه. لم يكن برودها مفاجئًا:

- ميساء أرادت أن تفاجئك اليوم بدعوتك على الغداء.

رفعت حاجبيها في دهشة. يا حبيبتي يا ميساء! كانت تفكر بالاتصال بها منذ دقيقتين، حين دخلت جولي. سرّها ذلك التوارد في الأفكار بينهما. لكن تلك اللئيمة كانت أكثر جرأة وبادرت بالمجيء إليها. كادت تبتسم، لكنّها تذكرت هويّة الشّخص الماثل أمامها، فقالت في جدّية:

- ميساء؟ أين هي؟

تركتها تنتظر في الأسفل عند الاستقبال.

عقدت حاجبيها في استغراب، فأردف:

obeikandl.com

- طلبت مني أن أرشدها إلى المكان، فوجدت الفرصة مناسبة لنتحدّث قليلاً.. ونوضح بعض الأمور.

قالت في جفاف:

- ليس بيننا أي أمور تستحق التوضيح.

أجاب متجاهلاً كلماتها:

- ميساء حسّاسة جدًا وتعتقد بأنّ صداقتكما قد تأثرت بعد الخلاف الذي حصل بيننا.

- خلاف؟ هل يسميه خلافًا؟ كتمت غيظها ولم تعقب بكلمة. استمعت إليه في سكون وهو يواصل:

- لا أريد أن أكون سببًا في إفساد العلاقة بينكما.. ولا أريد لتلك الحادثة أن تمنعك من زيارة العائلة. هل يمكن أن ننسى ما حصل ونتجاوزه.. كشخصين راشدين؟

عاد إليها الغضب الذي كبتته في تلك الليلة وأحسّت بضغطها يرتفع. قالت وهي تمثل البرود:

- لن تكون سببًا في التّفرقة بيني وبين ميساء وخالتي زهور، لأنهما أغلى عندي من كل هذه الحكاية التافهة! سأتجاوز عن الأمر.. باختياري. لكنّني أذكّرك بأنّه لم يكن مجرّد.. «خلاف»!

ابتسم وهو يدرك تمامًا تلميحاتها:

- حسن أنا أعتذر.. لم أرد أن أكون فظًّا معك في المرّة الماضية.

سألته في استغراب ساخر وهي تضيّق عينيها:

- لم ترد أن تكون فظًّا؟

قال في ارتباك وقد تبين له التناقض في كلماته:

- أقصد.. تعمّدت ذلك، لكنّني لست كذلك في العادة.. ليس هذا من طبعي.

لم تختفِ علامات السّخرية من على وجهها وهي تنشغل بترتيب أوراقها. استطرد في هدوء:

- نعم، تعمّدت ذلك. أردت الظهور بشكل سيّئ أمامك حتّى يأتي الرّفض من طرفك. كنت أريدك أن تستنتجي من تلقاء نفسك أنّني لا أناسبك.

رفعت رأسها دون أن يبدو عليها أنّها قد استوعبت ما قيل للتّوّ. لم تكن

تفهم شيئًا. تعمّد الفظاظة حتّى ترفضه؟ من الرّجل هنا؟ هل أجبره أحد على هذه الخطبة حتى يتهرّب منها بهذه الطريقة؟ كان يكفيك يا هذا ألا تتقدّم منذ البداية، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال.

واصل وهو يحاول قراءة ما يراودها من أفكار:

- في الحقيقة، هناك فتاة أخرى في حياتي.

حدجته بنظرة احتقار وقالت:

- ولماذا لم تصارح خالتي زهور بذلك وتجنّبني ونفسك كل هذا الإحراج؟

احتجّ وقد تسللت بوادر الانفعال إلى ملامحه الباردة:

- وهل تظنّينني لم أفعل؟ لكنّ والدتي غير مقتنعة بالفتاة.. لذلك خطبتك من عائلتك دون علمي أو استشارتي.. لتلوي ذراعي وتجبرني على التخلي عنها.

نظرت إليه في عدم تصديق. خالتي زهور؟ كيف؟ لماذا؟مرّت لحظات صمت من الجانبين. سألته بعدها في هدوء:

- وهل سألت نفسك لماذا خالتي زهور غير مقتنعة بفتاتك؟

أشاح بوجهه وقال في انزعاج وهو يخفي كفيه في جيوب سرواله:

- تحدثنا طويلاً في الموضوع.. أنا أقدّر أسبابها، لكنّني غير مقتنع بها.

كان الحديث يحيد عن مساره الأوّل. لماذا سألته؟ ليس ذلك من شأنها. ساد بينهما صمت قصير إضافي قبل أن يقول هيثم وهو يوليها ظهره:

- لا تنسي، ميساء تنتظرفي الاستقبال.

لم تتحرّك من مكانها بعد انصرافه. لبثت متفكرة لدقائق قليلة، ثم زفرت بقوّة وهي تقوم من مكانها. ميساء تنتظرها.

*****

على الأريكة العريضة التي تتوسّط غرفة المعيشة في الشقة الباريسيّة الصّغيرة، استرخت الفتاتان مشتركتين الدّثار وهما تتابعان عرضًا ترفيهيًّا على الشاشة. زفرت ياسمين في ملل وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها. ثم ألقت نظرة جانبيّة حذرة على رنيم التي بدا عليها السّرحان. بادرتها محاولة ملء فراغ الغرفة الصّامتة:

- لم تخبريني.. كيف كان لقاؤك مع المتّهم اليوم؟

- هاه؟

التفتت إليها رنيم التي كانت تحدّق في الشاشة دون تركيز، وقد ذهب تفكيرها بعيدًا.. أخذت جهاز التحكم وراحت تتنقل بين القنوات دون اهتمام:

- لم أذهب إلى المستشفى اليوم.

- لماذا؟

قالت دون أن تنظر إليها:

- لم أستطع الذهاب.. انشغلت في المكتب مع فيفيان.

رفعت ياسمين حاجبيها في استغراب:

- حقًّا؟

تنهدت رنيم وهي تلقي الجهاز وترفع ذراعيها لتسند رأسها وتستلقي إلى الوراء:

- لست واثقة. لا يمكنني أن أعود للقائه وأنا غير واثقة من براءته.

هزّت ياسمين رأسها علامة المتابعة وانتظرت أن تكمل رنيم حديثها.

- في الزيارة السابقة، قال إنه لا يريد محاميًا لا يؤمن بقضيّته. فكرت كثيرًا في الأيام الماضية.. قلّبت كل تفاصيل الملف، شهادة الحارس ومختلف موظفي الشركة، التقرير عن عملية تفتيش شقته، تقرير الخبراء عن الانفجار.. لم يكن هناك دليل مباشر وقاطع أو حُجة ملموسة على أنه فجّر المكان متعمّدًا. لكنّه الوحيد الذي كان على عين المكان. الانفجار حصل في مختبره. الحارس سمعه يصرخ «الله أكبر» قبل الانفجار بدقائق. زملاؤه ورؤساؤه شهدوا بأنّه شخص انطوائيّ ومنعزل، بل أنّ بعضهم ذهب إلى وصفه بغرابة الأطوار. حين قام رجال الشرطة بتفتيش شقته، رأوا شخصًا ما يقفز من النافذة ويفرّ من المكان. تقرير الخبراء يفيد بوجود مواد غريبة في المختبر لم يكن من المتوقع أن تكون قابلة للانفجار، ولم يكن من المفترض أصلاً أن تكون هناك.

زفرت من جديد وهي تتابع في ضيق:

- وجهة نظر حاكم التحقيق تتّجه نحو عمليّة إرهابيّة هو منفذها ويشترك فيها مع شخص أو أشخاص آخرين، أحدهم الذي فرّ من الشقة.

obeikandi.com

الموادّ التي تمّ العثور عليها من قِبَل الخبراء قد يكون استعملها لصناعة قنبلته. وصْف زملائه له بالمعقّد وإدمانه العمل إلى ساعات متأخرة حسب شهادة الحارس، كلها تجعل منه المضطرب النّفسيّ المثاليّ لتنفيذ عمليّة انتحاريّة مجهولة الدّوافع.

- أليس غياب الدّافع سببًا محتملاً للاعتقاد بالبراءة؟

أقول إنّ الدّوافع مجهولة بمعنى أنّها لم تحدّد بعد على وجه الدّقة. قد تكون تصفية لطرف ما. ثمانية أشخاص لقوا حتفهم في الحادثة وقد يكون المستهدف أحدهم. أو إجهاض لمشروع علميّ ما. فقد تمّ إتلاف كميّات هائلة من الوثائق الخاصة بأرشيف قسم البحوث. أو استحواذ على مشروع سلاح كيميائي، فالمتهم مكث أكثر من سنة في الشركة بما يكفي للتجسّس على الأبحاث الجارية وتسريب وثائق إلى الجماعات الخارجيّة التي يهمّها الأمر.. في نهاية المطاف، إيجاد الدّافع يساعد على تفسير الجريمة في معظم الأحيان. لكن في أحيان كثيرة يبقى مجهولاً إلى النهاية، دون أن يمنع ذلك إدانة المجرم الذي تحاصره الأدلة.

- وهل تعتقدين أنه حاول الانتحار بالفعل؟

لو رأيته لأدركت أنه لم يحاول الفرار من مكان الانفجار بأيّ حال! التشوّهات تغطي جسده بالكامل! لقد كانت نجاته معجزة.

- هل بدا لك شبيهًا بالإرهابيين؟ أو ربّما لمحت فيه علامات الجنون؟

- بالعكس.. بدا شخصًا هادئًا ومتّزنًا، لكنّه في نفس الوقت حازم وجريء، كأنّه في موقع قوّة.

- ماذا تقصدين؟

- لست أدري. كان يوجّه إليّ الأوامر. ويصرّ على ضرورة إيمان محاميه ببراءته. لكنّ ذلك ليس دليلاً في ذاته. أحيانًا أشك في أنّه قد يكون نفذ الجريمة لكنّه يرى نفسه بريئًا بمنطق غريب خاصّ به. تعلمين، هؤلاء الأشخاص لا يمكن تفسير طريقة تفكيرهم.

- ربما يكون بريئًا بالفعل.

عادت رنيم لتضغط في ضيق على أزرار جهاز التحكم وهي تقول:

- تحدّثت اليوم مطوّلاً مع فيفيان لأجعلها تعتبر احتمال البراءة، لكنّها وجورج مقتنعان بضرورة اعترافه بالجريمة. ومن المفترض أن أعمل على

opelkandi.com

دفعه إلى الاعتراف.. لا أدري كيف!

قالت ياسمين في هدوء:

- أليس من المفترض أن يعتبر المتّهم بريئًا حتى تثبت إدانته؟

أومأت رنيم في صمت. في كل شرائع الأرض، المتهم بريء حتى تثبت إدانته.. وفي كل محاكم الأرض يُنتهك هذا المبدأ، باسم الأمن القومي وقوانين الطوارئ والإجراءات الوقائية والإحصائيات المعدلة و... كل المبرّرات الممكنة مهما كانت درجة صحتها وإقناعها.

تابعت ياسمين:

- إذن اعتبريه بريئًا حتى يثبت لديك غير ذلك. وفي الأثناء يمكنك التعامل معه على أساس البراءة، ولن تكوني كاذبة حين تعودين إليه وتؤكدين رغبتك في الدفاع عنه.. في نفس الوقت أخبري رؤساءك في المكتب أنّك تعملين على الحصول على اعتراف، وواصلي أبحاثك حتّى تتّضح لديك الرؤية. خذي موقفًا وسطًا بين الجانبين، ومع انكشاف المزيد من الحقائق يمكنك اتّخاذ موقف أكثر وضوحًا.

ابتسمت رنيم وقد راقت لها الفكرة ثم ألقت برأسها إلى الخلف مجدّدًا في ارتياح وهي تقول:

- آه.. أشعر بحال أفضل الآن. شكرًا لك.

ابتسمت ياسمين بدورها وهي تهمس:

- إن أردت رأيي، فحدسي يخبرني بأنّه بريء.

استدارت رنيم لتواجهها وقالت في همس هي الأخرى:

- دعيني الآن من حدسك وأخبريني.. كيف كان يومك؟

عادت إليها تفاصيل لقائها غير المتوقع ذلك الصباح، لكنها قالت في لامبالاة:

- رأيت ميساء اليوم، وتناولنا الغداء معًا.

رفعت رنيم حاجبيها وقالت مداعبة:

- حقًا؟ انتهت الهدنة بينكما؟

أضافت ياسمين في لهجة غامضة:

- رأيت شخصًا آخر أيضًا.. شقيقها.

استدارت رنيم في تحفز وهتفت:

openkandil.com

- من؟ ذلك المتعجرف لا أحد غيره! ماذا قلت له؟ هل تشاجرتما؟ لقنته درسًا كما علمتك؟

ندّت عن ياسمين ضحكة خفيفة ثم قالت:

- مهلك. جاء ليوضّح الأمور. يبدو أن الحكاية كلها كانت تخطيطًا من خالتي زهور.. لم يكن يريد الخطبة من الأساس، لذلك تصرف بغلظة حتى تنتهي الحكاية بأسرع ما يمكن.

- يا ســــــــلام! وهل أقنعتك توضيحاته وتأثرت بها؟ وانتهت الحكاية هكذا؟

هزّت ياسمين كتفيها في استهانة وهي تغوص في مقعدها ثم قالت بهدوء:

- كل هذا لا يهمّني.. لم أكن أريد هذه الخطبة أيضًا. حتى إن كانت خالتي زهور قد تسرّعت فربّما يكون هذا أفضل. لأنّ علاقتي بالعائلة لن تتأثر.. أمّا هيثم، فهو كان مجرد صديق طفولة. لم يعن لي يومًا أكثر من هذا. حتى أنّني استأت في البداية حين حدّثتني والدتي بأمر الخطبة.. بالنسبة إليّ هكذا أفضل.

أنصتت إليها رنيم في صمت، ثم قالت في اهتمام:

- لأن هناك شخصًا آخر، يهمّك أكثر؟

ضحكت ياسمين وهي تهتف:

- أنتِ.. لم تنسي الأمر، أليس كذلك؟

- طبعًا. لم أتنازل بعد عن حكايتي. ستخبرينني الآن، من يكون ذلك الشخص الآخر؟

تنهدت ياسمين في ضيق:

- ليس هناك شخص آخر. كان لقاء عابرًا ولا يبدو أن القصة تحتمل بقيّة ما .

قصّت عليها مغامرتها الصيفيّة مع راكب المترو المجهول. واستمعت رنيم في حماس وترقب. حين وصلت إلى النّهاية الباردة في ذلك الصّباح الحزين، حين انتظرته طويلاً في المترو لكنه لم يظهر، أخفت رنيم فاها بكفّها وهي تغالب ضحكتها:

- لا أقصد السّخرية.. لكنّني لا أصدّق أنّ هذا النّوع من الحكايات ممكن

obeikandl.com

الوقـوع في القـرن الحـادي والعشريـن! علاقـة أفلاطونيّـة تسـتمرّ كلّ هـذا الوقـت؟ لا شـكّ أنّ الرّجـل معقّـد.. أو غـير مهتـمّ!

- أنت لا تفهمين!

قرأت الانزعاج في وجه ياسمين فتابعت:

- يـا عزيـزتي، الرّجـل كائـن غريـزيّ بطبعـه. غريـزة التملّـك والسّـيطرة والـتّزاوج تقـود تصرّفاتـه تجـاه المـرأة. لذلـك مـن الطّبيعـي أن يسـعى إلى التّقـرّب مـن المـرأة الـتي يحـبّ، أن يحـاول معرفـة كلّ شيء يخصّهـا، وأن يعـبّر عـن ميلـه وإعجابـه أيضًـا، إن لـم يكـن بالكلمـات، فبلغـة الجسـد.

هزّت ياسمين رأسها رافضة قانون الغريزة الذي تعرضه رنيم:

- لا تقعـي في التّعميـم. ليـس كل الرّجـال عـلى هـذه الشـاكلة. وأعتقـد أنّـك لـم تتعـرّفي بعـد عـلى النـوع الـذي أتحـدّث عنـه.

مطّـت رنيـم شـفتيها في عـدم اقتنـاع. في عرفهـا الرّجـال كلّهـم متشـابهون. في محيطهـا يغـازل الرّجـل المـرأة، يمسـك بيدهـا ويدعوهـا إلى حفلـة وقـد يشـاركها الرّقـص، وحـين يكـون مهتمًّـا يحـرص عـلى الحصـول عـلى رقـم هاتفهـا، ويتّصـل بهـا في سـاعة متأخّـرة مـن اللّيـل حـتى يكـون صوتهـا آخـر مـا يحملـه معـه إلى عالـم الأحـلام. في عرفهـا أيضًـا، لا ينـاقـش الرجـل المـرأة الـتي يحـبّ في أمـور السيّاسـة والتّاريـخ والأدب. يفعـل ذلـك مـع الأصحـاب، ويخصّهـا هـي بعـذب الـكلام، يجعلهـا تضحـك ويصغـي إليهـا لسـاعات وهـي تهـذي عـن مشـكلاتها اليوميّـة التّافهـة.. ومـن يفعـل غـير ذلـك فهـو بالتّأكيـد معقّـد أو لا يجيـد قواعـد اللّعبـة، وبالتّـالي لا يسـتحقّ الاهتمـام.

- أنـا أقـول إنّ هـذا الرّجـل ضيّـع عـلى نفسـه الفرصـة وانتهـى الأمـر. هـو الخـاسر في النّهايـة يـا عزيـزتي!

أطرقـت ياسـمين ولـم تعلّـق. ربّمـا حـزّ في نفسـها ألا تؤمـن رنيـم بعاطفتهـا النقيّـة المجـرّدة أكـثر ممـا آلمهـا ضيـاع تلـك العاطفـة.. إلى الأبـد.

*****

لـم تكـن خائفـة هـذه المـرّة حـين تجـاوزت بـاب الغرفـة. لـم ترسـم عـلى شـفتيها نفـس الابتسـامة المتملقـة الـتي لـم تنفـع البتّـة في الزّيـارة السّـابقة، بـل

اكتفت بنظرتها الحازمة التي تميّزها في أوقات الجدّ والتّركيز. حين دفعت دفّة الباب وأطلت عليه، كان منغمسًا في قراءة كتاب يستقرّ على ركبتيه.

- يجب أن نتحدّث.

بادرته في لهجة جادّة ودون مقدّمات. كانت مصمّمة على المضيّ في هذه القضية وكان ذلك واضحًا في كل حركاتها. لم يرفع عمر رأسه عن كتابه حين انتبه إلى اقتحامها المكان. حدجته رنيم في ضيق وهو يواصل قراءة السّطور دون اهتمام بوجودها. تكلمت مجدّدًا:

- أريد الدّفاع عنك حقًّا، ولذلك أنا في حاجة إلى تعاونك حتى نخرجك من هنا.

مرّت بضع ثوان من الصّمت قبل أن يغلق الكتاب دون أن يبعد نظراته عنه. تابعت رنيم حركاته في ترقّب. لمحت اضطراب أصابعه التي كانت تقبض على الغلاف الجلدي المزخرف. آه، كان كتاب قرآن. ذكرها بالكتاب الذي يستقر على منضدتها منذ أيام. لم تكن قد قرأت فيه بعد. عادت إلى الواقع حين جاءها صوته أخيرًا حزينًا كأن به خدرًا:

- هل أنت مقتنعة ببراءتي؟

قالت في ثقة:

- نعم، أنا مقتنعة.

رفع عينيه إليها في شيء من الدّهشة فلمحت لوهلة الإغماضة الخفيفة لعينه اليسرى التي استغنت عن الضمادة، والجرح الغائر الذي شقّ أعلى وجنته باتجاه الصّدغ، لكنه سرعان ما أشاح بوجهه كعادته. تابع في هدوء:

- ما الذي تغيّر في أيام قليلة؟

كان أقل حدّة واستهزاء من المرّة الماضية. ربّما لأنه لمس تأثير كلماته في هندامها وهيئتها. ربّما لأنّها لم تكن متردّدة ومذبذبة مثلما كانت في زيارتها الأولى. ربّما لأنّ أيام التفكير القاسية أقنعته بأنّه غير قادر على خوض المعركة وحده. كان في حاجة إلى يد المساعدة من كل من يقدّمها. وهي تبدو مصرّة على تمثيله أمام المحكمة. بعد أن صدّ كارولين لشهور طويلة، رضي بمجالستها وبزياراتها. ربّما لأن الأمل الذي تحمله إليه فاق الضيق الذي كان يلقاه من فتنتها. ربّما لأنه أصبح يحمل همومًا أكبر من شهوات النفس وفتنة المجتمع وغرائز الجسد. ربّما لأنّ هاتين البنتين هما

كل مـن يؤمـن بعدالـة قضيتـه عـلى سـطح هـذه البسـيطة. ربّمـا.

جذبت رنيم كرسيًا وجلست تجاهه. قالت في حزم:

- ليـس أمامنـا وقـت نضيّعـه. المحاكمـة سـتبدأ بعـد أسـبوعين. لذلـك أنـا بحاجـة إلى كل التفاصيـل الـتي قـد تسـاعدنا.

لم يردّ بكلمة واحدة. ما يزال متردّدًا. تابعت في إصرار:

- شـهادات زملائـك في العمـل ليسـت مطمئنـة أبـدًا. ألـم يكـن لديـك أصدقـاء في الشركـة؟ هـل هنـاك مـن يمكننـا أن ندعـوه للشـهادة أمـام المحكمـة ليقـول كلمـة طيّبـة عنـك؟

تنحنح في استحياء ثم قال:

- هنـاك.. وليـد الرّاجحـي. ليـس صديقـاً بأتـم معـنى الكلمـة، لكـن علاقتنـا كانـت طيبـة.

أخفـت رنيـم ابتسـامة الظفـر الـتي حاولـت التسـلل إلى شـفتيها. لقـد انتـصرت في الجولـة الثانيـة. كـسرت بـروده وأقنعتـه بالاسـتمرار في القضيـة، وهـذا يعـدّ نصرهـا الأول عـلى عنـاد موكلهـا. أخفـت علامـات السرور وقالـت في جدّيـة وهـي تسـجل في دفـتر ملاحظاتهـا الأسـماء الـتي يذكرهـا:

- هل هناك شخص آخر؟

openkandil.com

obeikandl.com

-١٩-
الاختبار

طرق الباب بهدوء وقال في برود متعالٍ:

- هل يمكنني أن آخذ القليل من وقتك؟

رفعت ياسمين رأسها لتلمح باتريك يقف أمام مكتبها وبيده حزمة من الملفات. وقفت في ارتباك وقد تذكرت رسالة دافيد الإلكترونية الأخيرة. سيكون عليها أن تعمل معه على بعض الأمور الإدارية.

- أنا جاهزة متى شئت.

لم ينتظر ردّها وتقدّم ليضع كومة الأوراق على سطح مكتبها في حركة فوضويّة. لم يكن يعاملها بقسوة ولم تلمح في تصرّفاته تطاولاً أو قلة احترام.. لكنها بشكل ما كانت تجده عدائيًا. ربّما هو انطباع ترسّب في نفسها بعد تلك الحادثة في المصعد. أو ربّما هو البرود المغلف بالأدب الذي تنطق به كل كلمة على لسانه. جلس على الكرسي المقابل لها وقال وهو يتناول الملف الأول:

- سأشرح لك طريقة العمل، ثم أتركك تنجزين الملف الثاني وحدك.

هزت رأسها علامة الموافقة، ثم تابعت شرحه في انتباه واهتمام. كان يتكلم بسرعة ويقلب الأوراق بسرعة أيضًا، دون أن يترك لها فرصة الاطلاع عليها بالكامل. لكنها لم تقاطعه. أخذت ورقة وقلمًا وأخذت تسجل التعليمات بأقصى سرعتها. كانت هناك كلمات مختصرة تسمعها للمرّة الأولى، لكنها لم تستوضح عنها. سجلت ما أمكنها تسجيله واحتفظت باستفساراتها لنفسها في عناد. لم تكن تريد أن تظهر جهلها أمامه. كلما أشكلت عليها جزئيّة تذكرت تشبيهه لها بعاملة النظافة فتحجم عن السؤال. ستثبت له أنها قادرة على فك شفراته المعقدة دون أن تعلن عجزها.

- هل لديك أي استفسارات؟

هزّت رأسها علامة النّفي في مكابرة مستميتة. ابتسم وهو يقف مغادرًا المكتب:

- طيب.. بالتوفيق.

ابتعـد باتريـك وعـلى شـفتيه ابتسـامة سـاخرة. كيـف أمكنهـا أن تكـون بهـذا الغبـاء؟ يعلـم أنّـه تعمّـد الغمـوض في توضيحاتـه. انتظـر منهـا أن تسـأل عـن التفاصيـل وتسـتوقفه، لكنهـا لـم تفعـل. متأكـد مـن أنهـا لـن تنهـي الملـف في وقـت قريـب، حـتى إن أنهتـه فسـيكون مليئًـا بالأخطـاء حتمًـا.

في مكتبهـا انكبـت ياسـمين عـلى ملفهـا في جدّيـة. مضـت ربـع سـاعة وهـي تحـاول فـك شـفرة الألغـاز الـتي ألقاهـا إليهـا باتريـك دون جـدوى. بعـد فـترة مـن التفكـير العقيـم، أخـذت سـماعة الهاتـف وكوّنـت رقمًـا.

*****

حـين جلـس باتريـك إلى مكتبـه، لـم يسـتطع التركـيز. عـادت إليـه دون استئذان صـور مـن حياته السـابقة في طهـران. كان ذلـك أول عهـده بالمجتمعات المحافظـة. لـم تكـن هنـاك امـرأة واحـدة في محيـط عملـه، إيرانيّـة كانـت أم أجنبيـة. في الأماكـن العامّـة، لـم يكـن يلمـح سـوى العبـاءات السـوداء الـتي تتحـرك كالأشـباح، لا يُـرى منهـا إلا عينـان وأحيانًـا لا شيء، مجـرد سـواد دامـس! كان يـرثي للمـرأة المسـلمة الـتي بـدت لـه تعيـش في الظـلام، عـلى هامـش المجتمـع.. لا تقـود السـيارة، لا تغـادر منزلهـا وحدهـا، لا تسـافر وحدهـا، لا تتحـدّث إلى الرجـال ولا تختلـط بهـم في عمـل أو فسـحة أو غيرهمـا.

ثـمّ حصـل أن لاحـظ حـركات معاكسـة خفيّـة بـين بعـض الشـباب المائـع وصاحبـات العبـاءات حـين توقّفـت سـيّارته في إشـارة ضوئيّـة. تلـك المشـاهد كانـت تثـير دهشـته في البدايـة. لكـن كل شيء تغـيّر منـذ حـضر جلسـة خاصّـة نظمهـا أحـد رفاقـه المحنّكـين في كواليـس المجتمـع الخفيّـة. اقتنـع بالانضمـام إلى شـلة الأنـس بعـد أن أصابـه الاختنـاق مـن رتابـة الحيـاة وخلوّهـا مـن جـلّ أصنـاف المتعـة الـتي عرفهـا في بلـده. وحـين رأى تينـك الفتيـات يدخلـن الشـقة الشـبابية بعباءاتهـن السّـوداء، ثـم ينزعنهـا ليكشـفن عـن وجـوه تشـبه الألـواح الزيتيـة بأصباغهـا الفاقعـة وعـن أجسـاد فاتنـة تترنـح في مشـيها عـلى أنغـام الموسـيقى الغربيّـة الـتي مـلأت أرجـاء المـكان، وتـكاد تتمـزّق فوقهـا الثيـاب الضيّقـة الـتي انشـقت كالشرانـق لتمنـح الحريّـة للفراشـات الليليّـة، تغـيّرت نظرتـه بالكامـل. كان يجـب أن يعلـم أن حيـاة سريّـة أخـرى مـن النفـاق والملـذات

تـدبّ في أنحـاء المجتمـع تحـت غطـاء الحشـمة والقيـم.

لـم يكـن يعلـم شـيئًا عـن الوجـه الآخـر لحيـاة تينـك الفتيـات، عـن عائلاتهـن أو مسـتوياتهن الثقافيـة أو حـتى أصولهـنّ الجغرافيـة. لا يعلـم حـتّى إن كـنّ إيرانيّـات، بـل لعـلّ بعـض ملامحهـنّ كانـت تفضـح أصـولاً جنـوب آسـيوية. لكـنّ نشـوته بالاكتشـاف المخـزي فاقـت كلّ شيء وغـذّت حقـدًا مسـتترًا كان يبحـث عـن فرصـة للإعـلان عـن نفسـه. كان يلـذّ لـه أن يقـع عـلى تلـك الثغـرة الـتي تشـوّه صـورة الإسـلام والمسـلمين الذيـن يتبجحـون عـلى مـدار السـاعة بخصـال مجتمعاتهـم المحافظـة.. لحاجـة في نفسـه.

منـذ ذلـك الحـين، أصبحـت تسـليته المفضلـة في أوقـات الفـراغ أن يضـع ملامـح مـن صنـع خيالـه عـلى كل وجـه يغطيـه البرقـع، أو أن يتوقـع وجهـة كل فتـاة تغـادر بيـت والديهـا وهـي تبـدي حشـمة وتعففًـا. وفي لحظـة تهـوّر فكّـر في نـشر الصّـور الـتي تمـلأ جوّالـه عـن السّـهرات الخاصّـة الـتي حضرهـا مـرّات عدّة. ومـع أنّـه لـم يقـدم عـلى ذلـك أبـدًا، لكـن مجـرّد التفكـير في ردود فعـل أربـاب العائـلات المحترمـة الـتي تورّطـت بناتهـا، يصيبـه بنوبـة ضحـك مـرضيّ. لـم يعـد هنـاك مـكان في مخيلتـه للنّوايـا الحسـنة. بالنسـبة إليـه كل امـرأة تغطـي جسـدها هـي ضحيّـة رجـل يفـرض عليهـا سـجن الثيـاب والأقمشـة، لكنهـا أيضًـا تسـلية رجـل آخـر ترتكـب بـين يديـه كل الممنوعـات حالمـا تغفـل عنهـا الأعـين.

لكـن قصّـة حقـده الدفـين أقـدم مـن عمـر سـفره إلى إيـران، وعصبيّتـه الـتي تغالبـه في حضـور ياسـمين أعمـق مـن مجـرّد خيـالات مريضـة أو احتقـار لجنـس أو فئـة. كانـت بداخلـه عقـدة حقيقيـة يجهلهـا كل مـن حولـه. في أغلـب الأحيـان مـا يعرفـه النـاس عـن معارفهـم وأقربائهـم وحـتى أصدقائهـم المقربـين مـن مشـاعر ومواقـف يماهـي الجـزء السـطحيّ مـن الجبـل الجليـديّ العائـم فـوق البحـر، أمّـا الجـزء الخفـيّ والأعظـم حجمًـا فتحـول حواجـز كثـيرة دون ظهـوره إلى العيـان.. مثـل الاحـترام والآداب والمراسـم الاجتماعيـة، وأهمّهـا الرغبـة في الحفـاظ عـلى صـورة شـخصية لامعـة. وباتريـك كان أكـثر النـاس حرصًـا عـلى إخفـاء عقدتـه النفسـيّة المسـتفحلة وحفاظًـا عـلى صورتـه في محيـط عملـه، والجبـل الجليـدي بداخلـه كان أعمـق وأضخـم مـن أن يحـزر أحدهـم وجـوده.

في مجتمعـه الفرنـسيّ، كان الإسـلام مرتبطًـا في المجمـل بالمهاجريـن مـن شـمال إفريقيـا، ولذلـك فإنـه يرتبـط أيضًـا بالمهـن الحرفيّـة وضواحـي المـدن

الكبرى بأحيائها الشعبية ذات الظروف القاسية والشباب المنحرف.. فلم يكن من الشائع أن تفرز أفرادا ناجحين على المستوى الأكاديمي، وإذا أشرقت الدنيا في وجه أحدهم فقد يسعفه الحظ ليصبح فنانًا فكاهيًّا، لاعب كرة قدم أو مطربًا شعبيًا. أما الدّراسات العليا والشهادات العلميّة فلم تكن في متناول هؤلاء. عدا استثناءات قليلة، كانت ياسمين إحداها. أما الاستثناء الآخر الذي عكّر حياته إلى درجة التشوّه، فقد تمثّل في شخص الرجل المتعجرف الذي سرق منه شقيقته الوحيدة. نعم لقد تزوّجت شقيقته من رجل مسلم.

- باتريك، أنت هنا؟ أنتظرك في الأسفل منذ عشر دقائق.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة وهو يطالع الشابة الأنيقة التي وقفت عند باب مكتبه وقال معتذرًا:

- أنا آسف.. انشغلت بعض الشيء. هيا بنا يا حبيبتي.

- أخذ سترته وقدّم لها ذراعه لتتأبطها، فأخذتها بكل سرور. كانا يهمّان بمغادرة المكتب حين سمعا طرقات متردّدة على الباب:

- سيد باتريك، أحضرت إليك الملف الذي طلبت.

قاوم الدّهشة التي حاولت التسرّب إلى ملامحه لسرعة ردّها، فحدج ياسمين بنظرة فارغة وقال في برود:

- عودي فيما بعد. ألا ترين أنني مشغول الآن؟

ارتبكت ياسمين وتسمّرت في مكانها. في حين ابتعد باتريك صحبة صديقته وهذه الأخيرة تهمس له:

- لماذا أنت قاسٍ هكذا مع الموظفين؟

جاءها صوته واضحًا بعد أن قطع بضعة أمتار في اتجاه المصعد:

- لا تهتمي، هذا مفيد لتكوينهم. الحياة المهنية ليست بالسهولة التي يتوقعها البعض.

*****

جلست ياسمين تأكل في صمت والنّكات الصاخبة التي يطلقها جيران طاولتها تصل إلى أسماعها. لم ترافقهم إلا لأنها وعدت جولي بعد

أن ساعدتها بشأن ملفها. كان من الغباء أن تعتقد أنّها قادرة على فكّ أحجيات باتريك بمفردها. بضع دقائق من المواجهة المرعبة مع تلك المفردات المبهمة كانت كافية لتتيقن من مدى تورّطها. اتصلت بجولي التي هبّت إليها على الفور وهي تستمع إلى نبرتها الباكية عبر أسلاك الهاتف، واستنفرت قوات مساندة من المكاتب الأخرى. تعاون الجميع على استكمال الخطوات المطلوبة ثم هنؤوا أنفسهم على اجتياز التحدّي كفريق. كانوا لطفاء ومرحين ومستعدّين لتقديم المساعدة، وقد أحبّت ياسمين ذلك للحظات.. قبل أن تتيقن من ورطتها الجديدة بمصاحبتهم.

لم تمض بضع دقائق حتى تأكد لديها إحساسها بأنها ليست في مكانها الطبيعي. حاولت جولي أن تجعلها تشارك في الحديث بتوجيه بعض الأسئلة إليها من حين إلى آخر، لكن إجاباتها المقتضبة جعلت هذه الأخيرة تستسلم وتتركها وشأنها. كانت تهزّ رأسها من حين إلى آخر وتوزّع بعض ابتسامات صغيرة متظاهرة بمتابعة الحوار.

توجّهت إلى الحمّام لتغسل وجهها وتأخذ نفسًا عميقًا. لم تكن تتوقع أن غداءً واحدًا سيكون ثقيلاً على قلبها بهذا الشكل. تنهدت وهي تطالع وجهها في المرآة، ولسبب تجهله تكرّرت في ذهنها كلمات باتريك الأخيرة «الحياة المهنية ليست بالسهولة التي يتوقعها البعض».

كانت تهمّ بالعودة إلى مائدتها حين لمحت وجهًا مألوفًا على مائدة أخرى قرب المدخل.. هيثم! تذكرت حينها أنه يعمل في بناية قريبة من شركتها. يبدو أنه يتناول غدائه في هذا المطعم أيضًا. لم يكن وسط مجموعة كبيرة من الزملاء مثلها. كان يجلس إلى طاولة صغيرة منفردة، لكنه لم يكن وحيدًا. فضولها جعلها تتوقف لتحدّق في مرافقته التي توليها ظهرها. لم تر الكثير من ملامحها، غير شعرها الأشقر السبط الذي ينساب على كتفيها وبشرتها البيضاء الناعمة. انتبهت حين رفع هيثم عينيه ورآها. خفضت بصرها على الفور في هلع وابتعدت في اتجاه طاولتها. لقد ضبطها.

حين وصلت إلى مكانها كانت تلهث. لكن لحظة. من ذا الذي يجب أن يخجل من نفسه، هو أم هي؟ تمالكت نفسها بعد أن أيقنت تفوّقها عليه. رنت في أذنيها كلماته منذ أيام قليلة.. في حياتي فتاة أخرى. ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة. إن كانت مرافقته اليوم هي المعنيّة، فإنّ رفض

obeikandi.com

زهـور متوقـع لا محالـة. هـزّت كتفيهـا في لامبـالاة. لا علاقـة لهـا بالأمـر. ذلـك شـأن يخصّـه وحـده. لكنهـا بشـكل مـا أحسّـت بالخيبـة. يقـول إنـه نجـح في اختبـار التـوازن بـين المبـادئ والاندمـاج.. هـذا واضـح.

- ما بالك لا تأكلين؟

كانـت قـد عـادت إلى الجلـوس قبالـة جـولي، لكنهـا لـم تكـن في مـزاج طيّـب. هـل يجـب أن تخـبر ميسـاء ووالدتهـا بمـا رأتـه اليـوم؟ ليـس مـن حقهـا أن تتدخـل، وهيثـم رجـل راشـد ومسـؤول عـن تصرّفاتـه. لكـن علمهـا بمصاحبتـه لتلـك الشـقراء وإخفـاؤه عـن العائلـة يشـعرها بالذنـب. أخـذت حقيبتهـا ووقفت معتـذرة:

- سأعود إلى المكتب. لديّ ملفات مستعجلة.

لـم يكـن بإمكانهـا التفكـير وسـط تلـك الفـوضى العارمـة. ابتسـمت مودّعـة فريـق الزمـلاء وانطلقـت في اتجـاه المخـرج. حـين وصلـت إلى البـاب اسـتوقفها صوتـه عـلى حـين غـرّة:

- ياسمين.. لحظة.

اسـتدارت لتلمـح هيثـم وصديقتـه الشـقراء يقفـان عنـد مدخـل المطعـم. طالعتهمـا في اسـتغراب. لـم تكـن تتوقّـع أن يكـون بتلـك الوقاحـة حـتى يواجههـا وهـو برفقتهـا. ربّمـا يطلـب منهـا ألا تخـبر والدتـه وعائلتـه بأمـره؟ بالطبـع، زهـور ليسـت مقتنعـة بعلاقتـه هـذه وتحـاول منـذ فـترة أن تخطـب لـه غيرهـا، ولا شـك أنـه وعدهـا بـألا يراهـا مجـدّدًا، لكنـه مـازال يخلـف وعـوده. كل تلـك الأفـكار تبـادرت إلى ذهنهـا تباعًـا وهـي تتقـدّم في اتجاههمـا ببـطء. قـال بالفرنسـية في هـدوء غـير متوقـع:

- أعرّفك بلورا.

توقفـت عيناهـا عنـد وجههـا المليـح وابتسـامتها الرّقيقـة. كانـت شـقراء حقيقيّـة بجمـال فرنسـيّ هـادئ. كل شيء فيهـا ينطـق بالأنوثـة، حـتى الأقـراط الذهبيـة الـتي تتـدلى مـن أذنيهـا وتصـدر رنينًـا لطيفًـا كلمـا حركـت رأسـها. حـين لاحـظ صمتهـا، أضـاف موضحًـا:

- لـورا زميلـة لي في العمـل.. حديثـة عهـد بالإسـلام.. وتحتـاج إلى مـن يعلّمهـا الدّيـن.

بـدت علامـات الدهشـة عـلى ياسـمين وهـي تمـدّ كفهـا لتصافحهـا. كانـت قـد

توقّعت كل شيء، إلا هذا.
- آه! حقًا؟! كيف؟!
ارتبكت ولم تجد الكلمات المناسبة. كانت مفاجأة حقيقيّة. قالت بعد أن تجاوزت دهشتها:
- أنا سعيدة جدًا من أجلك. حمدًا لله على هدايتك إلى الإسلام.
شكرتها لورا في حياء ثم قالت:
- أنا لا أعرف الكثير عن الإسلام، ففي محيطي ليس هناك مسلمون.. لكنّني سررت كثيرًا حين التقيت هيثم. تعلمت منه الكثير في وقت قصير.
أضافت وهي ترنو إليه في إعجاب واضح وابتسامة واسعة تزيّن شفتيها:
- أنا ممتنة له حقًا.
خفض هيثم رأسه في حرج وتنحنح في ضيق قبل أن يقول:
- أفعل ما بوسعي.
- معذرة؛ سأعود بعد حين.
قالت لورا ذلك وهي تبتعد في اتجاه الحمام. ما أن غابت عن ناظريه حتى قال هيثم بالعربية في جدّية:
- أظنك تفهمين الآن مواطن الخلاف بيني وبين أمي. لورا ليست البنت التي تحلم بها، لكنّها تتعلم بسرعة وتريد أن تصبح مسلمة بأتمّ معنى الكلمة.
سكتت ياسمين للحظات. كان بودّها أن تقول كلامًا كثيرًا، إنّه لا يجوز أن يرفع الكلفة بينه وبينها متعللاً بتعليمها الدّين، وإنّ المرأة لا تتعلم الدّين إلا على يد امرأة مثلها درءًا للفتنة، لكنّها أحجمت. لم يكن موقعها يسمح لها بإسداء النصائح، ولم تكن تضمن أن يتقبلها منها بالشكل المطلوب. وكأنّه يقرأ أفكارها مجدّدًا قال في حزم:
- لا يمكنني إن أتخلى عنها. ما يزال إيمانها هشًّا وقد ترتدّ إن لم تجدني إلى جانبها.
كانت قدرته على قراءة كلماتها الصّامتة تدهشها في كل مرّة. قالت محاولة تجاوز الإشكالية:
- هل يمكنني المساعدة؟
لم تكن الدّهشة هو ما لمسته في ردّه، بل نوع من اللهفة كأنّه كان

ينتظـر تلـك البـادرة منهـا:

- حقًا تفعلين؟

حـين عـادت لـورا بعـد أن أعـادت طـلي وجههـا بطبقـة جديـدة مـن المسـاحيق، فبـدت مثـل دميـة جميلـة عـلى واجهـة بعـض المحـلات، بادرتهـا ياسـمين عـلى الفـور:

- إن كنتِ لا تمانعين، فسيكون من دواعي سروري أن نبقى على اتصال.

هتفت لورا والابتسامة العذبة لا تفارق شفتيها:

- آه هذا رائع! ستكونين أوّل أخت لي في الإسلام!

تبادلتـا أرقـام الهاتـف تحـت نظـرات هيثـم الراضيـة، ثـم ودّعتهمـا ياسـمين لتعـود إلى مكتبهـا. حـين ابتعـدت بقـدر كافٍ، اسـتدارت لتلقـي نظـرة أخـيرة عـلى الثنـائي الذهـبي الـذي انشـغل عنهـا بسرعـة وانغمـس في أحاديثـه. لمحـت هيثـم وهـو يطـرق في ارتبـاك وتحمـرّ وجنتـاه لملاحظـة ألقتهـا لـورا، في حـين تتعلـق عينـا هـذه الأخـيرة بوجهـه وهـي ترنـو إليـه في شـغف ظاهـر. تنهـدت ياسـمين وهـي تمـضي لشـأنها.

obeikandl.com

-٢٠-
محكمة!

دخلـت رنيـم قاعـة المحكمـة وراء فيفيـان وجلسـت إلى جوارهـا في صمـت وهـي غـير قـادرة عـلى إخفـاء استيائها. بعـد كلّ الوقـت الـذي أمضتـه في دراسـة ملـفّ القضيـة، هاهـي تحـضر الجلسـة الأولى كمحاميـة مسـاعدة، في حـين استحوذت فيفيـان عـلى موقـع المحامـي الرئيـسيّ. انتبهـت حـين فتـح البـاب الجانـبي وتوافـد المحلفـون التسـعة للجلـوس في مكانهـم المخصّـص. عضّـت عـلى شـفتها السـفلى في غيـظ وهـي تتأمّـل سـحناتهم. تمنّـت أن تـشرف بنفسـها عـلى انتقـاء المحلفـين، لكـنّ فيفيـان بعجرفتهـا المعتـادة ذهبـت دونهـا. وبالنّظـر إلى الأشـخاص الموجوديـن في القاعـة اليـوم يمكنهـا أن تجـزم أن فيفيـان لـم تكـن مهتمّـة أبـدًا بمصلحـة موكلهـا.

لـم يكـن بـين المحلفـين شـخص واحـد مـن أصـول عربيّـة أو أجنبيّـة، بـل لـم يكـن مـن بينهـم صاحـب بـشرة ملوّنـة واحـد. ذلـك الرجـل الأشـيب الـذي يجلـس باسـتقامة مبالـغ فيهـا مخنوقًـا بربطـة عنقـه مثـلاً، إنّـه النمـوذج الحـيّ للباريـسيّ الأصيـل الـذي يتذمّـر باسـتمرار مـن اجتيـاح الأفارقـة لفضائـه الخـاصّ. قـد يتعامـل مـع بقّـال أو سـبّاك عـربيّ، لكنّـه سـيتّهم أحدهمـا دون تفكـير إن تعـرّض منزلـه إلى السّرقـة. وتلـك السـيّدة مشـدودة الملامـح الـتي ماتـزال ترتـدي قبعـة سـخيفة لا تتـلاءم مـع الموضـة وتقبـض بتزمّـت عـلى حقيبـة يدهـا، إنّهـا ولا شـك تسـترجع في صمـت تجربـة قديمـة حـاول فيهـا عـربيّ قـذر التحـرّش بهـا في وسـيلة نقـل عمومـيّ.. وهـذا وذاك وتلـك. بـدوا جميعًـا فرنسـيّين أصليّـين تـضرب أنسـابهم العريقـة عميقـا في تاريـخ بـلاد الغـال. بـل لعلهـا تقـرأ في وجـوه بعضهـم علامـات التشـفي، كأنهّـم جـاؤوا لإنـزال أشـد العقوبـات بهـذا العـربيّ الإرهـابيّ الـذي أقلـق راحتهـم في عقـر دارهـم.

زفـرت في ضيـق وهـي تتوقـع الأسـوأ. لكنهـا قطعًـا لـن تستسـلم. فتحـت دفترهـا وراحـت تراجـع الأسـئلة الـتي أعدّتهـا لاسـتجواب الشـهود. تخـاف أن ينسـيها توترهـا بعضهـا، فتتلعثـم وترجـع لهـا إعاقتهـا القديمـة. حانـت منهـا التفاتـة لتلمـح فيفيـان مسـترخية عـلى مقعدهـا وقـد غاصـت في محادثـة هاتفيـة

Opeikangai.com

خاصّة تتخللها ضحكات ناعمة، كأنّ القضية برمّتها لا تعنيها.

أخيرًا دخل القاضي المختصّ في الإرهاب ومساعداه، فأغلقت فيفيان هاتفها على مضض. بعد قليل، دخل حاجبان أحدهما يدفع كرسيًا متحرّكًا، فالتفتت الأعين جميعها لمطالعة الوافد الجديد. ازدردت رنيم ريقها وسرت في جسدها قشعريرة باردة، تلك الرّجفة التي فاجأتها في لقائها الأول بعمر. كان يجلس على الكرسيّ في جَلَد ويواجه النظرات المعادية بقوة وثبات. دفعه الحاجب حتى وصل به إلى منصّة الدفاع، غير بعيد عن رنيم وفيفيان. سرت همهمة بين الحضور وقد ترك فيهم منظره مشاعر متباينة. وما لبث الصّمت أن ساد على قاعة المحكمة حين أعلن الحاجب الأوّل عن بدء جلسة الاستماع إلى الشهود، ثمّ نادى الشاهد الأول للمثول أمام المحكمة.

- بروفيسور دانيال بروكس، هلا ذكّرتنا بوظيفتك في شركة الكيميائيات؟

بادره النائب العام وهو يتقدّم في اتجاه المنصّة. تنحنح دانيال ليجلو صوته وقال:

- أنا مدير قسم الأبحاث في الشركة.

- هل كان لديك اتصال شخصي بالمتهم؟

- الدكتور عمر كان أحد الباحثين الجدد الذين وظفتهم الشركة السّنة الماضية، وراهنت كثيرًا شخصيًّا على كفاءته والقيمة الإضافية التي سيقدّمها إلى الفريق والشركة ككلّ.

- هل كانت آمالك في موضعها بخصوص المتهم؟

عقد دانيال حاجبيه وبدا عليه التردّد:

- الدكتور عمر انضمّ إلينا منذ وقت قريب، والمشاريع في مجالنا تتطلب وقتًا طويلاً عادةً، سنوات ربّما.

قاطعه النائب العام:

- سأصوغ سؤالي بطريقة أخرى، طوال السنة الماضية هل وصلك مردود ملموس بخصوص نشاط الدكتور عمر في الشركة؟

- لا، لكن...

هل كان لديك علم دقيق بنوعيّة الأبحاث التي يقوم بها؟

- ليس بالضبط.

- إذن مـن الممكـن أن تكـون الشركـة قـد موّلـت دون علمهـا عمليـة صنـع قنبلـة مـا، انتهـت بالتفجـر في مختبرهـا؟

- لست أدري.

بـدا عـلى الشـاهد الاضطـراب والانزعـاج، لكـنّ كلمـات النائـب العـام كان لهـا تأثيرهـا عـلى المحلفـين. لاحـظ بعـين الرّضـا علامـات الاسـتهجان الـتي ظهـرت عـلى وجـوه بعضهـم، قبـل أنيسـتكمل اسـتجوابه بسـؤال جديـد:

- ومـن النّاحيـة الاجتماعيـة، كيـف كان المتّهـم في محيـط العمـل؟ كيـف كانـت علاقاتـه؟

كان وجـه دانيـال ممتقعًـا. حانـت منـه التفاتـة خاطفـة في اتجـاه عمـر، ثـم واصـل الـرّد عـلى الأسـئلة محـاولاً الحفـاظ عـلى هدوئـه:

- في الحقيقـة، لـم أكـن أرى الدكتـور عمـر كثـيرًا.. فهـو لـم يكـن يحـضر الاحتفـالات والتجمّعـات الـتي تقيمهـا الشركـة.. ولـم أكـن أراه أيضًـا في المناسـبات العامّـة الـتي ينظمهـا الفريـق، سـواء كانـت في مبـنى الشركـة أو خارجـه.

- هل تجده يميل إلى العزلة والوحدة؟

تمهّـل دانيـال في الـردّ محـاولاً ترتيـب كلماتـه، فكـر في تبرئـة سـاحته قبـل الاهتمـام بشـأن عمـر:

- في اعتقـادي الشـخصيّ، لديـه مشـكلة في الاندمـاج في مجتمعنـا بصفـة عامّـة، رغـم الجهـود الـتي نبذلهـا في القسـم وفي الشركـة عمومًـا لجعـل موظفينـا ينسـجمون بسرعـة ويتأقلمـون مـع معطيـات الحيـاة عـلى الطريقـة الفرنسـيّة.. لـم تعترضنـا في السّـابق مشـكلات مـع الموظفـين الأجانـب، فنحـن حريصـون عــلى تهيئــة الأجــواء المناسـبة وإزالــة الحواجــز بينهــم بــكل السـبل. إلا أن الدكتـور عمـر أبـدى عزوفًـا مسـتعصيًا عـن الحيـاة الاجتماعيـة في الشركـة.

- بروفيسور بروكس، شكرًا لك. لا أسئلة لديّ بعد هذا.

عـاد النائـب العـام إلى الجلـوس في مقعـده وعـلى وجهه ابتسـامة الظفـر، بعد أن حصـل مـن شـاهده الأول عـلى الاعترافـات المطلوبـة. التفـت حينهـا القـاضي إلى منصّـة الدفـاع، وأعطـى الإذن بـدء الاسـتجواب. همّـت رنيـم بالوقـوف، لكـنّ قبضـة فيفيـان الحديديـة اسـتوقفتها في حـزم، ثـم وقفـت لتقـول:

- ليست لدينا أسئلة سيدي الرئيس.

التفت عمر إلى رنيم في غضب وهمس:

- ما الذي يحصل هنا؟
- لحظة أرجوك.
همست رنيم بدورها وقد أخذ جبينها يقطر عرقًا، ثم عادت لتهمس إلى فيفيان:
- دعيني آخذ الكلمة. هناك أسئلة مهمّة يجب أن أطرحها على الشاهد.
حدجتها فيفيان بنظرة صارمة وهي تقول:
- أنا المحامية الرئيسيّة هنا وقد قرّرت أنّنا لن نطرح أسئلة على الشّاهد.
قبل أن تعترض رنيم، ضرب القاضي على طاولته مجدّدًا وطلب من الحاجب أن ينادي الشاهد الموالي. لكنّ عمر هتف بشكل مباغت قبل أن يغادر دانيال كرسيّ الشهادة:
- سيدي الرئيس لديّ سؤال للشاهد من فضلك.
حدّقت فيه فيفيان في امتعاض، في حين أشار القاضي إلى دانيال ليعاود الجلوس. فلم يكن هناك قانون يمنع المتهم من طرح الأسئلة على الشهود بنفسه. تكلم عمر وهو ينظر إلى مخاطبه بقوّة وعمق:
- بروفيسور بروكس، هل تذكر حين جئت إلى مكتبك قبل الحادثة بأسبوع؟ ألم أحضر إليك ملفًا كاملاً عن مشروع «الاندماج البارد» الذي أعمل عليه بكل جوانبه التقنية والمالية؟ حينها طلبت منّي مهلة حتى تطلع على الدّراسة قبل طلب اجتماع لجنة معاينة للنظر في المشروع.. هل تذكر؟
- ساد التوتر على القاعة وتوجهت نظرات الحضور إلى دانيال في ترقّب. تنحنح هذا الأخير ثم همهم بنفس التمهّل المدروس، يحمي نفسه وقسمه من جميع المساءلات المحتملة:
- نعم، أذكر أنك جئت إليّ بملف ما.. لكنّني لم أطّلع عليه ولا أدري ما يحويه بالضبط. وبما أن المكتب احترق بما فيه، مثل كل مكاتب القسم، فلم يعد بإمكاني البتّ بمضمون الملف.. ثمّ هل قلت الاندماج البارد؟ تلك الأسطورة القديمة؟
- لم تعد أسطورة يا سيّدي. والملفّ يحوي كل تفاصيلها.
كان صوت عمر قويًّا وواثقًا إلى درجة أرهبت رئيسه السابق وجمّدته مكانه.
همست رنيم مخاطبة عمر:

- ألم تكن لديك نسخة أخرى من البحث؟

- كانـت لـديّ نسـخة في المكتـب، لا شـك أنهـا تحوّلـت إلى رمـاد، ونسـخة أخـرى أخذتهـا إلى الشـقة.

وقفت رنيم وتكلمت بصوت عالٍ مخاطبة الشاهد:

- بروفيسـور بروكس، إن أمددنـاك بنسـخة مـن الملـف هـل يمكنـك معاينتـه هـذه المـرّة والتعـرف عـلى نوعيـة الأبحـاث الـتي تضمّنهـا؟

- نعم بالتأكيد.

وقـف النائـب العـام في احتجـاج وقـد أحـسّ بحملتـه الهجوميـة قـد بـدأت تتبعـثر في الهـواء:

- أعترض سيدي الرئيس. ماهي أهمية هذا الملف بالنظر إلى القضية؟

هتفت رنيم في حدّة:

- أهميـة الملـف تكمـن في تعريفـه بنشـاطات مـوكلي وأبحاثـه طـوال السـنة الماضيـة، الـتي حـاول النائـب العـام التشـكيك في جديّتهـا.

ضرب القاضي على الطاولة منهيًا النزاع:

- اعتراض مرفوض. الشاهد الموالي.

جلسـت رنيـم وهـي تتنهّـد في ارتيـاح. لكـن فرحتهـا بالانتصـار الجـزئيّ لـم تـدم طويـلاً، إذ مالـت عليهـا فيفيـان وهـي تهمـس في حـدّة:

- ما الذي فعلته للتوّ؟ ألم أطلب منك عدم التدخل؟

تمتمت رنيم في ارتباك يشوبه ذهول:

- لكن.. هل فعلت شيئًا خطأ؟

- ششششش.. ولا كلمة بعد الآن.

عقـدت ذراعيهـا أمـام صدرهـا وهـي تمـطّ شـفتيها في انزعـاج، في حـين راقبهمـا عمـر في قلـق؛ إن تواصـل الأخـذ والـردّ بينهمـا بهـذا الشـكل فلـن تسـير القضيـة كمـا ينبغـي. حـين عـادت فيفيـان إلى العبـث بهاتفهـا، همسـت رنيـم إلى عمـر بصـوت خافـت:

- اطلب رفع الجلسة.

حدق فيها في عدم استيعاب:

- أنا؟ أطلب رفع الجلسة؟

همست مجدّدًا وهي تهز رأسها بقوّة:

obeikandl.com

- نعـم. أنـت المعـنيّ الأول بالقضيـة، وإذا كان أداء المحامـي لا يناسـبك فبإمكانـك رفـع الجلسـة للتشـاور.

تـردّد عمـر للحظـات. كان الحاجـب قـد نـادى عـلى الشـاهد الثـاني الـذي كان يتقـدّم في اتجـاه منصـة الشـهادة. تنحنـح ليجلـو صوتـه، ثـم رفـع كفـه طالبًـا الكلمـة:

- سيدي الرئيس.

التفت إليه القاضي في انزعاج:

- ماذا هناك الآن؟

- سيدي أطلب رفع الجلسة.. للتشاور.

ثم أضاف وقد تذكر كلمات رنيم:

- لأنني غير راضٍ عن أداء المحامي.

التفتـت إليـه فيفيـان في تحفّـز، في حـين أخفـت رنيـم ابتسـامتها. أخـيرًا، ضرب القـاضي الطاولـة بمطرقتـه وهـو يعلـن في انزعـاج واضـح:

- رُفِعت الجلسة.

حالمـا فُتـح بـاب المحكمـة عـلى مصراعيـه، هجـم المصـوّرون والصحفيّـون دفعـة واحـدة عـلى فيفيـان ورنيـم، اللتيـن لـم تنهيـا بعـد أحاديثهمـا المتشـنّجة بخصـوص الإسـتراتيجية المتّبعـة في القضيـة. امتـدّت المصـادح في اتّجاههمـا مـن كل جانـب وتوافـدت الأسـئلة.

- سيدتي، كيف ترين القضية اليوم؟

- هل سيستمر الدفاع في التّمسك بالبراءة؟

- ماهو موقفكم من صيغة الاتهام التي يوجهها المدّعي العام؟

- لماذا تمّ رفع الجلسة بهذه السّرعة؟

- هل هناك إمكانية تغيير في فريق الدّفاع؟

أشـاحت رنيـم بوجههـا وشـقّت طريقهـا خـارج الازدحـام، في حـين وقفـت فيفيـان تحـت الأضـواء وعدسـات التصويـر وهـي ترسـم ابتسـامة واثقـة. بعـد أن تأكـدت مـن ظهـور وجههـا عـلى الصّفحـة الأولى مـن جميـع مجلات وجرائـد الغـد، تكلمـت في لهجـة حازمـة ورفيقـة في آن، تدرّبـت عليهـا طويـلاً تمهيـدًا لظهورهـا المنتظـر عـلى وسـائل الإعـلام:

- لا يمكنـني تقديـم الكثير مـن التفاصيـل الآن، فالقضيـة ماتـزال في بدايتهـا.

obeikandl.com

شكرًا لاهتمامكم.

بعد نحو ساعة، دخلت المرأتان المكتب والشرر يتطاير من عيني كلتيهما. كانت فيفيان من بادر بالشكوى إلى جورج. جلست قبالته وهي تشير إلى رنيم في استياء:

- محاميتك الجديدة تريد إفساد عملي بالكامل.

جذبت رنيم المقعد الآخر وجلست بدورها وهي تهتف في احتجاج:

- بل هي التي تفعل. لا تريد استجواب الشهود ولا تتركني أفعل. من حسن الحظ أن الشاهد الرئيسي لم يدرج في جلسة اليوم وإلا ضاعت منّا البراءة!

التفتا إليها في حركة واحدة وقد بدت عليهما الدّهشة. قال جورج في شك:

- قلتِ البراءة؟

زفرت رنيم في ضيق. أفلتت منها الكلمة دون إرادة منها، والآن صار عليها أن تدافع من جديد عن وجهة نظرها التي لم تجد أذنًا صاغية في اللقاء السابق. تكلم جورج مرّة أخرى:

- ألم نكن قد اتفقنا على إقصاء احتمال البراءة؟

أخذت رنيم نفسًا عميقًا وقالت في هدوء، وهي تنظر في عيني جورج بقوّة:

- لكنني أعتقد أنه احتمال ممكن جدًّا. أنا أميل إلى الوقوف في صفّ موكلي. ما دام مصرًّا على براءته فأنا مستعدّة إلى الدّفاع عنه على هذا الأساس، حتى يثبت لي غير ذلك.

ضحكت فيفيان وقالت في ظفر مخاطبة جورج:

- أرأيت. إنها لا تصغي إلى التّوجيهات وتتصرّف كأنها الرئيسة هنا.

بدا على جورج التفكير وهو ينقل نظراته بينهما. قال موجهًا كلماته لفيفيان:

- لم تكن القضية تهمّك منذ البداية أليس كذلك؟ لهذا اخترنا عقد اتفاق مع النائب العام والحصول على اعتراف من المتهم لقاء تخفيف العقوبة.

هزت فيفيان رأسها موافقة، فتابع:

- وبمـا أنـا وجدنـا مـن يهتـمّ اهتمامًـا كامـلاً بالقضيـة، فأظـن أن بإمكاننـا إعفـاءك. مـا رأيـك؟

هتفت رنيم في سرور حقيقي وهي تقف من مكانها:

- آه جـورج! أنـت رائـع! شكـــــرًا، شـكرًا جزيـلاً لـك. لـن تنـدم عـلى إعطـائي هـذه الفرصـة، أعـدك.

ابتسـم جـورج وهـو يـرى حمـاس المحاميـة الشـابة، في حـين تجهـم وجـه فيفيـان وهـي تقـف بدورهـا:

- أنت واثق ممّا تفعل؟ أرجو ألا تندم على هذه الخطوة فيما بعد.

تابعهمـا وهمـا تغـادران المكتـب بانفعـالات متباينـة، وإحسـاس غريـب يراوده بـأن القضيـة المزعجـة الـتي كان يتذمـر منهـا منـذ أسـابيع قليلـة سـتصبح بشـكل مـا قضيّـة الموسـم.

obeikandl.com

-٢١-

قريبي العزيز!

أخذ باتريك يقلب الملفات بين يديه في تركيز صامت. يحصي الأخطاء ويتتبع الثغرات. لم يكن أداؤها سيئًا عمومًا. كان من الواضح أنها قد حظيت ببعض المعونة. تلك المتحاذقة الصغيرة! كبرياؤها المنتفخ يجعلها تعزف عن طلب المساعدة منه، لكنها أخذتها دون تردّد من غيره لتتظاهر أمامه بالتفوّق! كان يحلو له أن يصف تصرّفها ذاك بالغش، مع أنّه كان ليتصرّف بنفس الطريقة لو كان مكانها! ذلك الغش الذي يرتبط في لاوعيه بالثقافة العربيّة. ألم يغشّ علي بابا اللصوص حتّى يستحوذ على الكنز دونهم؟ ألم يغشّ علاء الدين السّاحر ليبقي المصباح السّحريّ في حوزته؟ البعض يسميه ذكاءً، نباهة أو فطنة. لكنه تحيّل صرف حين يتعلق الأمر بالعرب!

- مرحبًا باتريك.

رفع رأسه عن ملفاته وطالع محدّثه الذي قاطع سيل أفكاره في دهشة:

- دافيد.. هل عدت من السّفر؟

وقف ليحييه في مودّة في حين قال دافيد مداعبًا:

- لا تبدو مسرورًا برؤيتي. كأنّ العمل على ملفاتي أسعدك. ثم ما كل هذه الجدّية؟ حين لم أرك في ركن الاستراحة تشرب قهوتك الصباحيّة شككت في الأمر.

- ارتبك باتريك الذي أدرك للتوّ درجة الاهتمام المبالغ فيها التي كان يوليها أعمال تلك الموظفة الجديدة. إن كان دافيد الذي عاد اليوم من السفر قد لاحظ تغيّره، فما ظن بقية الزملاء به؟

جلس دافيد على المقعد قبالته، ومدّ ذراعه ليتناول الملفات التي كان هذا الأخير يراجعها.

- كيف أداء ياسمين؟

- لا بأس به.

انغمس دافيد في مطالعة الملف الأول ثم رفع رأسه وهو يبتسم في

استغراب:

- أنت تبالغ! هذا عمل ممتاز!

قال باتريك في ضيق:

- هناك بعض الأخطاء الفادحة. انظر على الصفحة الثالثة.

ألقى دافيد نظرة سريعة على النقطة التي أشار إليها باتريك، ثم أطلق ضحكة قصيرة:

- هل أنت جادّ؟ طوال حياتي المهنية لم أولِّ ملفًا إداريًا اهتمامًا مماثلاً.

ثم أضاف وهو يقف ويجمع ملفاته:

- لا شك أنك سلطت عليها ضغطًا رهيبًا حتى أنهت الملفات بهذه السرعة والدّقة. أعلم الآن أنّه يمكنني الاعتماد عليك في الملفات القادمة. ستزيح عني حملاً ثقيلاً يا رجل!

قال ذلك وهو يغمزه ضاحكًا، ثم لوّح إليه بكفه وهو يغادر مكتبه. تنهد باتريك وهو يحاول استجماع أفكاره. كلّ تلك المسألة تأخذ من وقته واهتمامه أكثر مما تستحق. وكل هذا التفكير يأخذه دون وعي إلى شقيقته. مرّ وقت طويل مذ رآها آخر مرّة. كلّ ذلك بسبب زوجها المقيت الذي منع عنه زيارتها، والمسافات جعلت المهمّة أشق. تناول هاتفه وبحث عن رقمها في الذاكرة. ربّما يشعر بتحسّن لو سمع صوتها.

*****

- لا وجود لهذا الملف بين أغراض المتهم.

قال الشرطي بلهجة حازمة وهو ينحني ليجمع الصّناديق التي تبعثرت محتوياتها على أرضية الغرفة ويعيد ترتيبها على الرّفوف الجانبية. ألحّت رنيم:

- أنت متأكد؟ ربّما كان في أحد الصّناديق.. بين بعض الكتب.

هزّ الرجل رأسه نافيًا وهو يقول في ثقة:

- كما رأيتِ بعينيك، لقد تثبتُّ من كل الصناديق مرتين. لا وجود لهذا الملف بين الأدلة التي تمّ جلبها من شقة المتهم.

زفرت رنيم في ضيق. إن لم يكن الملف هنا فأين يمكن أن يكون؟ شكرت

obeikandl.com

الشرطي وغادرت المكتب على عجل. يبدو أن هذه القضية ستستوجب منها أن تعطي من وقتها أكثر من العادة. ربما عليها أن تضحي بنهاية الأسبوع أيضًا لتذهب إلى ليون وتتثبّت من كل شيء على عين المكان. هذه الرحلة كانت محتمة عليها عاجلاً أم آجلاً. بل كان من المفترض أن تكون أولى خطواتها حال استلامها ملف القضيّة. ليس هناك أفضل من تكوين فكرة شخصيّة عن محيط المتهم وموقع الحادثة.

ما إن دخلت على عمر في غرفته بالمستشفى حتى قالت في جدّية:

- سأذهب إلى ليون هذا الأسبوع.. أحتاج إلى إلقاء نظرة على شقتك والشركة. هل هناك شيء إضافيّ يجب أن أعرفه قبل ذلك؟

نظر إليها عمر في هدوء:

- تأكدي، ليس هناك ما أخفيه.

تنهّدت. إنّها تشعر بصدقه وتلمس الشفافيّة في كلماته. تصريحاته متناسقة ومتماسكة، لكنّ محتواها عجيب مشطّ في الغرابة، فكيف تقنع المحلّفين بها؟ اختراعه المفترض لتوليد الطاقة النظيفة يقرّ الخبراء بكونه أسطورة لا حقيقة لها، ناهيك بالنهاية الكارثيّة لتجربة يقول إنّ تبعاتها النظريّة لا تتعدّى تشغيل جهاز كهربيّ منزليّ! لم تكن الأمور تسير بشكلٍ جيّد حتّى السّاعة. وقصّة المشرّد الذي آواه ثمّ قفز من نافذة الشقة حين اقتحمها رجال الشرطة كانت ثغرة أخرى لا تدري كيف ترأب صدعها. قالت في عتاب وهي تجمع ملفّاتها:

- ولم تجد إلا سارقًا دخل الأراضي الفرنسيّة بصورة غير شرعيّة، لتؤويه عندك؟

بدا الأمر غريبًا ومستهجنًا وهو يراه بعيني رنيم.

- من الناحية التقنية، أنتِ محقّة. لكن من وجهة نظر إنسانيّة، كان أخًا مسلمًا فاقدًا لكل سند، فلم أملك أن أتركه يواجه قدره وحيدًا.

- لن يكون من السّهل إقناع النائب العام والمحلفين بوجهة نظرك الإنسانيّة هذه.

حين غادرت الغرفة، استسلم عمر لأفكاره. هل كان من سوء حظه أن فرّ نادر قبل دخول رجال الشرطة؟ لم يكن يريد أنّ يسبّب له المتاعب بعد أن أعطاه الأمان والحماية، لكنّه لا يأمن أن يعتقد القاضي والمحلفون

obeikandi.com

بوجـود شريـك لـه في عمليـة إرهابيـة موهومـة. الثابـت لديـه هـو أن تهمـة الشريـك سـتتبدّد مـع إثبـات براءتـه وتفنيـد الادّعـاءات القائمـة ضـدّه. لكـنّ القبـض عـلى نـادر كان ليـؤدّي إلى سجنه وترحيلـه إلى الجزائـر لا محالـة. تنهّـد وقـد هـداه تفكـيره إلى الرّضـا عمّـا آلـت إليـه الأمـور. أملـه الآن أن لا يكـون نـادر قـد أوقـع نفسـه في مشـكلات جديـدة بعـد تركـه الشـقة.

*****

وقفـت ياسـمين أمـام مدخـل الحديقـة وأخـذت نفسًـا عميقًـا. حـين حدّثتهـا رنيـم باعتزامهـا السّـفر إلى ليـون، وجـدت الفرصـة مناسـبة لزيـارة عائلـة والدهـا. كانـت قـد ودّعـت رنيـم عنـد بـاب الفنـدق الـذي حجـزت فيـه واتفقتـا عـلى اللقـاء في مسـاء الغـد في محطـة القطـار. وهاهـي تـتردّد الآن في ولـوج المسـكن متوقعـة الأسـوأ. كانـت قـد اتّصلـت بالأمـس لإعلامهـم بقدومهـا، فكانـت إيلـين مـن ردّ وهـي في حالـة سـكر واضـح! لـم تكـن قـد عايشـت مشـهدًا مماثـلاً عـدا في الأفـلام. اللسـان الثقيـل المتلعثـم، الكلمـات البذئيـة الممطوطـة، الضّحـكات الفجّـة غـير المتزنـة والغنـاء النـاشز الـذي ينبعـث خـلال الحديـث بـدون سـابق إنـذار.. كانـت تـرى وجهًـا جديـدًا لزوجـة والدهـا وأمّ أخويهـا، وجهًـا لـم يسرّهـا اكتشـافه، وسـيمرّ وقـت طويـل قبـل أن تقـدر عـلى محـو مخلّفاتـه مـن ذاكرتهـا.

إن لـم تكـن إيلـين قـد وعـت مـن سـكرتها فكيـف يمكنهـا أن تتـصرّف؟ دفعـت البوابـة الحديديـة وعـبرت الممـرّ الحجـريّ المـؤدّي إلى المدخـل الرئيـسي. حـين وصلـت أمـام البـاب الخشـبيّ المـوارب، تناهـت إليهـا أصـوات ضحـكات مرحـة قادمـة مـن الدّاخـل. رفعـت حاجبيهـا في عجـب ثـمّ ابتسـمت في رضـا. يبـدو أنّ الوضـع قـد تحسّـن قبـل وصولهـا. يـا للارتيـاح! لـن تكـون نهايـة أسـبوع ثقيلـة كمـا توقعـت. طرقـت البـاب بخفّـة وانتظـرت للحظـات. سـمعت وقـع خطـوات رشـيقة تركـض إليهـا. اسـتقبلتها سـارة بابتسـامة مرحـة وعانقتهـا في حـرارة غـير معهـودة. كان مزاجهـا أفضـل مـن أيّ وقـت مـضى. سـألتها ياسـمين وهمـا تتجـاوزان المدخـل جنبًـا إلى جنـب:

- هل لديكم زوّار؟
- نعم.. خالي هنا.

- خالك؟

ردّدت ياسمين في استغراب. خالها؟ لم تكن تعلم أن لإيلين شقيقًا ما. كانت تظنها وحيدة والديها. ربما لأنّها لا تتحدّث كثيرًا عن عائلتها. عندما وصلت إلى غرفة الجلوس، ألقت التحيّة وعيناها تمرّان في نظرة عابرة على خيال الرّجل الشاب الذي جلس إلى جوار إيلين. كانت تتحرّك في اتجاه زوجة أبيها لتعانقها، لكنّها تعثرت فجأة وكادت تفقد توازنها بفعل الارتباك. هبّت إليها إيلين وأمسكتها من ذراعها لتساعدها على التماسك.

- أنتِ بخير؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب وعيناها مطرقتان حرجًا، تجمع بقايا كرامتها التي تبعثرت على الأرض. بادرها باتريك الذي كان أسرع منها في تجاوز دهشته، وقال في هدوء يشوبه شيء من التهكم:

- مرحبًا ياسمين. لم أتوقع أن أراك قبل يوم الإثنين!

نقلت إيلين بينهما نظرات مستغربة:

- هل سبق والتقيتما؟

أجاب باتريك عنها بنفس نبرته الهادئة:

- نعم، ياسمين.. زميلة.

- يا للصّدفة! شيء لا يصدّق!

كانت سحنة إيلين مشرقة بشكل لافت وبدا أن حضور شقيقها له تأثير جدّ إيجابي عليها. بل على العائلة كلها. غاصت ياسمين في مقعدها وهي تتمنّى أن تختفي من المكان على الفور. رسمت على وجهها ابتسامة لمداراة توترها واستمعت في غير تركيز إلى إيلين تتحدّث عن أمور شتى. ازدردت ريقها بصعوبة. كانت علاقتها بباتريك بالغة الجدّية في الشركة. فهو حين لا يكون فظًا، يكتفي بالبرود المغلف بالأدب. لذلك فإن رابطة القرابة التي اكتشفتها في الحين لم تكن لتشعرها بارتياح أو انشراح.

قالت إيلين وهي تقف من مكانها:

- سأترككما لبعض الوقت لأحضّر مائدة العشاء.

- أساعدك؟

- استريحي أنت، لقد وصلت للتوّ.

جلست على مضض وهي تبحث في رأسها عن أيّ فكرة، أيّ كلمة تقطع

بها الصّمت البغيض. تلفتت حولها في حذر. لم تكن سارة هناك. قبل أن تفكر في الهروب بادرها باتريك في لهجة غامضة:

- إذن أنتِ ابنة كمال عبد القادر؟ أو دعيني أقول.. سامي كلود؟

كانت طريقته في نطق اسم والدها غريبة. فيها سخرية لاذعة لم تخف عليها. ولأوّل مرّة شعرت بأن باتريك تخلّى عن تحفّظه المعتاد ويستعدّ لإشهار مخالبه في وجهها. لم تنتظر جملته الثانية ووقفت وهي تقول معتذرة:

- سأعود.

سارعت بصعود الدّرج إلى الطابق الثاني حيث غرفة سارة. كانت هذه الأخيرة منهمكة في فتح علبة من الحجم الصّغير بعد أن نزعت عنها ورق التغليف. ما أن لمحت ياسمين حتى هتفت في حماس:

- انظري إلى الهدية التي أحضرها لي خالي باتريك.

جلست ياسمين إلى جوارها مبتسمة وأخذت تتأمل معها الهاتف المحمول الجديد.

- وااااو! إنه رائع! ألا تجدين ذلك؟

هزّت ياسمين رأسها موافقة وهي تحاول السيطرة على تنفسها السريع. قالت أخيراً بعد أن تركت سارة تقلب هديتها الثمينة لبرهة:

- لم أكن أعلم أن لديك خالاً.

أومأت سارة وقالت وعيناها لا تفارقان الهاتف:

- صحيح أنّه لا يزورنا كثيرًا، لكننا نراه حين نذهب إلى باريس.

- آه.. هكذا إذن.

اتصل بنا بالأمس، وكان وضع أمي سيّئًا.. تحدّث إليها على الهاتف ووعدها بالمجيء.. وهي الآن كما ترين أفضل حالاً. إنّها تصغي إليه كثيرًا. علاقتهما رائعة.

في تلك اللحظة جاءهما رنين الجرس مرافقا صوت إيلين:

- هيا يا أولاد؛ العشاء جاهز.

في الأسفل، كان باتريك يجلس بمفرده وقد انتابه ذهول رجعيّ. إذن ياسمين هي ابنة كمال! ذلك الشخص البغيض الذي يحقد عليه كل الحقد. ريان وسارة أبناؤه أيضًا، لكنّ أمرهما مختلف. هما ابنا شقيقته أولاً.

نشأتهما فرنسيّة خالصة، وسحنتهما أوروبيّة لا شية فيها، فيهما شبه من عائلة «كلود» فلا يكاد الناظر يخطئ قرابته بهما. لكن تلك العربيّة هي بنت ذلك العربيّ الذي حرمه من شقيقته الوحيدة وابنيها، وأهانه بما يكفي ليحقد عليه بقية عمره. ما يزال يذكر ذلك اليوم الذي طرده فيه من البيت وقذف أشياءه وراءه وهو يصرخ فيه بألا يضع قدمه هناك مجدّدًا. أمام عيني إيلين الباكية، جرّ متاعه ومضى دون أن يلتفت والحقد في قلبه يتنامى. كلّما تذكّر تلك المرحلة من ماضيه، تمنّى أن يرفع لافتة سوداء كتلك التي انتشرت في أربعينيات القرن الماضي، يكتب عليها «ممنوع على الكلاب والعرب»، يعلّقها على مداخل حياته!

مرّت سنوات طويلة كان يتّصل فيها بإيلين دون علم زوجها ويلتقيها في الخفاء. لم يكن يملك أن يدخل المنزل وكمال هناك. والآن وهو يرى زواجهما ينهار كان يشعر بسعادة طاغية. لم يكذّب حدسه. ذلك العربيّ لم يكن مناسبًا لها. إنّها تستحق الأفضل، وهو جاء ليقنعها بذلك. كان يجب أن يحصل الطلاق منذ زمن بعيد.. لم يفت الوقت بعد.

رفع رأسه حين سمع صرير الدّرجات الخشبية تحت وطء الخطوات النازلة. حدج ياسمين بنظرة باردة. كان يجب أن يعلم أنها ابنته منذ البداية. تشبهه في تمسّكها المتعالي بالفضيلة المزعومة. تقاطع طريقهما بهذا الشكل لا يمكن أن يكون صدفة مجانية.

- إلى المائدة جميعًا.

ارتفع نداء إيلين مجدّدًا، فتحرّكوا واحدًا إثر الآخر في اتجاه المائدة. ما أن استقرّت ياسمين على مقعدها حتى توقفت نظراتها على القارورة الخضراء التي تتوسّط الطاولة. منذ أسابيع قليلة كانت إيلين تشتري اللحم الحلال من أجلها. لم تجرؤ يومًا على شرب الكحول أمامها ولا هي شكّت مرّة واحدة في استهلاك تلك المشروبات داخل جدران منزل والدها. لكنّها اليوم، تتصدّر المائدة كأنّها سيّدة المكان الشّرعيّة! لم تكن قد تجاوزت دهشتها بعد، حين امتدّت كفّ باتريك لتلتقط القارورة بخفّة. سكب لنفسه كأسًا ثم ملأ كأس إيلين قبل أن يلتفت إلى ياسمين:

- هل أسكب لك؟

رفعت نظراتها إليه غير مصدّقة. هل هو غبيّ أم أنّه يتغابى؟ لكنّ

الابتسـامة الماكـرة الـتي افـترّت عنهـا شـفتاه جعلـت جسـدها يرتجـف. وقفـت دون أن تـردّ وقالـت مخاطبـة إيلـين:

- يجب أن أجري اتصالاً.

ارتقـت الدّرجـات عـلى عجـل حـتّى وصلـت إلى غرفـة المكتـب الـتي كانـت غرفتهـا لأسـابيع مضـت. أغلقـت البـاب وهـي تلهـث. ذلـك الشـخص، لا يمكـن أن يكـون باتريـك الـذي عرفتـه في الشركـة! إنّـه يتـصرف بغرابـة هنـا. جلسـت على طـرف السريـر وتناولـت هاتفهـا. ضغطـت عـلى زرّ الاتصـال بسرعـة وانتظـرت في نفـاد صـبر.

- لم أكن أعلمك أنك ستشتاقين إليّ بهذه السّرعة.

ابتسمت حين وصلها صوت رنيم بلهجتها الشقية. قالت مجارية إياها:

- هذا جزائي لأنني فكرت أنك ستشعرين بالملل وحدك في غرفة الفندق.

لكن رنيم بفراستها أدركت أن وراء اتصالها أمرًا ما:

- أفصحي.. ما الأمر؟

تنهدت ياسمين ولم تتكلم. من أين تبدأ؟ عاجلتها رنيم بسؤالها:

- زوجة أبيك بخير؟

- إيلـين بخـير، وأخـواي أيضًـا، لكنّـني أشـعر بالغربـة هنـا. كأنّـني في مـكان لـم أتعـوّد عليـه.

قالت رنيم في قلق:

- هل ضايقتك زوجة أبيك بشيء؟

- هي لم تفعل.. لكن شقيقها فعل.

- ما شأن شقيقها هذا؟

- تذكرين باتريك؟ زميلي في الشركة؟ حادثة المصعد؟

قصّـت عليهـا بسرعـة تفاصيـل المواقـف الـتي جمعتهـا بباتريـك في الشركـة ثـمّ في البيـت في تلـك الأمسـية. أضافـت بعـد صمـت قصـير:

- صحيـح أنّـه بـارد عـلى الـدّوام، لكنـه مـؤدّب في العـادة. اليـوم أحسسـت بـأن نظراتـه وتلميحاتـه خبيثـة. لا أحـسّ بالارتيـاح لوجـوده أبـدًا.

في تلك اللحظة جاءها صوت إيلين من الأسفل:

- ياسمين، العشاء سيبرد.

هتفت من وراء الباب المغلق:

- حسن، سآتي بعد قليل.
سألتها رنيم:
- هل ينادونك للعشاء؟
- نعم.
- لماذا لا تذهبين؟ سنواصل حديثنا لاحقًا.
قالت ياسمين في رجاء:
- أرجوك لا تذهبي. أنا أتذرّع بالاتصال حتى لا أجلس معهم على العشاء.
ضحكت رنيم وهي تقول:
- لكنني أيضًا أريد أن أتناول عشائي.
- ستخرجين؟
- لا، طلبت عشاء في الغرفة.. انتظري.
سمعت وقع خطوات تذهب وتجيء مصحوبة ببعض الجلبة قبل أن تعود رنيم على الخط:
- حسن، عشائي وصل. إن كنت لا تريدين الأكل فأنا أتضوّر جوعًا.
تجاهلت ياسمين تصريحها وقالت في شكوى:
- تصوّري أنه عرض عليّ كأسًا من المشروب الكحولي؟
قالت رنيم وفمها مليء بالطعام:
- غبيّ!
- ليس غبيًا. بل كان يقصد الحركة. كأنه يريد استفزازي.
لم تجب رنيم واستمرت في لوك قطعة اللحم التي تملأ فاها. سألتها ياسمين في شك:
- ماذا تفعلين؟
- آكل. إن كنت لا تريدين إقفال الخط فلا خيار لديّ.
- خائنة. أنا جائعة أيضًا.
سمعت طرقات على بابها ثم أطل رأس إيلين وقد بدا عليها الاستياء. لا شك أنها تتبّعت صوتها حتى وصلت إلى غرفة المكتب. قالت في لهجة حازمة:
- ياسمين! أي محادثة هامّة هذه التي تجرينها في وقت العشاء؟ نحن

obeikandi.com

نتتظـرك عـلى المائـدة.

احمرّ وجهها وهي تقول في اعتذار:

- كلوا أنتم. أنا لست جائعة.

بعد أن غادرت إيلين وأغلقت الباب، هتفت رنيم في دعابة:

- كذاااابة. كنت تقولين للتّو إنّك جائعة.

استمرّ الحديث بينهما ردحًا من الزمن عن كل شيء وعن لا شيء. بعد نحو ساعتين، أنهت ياسمين اتصالها. كانت في حاجة إلى تلك الثرثرة الفارغة مع رنيم حتى يمضي الوقت. تنهدت وهي تقف من مجلسها. لا شك أن الجميع قد انتهوا من العشاء منذ زمن. فتحت باب الغرفة بهدوء، فألفت الممرّ مظلمًا. أطلت على الطابق السّفلي فبدا غارقًا في الظلام بدوره. يبدو أنهم قد آووا إلى غرفهم أخيرًا. نزلت الدّرجات ببطء وحذر متجنبة إحداث أيّ صوت. دخلت المطبخ على أطراف أصابعها وأضاءت المصباح. كانت الأطباق المتسخة مكوّمة داخل المغسلة، في حين كانت قدر تحوي بقايا طعام العشاء على المصطبة. ابتسمت في سرور وراحت تملأ صحنًا نظيفًا. حين استدارت لتجلس إلى المائدة، تسمّرت في مكانها في رعب وهي تحدّق في الشخص الواقف عند باب المطبخ وعلى شفتيه ابتسامة صفراء.

كان باتريك قد خرج إلى الحديقة ليدخّن سيجارة، بعد أن آوت إيلين وولداها إلى أسرّتهم، وقد وجد من المسلي أن يلتقي بياسمين في المطبخ وهي التي فرّت من صحبته طوال السّهرة.

تسارعت نبضات ياسمين في جنون. لم تكن قد انتبهت إلى وصوله. منذ متى وهو يطالعها بتلك النظرات الغريبة؟ لم تنطق بكلمة واحدة وهو يتقدّم في اتجاهها ببطء. راقبت حركاته في تحفّز فتراءى لها أنّه قد أسرف في الشرب ذلك المساء. وجاءت الرائحة الكريهة المنبعثة عنه لتؤكد اعتقادها.

وقف باتريك على الطرف الآخر من المائدة وقال بصوت تشوبه بحّة خفيفة وهو يطفئ سيجارته التي اشتعل معظمها في وعاء قريب:

- كيف حال سامي إذن؟ لم ألتقه منذ زمن.

ازدردت ياسمين ريقها بصعوبة وهي ترقب خطواته المترنحة. أم أنّ الرائحة التي ملأت المكان بوصوله أوحت إليها بأنّه يترنّح؟ لم تكن واثقة. تابع باتريك دون اهتمام بردّها:

oPeikanadi.com

- هـل مـازال يـردّد نفـس المواعـظ بطريقتـه المتسـلطة المغـرورة؟ لا تفعـل كـذا، لا تذهـب إلى كـذا.

لـم تنطـق بكلمـة. لكـنّ فكـرة واحـدة كانـت تـتردّد في ذهنهـا. إنّـه ثمـل! إنّـه ثمـل! إنّـه ثمـل!

داهمته نوبة سعال صاخبة. بصق على الأرض ثم رفع عينيه إليها:

- كان يقـول.. لا تـشرب الخمـر في بيـتي. لا تحـضر الفتيـات إلى بيـتي.. آخـر مـرّة قـال لا تضـع قدمـك في بيـتي مـرّة أخـرى.. سـتخبرينه بأنّـني حـضرت في غيابـه، أليـس كذلـك؟

قـال ذلـك وهـو يتقـدّم باتجاههـا خطـوة. لـم تبـد عليـه التسـلية أو المـزاح. كانـت هنـاك مـرارة غريبـة في صوتـه. هتفـت ياسـمين عـلى الفـور:

- لن أقول شيئًا.

لعلّهـا ظنّـت تفهمهـا سـيوقف تقدّمـه في اتجاههـا. تـراءى شـبح ابتسـامة في زاويـة فمـه وتوقـف بالفعـل. ثـمّ رفـع كفّيـه في حركـة استسـلام قبـل أن يقـول في هـدوء:

- لا تخافي. لن أمسّك بسوء.

ثمّ أضاف وكأنّه يقرأ أفكارها:

- لست ثملاً.

عضّـت عـلى شـفتها في توتّـر. وهـل هنـاك ثمـل يقـرّ بذلـك؟ فاجأهـا حـين سـأل في اهتمـام:

- كيـف يسـمّي نفسـه هـذه الأيّـام؟ هـل عـاد إلى كمـال؟ أم أنّ اسـمًا جديـدًا راق لـه؟

ضحـك هـذه المـرّة وأخـذ يواصـل تقدّمـه، في حـين تراجعـت ياسـمين حـتى التصقـت بالثلاجـة. هتفـت محـذرة وهـي تـرى المسافة بينهمـا تتقلّـص ورائحـة الكحـول النفّـاذة تـزداد قـوّة:

- توقف مكانك. لا تقترب أكثر.

لكنه أشار إلى الثلاجة خلفها وقال في هدوء:

- أريد قارورة ماء باردة.. ممكن؟

كانـت أطرافهـا ترتجـف، وأيقنـت بأنّهـا سـتصبح محـاصرة تمامًـا بـين المائـدة والثلاجـة إذا خطـا خطـوة أخـرى في اتجاههـا. قالـت بصـوت مرتعـش جـاف:

- باتريك. ابق هناك من فضلك.

تجاهل رجاءها وهمس مبتسمًا:

- الصغيرة خائفة؟ لن أؤذيك.. ياسمين، نحن زملاء.. هل نسيتي؟

استجمعت ياسمين شجاعتها، وبكل القوّة التي أوتيتها، فتحت باب الثلاجة ودفعته في وجه باتريك ليلتصق هذا الأخير بالخزانة وهو يتأوّه في ألم. هرولت في اتجاه السلم دون تفكير. سمعته يطلق بعض الشتائم النابية، لكنها لم تتوقف حتى توارت خلف باب الغرفة. سمعت بعدها باب غرفة إيلين وهو يفتح وتناهت إلى مسامعها همهمة بالأسفل قبل أن يحلّ الصّمت من جديد. لكنّها لم تستطع النوم. جلست على الأرض وتكوّرت على نفسها بعد أن أسندت ظهرها إلى الباب وهي تحاول طرد صورته المترنحة من مخيلتها. «ياسمين، نحن زملاء.. هل نسيتي؟». لم تنس ذلك، وتلك هي مشكلتها الحقيقية! كيف ستذهب إلى العمل يوم الإثنين وهي تعلم أنّها ستراه هناك؟

Opelkandl.com

-٢٢-

لورا

لـم يكـن عبورهـا لمدخـل البنايـة دونمـا احـتراز هـذه المـرّة. حـين انفـرج بـاب المصعـد عنـد الطابـق الثالـث، تلفتـت ياسـمين حولهـا في حـذر. تملكهـا قلـق يتجـاوز بمراحـل قلـق يومهـا الأول. لقاؤهـا مـع باتريـك عنـد إيلـين كان كابوسًـا حقيقيًـا لازمهـا في اليومـين الماضيـين. أمـا وقـد وصلـت إلى مبـنى الشركـة، فقـد صـارت تحمـل هـمّ مـا قيـل وقـد يقـال مـن شـائعات بشـأنها للثـأر. ثـمّ هـو صديـق مقـرّب لرئيسـها المبـاشر ويمكنـه ببضـع همسـات أن يحـوّل تجربتهـا المهنيّـة الغضّـة إلى جحيـم.

كانـت الأفـكار السـوداء تمـلأ رأسـها وهـي تشـقّ الممـرّ في طريقهـا إلى المكتـب. لـم يكـن باتريـك في الرّدهـة كعادتـه وتـراءى لهـا بـاب مكتبـه مغلقًـا. زفـرت في ارتيـاح وهـي تحـطّ بسـلام في مخبئهـا الآمن. سـيتأجّل اللقـاء لبعـض الوقت. لم تـره منـذ تلـك الحادثـة الليليـةّ بينهمـا في المطبـخ. حـين غـادرت شـبه متسـللة، كان مـا يـزال غارقًـا في النـوم. كان مـن المفـترض أن تلتقـي رنيـم في المسـاء بعـد أن تنهـي زياراتهـا الميدانيّـة، لكنّهـا اتصلـت بهـا مـع تباشـير الصبـاح الأولى وطلبـت الانضمـام إليهـا في مهمّتهـا. لـم يكـن بإمكانهـا أن تظـل معـه في المـنزل ذاتـه بعـد أن اعتـدت عليـه، أو حـاول الاعتـداء عليهـا، حسـب وجهـة النظـر المعتمـدة! وحـين عـادت في المسـاء لجمـع حاجياتهـا كان قـد سـبقها بالرّحيـل. إيلـين لـم تحرجهـا بـأيّ أسـئلة كانـت، قدومهـا ورحيلهـا المفاجئـان لـم يثـيرا أدنى اهتمـام لديهـا.

- ياسمين، إلى مكتبي في الحال.

انتفضت من الفزع حين أطل دافيد برأسه وهتف بصوت حازم ومخيف.

- حاضر.. على الفور.

وقفـت مـن مكانهـا وهـي ترتجـف. لـم تـره بمثـل هـذا الانفعـال مـن قبـل. هـل يكـون مـا تخشـاه قـد وقـع؟ جمعـت بعـض الملفـات بصفـة عشـوائية، فربّمـا يسـتوجبها بخصـوص أحدهـا في إطـار عمليـة مراقبـة مفاجئـة، وهرولـت في اتجـاه مكتبـه. حـين ألفـت عـددًا مـن الموظفـين في الدّاخـل، اطمأنـت إلى أنّ

موعد محاكمتها لم يأن بعد. لكنهّا أدركت من تجهم الوجوه أن أمرًا جللاً قد حصل.

حين أوصد باب المكتب على المجموعة داخله، تكلم دافيد بصوت حازم:

- محاولة انتحار جديدة.

سرت همهمة قلقة بين الحضور، في حين امتدت الأيدي لالتقاط نسخة من رسالة مطبوعة:

- كنت عند المدير هذا الصباح. الوضع سيئ. الموظفة قامت بإرسال هذا المنشور إلى أعضاء مجلس الإدارة، وأيضًا إلى وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة قبل أن تقدم على محاولتها. من حسن الحظ أن أحد أفراد عائلتها تفطّن إليها في الوقت المناسب ونقلها إلى الإسعاف.

ألقت ياسمين نظرة على نسختها. من حق المدير أن يقلق، فالنّصّ كان يوجّه اتهامات مباشرة للشركة على إهمالها لموظفيها وظروف العمل السّيئة وعدم تقدير الموظفين الذين اقتربوا من التقاعد.. كانت تصف بدقة إحساسها بعدم النفع والأزمة النفسيّة التي مرّت بها حتى فكرت في الانتحار.

- يجب أن نمنع وسائل الإعلام من بثّ هذه الرسالة، بأيّ وسيلة.

أنهى دافيد إملاء الإجراءات المطلوبة على فريق العمل، ثم سمح لهم بالانصراف. قبل أن تتحرك ياسمين من مكانها، التفت إليها وهو يقول بجدية:

- سيبدأ العمل الرسمي على البحث الآن.. فلدينا حالة حقيقية.

أنصتت ياسمين باهتمام ودوّنت كل المعلومات التي أملاها عليها دافيد من دفتر الموظفين أمامه بخصوص الموظفة المعنيّة. ستبدأ بحثها الجادّ بخصوص ظاهرة الانتحار. ولم تكن هنالك فرصة أفضل من تجربة ميدانية طازجة. رغم مرارة الفكرة وساديتها لكنها مجبرة على اقتحام العالم الخاص لتلك الموظفة البائسة، حتى تكون قادرة على وضع أسس نظريتها المرتقبة.

- في السنة الماضية سجلنا خمسا وعشرين محاولة انتحار، اثنتا عشر منها أودت بحياة أصحابها.

- إذن من المتوقع أن تكون هناك فرص أخرى.

أفلتت منها تلك الجملة الفظيعة دون شعور منها. فهمست على الفور معتذرة:

- أنا آسفة. لا يجب أن أقول هذا.

- لا تأسفي. فتلك هي الحقيقة. إيجاد الحلول يبدأ من دراسة المشكلة.

في تلك اللحظة، ظهر باتريك عند باب المكتب.

- دافيد، هل تتناول القهوة؟

تغيّرت ملامحه فجأة حين انتبه إلى وجود ياسمين على الجانب الآخر من المكتب. قال على الفور متحاشيًا الالتقاء بنظراتها:

- أرى أنك مشغول. سأعود لاحقًا.

لكن دافيد عاجله قبل أن يبتعد:

- انتظر، أنا آتٍ حالاً. مهلاً.. ما تلك العلامة على جبينك؟

رفعت ياسمين عينيها بغتة وكأنها تلقت صعقة كهربائية. على جبينه كانت ضمادة صغيرة تخفي جرحًا ما. لم يكن هناك أدنى شك لديها أنّه من مخلفات الحادثة. أطرقت وهي تتمنّى أن تنشق الأرض وتبتلعها قبل أن ينطق بالجملة الموالية.

- لقد تعثرت وأنا أنزل الدرج.

ابيضّ وجهها وانسحبت منه الدماء للحظات، في حين ضحك دافيد وهو يقول:

- خذ حذرك في المرة القادمة.

حين ابتعدت خطواتهما معًا في الممرّ، أطلقت ياسمين تنهيدة ارتياح. لكن إلى متى؟

*****

- لا أثر للحقيبة.

قالت رنيم ذلك متعمّدة الاختصار. لم تشأ أن تقصّ عليه تفاصيل زيارتها. هل كان بوسعها أن تصف له ما آل إليه وضع الشقة بعد رحيل صاحبها؟ حالة الفوضى العارمة التي كانت عليها أذهلتها. لم تكن مجرّد

obeikandi.com

عمليّـة تفتيـش. والأدهـى هـو تـصرّف صاحـب العمـارة الجشـع. كان قد اسـتحوذ عـلى مـا تبقـى مـن الممتلـكات ذات القيمـة، مـن آلات كهربائيّـة وإلكترونيـة وعزم عـلى التخلّـص مـن بقيّـة حاجيـات عمـر وعـرض الشـقة للإيجـار مـن جديـد! كان عليهـا أن تسـلّمه صـكًا بالمبلـغ المسـتحقّ عـلى عمـر لـيرضى بإعـادة الأجهـزة وتركيـب قفـل جديـد للشـقة بعـد أن خلـع القديـم رجـال الشرطـة. لـم يكـن أسـبوعًا موفقًـا. وقـد كلّفهـا سـخرية مـن فيفيـان تدفـع أيّ شيء لتردّهـا إليهـا في أقـرب وقـت!

- إن لـم يكـن أعـوان الشرطـة قـد أخذوهـا ولـم تكـن موجـودة في الشـقة.. فأيـن ذهبـت؟

- قد يكون ذلك اللصّ قد أخذها حين هروبه؟

لـم يكـن عمـر يريـد تصديـق ذلـك الاحتمـال رغـم مـا يعرفـه عـن مـاضي نـادر الأشـوه وإقدامـه السّـابق عـلى السّرقـة. لقـد اسـتأمنه ووثـق فيـه، ولا يريـد أن يـسيء الظـنّ بـه لمجـرّد شـكوك لا إثبـات لهـا. مـع أنـه التفسـير المنطقـي الوحيـد لتبخّـر الحقيبـة والملـف مـن الشـقة! قـال بلهجـة محايـدة:

- الحقيبـة اختفـت، هـذا واقـع يجـب أن نتعامـل معـه. مجـرّد التخمـين لـن يعيدهـا.

قالت رنيم دون تفكير:

- لحسـن الحـظّ أنّ شـيئًا آخـر لـم يُفقـد. كل الأجهـزة في أماكنهـا وصاحـب العمـارة قـام بوضـع قفـل جديـد مـكان المكسـور.

ابتسـم عمـر ولـم يعلّـق. بينمـا أحسّـت رنيـم بسـخافة تعليقهـا السّـابق. ومـن يهتـمّ بالأجهـزة الآن؟ فقالـت مغـيّرة الموضـوع:

- هـل هنـاك وسـيلة أخـرى للحصـول عـلى الملـف؟ هـل هنـاك نسـخة أخـرى في مـكان مـا؟

- هناك البروفيسور سامي كلود.

- البروفيسور سامي كلود؟ هل هو زميل في الشركة؟

- إنّـه باحـث معـروف في مجـال الطاقـة. التقيتـه صدفـة في مكتـب البروفيسـور بروكـس. حـين أبـدى اهتمـامًا بالمـشروع الـذي أعمـل عليـه أرسـلت إليـه نسـخة مـن الملـف ليعاينـه ويشـاركني ملاحظاتـه.

- ممتاز، سأتولى البحث عنه.

حين خرجت رنيم من عنده كانت تحسّ بالمسؤولية تزداد ثقلاً على عاتقها. في داخلها كانت قد اتّخذت قرارًا جادًّا بأن تعيد إليه حرّيته. لكنّها كانت بحاجة إلى شحنة من الأمل حتى تسير بهذه القضية إلى النهاية دون أن ينتابها إرهاق محبط. لكن أين تجدها، أين؟ كانت تمشي في الممرّ بعقل غائب حين لمحت الممرضة التي تهتمّ بحالة عمر.

- من فضلك، هل من جديد بشأن حالة موكلي الصّحية؟

- علاجه قد اكتمل تقريبًا.. من المتوقع أن يسمح الطبيب المختصّ بخروجه الأسبوع المقبل.

تسمّرت رنيم مكانها في ذهول. لم تكن تتوقع ذلك الردّ. شكرتها وابتعدت وقد تزايد قلقها. لم تكن فكرة خروجه من المستشفى سارّة بأتم معنى الكلمة. رغم ارتياحها إلى قُرب تعافيه، لكنها تعلم جيّدًا أنه لن يغادر المستشفى ليعود إلى بيته.. بل في اتجاه زنزانة الإيقاف. ستكون هناك بالطبع حصص معاينة دورية للتأكد من تحسّن حالته الصحيّة، والتئام الكسور فيما بعد. لكن الأرجح هو أنّه لن يجد شيئًا من الرّعاية اليوميّة التي يتمتّع بها هنا. بل سيعامل مثل أي موقوف آخر. انحنت قامتها فجأة وقد ازدادت مسؤوليتها طنًا من الوزن الإضافيّ.

*****

تعلقت نظرات رنيم بالفتاة الشقراء التي ظهرت عند باب الشقة وبين يديها باقة ورود أنيقة.

- لورا.. صديقة هيثم.

كرهت ياسمين أن تعرّفها بتلك الكلمات، لكنّها لم تجد عبارة أخرى تؤدّي المعنى. إنّها صديقته شاءت ذلك أم أبت، بالمعنى الغربيّ للكلمة.

- هذه زميلتي في السكن رنيم.

تقدّمت رنيم لتصافحها في صدمة. لا يمكنها أن تفهم كيف تفكر ياسمين هذه. ذلك الولد المتعجرف الذي عاملها بغلظة ثم قدّم أعذارًا واهية.. تستقبل اليوم صديقته؟

- تفضلي بالجلوس، سأعود بعد قليل.

obeikandi.com

قالت ياسمين ذلك وهي تحث الخطى في اتجاه المطبخ. ابتسمت لورا في حياء وهي تجلس على طرف الأريكة. ابتسمت رنيم ثم قالت معتذرة بدورها:

- خذي راحتك. سأجري اتصالاً وأعود.

دخلت غرفتها، نزعت حذاءها ثم فتحت جهاز حاسوبها. ألقت نظرة على البريد الوارد فارتسمت ابتسامة واسعة على وجهها. لقد حصلت على الرقم الذي تنتظره. جرّبت الاتّصال بالبروفيسور كلود في مقرّ عمله، لكنّ سكرتيرة الجامعة كانت تردّد في كلّ مرّة بأنّه في إجازة. اتّصلت على هاتفه الشخصيّ دون فائدة، وهاهي قد توصّلت إلى رقم منزله أخيرًا. خلال سنوات عملها مع ميشال كانت قد كوّنت بعض العلاقات التي تمكّنها من الحصول على معلومات حصريّة، عناوين أو أرقام هواتف تحتاجها أو غيرها من الإرشادات الضرورية لقضاياها. تناولت هاتفها ونقلت الرقم الذي يظهر على الشاشة. انتظرت لثوانٍ عصيبة وهي تستمع إلى رنين الهاتف من الطرف الآخر. أخيرًا جاءها صوت أنثوي بارد:

- آلو!

هتفت رنيم في لهفة:

- مرحبًا. هل يمكنني الحديث إلى السيد كلود؟

لكن لهجة محدّثتها الجافة جاءت لتوقف اندفاعها الحماسي بشكل مباغت:

- ليس هنا.

- كيف يمكنني الاتصال به؟ الأمر عاجل جدًا.

لم يظهر الاهتمام في صوت إيلين وهي تقول محاولة إنهاء الاتصال:

- إنه مسافر في الوقت الحالي.

- هل يمكنني أن أعرف موعد عودته؟

- لا أدري. لا أحد يعرف مواعيده.

أنهت رنيم اتصالها وهي تشعر بخيبة شديدة. كانت تضع آمالاً كثيرة على حضور البروفيسور سامي في الجلسة المقبلة. لكن يبدو أنها مجبرة على تعديل خطتها الدّفاعية. زفرت بقوّة وهي تستلقي على السرير. في تلك اللحظة فتح الباب وأطلت ياسمين برأسها وهي تهمس:

- لماذا أنت هنا؟ تعالي للجلوس معنا.
همست رنيم في ضيق:
- هل وجودي ضروري؟
قالت ياسمين وهي تهزّ رأسها في حماس:
- طبعًا يا عزيزتي. اذهبي ورحّبي بالضيفة، سأنضمّ إليكما بعد قليل.
همست رنيم في محاولة أخيرة للتهرّب:
- لكنني لا أعرفها.
- ولا أنا!

قالت ذلك وهي تنسحب، في حين لبثت رنيم مستلقية لبعض الوقت. استوت في شيء من التململ وهي تفكّر. صديقة هيثم؟ ثمّ ما لبثت أن وقفت يدفعها نوع من الفضول وسارت باتجاه غرفة الجلوس حيث تجلس لورا وحيدة.

تابعتها ياسمين بنظرات راضية وهي تعكف على تحضير طبق الحلويات. كانت فكرة رائعة أن تجعل رنيم تحضر لقاءها بلورا، بذلك تكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد. لم تكن تحلم بفرصة مماثلة لتقرّب رنيم من عالمها أكثر.

في الجهة الأخرى، جلست رنيم قبالة لورا وهي تبتسم مرحبة. رمقتها هذه الأخيرة في اهتمام. لم تتوقّع أن تجد فتاة مثل رنيم هنا. حين رأت ياسمين للمرّة الأولى أدركت من هندامها وهيئتها أنها من النوع «الملتزم». وبما أنها عرضت عليها تعليمها الإسلام، فقد توقعت أن تكون الأجواء «ملتزمة» بالكامل. لذلك فوجئت بظهور رنيم بسروالها الضيق وقميصها القطني ذي الأكمام القصيرة. ربما بدت لها أقرب إليها من ياسمين، فارتاحت إلى وجودها.

- أنت مسلمة جديدة أيضًا؟
بادرتها بالسؤال، فتضرّج وجه رنيم وقالت في ارتباك:
- آه، لا.. أنا مسلمة قديمة، قديمة جدًّا.

ابتسمت لورا مدارية استغرابها، فقد كانت الفكرة التي تكوّنت لديها عن المسلمين عبر أحاديث هيثم وياسمين مختلفة. قالت مغيّرة الموضوع:
- أنت تعرفين هيثم؟

أجابت رنيم في سخرية خفيفة:

- لم يحصل لي الشرف.

المواقف القليلة التي حدّثتها عنها ياسمين بخصوصه كان كافية لتقف منه موقف عداء، إلى أن يصحّ لديها ما يخالف ذلك.

- وياسمين، هل تعرفه جيّدًا؟

- كانا صديقين في طفولتهما على ما يبدو، لكنها أقرب الآن إلى شقيقته ميساء.

- آه، فهمت.

هزّت لورا رأسها في اهتمام، في حين تأففت رنيم في داخلها. هل ستكون كل أسئلتها عن ذلك المتعجرف؟ في تلك اللحظة جاءت ياسمين وهي تحمل الطبق. وضعته على الطاولة المنخفضة وهي تقول مخاطبة لورا:

- أرجو ألا تكوني قد وجدتِ صعوبة في الوصول إلى الشقة؟

قالت لورا ببساطة:

- لا أبدًا. طلبت من هيثم أن يصف لي المبنى على رسم بياني.

أشاحت رنيم بوجهها لتخفي الضحكة التي أوشكت على الانفجار على وجهها. هل يمكنها أن تقول جملة واحدة لا تذكر فيها هيثم هذا؟ في حين بدت علامات الاستياء على ياسمين التي حدجتها بنظرة صارمة، ثم قالت وهي تجلس إلى جوار ضيفتها:

- أخبريني، ماذا تعلمت عن الإسلام إلى حدّ الآن؟

احمرّ وجه لورا في ارتباك وهي تقول:

- هيثم أهداني كتاب فقه، وكتاب سيرة نبوية، وكتاب قرآن مترجم إلى الفرنسية.

هذه المرّة لم تستطع رنيم أن تسيطر على موجة الضحك التي داهمتها. أخفت وجهها بين كفيها لتخنق الضحكة، فداهمها السُعال بشدة. وقفت من مكانها معتذرة وتوجهت إلى الحمام. فهرولت ياسمين على أثرها بعد أن اعتذرت من لورا.

- أخبريني ما الذي دهاك؟

همست ياسمين إلى رنيم التي كانت قد استعادت أنفاسها.

- غصبًا عني، أقسم لك. ضيفتك هي السّبب. منذ دخولها وهي لا

تنفك عن: هيثم ذهب، هيثم جاء، هيثم فعل، هيثم قال.. أشك في أنها مهتمة بتعلم أي شيء. إنها مهتمة بهيثم فقط لا غير.

قالت ذلك وهي تقلد طريقة لورا الرقيقة ذات اللكنة الفرنسية والمبالغة في الأنوثة في نطق اسمه. قرصتها ياسمين في استياء وهي تهمس من جديد:

- لا تقولي هذا. أنت تظلمينها. هيثم كان الشخص الوحيد الذي ساندها بعد إسلامها، لذلك هي ممتنة إليه. هذا كل ما في الأمر.

هزّت رنيم كتفيها في تحدٍّ وفي عينيها نظرة تقول: انتظري لتري بنفسك. بعد بضع ثوانٍ، عادت البنتان إلى الجلوس على الأريكة. قالت ياسمين مستأنفة الحديث:

- إذن أخبريني، هل قرأت في تلك الكتب؟

- في الحقيقة، لم أجد الوقت للاطّلاع عليها جميعها. فهي كبيرة الحجم.. لكنني تناقشت وهيثم في أمور شتى.

ألقت ياسمين نظرة تفقدية إلى رنيم التي بدت متماسكة هذه المرّة واكتفت بابتسامة خفيفة.

- حسن، ليس من الضروري أن تقرئيها كلها في الوقت الحالي. لكن يمكنك العودة إلى كتاب الفقه مثلاً كلما احتجت إلى معرفة حكم شرعي معيّن. فهو بتبويبه الواضح يمكّنك من الوصول إلى المعلومة بسهولة ويسر.. في مرحلة أولى، يمكنك البدء بتعلم أركان الإسلام الخمسة، وأركان الإيمان.

هتفت لورا على الفور:

- لقد علمني هيثم الصلاة.

هزّت ياسمين رأسها في استحسان:

- هذا ممتاز.. وهل وجدتِ صعوبة في المواظبة عليها؟

خفت حماس لورا وهي تقول في حرج:

- تعلمت الصّلاة بصفة نظرية، لكن التطبيق ليس سهلاً.

- لا بأس، نتعلم التطبيق معًا.

ثم وقفت وهي تضيف:

- سنبدأ بتعلم الوضوء. سأحضر إناءً وإبريق ماء ونتوضأ ثلاثتنا فقد حان موعد صلاة العصر.

ابتعدت ياسمين في حين زوت رنيم ما بين حاجبيها في انزعاج. ما علاقتي

أنا بهذا الدّرس؟ كانت تفكر في الانصراف حين بادرتها لورا في فضول:

- وأنتِ، هل تعرفين الصّلاة؟

دارت رنيم ارتباكها وهي تقول متظاهرة باللامبالاة:

- تعلمتها حين كنت صغيرة في المدرسة.. لكنني نسيت فيما بعد.

- إذن يمكن أن يكون الشخص مسلمًا دون أن يصلي؟

تلعثمت رنيم أمام نظرات لورا المتفحّصة. لم تكن الشخص المناسب ليحدّثها عن الدّين، لكنها مسلمة في نظرها، لذلك يجب أن تكون لديها كل الإجابات. قالت في ضيق:

- تعلمين! في كل دين هناك درجات من الإيمان والالتزام. مثلاً المسيحيّون، منهم من يصلي كل ليلة أمام أيقونة العذراء ويعلق صليبًا في غرفته، ومنهم من يكتفي بصلاة الأحد في الكنيسة.. ومنهم من يكتفي بإيمان في قلبه بمبادئ الدّين وقيمه.. دون أن يجعل ذلك منه مسيحيًا بدرجة أقل من الآخرين.

هزّت لورا رأسها في اهتمام:

- آها.

في تلك اللحظة، عادت ياسمين وهي تحمل الأدوات اللازمة. قالت في مرح مشجعة لورا ورنيم:

- هيا بنا يا بنات.

وقفت كلتاهما في تثاقل، وبعد أن مسحتا أصباغ وجهيهما أخذتا تتابعان حركات ياسمين وتقلدانها. بعد أن جففن أطرافهن، أحضرت ياسمين العباءات والأوشحة واستقمن في صف واحد لأداء الصلاة. حين أنهين الركعات الأربع، أمسكت لورا بكف ياسمين في سرور واضح وهتفت:

- ستخبرين هيثم أنني تعلمت الوضوء والصّلاة، أليس كذلك؟

رمقتها ياسمين في دهشة وهزت رأسها علامة الإيجاب:

- طيب، إن شئت.

وقفت لورا ونزعت عنها العباءة والوشاح وهي تتأفف من الحرّ:

- لست أدري كيف تتحملين كل هذه الأغطية في كل فصول السّنة. معذرة، أحتاج دخول الحمام.

- همست رنيم في أذن ياسمين بعد أن غابت عن أنظارهما:

- هاه؟ كيف وجدتها؟

لبثت ياسمين صامتة للحظات، ثم قالت في تسليم:

- أنت محقة. إنها متيّمة به.

ثم أضافت في شيء من التفاؤل:

- لكنها مقبلة على التعلم، وهذا شيء جيّد! وأنت أيضًا. أنا فخورة بك جدًّا. بالمناسبة، الحجاب جميل عليك جدّا!

حدجتها رنيم في شك وهمّت بالاحتجاج، ثم ابتعدت في اتجاه المرآة لتلقي نظرة على شكلها. وقفت أمام صورتها المختلفة التي تطالعها لأوّل مرة. عيناها، شفتاها وحتى وجنتاها.. كلها كانت مختلفة. لم تتعوّد على التطلع إلى وجهها إلا وهي تضع أصباغها الصباحية، أو حين تعيد ترتيب شكلها بعد استراحة الغداء. لذلك فإنها لم تقف من قبل أمام وجهها الخالي من الألوان. ثمّ.. أين شعرها؟ تلك الخصل الساحرة التي تختزل الجمال الشرقي، كيف تكون الحسناء الآسرة بدونها؟ بحركة عصبية اقتلعت الوشاح الأسود لتطلق شعرها. كانت تتنفس من جديد.

خرجت لورا من الحمام بعد أن أعادت صبغ وجهها وترتيب خصلاتها الشقراء. أخفت ياسمين خيبتها وهي تراها تتقدّم في اتجاهها تسبقها رائحة عطرها. قالت محاولة استئناف ما كانت بصدده:

- ماذا تريدين أن نفعل الآن؟

لكنّ لورا لوّحت بكفها في اعتذار وهي تقول:

- يكفي لهذا اليوم. يجب أن أذهب الآن.

بعد أن ودّعت لورا وأغلقت الباب وراءها، التفتت بحثًا عن رنيم لكنها لم تكن هناك. لاحظت بأسف الوشاح والعباءة ملقيين على الأرض في المكان الذي كانت تقف فيه منذ حين. توقفت عيناها على باب غرفتها المغلق وتنهّدت.

obeikandl.com

-٢٣-
دوّامة الإرهاب

- تفضلي من هنا.

تبعت ياسمين خطوات الممرضة في قسم الصّحة النّفسية في وجل. لم تكن في زيارة عاديّة لمريضة عاديّة. روزلين ويليام سالتي كانت تعمل في نفس شركتها أقدمت على محاولة انتحار نجت منها بأعجوبة. وكان على ياسمين أن تدرس حالتها عن قرب. رغم حساسيّة الموقف، كانت مجبرة على اتخاذ خطوات سريعة. دورها سيكون مختلفًا عن موظفي قسم الرّعاية النفسية. فهم بصفتهم المهنيّة سيتصرّفون معها بأساليب علمية بحتة بغية استخلاص العقدة الكامنة في لاوعيها. أما هي فليست بمثل حرفيتهم وخبرتهم ولا تجيد تقنياتهم ولا حصلت على تكوين في ذلك المجال. بحثها يهمّ ظروف العمل في الشركة بالأساس وعلاقتها بتلك الفعلة التي تدلّ على أقصى حالات اليأس والانهيار. ستتعامل معها بالقليل الذي تحمله في جرابها من الأدوات، التي ظلت نظرية إلى تلك اللحظة، وتدعو الله أن يكون التوفيق حليفها.

دخلت الغرفة وراء الممرّضة، فألفت روزلين قابعة قرب النافذة وهي توليها ظهرها. كانت المرأة الخمسينية تلبس مريلة المستشفى البيضاء الخالية من الخيوط والأزرار، وشعرها القصير المكشوف يصل بالكاد إلى أسفل عنقها. فوجئت بشكل الغرفة شبه الخالية منكل شيء. كأنّ الطاقم الطبي يحرص على إبعاد كل ما قد يسمح للمريضة بالإقدام على محاولة انتحار جديدة. وذلك يشمل الأدوات الحادة والصلبة والخيوط الرقيقة والمواد الكيميائية.. فبدت الغرفة الصغيرة بمثابة علبة تجارب بيضاء ناصعة.

- لديك نصف ساعة.

قالت الممرضة ذلك وهي تستدير مغادرة لتتركهما على انفراد. بعد برهة من الصّمت، اقتربت ياسمين من مكان روزلين وجلست على الطرف الآخر من المقعد العريض وهي تقول مبتسمة:

- كيف حالك الآن؟

التفتت روزلين ببطء لتنظر إليها شزرًا، ثم أشاحت بوجهها من جديد بحركة نافرة. ازدردت ياسمين ريقها بصعوبة وقد أيقنت بأنّ مهمتها ستكون أصعب مما تصوّرت. لم تكن تعوّل على تعاون تلقائيّ، لكنّها درست أساليب اكتساب الثقة ومدّ جسور التّواصل مع المريضة من خلال الحوار الهادئ والمتفهّم. قالت من جديد محاولة الحفاظ على هدوئها:

أعلم أن وجودي قد يضايقك.. لكنني هنا لمساعدتك.

تكلمت روزلين فجأة بلهجة مشحونة بالسّخرية:

- هلا ساعدت نفسك أولاً؟

عقدت ياسمين حاجبيها في استغراب وقالت في تردّد:

- لم أفهم.. ماذا تقصدين؟

التفتت إليها روزلين حينها وهي تقول في حدّة:

- حين أنظر إليك أشعر بأنّ حياتي ذهبت سدى، وأن نضالات المرأة الفرنسيّة لتصبح ندًا للرجل ذهبت مع الريح. في حين أقاتل وغيري من أجل حرّية المرأة والمساواة مع الرّجل على جميع الأصعدة.. أنت ومثيلاتك تكرسن فوقيّة الرجل بقبو لكن التّوار يخلف أكوام الأقمشة، كأنك بضاعة يخشى عليها من الغبار.

امتقع وجه ياسمين أمام هجوم المرأة الشرس. يبدو أنها ستفرغ شحنة الغضب والاستياء من كل العالم في وجهها. فليكن. أخذت نفسًا قبل أن تقول مستجمعة قوّتها:

-يا سيدتي، لكل فريق نضالاته. فإن كنتِ أنت قد ناضلت من أجل حرية المرأة في التعرّي من ثيابها، فأنا أناضل اليوم أيضًا من أجل حريتي في ارتداء ما أشاء. لماذا تقولين بأنّني أخضع لسلطة الرجل حين أختار هذا اللباس؟ لماذا لا يكون خيارًا شخصيًا نابعًا من إيمان لا دخل لبشر فيه؟

هزت روزلين رأسها في عدم اقتناع وهي تقول في ثقة:

-لا أصدق أن شخصًا عاقلاً يختار السجن ويترك الحرية. وأنت يا صغيرتي سجينة العادات والتقاليد التي أصبحت جزءًا منك حتى لم تعودي ترين تأثيرها عليك. ذلك المجتمع الرّجالي الذي نشأت فيه زرع فيك الخوف والقناعة بالوضع، في حين أن هناك على الضفة الأخرى حياة أفضل.

قاطعتها ياسمين بغتة:

-وما الذي جعلك تقرّرين التنازل عن هذه الحياة الأفضل؟

ارتبكت روزلين وظهر على وجهها الوجوم، ثمّ قالت وقد عادت إلى انغلاقها:

- حتى الحياة الأفضل فيها الكثير من الاعوجاج الذي يجب أن يقوّم بالوسائل القصوى.

رمقتها ياسمين لبرهة وابتسمت في أسف. كانت المرأة ترى انتحارها ضربًا من البطولة. كمن يضحي بنفسه ليعرف الآخرون مستبقلاً منيرًا من بعده. احتجاج يتخذ الموت وسيلة. سألتها في حزم:

- وأين ذهبت المبادئ التي ناضلت من أجلها؟ ألم تكن هناك لتساعدك على تجاوز الأزمة؟

حدجتها المرأة بنظرة صارمة وهي تتمتم:

- أنت تسخرين مني؟

لكن ياسمين هتفت في صدق:

- أنا لا أسخر منك أبدًا. لكنني أريد أن أوضّح إليك المقاربة. أنا أناضل من أجل حرّيتي في اختيار لباسي، لأنني أؤمن بالله الذي أمرني بالحجاب. حين تضيق بي الدنيا وتشتد عليّ الضغوطات، ألجأ إلى الله فأبثّ إليه حزني وأستمدّ من ديني الطاقة التي تدفعني إلى الأمام. في المقابل، أنت تناضلين من أجل الحريّة المطلقة والنّقية من كل قيود. سنسمّيها «عقيدة الحرية». وحين وجدت نفسك في ظروف قاسية لماذا لم تعودي إلى تلك المبادئ التي تعيشين من أجلها لتستمدي منها الشجاعة على مواصلة الطريق؟ لماذا اخترت الانتهاء من الحياة، مع أنه قرار لا رجعة فيه ولا يترك المجال لفرصة جديدة؟ أليست لديك ثقة كافية في معتقدك؟

ران الصمت للحظات دون أن تعلق روزلين. فأردفت ياسمين في هدوء وهي ترفع يديها ككفتي ميزان:

- من منا الخاسر في النهاية: أنا بإيماني بدين فيه حقوق وواجبات، يعطيني من الاطمئنان بقدر ما أبذل من الطاعة؟ أم أنت بإيمانك بعقيدة الحرية تلك، ومع أول اختبار عسير في الحياة تنهار ثقتك في كل مبادئك السّامية وتختارين القطع النهائي؟

وقفت روزلين في عصبية وصرخت فجأة وبشكل غير متوقع:

- إرهابيّـة.. اخرجـي مـن هنـا أيّتهـا الإرهابيّـة.. أخرجـوا الإرهابيّـة مـن هنـا. النجـدة!

عـلى وقـع صراخهـا جـاءت الممرّضـة عـلى عجـل. أمسـكت بـذراع روزلـين لتبعدهـا عـن ياسـمين ثـمّ هتفـت بلهجـة آمـرة:

- يكفي لهذا اليوم. يجب أن تستريح المريضة الآن.

وقفـت ياسـمين في صدمـة وغـادرت المـكان في ذهـول تـام. كان النّقـاش يسـير بشـكل جيّـد حـتّى ذلـك الحـين، فمـا الـذي دهـا المـرأة حـتى تنعتهـا بالإرهابيّـة عـلى حـين غـرّة؟

*****

لـم تسـتطع أن تمحـو مـن مخيلتهـا تفاصيـل الحـوار الـذي دار بينهـا وبـين روزلـين ذلـك الصّبـاح. كانـت مشـغولة البـال طـوال النهـار حـتى وهـي تجلـس مـع جـولي ومارينـا وزميـلات أخريـات في وقـت الاسـتراحة. الإرهـاب. أصبحـت كلمـة متكـرّرة تطـرق مسـامعها في أوقـات مختلفـة مـن الليـل والنّهـار. قضيّـة شركـة الكيميائيّـات كانـت تشـغل الـرّأي العـامّ وتحتـلّ الصّـدارة في نـشرات الأخبـار والبرامـج الاجتماعيّـة. يحتـلّ المنابـر «خـبراء في مسـائل الشرق الأوسـط» و«مفكّـرون مسـتشرقون» يقدّمـون رؤيـة ضيّقـة عـن المجتمـع المسـلم ويدّعـون الإلمـام بحـالات مشـابهة لحالـة «الإرهـابيّ الأصـولي المنـدسّ» متحدّثـين عـن الدكتـور عمـر الرّشـيدي.

في ذلـك الأسـبوع، خرجـت «ماريـن لوبـان»، عضـو البرلمـان الأوروبي والقيادية الشـابة في حـزب «الجبهـة الوطنيـة» اليمـيني المتطـرّف، وابنـة مؤسّسـه ورئيسـه «جـان مـاري لوبـان»، خرجـت في حشـود مـن مؤيديهـا وأنصارهـا لتعلـن «حربهـا عـلى الإرهـاب». لـم يكـن عليهـا أن تبـذل مجهـوداً جبّـارًا في صياغـة خطابهـا، فقـد كان «جـورج بـوش» الابـن قـد اضطلـع بالمهمّـة في السّـنوات الأخـيرة بوضعـه أبجديّـات معجـم «الحـرب عـلى الإرهـاب»، وصـار مـن اليسـير عـلى مـن يرغـب في تبـنّي التّوجّـه نفسـه استيراد الخطـاب الأمريـكي وترجمتـه إلى لغـة أهـل البـلاد وتطبيقـه عـلى واقعهـا.

لـم تكـن المبـادرة مفاجئـة، فقـد عرفـتماريـن وحزبهـا منـذ زمـن بآرائهـا السياسـيّة المتشـدّدة تجـاه الهجـرة الإفريقيّـة والمغاربيّـة، الـتي تؤمـن بخطرهـا عـلى الاقتصـاد ومبـدأ اللائكيـة، وخصوصًـا تهديديهـا للأمـن العـام. ويبـدو أنّ حادثـة شركـة الكيميائيـات جـاءت لتؤكّـد مخاوفهـا وتعـزّز موقفهـا، فخرجـت باقـتراح جديـد يدعـو إلى فتـح حـوار عـام عـن «الهويّـة الوطنيّـة» سرعـان مـا لقـي ترحابًـا عامًّـا في الأوسـاط الثقافيـة والسياسـيّة.

تعالـت الأصـوات مـن كلّ اتّجـاه تطـرح أسـئلة «وجوديّـة» مؤرقـة: هـل يعتـبر الفرنـسيّ المسـلم «فرنسـيًّا» حقًّـا، أم أنّ اعتناقـه لديـن يحتضـن الإرهـاب يتعـارض مـع فرنسـيّته؟! هـل يمكـن لفـرد مـن الأفـراد أن يجمـع بـين الجنسـيّة الفرنسـيّة المكتسـبة والأصـل العـربيّ، أم أنّ الظـروف الحاليّـة تقتـضي تخيـيره بـين الجنسـيتين ليحـدّد في أيّ جهـة يقـف؟ وسـحب الجنسـيّة الفرنسـيّة منـه بالقانـون في صـورة ثبـت تعاطفـه مـع الإرهابيّـين؟!

سرى الغليـان في الشـوارع كمـا تـسري النـار في الهشـيم، واعتـبر شـباب الجيـل الثـاني والثالـث للهجـرة أنفسـهم مسـتهدفين. وفي إحـدى الليـالي، هاجمـت مجموعـات ملثمـة مقـرّات حـزب الجبهـة الوطنيـة بالهـراوات والعـصيّ. حطّمـوا ونهبـوا كلمـا تطالـه أيديهـم، وأضرمـوا النـار في المبـاني الخاليـة. ولـم يتوقـف الأمـر عنـد ذلـك الحـدّ، بـل امتـدّ التخريـب ليطـال وسـائل النقـل العمومـيّ وسـيّارات الشرطـة والمبـاني الحكوميّـة، بالإضافـة إلى دور عبـادة يهوديّـة لـم يـدر أحـد مـدى علاقتهـا بموضـوع الخـلاف. خـلال أسـبوع واحـد، كانـت حمّـى العنـف قـد أصابـت مئـات الشـباب الفرنـسيّ مـن أصـول عربيّـة، في ضواحـي باريـس أولاً ثـم في بـاقي الولايـات الفرنسـيّة، وتسـبّبت في حـرق آلاف السـيّارات وتدمـير عـشرات المبـاني باسـتعمال قنابـل «المولوتـوف» يدويّـة الصنـع. وأعلنـت وسـائل الإعـلام أنّ أعمـال الشـغب تلـك كانـت الأوسـع نطاقًـا والأقـوى وتـيرة في تاريـخ فرنسـا الحديـث، منـذ أحـداث مايـو ١٩٦٨.*

في تلـك الفـترة، لـم يكـن غريبًـا أن تنطلـق صفـارات الإنـذار في أيّ وقـت مـن أوقـات النهـار أو الليـل في محطـات قطـار الأنفـاق، ليتـمّ إخـلاء القطـار

---

*أحـداث مايـو ١٩٦٨ عرفـت بانتفاضـة شـباب الجامعـات وتمثلـت في حركـة اجتماعيّـة شـاملة ضـدّ الرأسـمالية والإمبرياليّـة.

والمحطّة وتعطيل حركة السّير لساعات طويلة بسبب التبليغ عن «طرد مهجور» في إحدى العربات. كان الهلع الذي أصاب الفرنسيّين يجعلهم يتشكّكون من أيّ شيء ومن كلّ شيء، ويتخيّلون أنفسهم مهدّدين بخطر إرهابي محدق لا شك سيفتك بهم قريبًا. وصدرت أيضًا جملة من البيانات العشوائيّة تتبنّى تفجير شركة الكيميائيات الإرهابيّ تحت تواقيع مختلفة، لكن سرعان ما كانت السّلطات تكتشف بعد تحقيق بسيط سلامة الطرود المهجورة، وسخافة البيانات التي غالبًا ما كانت نتاج دعابة ما من شباب عابث يسخر من الوضع كلّه ويتناول الأزمة الأمنيّة الحادّة التي تحيق بالبلاد بلامبالاة تامّة.

تعلم ياسمين أنّ الفتيات يتجنّبن إيذاءها بحديث مباشر قد يجرحها، لكنّ الدّاء تفشّى واستفحل وأصبح الموضوع الرّئيسيّ لكلّ مجلس. تفاجأ بنظرات حذرة من حين إلى آخر حين تقطع ممرًّا أو تتوقّف عند مكتب، وتلتقط كلمات مبعثرة في غفلة من أصحابها.

«لم تعد فرنسا بلدًا آمنًا. التهديد بالإرهاب يثير الرّعب في قلوب المواطنين الذين صاروا يخشون على حياتهم من تفجيرات إرهابية قد تطرأ في أيّ حين».

«إنّ وجود إرهابيّين يتجوّلون أحرارًا على الأراضي الفرنسيّة يثير القلق والفزع في الشارع ويقوّض الإحساس بالأمن، ويدفع إلى ثورة شعبيّة ضدّ قوات الأمن والحكومة القائمة التي لم تفعل شيئًا حتّى الآن لإعادة الاستقرار وتفكيك الخلايا الإرهابيّة».

«إنّهم بيننا. يروننا ولا نراهم. الإرهابيّون يتوغّلون في مجتمعنا ويندمجون فيه ويحاصروننا من الدّاخل. لم يعد بالإمكان تمييز الإرهابي بكونه شابًّا عاطلاً ومنحرفًا من أصول مغاربيّة. حيث إنّ التجربة قد أثبتت أنّه قد يكون حاصلاً على شهادات علميّة مرموقة وإطارًا في شركة معروفة».

«أوقفوا الإرهاب. أوقفوا مدّ الهجرة المغاربيّة والإفريقية. نظّفوا مجتمعنا من الحثالة المسمومة».

العناوين التي تملأ وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، والتصريحات التي ترد على ألسنة مسؤولين حزبيين وممثلين لجمعيّات المجتمع المدنيّ، كانت كلّها تصبّ في اتّجاه واحد. الخطر الإرهابيّ المحقّق وارتباطه الوثيق بالمهاجرين العرب والأفارقة. رغم أنّ قضيّة تفجير شركة الكيميائيات كانت

ماتـزال في المحكمـة ولـم يتـمّ البـتّ فيهـا بعـد، إلاّ أنّ الشّـائعات الخبيثـة انتشرت ووجـدت لهـا صـدى في نفـوس متربّصـة متوثّبـة واتـت الأحـداث حاجـة في أعماقهـا، وأصبحـت إدانـة الدكتـور عمـر في نظـر المجتمـع تحصيـل حاصـل ومسـألة وقـت لا غـير.

ضاقـت ذرعًـا بنـشرات الأخبـار وكرهـت البرامـج السياسـيّة. تشـفق كثـيرًا عـلى رنيـم الـتي تبقـى يوميًّـا وباسـتمرار في قلـب المعمعـة. تتحمّـل كلمـات زميلتهـا فيفيـان اللاذعـة ومحـاصرة وسـائل الإعـلام مـن كلّ جانـب، تخـوض حربهـا وحيـدة مـن أجـل بـراءة موكّلهـا، وتحـرص عـلى عـدم وصـول أصـداء الـرأي العـامّ الفرنـسيّ بخصـوص قضيّتـه إليـه في عزلتـه المفروضـة. لكـن هـي، ياسمين، كانـت تعتقـد طيلـة الوقـت بـأنّ الضّبـاب سينقشـع قريبًـا حـين يظهـر الحـقّ وتفنّـد التّهـم. لـم تكـن تتوقّـع أن يتنـاثـر الـشرر في كلّ اتّجـاه ليصيـب أبريـاء لا تشـوب سـيرتهم شـائبة. كشـخص مسـالم وقليـل الاحتـكاك بالآخريـن، لـم تتخيّـل أن يصلهـا الفيـض ويطالهـا شـخصيًّا فينعتهـا أحـد مـا، يومًـا، بالإرهابيّـة! لـم يكـن ذلـك الموقـف الرهيـب الـذي عاشـته ذلـك الصّبـاح لـيراود أكـثر أحلامهـا جموحًـا وإمعانًـا في الفانتازيـا!

خرجـت مـن أفكارهـا حـين شـعرت باهـتزاز في حقيبتهـا. سـارعت إلى إخـراج هاتفهـا الـذي كان عـلى الوضـع الصّامـت ثـم اتسـعت عيناهـا بقـوّة. وقفـت معتـذرة مـن زميلاتهـا عـلى الفـور وغـادرت المـكان دون انتظـار. لـم يكـن بإمكانهـا أن تضيّـع تلـك المكالمـة

- أبي، هذا أنت؟

جاءها صوته بعيدًا ومشوّشًا:

- ما الأمر يا ياسمين؟ أقلقتني عليك.

كانـت تتصـل بـه كل يـوم في اسـتراحة الظهـر وفي المسـاء عـلى أمـل أن يـردّ عليهـا. لكـنّ هاتفـه كان مغلقًـا معظـم الأحيـان. قالـت في عتـاب:

- كان من الصعب الحديث إليك في الأيام الأخيرة.

اضطـررت إلى إغـلاق الهاتـف. هنـاك رقـم غريـب يتصـل بي عـشرات المـرّات في اليـوم الواحـد ويقاطعـني في الاجتماعـات والمحـاضرات وفي كل وقـت.

- آه، أنت بخير إذن.

- ياسمين، ما الأمر؟

تـردّدت لبعـض الوقـت. كانـت قـد وعـدت باتريـك بـألا تخـبر والدهـا عـن زيارتـه لإيلـين، لكـنّ فضولهـا لمعرفـة طبيعـة الخـلاف بينهمـا غلـب. قالـت مصطنعـة الهـدوء:

- أبي، هل تعرف شخصًا اسمه.. باتريك كلود؟

مرّت لحظات من الصّمت المتوتر قبل أن يسألها كمال في جفاف:

- كيف عرفت باتريك؟

- إنّه.. إنّه زميل لي في الشركة.. وقد قال إنّه يعرفك!

صمت للحظات ثمّ سألها في ارتياب:

- هل ضايقك بشكل ما؟

سألته بدورها في حذر:

- لماذا تتوقع أن يضايقني؟

- بالطبـع، لا بـدّ أنّـه قـد فعـل. لا تقلقـي سـأتصرّف. ربمـا سـتتأخر عـودتي إلى المـنزل، لكنـني سـأتصرّف حتمًـا.. يجـب أن أذهـب الآن.

حاولـت اسـتيقافه، لكنّـه كان قـد أنهـى الاتصـال. اتصلـت بـه مجـدّدًا لكـن الهاتـف عـاد مغلقًـا! تنهـدت في أسى. مـاذا عنهـا هـي؟ كيـف سـتتصرّف مـع باتريـك هـذا في الشركـة؟ كانـت تسـير في سرحـان تقلّـب كلمـات والدهـا وقـد أعياهـا التفكـير، حـين اصطدمـت عيناهـا بالرجـل الواقـف في ركـن الاسـتراحة يحتـسي قهوتـه في هـدوء. اسـتدارت عـلى الفـور لترجـع مـن حيـث أتـت، لكـن بعـد فـوات الأوان. كان باتريـك قـد لمحهـا.

- ياسمين.

تسـمّرت في مكانهـا حـين وصلهـا صوتـه، واسـتدارت ببـطء لتواجهـه وهـي تضغـط عـلى أصابعهـا في توتـر. منـذ تلـك الحادثـة لـم تلتقـه أبـدًا وجهًـا لوجـه. لذلـك تأخّـرت المواجهـة. لا تـدري إن كان مـن حسـن حظهـا أم مـن سـوئه أن الفتيـات كـنّ قـد تفرّقـن وعـادت كل منهـنّ إلى مكتبهـا.

- لا داعي لأن تفرّي كالمصعوقة كلما رأيتني.

رفعـت عينيهـا إليـه وقـد أدهشـتها كلماتـه. قبـل أن تعلـق كان هـو يضيـف في هـدوء:

- لقد نسيت ما حصل تلك اللّيلة.. يمكنك أن تنسيه أيضًا.

همست في توتر:

- طيّب.

ثم استدارت وهمّت بالمغادرة، لكنّه أردف بسرعة:

- إن كنت تريدين للمشكلات أن تنتهي، اطلبي من والدك أن يطلّق إيلين.

التفتت إليه بقوة وقد صدمها طلبه. فتابع بنفس البرود القاتل:

- أعدك أنني لن أضايقك بعد الآن. سأهتمّ أيضًا بريّان وسارة، فهما مهمّان جدًا بالنسبة إليّ. إيلين يجب أن تخرج من سجن والدك وتأتي للعيش معي في باريس. يكفيها ما عانته طوال السنين الماضية.

لم تتكلم ياسمين. كانت نظراته مخيفة رغم الهدوء الظاهر. تابع دون أن يهتمّ بصمتها:

- يمكنك زيارة أخويك وقتما تشائين. أما كمال أو سامي أو أيًّا كان، فلن يلوم إلا نفسه إن اقترب من عائلتي مجدّدًا.

كانت لهجته قد احتدّت وهو ينطق الجملة الأخيرة. وجاءت كلمة «عائلتي» نشازًا في أذني ياسمين. عائلته؟ ريّان وسارة عائلته؟ همّت بالاعتراض والاستنكار. ليس من حقه أن يوجّه حياة غيره. والدها وإيلين شخصان راشدان ويمكنهما أن يحلا مشكلاتهما دون تدخل خارجي. لماذا يصرّ على بعثرة العائلة والعبث باستقرارها؟ بسبب قصّة من الماضي لا تعلم تفاصيلها؟ أيًّا كانت أسبابه فلا ذنب لأخويها حتّى يشرّدهما بين أبوين منفصلين. لكن أيًّا من تلك الكلمات لم تتجاوز شفتيها. حبست استنكارها داخلها. أخذت نفسًا عميقًا ثم استدارت لتبتعد باتجاه مكتبها. ربّما لم يكن تدخلها إلا ليزيد الأمور سوءًا.

Op e l k a n a . c o m

obeikandl.com

-٢٤-
الشاهد

- اسمك؟ سنك؟ ومهنتك؟

- غوستاف بلامر، خمس وخمسون سنة.. حارس شركة الكيميائيات في ليون.

أين كنت وقت الحادثة؟

ردّ الرّجل بسرعة وبثبات من تدرّب على سرد الحكاية مرّات ومرّات:

- كنت أقوم بجولة على المكاتب في الطابق الثالث من المبنى الشرقيّ، حين سمعت انفجارًا قويًّا بدا لي أنه قادم من المبنى الشمالي. قوّة الارتجاج جعلتني أسقط على الأرض، واللوحات وقطع الأثاث التي في الممرّ كانت تتهاوى، وزجاج النوافذ كان يتفجر في كل المبنى.

- قبل الانفجار، هل لفت انتباهك شيء ما؟

- نعم سيدي. حين مررت على مكاتب قسم الأبحاث كان الدكتور عمر الرشيدي ما يزال في المختبر. وبعد بضعة دقائق حين كنت في الطابق الثالث من نفس المبنى، سمعته يصرخ «الله أكبر»، بعد ذلك حصل الانفجار.

- هل كان هناك شخص آخر في المبنى آنذاك؟

- نعم يا سيدي. مجموعة باحثين شبان يحتفلون بترقية أحدهم. كلهم كانوا ضحايا الانفجار.

- شكرًا لك. ليست لديّ أسئلة أخرى.

ابتعد النائب العام في اتجاه المنصّة، في حين وقفت رنيم بدورها لتطرح أسئلتها:

- سيد غوستاف، هل تعرف الدكتور الرشيدي بشكل جيّد؟

ارتبك الرجل وهو يقول بعد تردّد:

- ليس بشكل مقرّب.. فكوني حارسًا ليليًا لا يسمح لي بلقاء الموظفين كثيرًا.

- هل تعتقد إذن أنّه بإمكانك تمييز صوته القادم من الطابق الرابع والجزم بأنه هو من كان يصرخ؟

احتج الرّجل في اضطراب:

- لكنني واثق من أنه هو.. إنّه العربيّ الوحيد في القسم، وقد رأيته في المختبر ذلك المساء.

قاطعته رنيم في تأكيد:

- إذن تصريحك بأن الصّوت كان صوت موكلي نابع «فقط» من كونه العربيّ الوحيد في القسم، ولكونك تعتقد بأنّه كان موجودًا في المبنى آنذاك، وليس لتعرّفك على صوته مثلاً؟

- والمتّهم اعترف أيضًا بكونه صرخ في ذلك التوقيت.

- سيّدي، أسئلتي تتعلّق بشهادتك أنت. بما رأيته وسمعته، وليس باعترافات المتّهم.

ابتسمت رنيم وهي تطلق سؤالها الموالي:

- فلنفترض أنّ هناك شخصًا آخر كان موجودًا في الطابق الثاني أو الخامس أو في أيّ طابق آخر غير الطابق الرابع حين مررت على المختبر.. فلنفترض أن هذا الشخص انتظر نزولك إلى الطابق الثالث ليذهب إلى المختبر، فهل من الممكن أن يصل إلى هناك دون أن تراه أو تنتبه إليه؟

• لا يمكنه الوصول إلى الطابق الرابع إلا باستعمال المصعد أو السلالم في مدخل كل طابق. أعتقد أنّني كنت لألمح تحرّك المصعد وإشارته الضوئية، أو أسمع وقع الخطوات على السلم.

- ماذا لو كنت داخل أحد المكاتب حينها، وكان الشخص المعنيّ يتعمّد إخفاء وقع خطواته؟

فكر الرجل للحظات ثم قال في تسليم:

- ربّما.. ربّما كان بإمكانه المرور دون أن أنتبه.

التفتت رنيم إلى المحلفين لتلمح تأثير الكلمات على وجوههم الواجمة، ثم قالت مغيّرة الموضوع:

- حسن، بعد ذلك سمعت الانفجار. كم مضى من الوقت بعد أن سمعت الصرخة وحتى وقع الانفجار؟

- ربما دقيقتان أو ثلاث.

- أنت متأكد؟

فكر الحارس محاولاً استعادة ترتيب الأحداث:

- حين سمعت الصرخة كنت في المبنى الشمالي حيث المختبر.. وحين حصل الانفجار كنت بالكاد قد وصلت إلى المبنى الشرقي. إن كنت قد توقفت لعشرين ثانية في كل مكتب ومررت على نحو ثمانية مكاتب.. ثم قضيت دقيقة واحدة في السلم.. ربّما تكون أربع دقائق.

سألته رنيم فجأة:

- برأيك، ما الذي يجعل إرهابيًّا يُقدِم على عمليّة انتحاريّة يتأخر لأربع دقائق تفصل بين «الإعلان» و «التنفيذ»؟

قاطعها النائب العام في احتجاج:

- أعترض سيدي الرئيس. الشاهد ليس مطالبًا بالإجابة عن هذه الأسئلة.

استدارت رنيم في حدّة لتواجهه وقالت:

- الأسئلة موجهة إلينا جميعًا وليست للشاهد فقط. والسؤال الأهمّ هو: ما هو السّبب وراء التفجير الذي حصل؟ ألا تلحظ معي غياب دافع واضح ودامغ؟ لماذا لا نسلّم بأنّ الأمر كان مجرّد حادث أليم، موكّلي كان من أكثر المتضرّرين منه؟

كانت تنتظر امتقاعًا على وجه النائب العام وتلعثمًا على لسانه، لكنها اصطدمت بابتسامة واسعة وهو يقول في لهجة غامضة:

- لا تستعجلي الأمر يا آنستي. فالدّافع سيظهر اليوم حين نستكمل الاستماع إلى الشهود.

ضرب القاضي على الطاولة بمطرقته ليوقف النزاع الكلامي:

- هل من أسئلة إضافيّة للشاهد؟

قالت رنيم في ارتباك وقد سرحت نظراتها في تفكير:

- لا سيدي الرئيس.

عادت لتجلس في مكانها وهي لا تتوقف عن تقليب كلمات النائب العام في رأسها. أخذت تعيد قراءة قائمة الشهود. لم يكن هناك إلا عدد من موظفي الشركة. هل في جعبة أحدهم كلام لم يدل به من قبل؟ كانت تظنّ الحارس شاهد الإدانة الوحيد. لكنّ كلام النائب العام أربكها. كانت ما تزال غارقة في تفكيرها حين اقترب منها عمر وهمس بلهجة واثقة:

- ليس هناك ما يدعو للقلق. لأنّني لم أفعل شيئًا.

رفعت رأسها ونظرت في عينيه بقوّة ثم ابتسمت:

- أنت محق، لا داعي للقلق. النائب العام يتعمّد إرباكي حتى لا أركز في استجواب بقيّة الشهود.

هز عمر رأسه موافقًا وهو يبتسم بدوره. كان يضع ثقته الكاملة فيها، فما أبدته إلى حد الآن من استماتة في الدفاع عنه يجعله يؤمن بأنّه لم يخطئ حين ترك مصيره بين يديها. أمّا هي فقد كانت تلك القضية تترك في نفسها آثارًا لم تحسب لها حسابًا حين قبلتها. آثار لم تتفطن هي بعد إلى وجودها.

- الشاهد الموالي.

تتالى توافد الشهود من موظفي الشركة التي كانت شهادتهم تتلخص في الحديث عن سيرة عمر وطبعه المتحفظ مع زملائه. كان عدد قليل منهم يذكر بعض المواقف التي جمعته به في حين اكتفى البعض الآخر بوصفه بالانطوائي. لحسن الحظ كانت هناك بعض الشهادات المنصفة من وليد الذي يعمل في قسم المحاسبات، وخصوصًا من عاملات التنظيف اللواتي أشدن بمعاملته اللطيفة التي تركت أثرًا طيبًا في نفوسهن، مقابل الجفاء الذي يلمسنه من بقية الإطارات في الشركة. كانت قد مضت ساعات على بداية الجلسة وبدأ عمر يشعر بالتعب. همس إلى رنيم التي كانت قد أنهت استجواب أحد الشهود وأخذت تقلب أوراقها في تركيز:

- أنا مرهق.. إلى متى ستستمرّ الجلسة؟

همست رنيم بدورها مهوّنة:

- لم يعد هناك سوى شاهد واحد لليوم. لم يبق الكثير.

مع تقدّم الاستجوابات كانت ثقتها بدفاعها تزداد. لم تر أثرًا لتهديدات النائب العام ذلك الصباح، ومع اقتراب نهاية الجلسة لم يبق لقلق الصّباح مكان.

- الشاهد الموالي.

فجأة تقدّم الحاجب وطلب من الحاضرين من صحفيين وإعلاميين وغيرهم مغادرة القاعة. نهض الحضور وأخذوا يتقدّمون نحو المخرج في جلبة، وكلّهم يتساءل عن سبب ذلك الإجلاء غير المتوقع. تلفت عمر حوله في استغراب وهمس إلى رنيم:

-ما الذي يحصل؟

وقفت على الفور واتّجهت إلى منصّة القاضي. غابت للحظات قصيرة ثم عادت لتجلس في مكانها وقد امتقع وجهها. رنا إليها عمر في قلق وقد تسرّب إليه توترها وانتظر أن تخبره بما عندها. لكنها ابتسمت مدارية اضطرابها وهي تقول محاولة طمأنته:

- الشاهد طلب التّمتّع بنظام حماية الشهود. لا يريد لغير الأطراف المعنية الاستماع إلى تصريحاته، لذلك طلب القاضي إخلاء القاعة.

سألها عمر في قلق:

- هل هي تصريحات جديدة لم يدل بها في التحقيق؟

هزّت رنيم رأسها علامة الإيجاب وتمتمت بوجه متجهم:

- يبدو ذلك.

لم تكن علامة طيّبة. كونها لا تعرف شيئًا عن محتوى الشهادة المقبلة، يعني أنها لم تحضّر دفاعها، وقد تكون هناك مفاجآت لم تحسب حسابها. لكنّ أكثر ما يقلقها هو طلب الشاهد الحماية من المحكمة. ذلك يعني أن في جعبته كلامًا بالغ الخطورة، وسيدهشها حقًّا أن يكون ذلك في مصلحة عمر.

أمام أعين المحلفين والنائب العام والقضاة، تقدّم البروفيسور كريستوف نوارو إلى منصّة الشهادة. جلس في المكان المخصّص له ثم رفع رأسه ليرمق عمر بنظرة غريبة. أدلى ببياناته الشخصية وأدى القسم بأن يقول «كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة»، ثم انتظر أن يبدأ النائب العام الاستجواب. وقف هذا الأخير وفي طريقه إلى وسط القاعة توقف لثانية واحدة قرب رنيم، وهمس وعلى شفتيه ابتسامة صفراء:

- استعدي للبكاء يا صغيرتي!

عقدت رنيم حاجبيها في قلق والتفتت إلى عمر في تساؤل. ما الذي يخفيه هذا الشاهد؟ لكنّ عمر الذي وصلته كلمات النائب العام مال عليها وهو يقول في استغراب:

- إنه البروفيسور كريستوف، كان معي في قسم الأبحاث بالشركة.. لا أظنّه كان على عين المكان يوم الحادثة، ولا أفهم سبب السّرّيّة التي يحيط بها شهادته.

في تلك الآونة قفزت إلى رأسه كلمات وليد عن تحالف صامويل وكريستوف

ضدّه واهتمامهما بأبحاثه.. ثم زيارة كريستوف لمكتبه قبل الحادثة بأيام قليلة. لم يكن ذلك ينبئ بخير أبدًا.

- بروفيسور نوارو، أنت تعمل في الشركة منذ سنوات، فماهو مدى معرفتك بالمتّهم؟

اكتست ملامح كريستوف جدية بالغة وهو يقول:

- الدكتور الرشيدي -إن صح إطلاق لقب الدكتور عليه- بدا لي ذا سلوك مريب منذ البداية. ابتعاده عن الاختلاط بالزملاء والسرّيّة التّامّة التي يحيط بها تجاربه، كلها أثارت شكوكي ناحيته.. وقد تأكد لي الأمر لاحقًا حين عرفت بحقيقة نواياه.

تشنجت قبضة عمر وهو يشدّ على ذراع الكرسيّ المتحرّك بقوة، في حين شحب وجه رنيم التي تتابع المشهد في صمت. واصل النائب العام استجوابه وهو ينظر بطرف عينه في اتجاه منصّة المحلفين:

- وماهي هذه النّوايا التي تقصدها؟

المتّهم لم يكن يعمل على أيّ تجارب علمية أو غيرها، بل كان يحضّر طوال العام الماضي للتفجير الذي أقدم عليه لمسح الشركة، وخصوصًا قسم الأبحاث، من الوجود.

ارتفع صوت عمر صارخًا:

- هذا كذب! محض افتراء!

ضرب القاضي الطاولة بمطرقته ليقطع احتجاج عمر، في حين استأنف النائب العام الذي كان يعيش نشوة الانتصار في تلك اللحظات:

-وماهي برأيك أسباب حقده على الشركة إلى هذه الدّرجة؟

ليس حقدًا يا سيدي، بل طمعًا. بشكل من الأشكال وصلت إلى المتّهم وشركائه الإرهابيّين معلومات عن مولّد الطاقة النظيفة الجديد الذي أعمل وشريكي الدكتور صامويل بلير الباحث الشاب -رحمه الله- على إنجازه. عمل على الانضمام إلى الشركة وانتظر حتّى اكتمل المشروع بدراسته الاقتصاديّة والتقنيّة ثمّ خطط لسرقة الملف الأصليّ، وتفجير المختبر حتّى تختفي كل آثار البحث، ما عدا تلك التي يحتفظ بها.. وبالطبع تصفية الباحث الرّئيسي في المشروع، الدكتور صامويل.

أخفى عمر وجهه بين كفيه وهو لا يصدّق ما يسمع. كيف وصلت به

الدّناءة إلى صياغة ذلك الاتهام الشنيع؟ فضلاً عن نسبة البحث إلى نفسه، يتّهمه بالتخطيط ضدّ الشركة!

- أخبرنا كيف اكتشفت ذلك يا سيدي؟

- قبل أسبوع من الحادثة، كنت قد أنهيت تحضير الملف وقمت بطبع نسختين منه. نسخة لأعرضها على شريكي الدكتور بلير وأخرى أردت أن أحملها إلى البروفيسور دانيال بروكس مدير القسم. في ذلك اليوم اتصلت بي زوجتي من المستشفى. كانت قد تعرّضت إلى وعكة صحيّة استوجبت نقلها إلى الإسعاف. خرجت من المكتب بسرعة ونسيت أن أغلق مكتبي، لأكتشف صباح الغد أن النسختين قد اختفتا من درج المكتب حيث تركتهما، إضافة إلى أضرار بالغة بجهازي باستعمال أداة حادّة، يبدو أنها سُبقت بمحاولة فاشلة لفك كلمة السّرّ الخاصّة بالجهاز.

- ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- الشاشة سيدي، كانت تُظهر أنّ أحدهم قد أدخل كلمة سرّ خاطئة مرات عدّة،ما أدى إلى حظر الدخول إلى الجهاز بصفة مؤقتة. مع اختفاء النّسخ الورقيّة أيقنت أن عملية سرقة قد حصلت وأنّ السّارق أراد الاستيلاء على النّسخة الإلكترونية أيضًا. ولمّا لم يتمكن من فك كلمة السّر قام بمحاولة تكسير الجهاز حتى يستحيل فتحه من جديد.

- لماذا لم تخبر رئيس القسم حينها أو تقدّم شكوى بالسّرقة الواقعة؟

- لم يكن لديّ أيّ حجّة ملموسة. كان عليّ أن أتأكد بنفسي ممّا حصل قبل التبليغ عن السّرقة. العمليّة صارت ليلاً، وكان من المعروف أن عددًا قليلاً من الأشخاص من بينهم المتهم يغادرون الشركة بعد الآخرين. ولأنّ شكوكي كانت تتجه إلى المتهم منذ البداية فقد قمت بزيارته في مكتبه. لاحظت على الفور ارتباكه. لم يكن يتوقع حضوري. عرضت عليه المساعدة وتظاهرت بجهل نواياه بالكامل.. لكنّه كان يتخذ حذره ولم يرغب في إطالة الحوار. علمت في الغد من السيد بروكس أنّ المتّهم جاء لرؤيته وبرفقته ملف أبحاث جديدة يريد رأيه بها.

- لماذا لم تخبره على الفور بسرقة أبحاثك؟

- لأنّني لم أكن أملك الدّليل. مع اختفاء النسخ الورقية وتعطل الجهاز لم يكن لديّ الكثير لأفعله. اتصلت بالتقني المختصّ في الشركة لتصليح

الجهاز بسرعة.. لكن العملية أخذت منه وقتًا طويلاً نظرًا للأضرار المادّيّة الحاصلة، ولم أتمكن من تشغيل الجهاز إلا عشيّة الحادثة. حينها كان السيد بروكس قد انصرف. حاولت الاتصال به عدّة مرات على الهاتف لكنّه لم يكن يرد. لذلك تركت له رسالة صوتيّة ووطنت العزم على زيارته في مكتبه صباح اليوم التالي.

علق النائب العام وهو يواجه المحلفين ويشير بكفيه علامة الاستسلام:

- لكن الحادثة جاءت لتشغل الجميع عن قصّة الأبحاث.

هز كريستوف رأسه علامة الموافقة، فأضاف النائب العام وهو يلتفت إليه من جديد:

- ماذا عن حادثة التفجير؟ أظنك كنت من ضمن فريق الخبراء الذي قام بتحليل مكونات الشظايا؟

- نعم يا سيدي. عملت مع عدد من المختصّين على العين المكان لنكتشف سرّ الانفجار ودرجة خطورته على المحيط الطبيعي والبشريّ. بتحليل البقايا والشظايا اكتشفت وجود مكوّنات المادّة الخام التي كنت أعمل عليها، فتأكدت من أن المتهم كان قد سرق ملفاتي بالفعل. وقام بتفعيل التجربة باستعمال محرّك في مختبره. لكن تلك المادة كانت تختلط بمكونات أخرى غريبة لا شك أنها جزء من تجارب المتهم التفجيريّة التي كان يعدّها في الخفاء.

- هلا ذكرت لنا بإيجاز طبيعة البحث الذي كنت تعمل عليه بروفيسور؟

- «الاندماج البارد» سيدي. أسطورة علميّة قديمة أصبحت اليوم حقيقة تثير الأطماع.

- بروفيسور كريستوف نوارو، شكرًا لك.

حين جاء دور رنيم لاستجواب الشاهد وقفت بوجه ممتقع وهي تقول:

- سيدي الرئيس، أطلب رفع الجلسة للتشاور مع موكلي.

*****

دفعت رنيم باب مكتب النائب العام بقوّة وهتفت في عصبيّة:

- هل لي أن أفهم ما الذي حصل اليوم في المحكمة يا سيدي؟

استرخى النائب العام في مقعده ونزع نظاراته الطبية، ثم طالعها بابتسامة هادئة:

- ما الأمر أستاذة رنيمشاكر؟

أجابته بنفس الاندفاع المحتج:

- لماذا لم يصلني خبر قبل الآن بمحتوى تصريحات الشاهد الأخير؟ هل هي أساليب ملتوية لإغراق موكلي؟

حافظ الرّجل على هدوئه وهو يقول متجاهلاً تعليقها:

- هل تظنّين أن الاتهام بالإرهاب جاء من فراغ؟ القضيّة تحظى باهتمام رئيس الجمهورية نفسه، والشعب الفرنسيّ كلّه ينتظر الحكم فيها، فهل تعتقدين أنّنا اختلقنا التّهم وألصقناها بموكلك؟

تنهد وهو يضيف:

- البروفيسور كريستوف نوارو اتّصل بي بعد أيام قليلة من الحادثة وطلب الإدلاء بشهادته بسريّة تامّة. لم يكن يريد أن تتسرّب المعلومات التي سيدلي بها إلى أيّ كان، لأنّه كان يخشى على حياته من الإرهابيين الذين ما يزالون طلقاء إلى حدّ الآن. وبمثوله أمام المحكمة للشهادة تعهدنا بتوفير الحماية الكاملة له ولعائلته.

ثبّتت رنيم نظراتها في عينيه وهي تقول في ثقة:

- على أي حال، لم نتأكد بعد من صحّة تصريحاته.

اتسعت ابتسامة النائب العام وهو يقف من مكانه ويتقدّم باتجاهها. قال حين أصبحا وجهًا لوجه:

- أنت واثقة من براءته إلى هذه الدّرجة؟ حذار يا صغيرتي. لا تجعلي قلبك يؤثر على حكم عقلك.

عقدت حاجبيها في ضيق وهي تهتف في برود:

- ماذا تقصد يا سيدي؟

قال وهو يبتعد عنها من جديد:

- ما فهمتِه.

تسارعت دقات قلب رنيم وقد أصابها الارتباك فجأة. تمالكت نفسها وزمّت شفتيها لتستعيد مظهرها الصارم، في حين أضاف الرجل بلهجة ذات معنى:

obeikandl.com

obeikandl.com

- الشـاب عـربيّ.. مثلـك تمامًـا، وقـد يجعلـك التعاطـف تخطئـين الحكـم. هـذه القضيـة لا أظنّـك قـد تكلفـت بمثلهـا مـن قبـل. إن لـم أكـن مخطئًـا فهـي بدايتـك مـع الجنايـات؟ هـذه ليسـت قضيـة طـلاق أو شـجار بـين جاريـن في حـيّ شـعبيّ. لكـن لسـت أفهـم.. كيـف سـمح لـك جـورج باعتمـاد الـبراءة؟

قالت رنيم متجاهلة كلماته الأخيرة:

- حسن أمامي عمل كثير. أستأذن الآن.

استدارت وتقدمت بخطـوات حازمـة في اتجـاه البـاب، في حـين تبعهـا صـوت النائـب العـام وهـو يقـول:

- تثبّـتي أيـن تضعـين أقدامـك يـا صغـيرتي. واحـذري الغـوص في الوحـل.. فـإن الخـروج منـه صعب.

*****

- رنيم تعالي إلى مكتبي.

كانـت قـد وصلـت إلى مكتبهـا للتـوّ بعـد المشـادّة الكلاميـة الـتي جمعتهـا بالنائـب العـام. كان مزاجهـا سـيّئًا ويـزداد سـوءًا كلمـا أعـادت في ذهنهـا إشـاراته إلى تداخـل مشـاعرها مـع حكمهـا في القضيـة. كانـت سـاخطة جـدًّا عليـه وعـلى نفسـها أيضًـا. هـل تراهـا تعيـد نفـس الخطـأ؟ هـل تعاطفـت مـع عمـر حـتى نسـيت واجبهـا وغيّبـت حكـم عقلهـا؟ لـم تكـن تعـترف بذلـك حـتّى بينهـا وبـين نفسـها، لكـن أشـياء كثـيرة تغـيّرت داخلهـا دون أن تـدري.

حـين ناداهـا جـورج أخرجهـا مـن بوتقـة أفكارهـا. جـرّت نفسـها جـرًّا إلى مكتبـه دون رغبـة منهـا.

- تلقيت اتصالاً من النائب العام منذ حين.

قاطعته في استماتة:

- أرجوك جورج لا تسحب مني القضية.

ابتسم جورج مهدئًا:

- اطمئـني؛ لـن أفعـل ذلـك. لكنّـك في حاجـة إلى شيء مـن الرّاحـة لاسـتعادة تركـيزك.

كيـف يمكنهـا أن تأخـذ قسـطًا مـن الرّاحـة والقضيـة في أوجّهـا؟ واصـل جـورج

موضحًا:

- اتركي القضية جانبًا ليوم واحد. يوم غد مثلاً. اشغلي نفسك بعمل سهل لا يستوجب الكثير من التفكير. خذي مثلاً هذا الملف. سيّدة مسنّة تريد من يساعدها على كتابة وصيّتها. ما رأيك؟

ابتسمت رنيم وهي تمدّ كفها لتسلّم الملف وقالت في امتنان:

- سأتّصل بها في الحال.

ربّما كان على حقّ. ربمّا كان ذلك ما تحتاج إليه. عمل سهل ورتيب. ولتترك أعباء القضيّة إلى اليوم التالي. ربما تكون حينها قادرة على النظر في الوقائع بموضوعيّة أكبر. ما أن غادرت المكتب حتى ظهرت فيفيان أمام جورج وهي تقول في نوع من التشفي:

- ألم تندم بعد على تسليمها القضيّة؟

ضحك جورج بصوت مسموع وقال وهو يسترخي في مقعده:

- ولن أندم أبدًا يا عزيزتي.

ثم أضاف بلهجة خاصّة:

- لا يهمّني الحكم النهائي في القضيّة، ولن أنزعج أبدًا إن خسرناها.. فالخسارة كانت الاحتمال الأكبر منذ البداية. لكن هل تدرين؟ حين أرى اندفاعها وحماسها أشعر بموجة من الانتعاش.. تذكرني ببداياتي في عالم المحاماة. حين كنت مليئًا بالشباب والتفاؤل.. وكنت أدافع عن المبادئ والقيم قبل الأشخاص والمصالح.

ابتسمت فيفيان وهي تقول مداعبة:

- لكنك مازلت شابًا يا عزيزي.

هزّ كتفيه وهو يقول في نوع من الحسرة:

- لكنني لم أعد أرى الأشياء بنفس المنظار، ولا أتناول القضايا بنفس الروح.. لذلك أحبّ التعامل مع المحامين الأقل خبرة، لأن البدايات تكون دائمًا مثيرة وذات نكهة مميّزة.

قطعت عليه فيفيان لحظات تأمله الشاعرية وهي تقول:

- هل أخبرتها أن ميشال سيزورنا الأسبوع المقبل؟

- لم أفعل.. فلتكن مفاجأة.

- إن شئت الصّراحة فهي مفاجأة للجميع. منذ استقراره في مرسيليا لم

obeikandl.com

نعـد نـراه كثـيرًا.

قال جورج وهو يأخذ ملفًا على مكتبه ويتصفحه:

- قال إنه يحتاج لقاء بعض الشخصيات في باريس من أجل قضيّة ما.

قالت فيفيان وهي تغمزه في خبث:

- قـل إنـه يبحـث عـن ذريعـة لزيـارة صغيرتـه المدللـة. أشـعر أنـه قـد نـدم عـلى تركهـا ترحـل.

كانـت تقـول ذلـك وهـي تتمـنّى في داخلهـا أن يأخذهـا معـه بالفعـل. لكـنّ جـورج هـزّ كتفيـه في اسـتهانة وهـو يقـول:

- ربّما.. لكنّني لن أتركها ترحل.

obeikandl.com

-٢٥-

رجل من ورق

استلقت رنيم على سريرها في إنهاك. كانت تحاول العمل بوصيّة جورج ومنع أفكارها من التسلل إلى قضيّة عمر. لكن غصبًا عنها كانت كلمات النّائب العام تتردّد في رأسها دون توقف. «الاتهام بالإرهاب لم يأتِ من فراغ». وضعت كفها على جبينها في إعياء. كيف حال عمر يا ترى؟ هل سيجد النعاس إلى جفنيه سبيلاً بعد التصريحات المدمّرة التي أدلى بها كريستوف؟ انتبهت فجأة إلى أنها كانت تفكر فيه كشخص. لم تكن القضية ما يشغلها في تلك الآونة. بل «هو».. كيف يشعر وبماذا يفكر وكيف هي معنويّاته. عقدت حاجبيها في ضيق. منذ متى تلاشت الحدود التي وضعتها بين الشخص والقضيّة؟ دون أن تشعر كان احتمال البراءة يطغى على كل الاحتمالات الأخرى في ذهنها. تذكّرت في دهشة أنّها لم تكن مقتنعة بها في البداية. لكنّ تعاطيها شبه اليوميّ مع عمر جعلها بشكل ما تثق فيه. لم تثق في أحد بهذا الشكل من قبل.. اشتعلت إشارة الإنذار في رأسها فجأة. هل تكون قد أخطأت بثقتها في عمر؟ هل تكون قد انزلقت من جديد إلى الأحكام العاطفية؟

دقّت ياسمين على غرفتها بلطف وانتظرت أن تردّ عليها رنيم. حين لم يأتها جواب، أدارت أكرة الباب ودفعته بهدوء وهي تناديها برفق:

- رنيم، أنت مستيقظة؟

لم يأتها ردّ، عدا همهمة خافتة. كانت الغرفة غارقة في الظلام، ومع تسلل ضوء قليل من الباب نصف المفتوح، لمحت ياسمين جسد رنيم الملقى على السرير والوسادة فوق وجهها. اقتربت منها ببطء وهي تهمس:

- أنت بخير؟ هل تؤلمك رأسك؟

تنهدت رنيم دون أن ترفع الوسادة. حين كانت تقيم بمفردها كانت تحظى بساعات الوحدة التي تريد وقتما تريد. لكنّ السكن مع فتاة مثل

obeikandl.com

ياسمين يعني التنازل على قدر من الخصوصيّة لصالح المشاركة. وياسمين هذه لن تتصرف إلا بعد أن تطمئنّ عليها. ولتعترف بينها وبين نفسها أن ذلك لم يكن سيّئًا في نهاية الأمر.

- لم تتناولي عشاءك اليوم.. لذلك قلقت عليك.

أزاحت الوسادة واستندت على مرفقها لتستوي جالسة ثم قالت في ضيق:

- كان يومًا سيّئًا في المحكمة.

- آه.

ربما تخفّف عنها الفضفضة كما فعلت في كل مرّة؟ لماذا لا تجرّب؟ استطردت رنيم وهي تضع الوسادة وراء ظهرها وترفع بصرها إلى السقف:

- ظهر شاهد جديد وما يحمله كان من الوزن الثقيل.. الثقيل جدًّا.

حكت لها باختصار ما حصل في المحكمة ذلك اليوم. جلست ياسمين إلى جوارها على السرير وأخذت تستمع إليها في انتباه. حين أنهت روايتها قالت في جدية:

- لكن كلام الشاهد لا يمكن أن يكون صحيحًا، أليس كذلك؟

سكتت رنيم وهي تقلب كلمات النائب العام في رأسها دون توقف. هزّتها ياسمين من جديد وهي تقول:

- أنتِ واثقة من براءة الدكتور عمر، أليس كذلك؟

زفرت رنيم بقوة وهي ترمي الوسادة إلى الجانب الآخر من الغرفة:

- لم أعد أدري.

هتفت بها ياسمين في حماس:

- لكن هذه التهم لا تبدو منطقية. أنت نفسك قلت إن أحداث ذلك اليوم غير منطقية. لا يمكن أن يكون قد سرق بحث ذلك الرجل ثم جلس في المكتب ينتظر في بلادة، ليصرخ «الله أكبر» ويفجّر المكان بعد خمس دقائق إضافية. ألا توافقينني الرأي؟

هزّت رنيم رأسها موافقة وهي تقول في إرهاق:

- أوافقك في كل ذلك. لكن الوصف المفصّل للمخطط البشع الذي تقدّم به الشاهد اليوم كان كافيًا لينهار دفاعي بالكامل أمام القاضي والمحلفين.

قاطعتها ياسمين على الفور:

- أنا لا أتحدّث عن المحلفين، بل عنك أنت. هل مازلت مقتنعة ببراءته؟

سكتت رنيم لبضع ثوانٍ وكلمات النائب العام ترنّ في عقلها من جديد. قالت أخيرًا بصوت كسير:

- لكنّني أشعر بالخوف.

سألتها ياسمين في دهشة:

- تخافين؟ ممّ؟

قالت رنيم في سرحان متجاهلة سؤالها:

- في البداية كنت أرمق بدهشة ثقته الكبيرة.. أحترم فيه ثباته المثير للإعجاب في قاعة المحكمة وأمام النظرات المعادية، وأشفق عليه من تحالف العالم ضدّه.. ثم تتابعت اللقاءات بيننا، ومع مضيّ الوقت أصبحت قضيّته تخصّني، كأن مصيره يعنيني. كنت أشعر في داخلي أنّه بريء. شخص يتصرّف بذلك الرقي ويعاملني بتلك الأخلاق لا يمكن أن يكون مجرمًا. واليوم مع اجتماع كل الأدلة ضده أصابني الذعر.. ماذا لو كان مذنبًا؟ ماذا لو كنت أدافع عن إرهابيّ وأتمنّى خروجه من السّجن بأيّ طريقة؟ ماذا لو قضى بقيّة حياته خلف القضبان؟

- توقفت عند ذلك الحدّ وقد بدا عليها التأثر. راقبتها ياسمين بأنفاس مبهورة. هل تكون رنيم قد تعلقت بموكلها دون أن تدري؟ حتّى تلك اللحظة كانت ترفض الاعتراف باتخاذ القضية منحى شخصيًا بالنسبة إليها. ومن منطلق معرفتها برنيم تدرك أنها لن تعترف. مرّت لحظات من الصّمت المُحرَج بينهما. كانت رنيم تشعر بأنها أفضت بأكثر ممّا ينبغي، في حين راحت ياسمين تفكر في طريقة لمساعدتها دون إحراجها. تكلمت ياسمين أخيرًا لتقول في جدّية:

- هل فقدت ثقتك بهذه السّرعة في براءته؟ تعالي نفكر في كل الاحتمالات. ماذا لو كان هناك ملفا أبحاث وليس ملفًا واحدًا؟

- ملفا أبحاث؟

- نعم، ملف أبحاث الدكتور عمر وملف البروفيسور الآخر. وهناك شخص ثالث سرق ملف البروفيسور ثم تعمّد إيقاع عمر في الفخ، لأنه بدا له الضحية المناسبة. ألا يفسر ذلك كل شيء؟

استمعت إليها رنيم في انتباه وتركيز وقد تجاوزت ارتباكها. ثم قالت وهي تتنهّد:

- هـل تصدّقـين؟ كنـت مذعـورة مـن فكـرة أن يكـون عمـر مذنبًـا، إلى درجـة أنـني لـم أفكـر في الأمـر بصفـة عقلانيـة. ذلـك النائـب العـام، لقـد نجـح في إربـاكي حقًـا!

أضافت ياسمين مؤيّدة:

- ثـم مـاذا لـو كان الشـاهد يكـذب؟ مـاذا لـو كان يختلـق كل تلـك الحكايـة عـن سرقـة الملـف لأنّـه كان يريـد سرقـة ملفـات الدكتـور عمـر؟ بمعـنى أنـه يتهـم الدكتـور عمـر بمـا كان هـو ينـوي القيـام بـه.

هـزّت رنيـم رأسـها موافقـة. لا يمكنهـا الثقـة في تصريحـات الشـهود ثقـة كاملـة. عليهـا أن تقـوم ببحثهـا المـوازي. قالـت في حـزم:

- سـأبدأ بالتثبّـت مـن هـذا أولاً. إن كان هنـاك أي تناقـض في روايتـه فسـأجده حتمًـا. لـن أرحمهـم.

ثم ابتسمت وهي تضيف:

- تعلمين؟ ربما أتخذك مساعدة في وقت ما!

*****

هاهـو يجلـس وحيـدًا مجـدّدًا في غرفـة ناصعـة البيـاض، لا يحيط بـه شيء غير الجـدران وقطـع الأثـاث القليلـة. حـتى الآلات الطبيـة الـتي كانـت تمـلأ الفضـاء كانـت تختفـي واحـدة إثـر الأخـرى. لـم يعـد يحتـاج نفـس الرعايـة الـتي كان يلقاهـا في البدايـة. لكـنّ صحتـه لـم يكـن كل مـا يشـغله في تلـك الآونـة.

لـم يرهـا منـذ البارحـة. هـل يمكنهـا أن تثـق بـه بعـد كل مـا حصـل؟ الاتهامـات الـتي وجههـا إليـه كريسـتوف كانـت مقنعـة. وبقراءتـه لملامـح القـاضي والمحلّفـين يمكنـه أن يجـزم في أيّ صـف يقفـون. ربمـا كان ذلـك موقفهـم منـذ البدايـة، وتصريحـات كريسـتوف لـم تـأتِ إلا لترسّـخ الحكـم المسـبق الـذي يحملونـه.. إلا أن بعـض الأمـل كان قـد راوده في بدايـة الجلسـة. حـين رأى براعـة رنيـم في محـاورة الشـهود وفي تبديـد اتهاماتهـم وبعـثرة حججهـم بتفكيرهـا المنطقـي السـلس.. أمـل ضئيـل مـا لبـث أن تبخّـر في لمـح البـصر.

لا يظنّهـا سـتعود. طلبـت رفـع الجلسـة «للتشـاور مـع موكلهـا» لكنهـا انسـحبت دون أن توجـه إليـه كلمـة واحـدة. ترقـب عودتهـا في أي لحظـة، لسـاعات طويلـة.

ومع مرور الوقت بدأت الهواجس تستحوذ عليه. ماذا لو غيّرت رأيها؟ ماذا لو شكت في براءته؟ لم تكن تثق فيه بادئ الأمر.. وهو لم يسلمها مقاليده إلا مضطرًّا. كان محتاجًا إلى دفاع وهي كانت الشخص الوحيد المتوفر. ومع الوقت أصبح أكثر اقتناعًا بها، وبأنّ حظه لم يكن بذلك السوء. كانت تبلي بلاءً حسنًا وكانت ترفع من معنوياته أيضًا. أحسّها صديقة في بعض الأحيان، حين تستمع إلى مخاوفه وتهتمّ بصحّته. لكن هل هي مختلفة عنهم حقًّا؟ هل يمكنها أن تثق فيه إلى النهاية رغم كل ما يُكال إليه من تهم ورغم شُحّ أدلة البراءة؟ عليها ضغوطات كثيرة في مكتب المحاماة الذي تنتمي إليه، لا ريب. زميلتها فيفيان كانت لا تطاق، ستعمل على عرقلتها بكلّ السبل. والنائب العام لم يكن ليّنا معها أيضًا. جميعهم كان يسخر من قلة خبرتها واندفاعها. هل تكون قد رضخت وتركت القضية؟

الساعات القليلة الماضية كانت أثقل على قلبه من أسابيع اعتقاله الطويلة. لم يكن عجولاً في السابق. لكنّ صبره نفد وأعصابه غدت على وشك الاشتعال. لم يتخيّل أنّه سيشتاق إليها يومًا بهذا القدر. كانت عيناه تعودان إلى الباب المغلق كل فترة، وهو يتمنّى أن يراه يفتح. زفر بقوّة وهو يتناول كتابا. رواية أحضرتها كارولين في إحدى زياراتها. مزّق الصفحة الأولى وانهمك في صنع شكل ورقيّ. قرأ الكتاب عشرات المرّات علّه يهزم مخالب الوحدة والقلق ويصدّها عن النهش في عقله. رواية تافهة وسطحيّة. لكنّ ذلك لم يمنعه من اجترار كلماتها مرّات ومرّات وإيهام نفسه بأنه يكتشف تفاصيل جديدة في كل مرّة. مزّق ورقة ثانية وانهمك في صناعة شكل آخر. لم يكن بارعاً في فنّ «الأوريجامي»، لكنّه مثل كل طلاب المدرسة تعلم في طفولته بعض الأشكال البسيطة التي كان يتسلى بتراشقها مع رفاق فصله في ساعات الدّرس، كلما ولّتهم المعلمة ظهرها.

فتحت رنيم الباب بهدوء وتسمّرت مكانها في دهشة. نظرت في صدمة إلى الأرضية المليئة بعشرات الأشكال الورقية المتشابهة وإلى الرجل الجالس بينها، وهو لا يكاد يشعر بما يدور حوله. دمعت عيناها دون أن تشعر. بهدوء جلست القرفصاء إلى جانبه وهمست بصوت خافت حتى لا تفاجئه:

- عمر، أنت بخير؟

رفع رأسه ببطء ونظر إليها. وعلى عكس اللهفة التي كان عليها ذلك

الصباح، طالعها ببرود وهو يقول في شيء من السّخرية:
- آه، أنت هنا؟

همست في قلق وهي تعاين حالته المتغيّرة:
- هل تحتاج إلى الطبيب؟ أنادي أحدًا من قسم التمريض؟

دفع الكفّ التي عرضتها عليه لتساعده على الوقوف، واستند على جانب السرير ليعود في صمت إلى مرقده متجنبًا النّظر إليها. كان الطّفل الذي في داخله يتمرّد. منذ حين كان يخشى أن تتخلى عنه وتذهب دون رجعة. أما الآن بما أنها هنا فلا ضير من بعض العتاب والعبوس.

قالت من جديد وهي تشير إلى الأوراق على الأرض:
- أنت من فعل هذا؟

قال بنفس البرود:
- كان كتابًا سيئًا. الصواريخ الورقية أكثر تسلية.

ثم أضاف بلهجة جادّة:
- لماذا أنت هنا؟
- لماذا أنا هنا؟ لأنني محاميتك!

أجابها بسخرية لاذعة:
- وأين كانت محاميتي البارحة حين كنت في أمسّ الحاجة إليها؟ ألم يكن من المفترض بنا أن «نتشاور» بعد الجلسة؟ أم أن هنالك أطرافًا أخرى تتشاورين معها قبل أن تقرّري الاستمرار في القضيّة؟

شحب وجه رنيم بشدّة وهي تقول بصوت مختنق:
- ماذا تقصد؟

كان صوته يرتفع في انفعال واضح وهو يقول:
- من أقصد؟ زملاؤك في المكتب، رئيسك في العمل، النائب العام، وربما أيضًا البروفيسور كريستوف.
- أنت.. لست جادًّا.

همست في صدمة وهي تخفض عينيها. تشعر بأنّها على وشك البكاء وتخشى أن تخونها دموعها مع أول حرف يتجاوز شفتيها. لم تبكِ البارحة أمام ياسمين فهل تبكي الآن أمامه؟ معه حقّ، لا يدرك الأوقات العصيبة التي مرّت بها منذ غادرت قاعة المحكمة. لم يكن معها للاستماع إلى

كلمات النائب العام المسمومة ولا يعلم أنّها ضربت عرض الحائط حتى بنصيحة جورج بالابتعاد عن القضيّة ليوم واحد. لا يعلم كمّ الضغوطات التي مرّت بها ولا ما دفعها إلى زيارته هذا الصباح حتى قبل أن تذهب إلى موعدها مع موكلتها الجديدة. لا يعلم أنها فكرت فيه مساءً وهي وحيدة في غرفتها وقرّرت أن مواساته واجبة عليها قبل التحقيق والتحري والبحث وراء الشهود.. لا يعلم كل ذلك، ولن يعلم. لأنها لن تخبره.

مرّت لحظات من الصّمت الثقيل المتوتّر قبل أن يقول عمر بشكل مفاجئ:

- أنا آسف.

رفعت رأسها في دهشة لتطالعه. كان ما يزال مطرقًا، يتجنّب النظر إليها حتى وهو يقول:

- لم أرد أن أكون قاسيًا. لكن ليلة البارحة كانت فظيعة، ولا ذنب لك في ذلك.

بدا على شفتيه شبح ابتسامة وهو يضيف:

- ما عنيته هو أنني ممتنّ لمجيئك اليوم.. حقًّا.

لحسن الحظ لم يكن من النوع الذي يحدّق ويدقّق، وإلاّ كان لمح الدّمعة اليتيمة التي تدحرجت على وجنتها والتي سارعت بمسحها لتخفي علامات ضعفها. بصعوبة بالغة تمالكت نفسها وقالت وقد استعادت ثقتها:

- سأكون معك إلى نهاية القضيّة. كن واثقًا من ذلك.

- إن شاء الله.

ردّدت ورائه وهي تحسّ معنى تلك العبارة للمرّة الأولى في حياتها:

- إن شاء الله.

خرجت من عنده وهي أكثر تصميمًا من أيّ وقت مضى. ستعطيه ثقتها الكاملة هذه المرّة وتدافع عنه حتّى النهاية. دون دموع ودون عواطف. ستجعل القضيّة اهتمامها الأول. فقط لا غير.

لم تكن قد وصلت بعد إلى محطة المترو حين رنّ هاتفها. تطلعت إلى الرقم الذي ظهر على الشاشة ثم أجابت في لهفة:

- هاه؟ ماذا وجدت؟

Obeikandi.com

جاءها صوت المتحرية الخاصّة التي تساعدها في الكثير من تحقيقاتها:

- تأكدت من البيانات المسجلة في المستشفى المركزيّة في ليون.

كتمت رنيم أنفاسها في انتظار الكلمات التالية.

- الاسم والتاريخ متوافقان مع ما وجدته في سجلات المستشفى. زوجة البروفيسور نوارو كانت بالفعل في قسم الحالات المستعجلة ذلك اليوم بعد إصابتها بكسر في ساقها.

زفرت رنيم في ضيق ثم قالت:

- ماذا عن التقني المختصّ، هل تمكنت من الحصول على بياناته؟

- نعم. سأرسلها إليك على الفور.

أغلقت الخط في تجهم. لكن لا بأس. مازالت هناك ثغرات أخرى عليها أن تتحرّى بشأنها.

obeikandl.com

-٢٦-
اعترافات

طرقت باب غرفتها بلطف ثم نادت بصوت هامس:
- ياسمين، أنت مستيقظة؟
فتحت ياسمين الباب على الفور وهي تنهي ترتيب حجابها:
- صباح الخير، أنت مبكرة اليوم.
هزت رنيم رأسها وهي تقول في جديّة:
- أمامي يوم طويل.. لكنني أحتاج مساعدتك قبل أن أذهب.
ثمّ أشارت إلى مكتبة ياسمين التي تغصّ بالكتب وقالت:
- لاحظت أن عمر يحبّ القراءة، وفكّرت بأنّه قد يشعر بالملل في وحدته.. ربّما لو شغل نفسه بمطالعة بعض الكتب لمنعه ذلك من الاستسلام للضغوطات النفسية؛ أريد أن أستعير منك بعض الكتب. ممكن؟
ابتسمت ياسمين وهي تفسح المجال أمامها:
- طبعًا.. اختاري ما بدالك.
تقدّمت رنيم لتقففي حيرة أمام الرّفوف التي تراصّت عليها العناوين المبهمة. بعد لحظات من التأمل هتفت وهي تتراجع:
- اختاري أنت. لا أدري أي الكتب يناسبه!
- حسن، سأختار بعض الكتب على ذوقي، وإن لم تعجبه خذي غيرها.
وضعت رنيم في حقيبتها مجموعة الكتب التي انتقتها ياسمين وخرجت بخطى حثيثة. كان عليها المرور على مكتبها أولاً من أجل تحضير الأوراق التي تخصّ موكلتها الجديدة. ثم يمكنها أن تزور عمر. ستكون زيارة سريعة. لم يكن هناك جديد في القضيّة. ستحمل إليه الكتب وتطمئن عليه ثم تعكف على تحريّاتها. الجلسة القادمة لم تعد بعيدة.
- ما أن تجاوزت عتبة مكتبها حتى تسمّرت في مكانها مبغوتة.
- كيف حال الحسناء؟
لم تكن تحلم. ذلك الصّوت الرجاليّ المألوف أكّد لها ذلك. فوجئت وهي ترى وجهًا ينتمي إلى ماضيها، لم تقع عيناها عليه منذ بضعة أشهر.

تذكر جيّدًا الموقف الأخير الذي جمعها به والذي لم يكن مبهجًا البتة.
- ميشال!
قالت في ضيق وهي تتقدّم داخل المكتب. للحظات أحسّت بأن الهواء النّقيّ نقص من الغرفة. ربمّا كانت تلهث بعد صعود السّلم.. وربّما كان وجوده هناك يغتصب جزءًا من حريّتها. ابتسم وهو يقف لاستقبالها ويقول في ودّ:
- مفاجأة، أليس كذلك؟
تجاوزته رنيم في ثبات، توجّهت نحو النّافذة وفتحتها على مصراعيها ثم سارت حتى وصلت إلى مكتبها. ارتمت على مقعدها في لامبالاة متعمّدة ثمّ ابتسمت وهي تقول في برود: بماذا أخدمك؟
عبس ميشال للحظة. ذلك البرود في صوتها وحركاتها كان متوقعًا. قال محاولاً تبديد التوتر الذي طفا في الجوّ:
- أعلم أنك منزعجة من وداعنا البارد.. لكنّني جئت طامعًا في صفحك.
- وداعنا البارد؟ هل ذلك ما يسمّي به انهيارها أمام البناية وهي تنزف دماء قلبها؟ تأملته للحظات في سرحان. ياه! هل هذا هو الرّجل الذي كادت تموت من أجله منذ أشهر قليلة؟! كيف كانت بمثل ذلك الغباء وتلك السذاجة؟ تجاهلت رجائه الأخير وهي تردف في تباعد:
- أين ذهبت شقراؤك؟ أم تراك مللتها مثلما مللت غيرها؟
كان في عينيه عتاب ورجاء وهو يقول مثبّتًا عينيه في عينيها:
- لا تحاسبيني على زلاتي الماضية، فلقد كنت مغفلاً حين تركتك ترحلين. لكنني استوعبت ذلك متأخرًا.. لم أكن أعلم أنك ستتركين كل ذلك الفراغ في حياتي.
استمعت إليه رنيم في صمت. لو كان رجع إليها بعد أيام قليلة من شجارهما لكانت عادت إليه دون تفكير، بل ربما كانت لتطير من الفرح وهي تراه يترجاها ويطلب رضاها. لكنها اليوم لم تعد رنيم نفسها. صارت أقوى وأصلب. في تلك الآونة تفطنت إلى أن أسابيع كثيرة مضت دون أن يخطر طيفه ببالها مرّة واحدة. بعد بداية حياتها الصّعبة في باريس حين كانت تجبر نفسها على نسيانه بانغماسها في مشاغل لا تنتهي، أصبحت لها حياتها المستقلة التي لا أثر فيها لميشال. كانت قضية قد استحوذت

عـلى تركيزهـا بالكامـل ولـم تـترك مكانًـا يذكـر للذكريـات التعيسـة والبـكاء عـلى الأطـلال. انتبهـت مجـدّدًا لصوتـه وهـو يقـول وعينـاه ترنـوان إليهـا في هيـام:

- اشتقت إليك كثيرًا.. ألم تشتاقي إليّ؟

لا تـدري لمـاذا اتسـعت الابتسـامة عـلى شـفتيها مـع عبارتـه تلـك. صـارت المشـاعر الـتي يسكبها بـين يديهـا في سـخاء تثـير سـخريتها. جاهـدت طويـلاً كي تمحـوه مـن ذاكرتهـا، فكيـف يتوقـع أن تشـتاق إليـه؟

- دعني أفكر.

قالت ذلك وهي تتظاهر بالتخمين ثم قالت في هدوء:

- آسفة، لا أعتقد.

ابتسـم بهـدوء وصـبر. كان يعلـم أنهـا سـتعاند. لـن تقبـل اعتـذاره بسـهولة، مـن حـقّ الحسـناء أن تتدلـل. قـال في ثقـة وهـو يخـرج بطاقـة مـن جيبـه:

- كنـت أود دعوتـك عـلى العشـاء الليلـة في مطعـم فاخـر.. ومـن ثـم آخـذك إلى سـهرة مميـزة في قـصر الأوبـرا. مـا رأيـك؟

بحكـم علاقتـه السّـابقة بهـا طيلـة سـنتين كان يـدرك حبّهـا للأضـواء والمظاهـر البراقـة. وسـهرة الأوبـرا كانـت إغـراءً لا يمكـن أن تقاومـه رنيـم الـتي يعرفهـا. تناولـت البطاقـة الـتي وضعهـا عـلى الطاولـة أمامهـا وابتسـمت. ربمـا كانـت لتقفـز إلى عنقـه في مشـهد مماثـل منـذ أشـهر قليلـة فقـط. لكـنّ تلـك المغريـات لـم تعـد تسـيل لعابهـا اليـوم. بشـكل لـم تدركـه هـي نفسـها، كانـت قـد تغيّرت مـن الدّاخـل. لـم تتعـرّف عـلى نفسـها وهـي تلمحهـا في مـرآة عيـني ميشـال. كان أقـرب النّـاس إليهـا في مرسـيليا. لكنهـا لـم تعـد رنيـم ذاتهـا. في حركـة غـير متوقعـة، قالـت وهـي تدفـع البطاقـة في اتجاهـه:

- آسفة، لا يمكنني أن أقبل دعوتك.

رفع حاجبيه في دهشة. كانت أعند مما تصوّر. تنهد وهو يقول:

- لا أطلـب منـك العـودة معـي إلى مرسـيليا. فقـط اقبـلي الدّعـوة ودعينـا نتحـدّث. أعـدك بأنـني لـن أتجـاوز حـدودي والسـهرة سـتعجبك بالتأكيـد. وبذلـك يكـون كلانـا رابحًـا. أعطـني فقـط هـذه الفرصـة لأثبـت لـك أنـي تغـيّرت.

رفعت إليه عينيها وهي تقول في صدق:

- أنا أيضًا تغيّرت يا ميشال، لم أعد رنيم التي تعرفها.

*****

لـم تكـن زيـارة ميشـال لهـا ذلـك الصبـاح مـن دواعـي تسـليتها. بـل لعـلّ وجـوده أمامهـا فجـأة كان نوعًـا مـن الكوابيـس الـتي كانـت تفـرّ منهـا باسـتمرار طـوال أسـابيع مضـت.. لكنهـا كانـت فرصـة لتختـبر صلابتهـا وعمـق التحـوّل وتجـذّره داخلهـا. كانـت ابتسـامة واسـعة تمـلأ وجههـا وهـي تقطـع الممـرّ الـذي يقودهـا إلى غرفـة عمـر بالمستشـفى. بشـكل مـا كانـت تشـتاق إلى رؤيتـه. ربّمـا جـاء ميشـال في الوقـت المناسـب ليثبـت عندهـا أنّهـا لـم تعـد بذلـك الضّعـف أمامـه. لقـد حصلـت بعـد عنـاء عـلى اسـتقلال مشـاعرها، والآن يمكنهـا أن تهديهـا لمـن تريـد.

كانـت عـلى بُعـد أمتـار قليلـة مـن الغرفة حـين رأت البـاب يفتح، ولمحت شـابة شـقراء تخـرج منهـا. لدهشـتها لـم تكـن هـذه الأخـيرة ترتـدي إزار الممرضـات الأبيـض. راقبتهـا وهـي تمـرّ إلى جوارهـا بمشـية متكـبّرة دون أن تعيرهـا اهتمامًـا. عقـدت حاجبيهـا في ضيـق. تسـاءلت دون وعـي: يـا إلهـي! شـقراء أخـرى؟

بعـد عمليـة التثبّـت مـن هويّتهـا الروتينيـة تجـاوزت رجـل الأمـن ودخلـت الغرفـة بمـزاج سـيّئ. لـم ينجـح ميشـال في تعكـير صباحهـا، لكـن تلـك الشـابة المجهولـة الـتي لمحتهـا للتّـوّ فعلـت. قالـت وهـي تتظاهـر بعـدم الاهتمـام:

- من هي الفتاة التي خرجت من عندك الآن؟

رفع عمر رأسه في لامبالاة وهو يقول:

- كارولين؟ إنها زميلة في الشركة.

لـم تـدر إن كانـت لامبالاتـه علامـة حسـنة أم سـيّئة. ربّمـا كانـت زميلـة عاديّـة إلى درجـة أنـه لا يجـد حاجـة للحديـث عنهـا. وربمـا تكـون علاقتـه بهـا مميّـزة ولذلـك لا يريـد أن يخـوض في أحاديـث عنهـا معهـا. قالـت في انزعـاج واضـح:

- لكن كيف وصلت إلى هنا؟ لم أعلم أن زيارة المتّهمين متاحة للجميع.

آلمتـه عبارتهـا. لـم تتعـوّد أن تشـير إلى وضعـه بكلمـات جارحـة. لكنهـا لـم تكـن مخطئـة، فهـو وإن كان في المستشـفى وتحـت العـلاج، فهـو متهـم في قضيـة خطـرة وتحـت حراسـة مشـدّدة مـن رجـال الأمـن. قـال في مـرارة لـم تخـف عليهـا:

- أشـفقت عـليّ مـن الوحـدة فتدخـل بعـض معارفهـا للحصـول عـلى الإذن بالزيـارة.

أطرقـت رنيـم ولـم تعلـق. لـم تكـن تفهـم ردّة فعلهـا. لمـاذا كل هـذا

الانفعال؟ لأنه تلقى زيارة دون علمها؟ لم تكن يومًا وصيّة عليه. إنها محاميته وحسب. لم تكن تعلم شيئًا عن حياته قبل الحادثة ولا دخل لها فيها بأيّ حال من الأحوال. ربما لأن زائرته شقراء جذابة؟

زفرت وهي تقول مغيّرة الموضوع:

- إلى حدّ الآن رواية البروفيسور كريستوف نوارو متناسقة. زوجته كانت موجودة في المستشفى في الوقت الذي ذكره.

لمحت علامات الضيق على وجهه فاستطردت بسرعة:

- لكن ذلك لا يعني أنّه يقول الصّدق. علينا التّحرّي بشأن علاقاته في الشركة وطبيعة عمله.. وصدقني سأترصد أدنى تناقض وأقتنص كلّ الثغرات لمحاصرته.

ابتسم وهو يراها تستعيد حماسها. لم يكن مزاجها طيّبًا حين وصلت. ربما كانت هناك أمور خاصّة تشغلها. لا شأن له بحياتها ومشكلاتها الشخصيّة، ولا حق له بالتدخل فيها أو الاستفسار عنها. لكن أمله أن تكون في أحسن حالاتها النفسيّة والجسديّة يوم الجلسة المقبلة، لأنّ المدّعي العام لن يكون متساهلاً أبدًا. راقبها في استغراب وهي تفتح حقيبتها وتشرع في إخراج كتب أخذت ترصفها أمامه في عناية.

- ما هذا؟

ابتسمت وهي تشير إليها:

- بما أنك تحبّ القراءة، فقد أحضرت لك ما تشغل به وقتك.

تناولها واحدًا إثر الآخر، يتحسّسها في دهشة حقيقيّة، وعكف يطالع العناوين ويقلب الصّفحات في اهتمام. كانت مفاجأة سارّة بالتأكيد. بعد بضعة دقائق، كان يرفع رأسه وهو يهتف:

- أنت مذهلة حقًا! بدأت أغيّر رأيي فيك اليوم.

- حقًا؟

هزّ رأسه ثم عاد ليرفع أحد الكتب أمامها:

- هذا الكتاب، بحثت عنه لفترة طويلة ولم أكن أجده في مكتبات ليون. لذلك فاجأتني بإحضاره اليوم. ثم دعيني أقول إن ذوقك في الكتب ممتاز. أو على الأقل يتوافق مع ذوقي.

اتسعت ابتسامتها وهي تراه يضحك وينسى هموم القضيّة كطفل صغير

يتلقى هديّة العيد. شكرت في سرّها ياسمين من كل قلبها. لم يخب حدسها بأنّها قصدت الشخص المناسب لمساعدتها. انتبهت على صوت عمر وهو يقول في سرحان:

- ذكرتني بفتاة كنت أعرفها. تحبّ الكتب كثيرًا وتناقشني بشأنها.

- فتاة؟ هل هي زميلة لك؟

قال بحسرة واضحة في صوته:

- للأسف لم أتعرّف عليها بشكل جيّد.. كنا نركب المترو معًا. كنت أراها كل صباح تقرأ كتابًا.. بشكل عفوي بدأ حوار بيننا، ثم أصبحنا نتناقش باستمرار ونتبادل الكتب. وفي يوم من الأيام اختفت فجأة ولم أرها بعد ذلك.

أحسّت ببرودة لاذعة تسري في عمودها الفقري وانحبست أنفاسها فجأة، بينما اضطربت نبضات قلبها في استغاثة طالبة بعض الأكسيجين. لقد سمعت تلك الحكاية من قبل.. على لسان شخص مختلف. تابع عمر غير منتبه لتغيّرات وجهها:

- هذا الكتاب، رأيت الإعلان عنه قبل شهور. وتعاهدنا على أنّ من يجده منّا أولاً عليه أن يعيره للآخر.

توقف فجأة وهو يلمح شحوب وجهها الغريب. هتف في قلق:

- هل أنت بخير؟

أجبرت نفسها على الابتسام وهي تقول بهمس:

- أحس بألم في رأسي.

وقفت وهي تقول معتذرة:

- أتركك مع كتبك الآن.. يجب أن أذهب.

ابتعدت عن المكان وساقاها لا تكادان تحملانها. منذ زمن وهي تريد أن تعرف كل شيء عنه وعن ماضيه. تتشوّق إلى لحظات المصارحة والمكاشفة. تتمنّى أن يفتح قلبه ويحدّثها عن كل شيء.. وأيّ شيء. لكنّها لم تتخيّل أن الصّمت قد يكون أفضل. لم تدرك أن الجهل قد يكون أهون. لم تعلم أنّها تسأل عن أشياء إبداؤها قد يسوؤها.

-٢٧-
محاولة جديدة

فاجأت ياسمين نفسها وهي تتكمش فزعًا حين ركبت جماعة من الشباب الملتحين حافلتها ذلك الصّباح، بأثوابهم البيضاء الطويلة وملامحهم الجادّة المتجهّمة. هل أتى الإعلام على رجاحة عقلها؟ ثمّ كيف لها هي المسلمة أن يقشعر جسمها لمرأى مسلمين مثلها؟ لم تستوعب الأمر. لكنّها لم تستطع الرّدّ حين مرّ أحدهم حذاءها وحيّاها بصوت يقترب من الخفوت، ربّما لم يسمعه غيرها. «السلام عليكم يا أختاه». لكنّ الأخت كانت مشغولة بفَرَقها فلم تجب، كأنّها تنفي بصمتها تلك الأخوّة المزعومة. حين استغرقت في التفكير في تلك الحادثة، هالها الأمر.

ولم تكن تلك الحادثة الوحيدة. منذ أيّام دخلت عيادة طبيب أسنان لتقتلع ضرسًا نخره السوس حتى أضناها ألمًا. كانت تجلس في قاعة الانتظار، حين ظهر الطبيب عند المدخل وطلب من المريض الموالي موافاته إلى غرفة الفحص. فوجئت حين رأت «كيبا» يهودية تعتلي رأس الطبيب. طيلة الدقائق الموالية، راودها ألف خاطر وخاطر. هل عليها أن تفرّ من العيادة إلى غير رجعة؟ ماذا ظنّ الطبيب حين رأى فتاة تلبس الحجاب في قاعة انتظاره؟ بل ما الذي تهامس به بقيّة المرضى منذ تخطت عتبة العيادة؟ تعلم أن الرّسول صلى الله عليه وسلم كان يتعامل مع اليهود، وهي لم تكن ترى يهودًا للمرة الأولى، فهي تمرّ كل يوم بمدرسة يهوديّة حين تمضي من شقتها إلى محطة الحافلة. ترمق بطرف حذر القبعات السوداء العريضة والضفائر الطويلة التي تتدلى منها والكيبا الصغيرة التي يعتمرها الأطفال، وتحثّ الخطو مبتعدة قبل أن يلفت شكلها انتباه بعضهم. هل كانت عنصريّة دون أن تدري؟ أم أنّه الحذر الطبيعيّ من الآخر؟ ذلك الحذر نفسه الذي يضايقها في نظرات الآخرين إليها؟

أدركت في لحظة كمّ التّناقض في سلوكها وشعرت بالخزي. كيف أمكنها أن تلوم الآخرين على انسياقهم وراء لعبة الإعلام القذرة، في حين أنّها رغم ادّعائها الفطنة والوعي تنقاد إلى قوالب جاهزة تعشش دون علمها في أعماق

لاوعيها؟ كان من الحريّ بدارسة علم اجتماع مثلها أن تكون قدوة ومثالاً يُحتذى في فهم الكتل الإيديولوجية واستيعاب اختلافاتها. وإلاّ فلا عتب على الصحفيّين ورجال الإعلام الذين يزعمون الحياد وينثرون على الرّؤوس ما عنّ لهم من الأفكار!

- السلام عليكم.

رفعت رأسها مبغوتة على وقع تلك الكلمات العربيّة التي لم تتعوّد سماعها في الشركة، وذكرى الحادثة الصّباحيّة تراودها. هل لحق بها ذلك «الأخ» إلى هنا؟ حدّقت في ارتباك في الرجل الذي سدّ بطوله باب مكتبها. حين لم يأته ردّها على الفور قال في اعتذار:

- هل أزعجك؟

وقفت في توتر واضح وهي تقول:

- هيثم! تفضل.. هل ميساء في الأسفل؟ وقت الغداء لم يحن بعد.

ابتسم في ارتباك وهو يتقدّم بضع خطوات:

- في الحقيقة ميساء ليست هنا. والموضوع لا يخصّ الغداء أيضًا.

سارع بالقول وهو يلمح الإحراج الذي تسبّبه زيارته:

- كنت أريد أن أسألك عن لورا. علمت أنك تحدّثت إليها منذ أيام. كيف وجدتها؟

- لورا.. نعم، بالطبع. كانت زيارة قصيرة.. لكننا تعلمنا الوضوء والصلاة. أرجو أن تكون قد استوعبت كل شيء. لكن بما أنها مهندسة فلا شك لديّ في قدرة تعلمها السّريعة!

أطلق ضحكة خافتة وقد أدرك ما ترمي إليه. لا تغفل عن تذكيره بسلوكه البغيض في لقائهما الأول كلما سمحت لها الفرصة. قال في هدوء:

- لورا ليست مهندسة. هي خريجة كلية التجارة.

لا تدري لماذا تتلبّسها روح هجوميّة كلما رأته. تصرّفاته هي السبب حتمًا. قالت متداركة:

- ظننت أنها مهندسة مثلك.. لذلك اتفق عقلاكما.

كانت تغامر من جديد بالغوص في ذلك الحقل المحفوف بالألغام. لكنّ ابتسامة هيثم اختفت فجأة وهو يقول مغيّرًا الموضوع:

- كنت أودّ أن أستوضح منك. لقد ذكرت لورا أمرًا غريبًا، عن إسلام

opeikandi.com

بـدون قيـود.. هـل تدريـن مـن أيـن جاءتهـا هـذه الفكـرة؟
- ماذا؟
- قالـت إنّهـا لا تحتـاج الصّـلاة والحجـاب وكل الواجبـات الأخـرى في الوقـت الحـالي.. تريـد أن تركّـز عـلى.. «رسـوخ الإيمـان في قلبهـا».. نعـم، هـذا مـا قالتـه.
- آه، هـذا جيّـد. أقصـد هـذه خطـوة طيّبـة، أليسـت كذلـك؟ مـن المهـمّ أن يرسّـخ إيمانهـا بشـكل جيّـد.. وسـتأتي الخطـوات الأخـرى لاحقًـا، أليـس كذلـك؟
بدا ممتعضًا وهو يردّ:
- لا، ليـس كذلـك! كانـت متحمّسـة لتعلّـم الصـلاة قبـل أن تذهـب إليـك، وكان الحجـاب مسـألة وقـت وحسـب.. فمـا الـذي تغـيّر منـذ ذلـك الحـين؟
خمّنـت اسـتعجاله لـكلّ التفاصيـل الشـكليّة لإسـلام لـورا، فذلـك سيسـهّل تقبّـل العائلـة لهـا وإتمـام الـزواج. وخمّنـت أيضًـا أنّ هـذا التراجـع في موقـف لـورا تزامـن مـع احتكاكهـا بهـا. تصاعـد الـدّم إلى وجههـا وتسـارعت أنفاسـها. هـل يتّهمهـا بالتّأثـير عـلى لـورا سـلبًا بعـد مـا أبدتـه مـن محـاولات المسـاعدة؟ قالـت في حـدّة:
- لا علاقـة لي بتفكيرهـا الجديـد هـذا. هـل تظـنّ أنّـي قـد أنفّرهـا مـن الصّـلاة والحجاب؟
بعـد أن نطقـت كلماتهـا، مـرّت بذهنهـا صـورة رنيـم. لا تـدري لمـاذا فكّـرت فيهـا في تلـك اللّحظـة. لقـد تركتهـا مـع لـورا لدقائـق قليلـة. هـل تكـون قـد ارتكبـت حماقـة بذلـك؟ قبـل أن تتـدارك الأمـر كان هيثـم يعتـذر:
- لم أقصد.. ظننت أنّك قد تفيدينني بأمر ما.
لـم تـدر إن كان عليهـا أن تفـضي إليـه بشـكوكها قبـل أن تتأكـد منهـا. قبـل أن تحسـم أمرهـا، فوجئـت بـه وهـو يتقـدّم حـتى وصـل إلى مكتبهـا، ودون أن يسـتأذنها أخـذ قلمًـا مـن مقلمتهـا ودوّن عـلى ورقـة بيضـاء بعـض الرمـوز والأرقـام ثـم رفـع رأسـه وهـو يقـول:
- هـذا بريـدي الالكـتروني ورقـم هاتفـي. أرسـلي إليّ عـلى البريـد إن تذكـرت أمـرًا.. أو صارحتـك لـورا بـشيء.
وكأنما تفطن إلى نبرته الآمرة فأضاف:
- لو سمحت.
ثـمّ لـوّح لهـا بكفـه قبـل أن ينـصرف. تنهـدت وهـي تجلـس إلى مكتبهـا مـن

جديد وتتناول الورقة بين يديها. حفظت بياناته في مفكرتها بشيء من الضّيق. لا تفعل ذلك من أجله.. بل من أجل لورا، ومن أجل خالتها زهور التي لا شك أن الموضوع مازال يسبّب لها الكوابيس.

*****

دقّت ياسمين الباب بلطف وفتحته ببطء. أطلت برأسها داخل الغرفة لتبحث عن صاحبتها. حين ألفتها تجلس في نفس المكان قرب النافذة، تقدّمت بهدوء. تنحنحت ثم قالت في لهجة أرادتها لطيفة:

- كيف حالك روزلين؟

- التفتت إليها روزلين في حدّة وقد بدا أن وجودها فاجأها. لم يكن لقاؤهما الأخير يمتّ إلى النجاح بصلة. وكانت مغامرة حقيقية أن تجرؤ على زيارتها بعد أسبوع واحد من المحاولة الأولى. لم يكن الأمر بيدها. يجب أن تتقدّم في بحثها وروزلين هي نقطة الانطلاق. ابتسمت في تلطف وهي تتخذ مجلسا إلى جوارها على المقعد العريض، دون أن تستأذنها.

- الممرضة تقول إنّك أكثر هدوءًا اليوم.

لم تكن روزلين قد نبست ببنت شفة إلى تلك اللحظة. استمرّت في التحديق باتجاه زجاج النافذة الذي يفصلها عنه حاجز حديدي متشابك، لمنعها من محاولة الفرار، وربما للحيلولة بينها وبين الزجاج الذي قد تفكر في استخدامه لأغراض أخرى. مثل الانتهاء من حياتها.

أخرجت ياسمين من حقيبتها صندوقًا معدنيّا صغيرًا يحوي بعض الحلويات التي صنعتها بنفسها وأدنته من روزلين. ظنّت أن تلك الوسيلة قد تساعدها في التقرّب من مريضتها. ربما كانت المعدة طريقًا إلى قلب الرجل، لكنّها بالتأكيد طريق إلى قلب سيّدة وحيدة ومسجونة في مستشفى نفسيّة ذات قوانين صارمة. لم يخب حدسها إذ تعلقت نظرات المرأة بالصّندوق، متردّدة في البداية، ثم بجرأة أكثر أخذت قطعة من الكعك وقضمتها بشراهة ينازعها الخجل. ابتسمت ياسمين في جذل. كانت خطتها تسير كما يجب. قالت متظاهرة باللامبالاة وهي تأخذ قطعة بدورها:

- الحياة ليست كلها سيّئة. هناك أوقات لذيذة كهذه تستحق أن نعيش

obeikandi.com

مـن أجلهـا.

فجـأة ارتفـع رنـين هاتفهـا. أخرجتـه مـن حقيبتهـا في اسـتياء. كانـت بصـدد إحـراز تقـدّم ولـم تكـن تريـد المقاطعـة. لكنّهـا غـيّرت رأيهـا حـين لمحـت اسـم لـورا يظهـر عـلى الشاشـة. تلـك سـاحة معركتهـا الثانيـة. نظـرت إلى روزلـين وهـي تقـول معتـذرة:

- يجب أن أردّ على هذا الاتصال.. سأعود فورًا.

بـدا أن روزلـين لـم تهتـمّ لوجودهـا مـن عدمـه، فقـد كانـت منغمسـة في التهـام قطـع الكعـك. ابتسـمت ياسـمين وهـي ترمقهـا في رضـا. مـن كان يظـنّ أن هـذه المـرأة أقدمـت عـلى الانتحـار منـذ أسـبوعين؟ غـادرت الغرفـة بخطـى سريعـة. اطمأنّـت إلى إغـلاق البـاب خلفهـا ثـمّ أشـارت إلى الممرّضـة في المكتـب المقابـل لتعلمهـا بمغادرتهـا المؤقتـة. حـين هـزّت الممرّضـة رأسـها كانـت ياسـمين تضغـط عـلى زرّ الـردّ:

- لورا كيف حالك؟

جاءها صوت لورا مفعمًا بالضّيق:

- لست بخير.

- أخبريني ماذا حصل؟

كانت على وشك البكاء وهي تقول:

- هيثـم، لا أفهمـه. رغـم كل مـا أفعلـه مـن أجلـه لكنـه يبـدو متغـيّرًا.. لـم يعـد يتحـدث إليّ كمـا السّـابق. يتجاهلـني ويعتـذر عـن الجلـوس معـي وقـت الغـداء بأعـذار عـدّة ومختلفـة كل يـوم، حـتى أنّـني بـدأت أشـك بأنـه يفعـل ذلـك متعمّـدًا.

تسـاءلت ياسـمين وهـي تسـتمع إلى شـكواها، هـل يعاقـب هيثـم لـورا لتراجعهـا بشـأن قـرارات التزامهـا السـابقة؟ أم أنّـه وثـق بهـا أخـيرًا وتـرك لهـا مسـؤولية رعايـة لـورا كمـا تـرى؟ قالـت لتهدّئهـا:

- اطمئـني، هيثـم لـم يتغـيّر مـن ناحيتـك. لكنـه يـترك لـك فرصـة لتعميـق الإيمـان بداخلـك دون أن يشـوّش عليـك.

قالت لورا في براءة:

- يشوّش عليّ؟ لكنّني في حاجة إليه!

ابتسمت ياسمين وهي تقول في تفهم:

obeikandl.com

- لا تهتمي الآن لهيثم وركزي على نفسك.. على إيمانك. ابتعاده سيساعدك على توضيح بعض النقاط داخلك. أنت لم تسلمي من أجل هيثم، بل من أجل نفسك قبل كل شيء، لاقتناعك بالإسلام، أليس كذلك؟

كانت ياسمين تريد التأكد من صدق نيّتها أوّلاً. لكنّ التّردّد بدا على لورا وهي تقول:

- لست أدري إن كنت سأصمد إن تخلى عنّي.

كان البكاء واضحًا في صوتها هذه المرّة. همست ياسمين بهدوء:

- اهدئي أرجوك وحدّثيني عن كل شيء.

استرسلت لورا ودموعها تسبقها:

- أعرف هيثم منذ سنتين.. لكنه لم يكن يتحدّث إليّ كثيرًا.. كل التبادل الذي كان بيننا يخصّ العمل ولا شيء غيره.. لكنّني أعجبت به، بشكله، بشخصيّته وأيضًا بأخلاقه وبطريقته المؤدبة في التّعامل مع الزّميلات.. كنت أراه كنوع من الفارس الشرقيّ الذي أخذ يسكن أحلامي.. فبحثت عن وسيلة للتقرّب منه.

زفرت ياسمين في ضيق. لم يكن حدس رنيم مخطئًا إذن. تابعت لورا بصوت مختنق:

- حين عرفت أنّه مسلم، أخذت أبحث وأحاول التّعرف على الإسلام.. ثمّ بدأت أسأله في كلّ مرّة عن بعض التفاصيل والقصص التاريخيّة.. وكنت أرى حماسًا كبيرًا في عينيه وهو يحدّثني عن تلك المواضيع التي يحبّها.. ولما رأى اهتمامي بالإسلام، أصبح يهتمّ بي ويسأل عنّي ويحضر لي الكتب والقصص المترجمة إلى الفرنسية.. وأنا كنت سعيدة جدًا باقترابي من عالمه، لكنّني كنت أدرك أنّ صلتنا ستدوم ما دام تعلّقي بالإسلام.. لذلك أعلنت إسلامي.

تنهّدت ياسمين حين وصلت لورا إلى تلك المرحلة من قصّتها ثم قالت في رفق:

- لم يفت الأوان بعد. مازالت الفرصة سانحة لتحسّني إسلامك. يجب أن تركزي الآن على التّعلم والتعمّق في المبادئ الإسلامية. ألست تعتقدين أنها جيدة وتناسبك؟

لكن لورا لم تتوقف عن البكاء. واصلت متجاهلة مقاطعة ياسمين:

- ورغم ذلك.. رغم دخولي الإسلام فإنّ عائلته لم تقبلني.. والدته كانت تعارض ارتباطنا بقوّة.. فما الذي يجب عليّ فعله حتى ترضى بي زوجة لابنها؟

هزت ياسمين رأسها وهي تقول بقوّة:

- لورا أرجوك اسمعيني. لا تشغلي نفسك بكلّ هذه التفاصيل.. خالتي زهور ستقتنع بك حين تصبحين جاهزة. حين تعرفين الإسلام جيدًا وتقتنعين به ستجدين نفسك بدون شعور منك تسعين إلى فعل الطاعات والالتزام بتعاليم الإسلام.. وهذا كل ما يريده هيثم وأهله، أن تكوني مسلمة بأتمّ معنى الكلمة.

- أن أكون مسلمة بأتم معنى الكلمة يعني أن ألبس الحجاب مثلك؟ وأصلي كل يوم خمس مرّات؟ وأصوم رمضان؟ وأشياء كثيرة أخرى في كتب الفقه.. لا أطلي أظافري ولا أضع أصباغًا على وجهي ولا أسهر مع أصحابي.. ممنوعات كثيرة وصعبة.. لا أجدني قادرة عليها.

قالت ذلك وانفجرت باكية من جديد. ترجتها ياسمين وقد رقّ قلبها لها:

- رويدك يا لورا. رفقاً بنفسك. كل ذلك سيأتي بالتدرّج. حين تقتنعين بالمبدأ سترين كيف يسير كل شيء بسلاسة ويسر. لست بحاجة إلى التفكير في كل ذلك الآن.

- لا أدري يا ياسمين.. لا أدري.

كانت تبدو منهارة ومتعبة. قالت ياسمين على الفور:

- حسن، تعالي إلى شقتي هذا المساء.. من الأفضل أن نتحدّث بشكل مباشر.

أنهت الاتصال وتنهّدت بعمق. ستساعدها بما تقدر. لن تتركها تتراجع وترتدّ. مهما كانت ظروفها فهي صارت مسلمة منذ نطقت بالشهادتين. تعلم أن مهمتها لن تكون سهلة، لكنها ستفعل ما بوسعها. تقدّمت في اتجاه الغرفة حيث تركت روزلين وهي تبتسم. هناك أمور أخرى عليها الاهتمام بها في الحال. سترى أين وصلت مريضتها مع صندوق الكعك.

استعملت البطاقة الممغنطة لتفتح الباب وتقدّمت إلى وسط الغرفة. انفرجت شفتاها لتنطق بشيء ما، لكنّ عينيها اصطدمتا بأشيائها المبعثرة على الأرضيّة. مفكرتها، حافظة نقودها، مفاتيحها.. وكلّ الأشياء التي كانت

تملأ حقيبتها الجلدية. هتفت هذه المرّة في جزع:

- روزليـــــــــ...

لكنّها بترت كلمتها بعد أن تقدّمت خطوة واحدة لتلمح ساقين تتأرجحان وسط الغرفة. أحسّت برجفة تجتاح جسدها وهي ترفع بصرها ببطء وصدمة على امتداد الجسم الهامد الذي يتدلى من السّقف، حتى وصلت إلى العينين الخاليتين من الحياة. شهقت في ارتياع وهي تتراجع إلى الخلف حتى التصقت بالجدار وأوصالها لا تتوقف عن الارتعاش. حاولت أن تصرخ لكنّ صوتها خرج مختنقًا متحشرجًا بعبرتها:

- النجدة.. هل هناك أحد؟

ثم تهاوت على الأرض وعيناها مثبتتان على الحزام الجلدي الذي كان منذ دقائق قليلة متصلاً بحقيبتها.. في تلك اللحظة كان جانب منه ينعقد بإحكام حول أسلاك مصباح الإضاءة المتصلة بالسقف، في حين أحاط طرفه الثاني بعنق المرأة وعصره بشدة.. حتى الموت.

*****

تحلق أفراد العائلة حول مائدة العشاء وأخذوا يتناولون طعامهم في جوّ أسريّ منسجم. كانت ميساء تقصّ عليهم يومها الجديد في الجامعة، يقاطعها وائل من حين لآخر ليفتك الكلمة فيتزاحمان في مرح طفولي لإفراغ جرابيهما من الحكايات. أمّا هيثم فقد كان يجلس في طرف المائدة ويستمع في صمت بينما تسرح أفكاره من حين لآخر بعيدًا عن فضاء الشقة الضيّق.

كان قد وجد ذلك الصباح في بريده الإلكتروني رسالة جديدة من لورا. أصبحت تكتب إليك بشكل يوميّ مؤخّرًا، مع أنّهما يلتقيان مرارًا في ممرّات الشركة وغرفها. تعوّض عن لحظات «الخلوة» المعتادة في المطعم أو على الهاتف، بثرثرة متّصلة ومضطربة، تعكس تأثير ابتعاده عنها على حالتها النّفسيّة. كان يعلم أن علاقته بها اتخذت مسارًا خطرًا وصار عليه أن يعيد الأمور إلى نصابها. لكن انسحابه التدريجيّ كان مربكًا لها.

فجأة ارتفع رنين هاتف ليخرجه من أفكاره. أخرج هيثم هاتفه من جيبه ونظر إلى الشاشة التي أضاءت معلنة عن اتصال جديد. عقد حاجبيه في

Obeikandl.com

ضيق وهو يقرأ الاسم الذي ظهر أمامه ثم ضغط على زرّ التجاهل وأعاد الجهاز إلى مكانه. لكن لم تمض ثوانٍ حتى ارتفع الرنين المزعج مجدّدا. وقف هذه المرّة معتذرًا وتوجّه إلى غرفته، في حين تبادلت زهور وميساء نظرات مليئة بالشك.

ما أن أصبح هيثم وحيدًا حتى ضغط على زرّ الرّدّ على الاتصال وقال في انزعاج:

- لورا ما الأمر؟ ألم أطلب منك عدم الاتصال حين أكون في البيت؟

هو في الحقيقة لا يردّ حين يكون في المكتب بحجّة انشغاله بالعمل، ولا يردّ في البيت بحجّة وجود أفراد العائلة معه. ولم يزدها ذلك إلا جنونًا وإمعانًا في محاصرته. صوتها المنكسر فاجأه. قالت في قلق ظاهر:

- أنا آسفة. لكنني لم أعلم ما يجب عليّ فعله. كنت على موعد مع ياسمين هذا المساء. ذهبت إلى شقتها فلم أجد أحدًا.. حاولت الاتصال بها لكنّ ممرضّة أجابت لتقول إن ياسمين ترقد في المستشفى. وطلبت مني إعلام أهلها.. وبما أنني لا أعرف أحدًا منهم فقد اتّصلت بك.

عقد حاجبيه في قلق وهو يسألها:

- ما اسم المستشفى؟

بدا عليها التّردّد وهي تقول في تلعثم:

- لست واثقة.

هتف في حدّة:

- لست واثقة؟

- لا أذكر الاسم. انتظر سأتصل بها من جديد.

قاطعها في صرامة وهو يقول:

- لا داعي لذلك. سأتصل بنفسي.

أنهى الاتصال ثم نظر إلى الشاشة في عصبيّة. تذكر أنه لا يملك رقم ياسمين. ربما كان عليه أن يأخذه حين أعطاها بياناته. لن يطلبه من ميساء، ستشك في الأمر. لم يكن أمامه إلا معاودة الاتصال بلورا. ما أن وصله صوتها حتى قال في اقتضاب:

- أعطني رقمها.

سجل الرقم في ذاكرة هاتفه ثم أغلق الخط ليكوّن رقم ياسمين. انتظر

لثوانٍ عدّة وهو يستمع إلى الجرس يرنّ من الجهة الأخرى دون فائدة. أعاد تكوين الرقم وترقب الرّدّ بصبر نافد.

- مرحبًا، من المتّصل؟

- هل هذا هاتف ياسمين؟

- نعم، هل أنت من أفراد عائلتها؟

تردد للحظات. كيف يعرّف نفسه؟ قال أخيرًا:

- أنا صديق.

- هل يمكنك إعلام أهل المريضة؟ لقد فقدت الوعي اليوم وتمّ تنويمها.

أخذ من الممرّضة عنوان المستشفى ورقم الغرفة ثم زفر في ضيق. كيف سيبلغ والدته بالأمر دون أن يذكر لورا وعلاقتها بياسمين؟ خرج إلى غرفة الطعام وقد ظهر على وجهه التوتر، وتزايد توتره مع النظرات المترقبة التي استقبلتها به والدته. قال أخيرًا في تلعثم:

- آآ.. إنّها ياسمين.

هتفت ميساء في دهشة:

- ياسمين؟ كانت هي من اتصل؟

لا يدري أيّ تفكير لدى شقيقته أوحى إليها بأن ياسمين يمكن أن تتصل به. لكن الفكرة راقت له، طالما أنّها تبعده عن ذكر لورا الذي يصيب والدته بالجنون. هزّ رأسه علامة الموافقة في اندفاع لم يحسب عاقبته. دعك جبينه بأصابعه الطويلة وهو يقول:

- إنّها في المستشفى.. يبدو أنّه أغمى عليها.. واضطرّوا لتنويمها الليلة.

وقفت زهور في ارتياع وهي تهتف:

- يا إلهي، الصغيرة المسكينة. يجب أن نذهب إليها.

أشار هيثم بكفه مهدئًا:

- إنّها تحتاج إلى بعض الرّاحة.. سآخذك لزيارتها غدًا إن شاء الله.

حمد الله أن روايته لم تثر الشكوك لدى أحدهم. كلهم اهتمّوا بصحّة ياسمين ولم يتساءلوا عن سبب اتصالها به دون غيره أو عن كيفية وصول رقمها إليه. استدار ليعود إلى غرفته فناداه والده:

- هيثم.. لحظة.

التفت إليه في ارتباك:

- نعم أبي.

أشار إلى المكان الشاغر الذي كان يجلس فيه هيثم وقال:

- لم تنه طبقك.

أوف، لم يكشف أمره. ابتسم وهو يلوّح بكفه:

- لقد اكتفيت. الحمد لله.

بعـد أن أوصـد بـاب غرفتـه خلفـه، وقفـت ميسـاء لتجمـع الصحـون وهـي تهمـس في اسـتغراب:

- لا أصدّق أنّ ياسمين اتصلت بهيثم ولم تتصل بي. ألست أنا صديقتها؟

obeikandl.com

obeikandl.com

-٢٨-
ليلة من ليالي ألف ليلة

جلست إلى مكتبها في إرهاق. لم يكن العمل ما يثقل كاهلها بقدر ما يفعل اكتشاف ذلك الصباح. رغم محاولتها شغل نفسها طوال النهار إلا أنّ أفكارها تتسلل غصبًا عنها إلى المنطقة المحظورة. قضت ساعات وهي تتنقل مع موكّلتها الجديدة بين الإدارات والمباني الرّسميّة. لم يكن وجودها ضروريًّا في كل المراحل لكنّها كانت متفرغة، هكذا قالت، والحقيقة أنّها أفرغت جدول أعمالها من كل ما يخصّ قضيّة عمر لتبتعد عن سيرته قدر الإمكان. لكن ما أن وجدت نفسها بين جدران المكتب من جديد حتى رزحت تحت ثقل مخاوف الصباح.

كيف ستواجه ياسمين الآن؟ كيف تخبرها بأنها تعلقت بالشاب الذي تحسبه فارس أحلامها؟ بل كيف تبلغها أنّ بطل حكايتها الذي اختفى دون سابق إنذار يرقد في المستشفى بجسد مليء بالحروق والكسور وينتظر محاكمة بتهمة الإرهاب؟ ليتها لم تصرّ عليها لتحدّثها عن قصّة شاب المترو. ليتها لم تطلب منها الكتب. ليتها لم تأخذها إلى عمر. ليتها.. ليتها. لكنّها فعلت. فعلت كل شيء بنفسها. والآن أصبحت الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يصل الحبل المقطوع. منذ افتراق طريقيهما أصبحت هي همزة الوصل الوحيدة بين عالميهما.

ياسمين وعمر. كان يجب أن تعلم. إنّهما متوافقان بشكل مذهل. في الطباع والأفكار والقناعات والأذواق. كانت تتندّر في سرّها بخصوصهما فتقول إنهما نسختان متطابقتان، الأولى ذكر والثانية أنثى.. الأولى في العمل والثانية في البيت. لذلك قرّرت ألا تهتم بالعمل الذي يخصّه هو وألا تعود إلى البيت الذي تسكنه هي.

لكن مهلاً، ماذا لو لم يكن عمر يتحدث عن ياسمين؟ وماذا لو كانت ياسمين تتحدّث عن شخص آخر غير عمر؟ كان هناك احتمال ضئيل بأن تكون تلك القصّة تكررت بنفس الشكل بين زوجين مختلفين، في نفس المدينة وفي نفس الفترة. ابتسمت في تهكم على أملها الهزيل. كانت تبحث

عـن قشـة تتعلـق بهـا.

- لازلت هنا؟

فاجأها صوت جورج الذي ظهر عند الباب.

- هل تعلمين كم الساعة؟

نظـرت في سـاعتها. كانـت قـد تجـاوزت الثامنـة مسـاءً. لـم يكـن هنـاك مـن موجـب لتأخرهـا حـتى ذلـك الوقـت. لكنهـا لـم تكـن ترغـب مطلقًـا في العـودة إلى الشـقة تلـك الليلـة.

- كنـت أنتظـر انتهـاءك لأتحـدّث إليـك، لكـن يبـدو أننـا سـنتأخر عـن الجماعة. لذلـك أضطـر إلى مقاطعتك.

سألته في استغراب:

- نتأخر عن الجماعة؟

- أنت مدعوّة على العشاء.

رفعت حاجبًا وقد أدركت ما يقصد:

- ميشال سيكون هناك أليس كذلك؟

هز كتفيه وهو يقول:

- لسـت أدري مـا وجـه الخـلاف الـذي بينكمـا، لكنّـه يبـدو مـصرًّا عـلى مصالحتـك. طلـب مـنّي التحايـل عليـك لتحـضري، لكنّـني لا أجيـد الأسـاليب الملتويـة. أنـت امـرأة عاقلـة وراشـدة. إن كنـت تودّيـن المجـيء فسيسـعد ذلـك الجميـع. أمّـا إن امتنعـت فذلـك شـأنك. لكـن دعيـني أخـبرك أولاً أنـني لـم أر ميشـال متأثـرًا مـن أجـل امـرأة بهـذا الشـكل مـن قبـل.

ابتسمت في هدوء وهي تقول:

- حسن.. سآتي.

نظر إليها في دهشة:

- حقًـا تفعلـين؟ لـم أكـن أعتقـد أن أسـلوبي في الإقنـاع ناجـح إلى هـذه الدّرجة.. أظنّـني سـأصاب بالغرور.

ضحكت رنيم وهي ترتدي معطفها:

- لا علاقـة لأسـلوبك بالأمـر. أحتـاج إلى تغيـير الجـوّ.. وهـذه فرصـة جيّـدة في نهايـة الأمـر.

حدجها جورج متظاهرًا بالحزن:

- كان يمكنك أن تجامليني وتقولي بأنني أقنعتك.
قالت ساخرة وهي تسير إلى جواره:
- ذكرني بأن أفعل في المرّة القادمة.

*****

ما أن تخطت عتبة المطعم حتى أيقنت من فخامة المكان العالية. تقدّمت فوق السّجاد الأحمر الذي فرش على امتداد الممرّ المؤدّي إلى قاعة الطعام وهي تتأمّل المكان من حولها في انبهار. الديكور، الألوان، الأضواء.. كلها كانت في غاية الذوق والرّقيّ. استقبلها النادل ببذلته الناصعة وربطة عنقه الأنيقةوانحناءة عريضة:
- آنسة رنيم؟

رفعت حاجبيها في استغراب وهي تلحظ أن النادل كان يعرف اسمها. التفتت لتستفسر من جورج، لكنه كان قد اختفى! إنها متأكدة من أنه كان يمشي خلفها. لا تدري كيف تبخر بتلك السرعة ودون أن تشعر. أطلت من الواجهة البلوريّة فلمحت سيارته وهي تبتعد عبر الشارع الرئيسي. هكذا إذن. يبدو أنه أتقن حبك الخطة هذه المرّة. لوهلة فكرت بالانسحاب، لكنّ رغبة خفيّة في اكتشاف ما يحضره لها ميشال كانت تنازعها. كل شيء حولها كان ينطق بالإغراء. دون أن تشعر غلبها ضعفها أمام الأشياء البرّاقة فتقدّمت خلف النادل الذي أشار إليها بأن تتبعه.

صعدت درجات السلم المؤدّية إلى القاعة العلويّة ثم تقدّمت باتجاه المائدة التي أشار إليها مرافقها. لم يكن ميشال هناك. جلست في ارتباك قرب النافذة وأخذت تتلفت حولها وهي تنتظر أن يظهر أحد، لكنّ القاعة كانت خالية تمامًا. ذلك المتهوّر هل يكون قد حجز القاعة كلها؟ إن كانت الوجبة الواحدة في مطعم كهذا تقدر بمئات اليوروات، فماذا عن حجز القاعة كلها؟ عضّت على شفتها السفلى في تأثر. ماذا لو لم تحضر؟ كيف كان سيشعر وكل جهوده تضيع هباءً؟ والمصيبة هي أنّها لم تكن تنوي الحضور. لولا الاكتشاف الذي صدمها لما كانت قبلت الدعوة. والحقيقة أنّها لم تقبلها من أجل ميشال بقدر ما كانت فرارًا من مواجهتها مع

ياسـمين. سرحـت نظراتهـا عـبر الواجهـة الزجاجيـة الـتي كانـت تهـدي منظـرًا خلابًـا لمدينـة الأنـوار وقـد أضـاءت نواحيهـا بـآلاف المصابيـح مبـدّدة ظلمـة الليـل، وانتظـرت في تململ أن يظهـر ميشـال.

فجـأة انطفـأت أضـواء القاعـة في وقـت واحـد وبقيـت الشـموع وحدهـا تتـلألأ في الظلمـة. ارتبكـت وهـي تجـوب المـكان بعينيهـا ولبثـت متحفّـزة الحـواس مترقّبـة مـا سـيأتي. انتبهـت مـع تسـلل نغمـات رقيقـة هادئـة مـن مكـبّرات الصّـوت المثبّتـة في أركان القاعـة. رفعـت رأسـها في اهتمـام وهـي تصغـي إلى ذلـك اللحـن السّـاحر لأغنيـة تعشـقها.. «أحبّهـا حـتّى المـوت». لكـنّ المفاجـأة الحقيقيـة كانـت الصّـوت الرجـالي الـذي أخـذ في الغنـاء.

«كنت لا شيء قبلها
وأنا اليوم حارس ليالي نومها
أحبها حتى الموت» *

تلفتـت يمنـة ويـسرة وهـي تبحـث عـن مصـدر الغنـاء. لـم يكـن صـوت المغنّيالفرنـسي فرانسـيس كابريـل**. تعرّفـت عـلى تلـك النـبرة المألوفـة دون صعوبـة، وابتسـمت في كل مـرّة تفطنـت فيهـا إلى نوتـة خاطئـة، وقـد تكـرّر ذلـك كثـيرًا. لـم يكـن صوتـه شـجيًّا ولـم يكـن الغنـاء ميزتـه، لكنـه كان يسـتمتع بـأداء ذلـك الـدّور. اسـتمرّ في الغنـاء لثـوانٍ إضافيـة في الكواليـس دون أن يظهـر للعيـان، كأنـه يريـد لسـحر اللحظـة أن يمتـدّ أكـثر.

«يمكنـك أن تدمّـر كل مـا تريـد، ويكفيهـا أن تفتـح ذراعيهـا لتعيـد بنـاء كل شيء.
أحبها حتى الموت» ***

---

* Moi je n'étais rien, et voilà qu'aujourd'hui
Je suis le gardien du sommeil de ses nuits
Je l'aime à mourir

**Francis Cabrel: مغـني وملحـن وعـازف غيثـار فرنـسي مـن مواليـد ١٩٥٧، معـروف بأغانيـه الملتزمـة. أشـهر انتاجاتـه أغنيـة «أحبهاحـتى المـوت» الـتي غناهـا سـنة ١٩٧٩ بالفرنسـية ثـم الاسـبانية، قبـل أن تغنيهـا شـاكيرا سـنة ٢٠١١.

***Vous pouvez détruire tout ce qui vous plaira
Elle n'a qu'à ouvrir l'espace de ses bras,pour tout reconstruire
je l'aime à mourrir

opeikandi.com

توقفـت رنيـم عـن البحـث حـين لمحـت ظـلاً يتحـرّك. التمعـت عيناهـا في تأثـر وهـي تحـدّق في الرّجـل الـذي خـرج مـن إحـدى الزوايـا المظلمـة، وهـو يمسـك مصدحًـا وباقـة ورود حمـراء ويـردّد كلمـات الأغنيـة الـتي تحفظهـا عـن ظهـر قلـب:

«هي تمحو أرقام ساعات الحيّ
وتحوّل حياتي إلى دمى ورقية وضحكات
تبني جسورًا بيننا وبين السماء
نعبرها في كل مرّة لا تريد أن تنام
أحبّها حتى الموت.
كان عليها أن تخوض كل الحروب، لتكون بتلك القوّة اليوم
كان عليها أن تخوض كل حروب الحياة، والحب أيضًا» *

كان يتحـدّث عنهـا لا محالـة. أحسـن اختيـار الأغنيـة الـتي تعـبّر عنهـا.. عـن حروبهـا في الحيـاة، وفي ميـدان الحـبّ أيضًـا. راقبتـه وهـو يتقـدّم باتجاههـا عـلى مهـل. أخـيرًا توقـف أمامهـا والباقـة الحمـراء الكبـيرة تـكاد تحجـب وجهـه. مـع آخـر كلمـات الأغنيـة كانـت الباقـة تسـتقر بـين ذراعـي رنيـم الـتي وقفـت مصدومـة ومنبهـرة. في نفـس اللحظـة عـادت المصابيـح لتنـير القاعـة بضوئهـا الـبراق ولتكتشـف وجـه مخاطبهـا بوضـوح. هـذه المـرّة وجـدت الابتسـامة طريقًـا إلى وجههـا وهـي تطالعـه في ذهـول. لـم تكـن تعلـم أنـه قـادر عـلى فعـل كل هـذه الحـركات الرومانسـية مـن أجلهـا.

- مائة واثنتان وثلاثون وردة.. على عدد الأيام التي مضت دون أن أراك.

حدّقت فيه في دهشة غير مصدقة. هل كان يعدّ الأيام حقًا؟

- أنت مجنون!

- أنـا مجنـون لأنّـني جرحـت إنسـانة رقيقـة مثلـك. وكان يجـب أن أصلح خطئي

---

*Elle a gommé les chiffres des horloges du quartier
Elle a fait de ma vie des cocottes en papier, des éclats de rire
Elle a bâti des ponts entre nous et le ciel
Et nous les traversons à chaque fois qu'elle, ne veut pas dormir
Je l'aime à mourir
Elle a dû faire toutes les guerres pour être aussi forte aujourd'hui
.Elle a dû faire toutes les guerres de la vie, et de l'amour aussi

مهما كلف الثمن.

سحب مقعدها إلى الوراء وهو ينحني في لباقة، ثم اتخذ مجلسه قبالتها. كانت تلمح لمعة غريبة في عينيه وهو يرنو إليها في تلك اللحظة. لمعة صدق لم تلحظها فيهما من قبل. حين زارها ذلك الصباح كانت تظنّ نفسها في منأى عن تأثيره. لم تهتزّ منها شعرة واحدة وهو يرجوها بأن تعطيه فرصة أخيرة. لكن وهي تجلس هنا معه في هذا الإطار الرّهيب، كان إحساس غريب يراودها. ماذا لو كان ميشال هو قدرها؟ ماذا لو كانت عودته في هذا الوقت بالذات إشارة ربّانية؟ في نهاية الأمر مشاعرها تجاه عمر كانت خاطئة منذ البداية. كانت ستصطدم بجدار أصمّ حتمًا، فلا مجال للمنافسة بينها وبين ياسمين.. أيقظتها من أفكارها لمسته وهو يمسك بكفها فوق الطاولة. بحركة غريزية سحبت كفها بقوّة. سألها في دهشة:

- رنيم، ما الأمر؟

همست في حرج وهي تضمّ كفيها في حجرها:

- إنها مفاجأة.. مفاجأة حقيقية.

لم تتعمّد تلك الحركة. ندّت عنها دون أن تشعر. تسارعت أنفاسها بنسق مضطرب. لم تكن تمانع أن يمسك يدها في السابق.. هو أو غيره من الأصدقاء. كانت تحسبها حركة بريئة وبسيطة لا تلقي إليها بالاً. لكن الآن حالاً، ما الذي دهاها؟ لماذا نفرت من تلك اللمسة؟

جاءها صوته مجدّدًا وهو يقترب منها أكثر:

- أعجبتك؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب وهي تبتسم. كانت تعيش حلمًا. تحسّ بالخفة، كأنها تحلق في سماء القاعة.. كأنها ترقد فوق الغيوم. حلم لذيذ ممتع مثلما تمنته في أحلام اليقظة وهي طفلة، وربما أجمل.

قال في رقة وابتسامة واثقة تزين شفتيه:

- كنت سأترك المفاجأة الأخيرة من أجل السّهرة، لكنّني لم أعد أستطيع الانتظار.

قال ذلك وهو يخرج علبة حمراء مخملية من جيبه. شدّ أصابعه عليها وهو يقول:

- هل تذكرين حين كنت تحدّثينني عن الزواج؟ كنت خائفًا من الارتباط لأنني لم أكن واثقًا أنّني قد وجدت الشخص المناسب بعد.. أردت إعطاء نفسي فرصة إضافية لأعيش تجارب أخرى وأتعرّف على نساء أخريات حتّى أجد تلك التي تجعلني أجري وراءها وأتوسلها لتتزوّجني حتى أقيّدها إلى جواري إلى الأبد.. لكنني كنت مغفلاً لأن تلك الحسناء كانت أمامي طوال الوقت، بل قطعة منها تسكن جسدي.. ولم أتفطن إلى ذلك إلا بعد رحيلها. أمضيت أسابيع وشهورًا وأنا أحاول إقناع نفسي بأنني اتخذت القرار الصّواب حتى لا أظلمك معي. إلا أنني كنت أفتقدك كل يوم، في المكتب، في الشقة، في السيارة، في الشارع.. في كل مكان كانت تنقصني ضحكتك المرحة وروحك الذكية اللبقة. افتقدت شريكتي في العمل وأيضًا صديقتي التي تقف إلى جانبي في كل ظرف.. وخصوصًا حبيبتي التي تركت لمساتها في كل مكان من حياتي اليوميّة، حتى أنني لم أقدر على محو أي منها. اكتشفت أنني ظلمتك وظلمت نفسي بذلك البعاد القسري. لذلك وجدتني وبدون شعور مني أفكر في الزّواج.

كانت تستمع إليه دون مقاطعة وشيء ما في قلبها يتحرّك. كانت تنتظر جملته الموالية بفارغ الصّبر. تكذب على نفسها إن نفت أنها انتظرتها وتخيّلتها مرّات عدّة في وحدتها المؤلمة. حتى بعد مرور تلك الشهور على هجره القاسي، كان لكلماته النابعة من الصّميم تأثيرها. التمعت عيناها وهي تسمعه يقول:

- رنيم.. هل تتزوّجينني؟

رنت إلى الخاتم الماسيّ الذي كشف عنه الغطاء أمام عينيها وتأملته بنظرات مأسورة. كانت ماسات حقيقية، وكان اختياره موفقًا. كان كل شيء من حولها مثاليًّا ولم يكن هناك أنسب من رجل فرنسيّ ليلعب دور البطولة في ذلك المشهد الرّومانسي بامتياز. مدّت أصابعها باتّجاه العلبة كأنّها مسيّرة. تريد ذلك الخاتم من كلّ قلبها. توقّفت كفّها عند منتصف الطريق وكأنّ رغبة داخليّة أخرى تفوّقت على انجذابها الآنيّ للبريق الماسيّ. رفعت عينيها إلى وجه ميشال الذي كان يرقبها بنظرات ملؤها الأمل والرّجاء. تأمّلته في حيرة وذهول. لوهلة أصابها الذعر. لم تكن في كامل وعيها، كأنّها في حلم يقظة بالفعل. وهل هذا الرّجل هو رجل أحلامها المنتظر؟

لكنه.. لكنه.. لكنه الشخص الخطأ!

بشكل ما تغيّرت مواصفات الرّجل المثالي لديها. لم يعد يشبه الشاب الأوروبي ممشوق القوام ذا العيون الملونة. ربّما أصبح يشبه أكثر شابًا عربيًا مشوّه الجسد يرقد خلف قضبان الزنزانة. في لحظات، سحبت كفّها وقد تمالكت نفسها. قالت في هدوء:

- لكنّني مسلمة.

نظر إليها في استغراب. ما الذي دهاها؟

- أعلم أنّك مسلمة. أنت كذلك منذ عرفتك.

هزّت رأسها وكلمات ياسمين تتردّد في رأسها:

- لكنّ المرأة المسلمة لا يمكنها أن تتزوّج من رجل غير مسلم.

حدّق فيها في عدم استيعاب. ألم تكن هي التي أوجعت رأسه بحديثها عن الزواج ليلاً نهارًا منذ أشهر قليلة؟ قال محاولاً سبر أغوارها:

- تريدين منّي التحوّل إلى الإسلام؟ هل هو اختبار إضافيّ لاكتشاف قيمتك عندي؟

قالت ببساطة وهي تهزّ رأسها:

- ليس اختبارًا.. إنّها الحقيقة. لا يمكنني أن أتزوّجك وأنت على غير الإسلام. لم أطلب منك التحوّل إلى الإسلام لأنني أعلم أنك لن تفعل.. لكنها ملاحظة أبديتها بشأن طلبك.

هتف على الفور في تحدٍّ متهوّر:

- ماذا لو فعلتها؟

- فعلت ماذا؟

- ماذا لو أسلمت؟ هل تتزوّجينني حينها؟

ابتسمت في هدوء وهي تقول:

- أنت لم تفهم بعد. ألم أقل لك إنني تغيّرت؟ لو كنت رنيم التي عرفتها في مرسيليا لكنت الآن أقفز من الفرح وأدور حول نفسي في سعادة. لكن حتّى تلك الحركات لم تعد تستهويني. لقد تغيّرت يا ميشال. حياتي تغيّرت، شخصيّتي تغيّرت.. حتى مواصفات الرجل المثاليّ في نظري تغيّرت. لم تعد أنت الشخص المناسب. لا أريد منك تضحيات أو المرور باختبارات. استأنف حياتك بعيدًا عني واتركني في حالي.

ثم وقفت وهي تأخذ حقيبتها وقالت في امتنان غير موارب:

- شكرًا على اللحظات الممتعة.. ظننت أنني في حلم.

دون أن تنتظر ردّه انطلقت لتقطع الأمتار التي تفصلها عن الدّرج بخطوات خفيفة كأنها تطير. حين دخل النادل حاملاً أطباق العشاء كانت هي تنزل الدرجات بأقصى سرعتها، لتبتعد أكثر ما يمكن عن ذلك المكان. تركته يقف مصعوقًا وسط القاعة الفارغة والخاتم الماسي يلتمع في العلبة بين يديه. ركضت وقوّة خفية تدفعها. لقد تخلت للتوّ عن حلم طفولتها ومراهقتها وبداية شبابها. إنّها تعي ذلك جيدًا.

بعض الأحلام نتمناها وننتظرها بترقب ونفاد صبر.. وحين تصبح منا قاب قوسين أو أدنى ندفعها بلا ندم، لأننا ارتفعنا بأحلامنا درجة ورفعنا هممنا درجات، فما عادت أحلام الماضي تكفينا وترضينا.

openkandl.com

obeikandl.com

-٢٩-
عقدة الذنب

عبرت ميساء وزهور الرّواق المؤدي إلى غرف المرضى في هرولة مرتبكة. كان هيثم يتقدّمهما بخطواته الواسعة في حين كانتا تحاولان مسابقته حتّى لا تفقدا أثره. توقف أخيرًا على بعد أمتار قليلة من الغرفة التي أعطتهم الممرّضة رقمها منذ حين. تسمّر ثلاثتهم وهم يلمحون رجل الشرطة الذي وقف عند الباب. بالدّاخل، كان يتمّ التحقيق مع ياسمين بشأن حادثة الانتحار. مرّت دقيقة انتظار مريرة قبل أن يفتح الباب ويخرج شرطيان بزي رسميّ يرافقهما طبيب بإزاره الأبيض. تبادلا بضع كلمات مع الشرطي الثالث الذي كان يقف خارج الغرفة، ثم ابتعد جميعهم مغادرين. تنهّدت زهور وهي ترى رجال الأمن ينصرفون. كانت تلك علامة مطمئنة. توجهت على الفور إلى غرفة ياسمين تتبعها ميساء، في حين تأخر هيثم عنهما وحثّ الخطى ليلحق بالطبيب الذي غادر الغرفة للتوّ.

كانت ياسمين في غاية الشحوب. عانقت ميساء وزهور في حبّ وقد سرّتها زيارتهما غير المتوقعة. كانت دموعها على أعتاب جفونها منذرة ببكاء قريب بعد حصّة الاستجواب التي تعرضت إليها. وكأن ميساء قد أحسّت بضعفها فجلست إلى جوارها على طرف السرير واحتضنتها. همست ياسمين بصوت مختنق من العبرة:

- أنا متعبة.

انسابت العبرات على وجنتيها في هدوء منفسة عن كلّ الضّغط الذي تراكم في صدرها. سألتهما فجأة:

- كيف عرفتما أنني هنا؟

قبل أن تردّ إحداهما، تعالت دقات على باب الغرفة. مسحت ياسمين دموعها بسرعة قبل أن تأذن للقادم الجديد. تقدّم هيثم إلى داخل الغرفة في حرج. خفض عينيه بسرعة بعد أن وقعت عيناه على وجهها الذابل. كانت مختلفة بنظراتها المنكسرة وعلامات البكاء الواضحة في عينيها. الطبيب قال إنّها في حاجة إلى راحة إجباريّة لمدّة شهرين. إجازة مرضيّة ملزمة علّها

تشـفى مـن حالـة الانهيـار.

- كيف حالك؟

- بخير.

ردّت في حـرج وهـي تتجنّـب النّظـر إليـه. ارتفـع رنـين هاتـف ليقطـع الصّمـت الـذي خيّـم عـلى الجميـع. أخـرج هيثـم هاتفـه وطالـع الشاشـة في ضيـق قبـل أن يسـتأذن خارجًـا. مـا أن أغلـق البـاب ورائـه حـتى فتـح الخـط. جـاءه صوتهـا عـلى الفـور:

- هيثم أين أنت؟

رد ببرود كبح اندفاعها الشاعري:

- أنا في المستشفى.

- آه، من أجل ياسمين؟ كيف حالها؟

- إنها بخير. تلزمها بعض الرّاحة.

- طيّب.

مرّت فترة من الصّمت قبل أن تهمس لورا من جديد:

- هل ستأتي إلى الشركة اليوم؟

زفر في ضيق وهو يقول:

- لا أدري.. ربما.

كان ينـوي الذهـاب إلى المكتـب بعـد أن يعـود بوالدتـه وميسـاء إلى البيـت، لكنـه لـم يـرد إخبارهـا. ليـس مضطـرًا إلى إعطائهـا تقريـرًا مفصّـلاً بحركاتـه وسـكناته. وإصرارهـا عـلى ملاحقتـه صـار يزعجـه. أنهـى الاتصـال وتنهّـد بقـوّة. هـل هـو مخطـئ فيمـا فعلـه؟ هـل جعلهـا تتعلـق بـه أكـثر مـن الـلازم؟ كان يريـد الـزواج بهـا ومـازال، لكـنّ مـا يحصـل بينهمـا هـذه الفـترة لا يمـتّ إلى مخططاتـه بصلـة.

انتبـه مـن أفكاره حـين سـمع وقـع أقـدام تقـترب. رفـع رأسـه ليلمـح رجلـين يتقدّمـان في الممـرّ. وقفـا غـير بعيـد عنـه وأحدهمـا يقـول في اندفـاع غاضـب:

- ألـم أقـل إن تلـك الفتـاة لـن تجلـب لنـا سـوى المتاعـب؟ كنـت تريـد منهـا أن تـدرس ظاهـرة الانتحـار فهاهـي تتسـبّب في حالـة جديـدة.

قاطعه دافيد محاولاً تخفيف انفعاله:

- لكـنّ روزلـين أقدمـت عـلى الانتحـار منـذ أسـبوعين وكان مـن المتوقـع أن

تكـرّر المحاولـة.

هز باتريك رأسه علامة الرفض:

- حالـة روزلـين كانـت مسـتقرّة وتحـت المراقبـة. كان بالإمـكان السّـيطرة عليهـا ومعالجتهـا حـتى تمـرّ الأزمـة. لكـن طالبتـك الغبيّـة وضعـت بـين يديهـا الأدوات الـتي تمكنهـا مـن إنهـاء حياتهـا لتعطـي الصّحافـة المـادّة اللازمـة للتشـهير بالشركـة مـن جديـد.

زفر دافيد وهو يقرّ ضمنيًّا بصحّة وجهة نظر باتريك، ثم قال في قلق:

- يجـب أن نمنعهـا مـن تقديـم أيّ تصريحـات للصّحافـة. إنّهـا قـادرة عـلى توريطنـا بـكلّ بـراءة.

ثمّ أشار إلى غرفة ياسمين وهو يقول:

- حسن.. هاهي الغرفة.

تقـدّم هيثـم تلقائيًّـا ليقـف أمـام البـاب ويقطـع عليهمـا سـبيل المـرور. فوجـئ بـه الرّجـلان وهـو يسـدّ الطريـق أمامهمـا. لكنّـه بادرهمـا عـلى الفـور موضحًـا وهـو يحـدج باتريـك بنظـرة صارمـة:

- الرجـاء الهـدوء مـن فضلكمـا. المريضـة في حالـة صدمـة وتلزمهـا الرّاحـة والابتعـاد التّـام عـن الضغوطـات والانفعـالات. إن كان أحدكمـا ينـوي الشـجار أو الـصراخ فليفعـل ذلـك بعيـدًا.

امتقع وجه باتريك في حين التفت دافيد إليه:

- من الأفضل أن تبقى هنا. سأطمئن على حالتها وأعود.

ابتسـم هيثـم في رضـا ثـمّ قـرع البـاب برفـق. دخـل وأغلـق البـاب خلفـه ثـم قال:

- ياسمين، هناك رجل من الشركة يود رؤيتك. هل تسمحين له بالدخول؟

شـحب وجـه ياسـمين وهـي تتذكـر الشركـة وروزلـين والبحـث. همسـت بصـوت مرتجـف:

- من يكون؟

- لحظة.

أطلّ هيثم من فتحة الباب وسأله:

- الاسم الكريم؟

أجاب دافيد من وراء الباب:

- أنا دافيد.

أخفت وجهها بين كفيها في اضطراب وقد تعرّفت على صوت رئيسها في العمل. كيف يمكنها أن تواجه دافيد الآن؟ إنّه المشرف على بحثها الفاشل. كيف تقابله بعد أن تسبّبت في هذه المصيبة؟ لكنّ هيثم أغلق الباب مجدّدًا وقال بلهجة مطمئنة:

- ياسمين أنت الآن في إجازة مرضيّة. يمكنك أن ترفضي رؤية أيّ كان من الشركة. هذا حقك.

رفعت رأسها إليه كطفلة صغيرة تصدّق كل ما يقول له مرشدها. ثمّ همست في ارتباك:

- دعه يدخل.

فتح هيثم الباب من جديد وأفسح المجال لدافيد وهو يقول بلهجة حازمة:

- في يدك خمس دقائق للزّيارة. وبدون أيّ كلمة عن الحادثة أو عن العمل.

هزّ دافيد رأسه في انصياع وتجاوزه إلى داخل الغرفة. طالع هيثم باتريك الذي كان يتابع الموقف في صمت بنظرة باردة، ثم أغلق الباب دونه ليتركه وحيدًا في الخارج. حدّق باتريك في الباب المغلق وهو يغلي غضبًا. لكن قامة هيثم الفارعة وجسده الرياضي جعلاه يحجم عن الإقدام على أي عمل متهوّر.

*****

استيقظت رنيم مبكرة ذلك الصباح. خرجت من غرفتها على أطراف أصابعها وأخذت قطعتين من الكعك تناولتهما في طريقها إلى المكتب. لم ترد أن تطيل المكوث في الشقة حتّى لا تضبطها ياسمين وأمارات الخيانة مرتسمة على وجهها. هل للخيانة شكل مميّز يُرى رأي العين؟ تكاد تجزم بأنّ عينيها ستفضحانها لا محالة، خصوصًا أمام ياسمين. كثيرًا ما كانت ياسمين تنجح في استشفاف خوفها وقلقها، ولسانها العذب ذاك بلسم كثيرًا ما شفى جراحات نفسها، بتلك المَلَكة العجيبة التي لا يملكها غيرها. فهل تعجز عن ضبط خطوط الخيانة الفاضحة؟

في الليلة السّابقة، تسكعت لبعض الوقت في الشوارع الباريسيّة قبل أن تقرّر أخيرًا أن الوقت قد حان للعودة إلى الشقة. حين فتحت الباب بهدوء كانت غرفة الجلوس غارقة في الظلام وباب غرفة ياسمين مغلقًا. تسللت دون أن تصدر صوتًا وقد توقعت أن ياسمين قد أوت إلى فراشها بالتأكيد. من حسن حظها أنها لم تنتظرها على العشاء ولم تطاردها باتصالاتها طوال السهرة، مع أن ذلك يُعدّ غريبًا بالنسبة إلى طباع ياسمين التي تعرفها. منذ إقامتها معها وهي تحشر نفسها في حياتها بدون استئذان باسم المشاركة الوجدانيّة، وتهتمّ بكلّ ما يخصّها باسم حقّ الجوار. تذكّرت أنّها بدت منشغلة حين رأتها صباح الأمس. يبدو أنها قد انهمكت في دراسة حالة الانتحار تلك ونسيت أمرها. تنهّدت وهي تفكر.. إلى متى ستستمر في تجنبّها؟

كانت تعبر الرواق الذي يوصلها إلى غرفة عمر بالمستشفى وهي تمسك بهاتفها. بعد يوم من التفكير المضني قرّرت المواجهة. ليس مواجهة عمر أو ياسمين بالحقيقة التي كانت تدركها وحدها، لكن مواجهة كليهما من جديد وكأنّ شيئًا لم يكن. نعم، كان ذلك قرارها. عليها أن تنتهي من هذه القضية أوّلاً. تخاف إن هي اختارت المكاشفة الفوريّة أن تحملها كرامتها الموجوعة إلى التخلي عن القضية. وإنقاذ عمر أصبح الأولوية المطلقة، بغضّ النظر عن وجود امرأة أخرى في حياته. ستقوم بواجبها كمحامية وتترك مشاعر المرأة جانبًا. كان ذلك خيارها.

رغم فرارها من الشقة قبل استيقاظ ياسمين فإنها ذهبت بقدميها إلى عمر. ربما تكون مواجهته أيسر، لأنّه لا ينظر في وجهها. ولأنّ الأحاديث العملية تشغل المساحة التي تفصلهما. لا يمكنه أن يتفطن إلى تغيّرها كما تفعل ياسمين.

اتّصلت للمرة الألف بالبروفيسور سامي كلود ثمّ زفرت وهي تغلق الخط بعد أن تركت رسالة صوتيّة جديدة على المجيب الآليّ. دخلت إلى الغرفة في هدوء وهي تحبس أنفاسها. بقدر ما استعدّت إلى ذلك اللقاء وهيأت نفسها لتمثيل اللامبالاة بقدر ما اهتزت ثقتها وهي تطالع ابتسامته التي لم تتعوّد عليها. بادرها عمر باهتمام:

- كيف أنت اليوم؟ هل ذهبت أوجاع رأسك؟

obeikandi.com

فوجئت بسؤاله. لم تكن تتوقّع منه اهتمامًا بصحّتها. كما أن اهتمامه ذلك جاء في وقت غير مناسب. في وقت كانت هي تحاول فيه السّيطرة على عواطفها. قالت في لامبالاة:

- أنا بخير. شكرًا لسؤالك.

صارت تفكر كثيرًا مؤخرًا.. أكثر من اللازم. مثل مراهقة صغيرة تدرس تصرفات الشّابّ الجالس على بعد عدّة أمتار أمامها وتُؤَوِّل كلماته وحركاته إلى تلميحات وإشارات. لكنّ الفرق هو أنّها لم تعد مراهقة والشاب الذي أمامها مثقل بهموم تغنيه عن عبث المراهقين، فضلاً عن اهتمامه بامرأة أخرى. قالت مقاومة المرارة التي تزحف إلى حلقها:

- اتصلت بتقني الصيانة الذي اهتم بإصلاح جهاز كريستوف.. وللأسف تصريحاتهما متطابقة.

لم تكن المعلومات المتوفّرة حتّى ذلك الحين مبشّرة بالخير. لكن تبقى الفرضيّات مفتوحة. ربّما كان كريستوف قد تعمّد تحطيم جهازه لتوريط عمر لسبب ما. وربما يكون هناك شخص ثالث مجهول الهويّة له مصلحة في سرقة أبحاث كريستوف وتوريط عمر.. قالت أخيرًا بعد أن شرحت له الاحتمالات الممكنة:

- فكر جيدًا، هل هناك شخص في الشركة قد يضمر لك الشر إلى درجة توريطك في قضية كهذه؟

هز عمر رأسه في حيرة:

- كما أخبرتك سابقًا، علاقاتي محدودة في الشركة. لا أدري إن كنت قد أسأت لأحد ما دون أن أدري.

أضاف بعد ثوانٍ من التفكير وابتسامة شاحبة على شفتيه:

- الوحيدة التي توقعت أن تحقد عليَّ نوعًا ما هي كارولين، لكنّها وبشكل غريب كانت أكثر من وقف إلى جانبي في أزمتي.

عقدت رنيم حاجبيها في شك:

- كارولين؟ الشقراء التي كانت عندك البارحة؟ لماذا قد تحقد عليك؟

كانت هناك محاولات منها للتقرّب منّي.. لكنّني صددتها بنوع من الحدّة. ظننت أنّها لن تغفر لي ذلك. لذلك فوجئت حين لمحت تأثرها من أجلي وحرصها على مساعدتي.

استمعت إليه رنيم في انتباه ثمّ قالت فجأة:

- لماذا لم يرد اسمها ضمن الشهود؟ كان يجب أن ندعوها للشهادة.

- هل تعتقدين ذلك؟

- دعني أحاول الاتصال بها.

خرجت من عنده وقد وطّنت العزم على سبر أغوار كارولين. دون تردّد، أرسلت إلى التحرّي الخاصّ تطلب كلّ المعطيات الممكنة عن كارولين وعنوان إقامتها في باريس. كانت رغبة النبش في ملفاتها قد راودتها منذ رأتها تتهادى في غرور عبر ممرّ المستشفى. لم تطمئن أبدًا إلى حومان تلك الفرنسيّة الشقراء حول عمر. وربّما تفوقت غريزة المرأة في ذلك على حدس المحامية.

*****

نظرت ياسمين إلى هاتفها للمرّة العاشرة في نفاد صبر. كانت تنتظر ميساء التي وعدتها بالمجيء لترافقها إلى شقتها. الطبيب المراقب لحالتها سمح لها بالمغادرة بعد أن أوصاها بالتزام الرّاحة التّامّة في الشّهرين المقبلين. كانت تتلهف لمغادرة المستشفى التي تثير أجواؤها في نفسها الكوابيس. منذ صغرها كانت تكره الطبّ وترهب الأطبّاء. كبرت وكبر معها ذلك الرّهاب الذي يجعلها تتحمّل الألم وتكتمه حتّى لا تصحبها والدتها إلى عيادة أو مصحّة. لكنّ الحوادث الأخيرة التي عاشتها في تلك المستشفى الباريسيّة تفوّقت بمراحل على مخاوف الطّفولة السّخيفة.

كانت ميساء قد قضت معها جزءًا من نهار الأمس. استجابت لرجاء عينيها الصّامت، فتركت جامعتها مبكّرة لتتفرّغ إليها.حين انصرفت في المساء، أصرّت عليها ألا ترحل من المستشفى حتى تكون هناك. لكنّ ياسمين كانت تطالع شاشة الهاتف وتنتظر أن يظهر اسم آخر.

رنيم. كانت تعتقد أنهما أصبحتا مقرّبتين خلال الأشهر التي جمعتهما في الشقة الباريسيّة. مقرّبتين على الأقل بشكل كافٍ لتسأل عنها وتهتمّ بشأنها في ظروف كهذه. ألم تقلق عليها رنيم؟ ألم تلاحظ غيابها في الليلة الماضية؟ ألم تفكر في الاتّصال بها؟ ألا يهمّها أمرها؟ كانت تشعر بخيبة

Opeikangi.com

كبيرة تزيد من وطأة خيبتها القائمة.

- أنت جاهزة؟

وقفت من مكانها حين أطلت عليها ميساء. ابتسمت وهي تأخذ ذراعها:

- هيا بنا.

التقطت حقيبتها (التي كانت سبب مأساتها) في شيء من الانكسار وتقدّمت في اتّجاه الباب مطأطئة الرأس. ما أن أصبحتا في الممرّ حتى شدّت أصابعها بقوّة على ذراع ميساء تعصرها. تأوهت ميساء وهمست:

- ما الأمر يا عزيزتي؟

عضّت ياسمين على شفتها السّفلى وهي تسير إلى جوارها ملتصقة بها. كانت تشعر بالأعين تلاحقها في ممرّ المستشفى. في السّابق كانت تعزّي تلك النّظرات إلى مظهرها المختلف لكنّها اليوم تقرأ في الأحداق نعوتًا جديدة غير «المتخلفة» و«المعقدة» و«المنغلقة».. صفات تؤلمها أكثر من سابقاتها من نوع «الغبيّة» و«المجرمة» وحتّى «الإرهابية». أحسّت بميساء تضغط على ذراعها برفق. رفعت رأسها إليها فألفتها تبتسم في حنوّ وقالت:

- لا تهتمّي بما يفكر به الآخرون.. لا ذنب لك فيما حصل.

اغرورقت عيناها بالدّموع مرّة أخرى وهزّت رأسها في امتنان. لم تحسّ بالضعف من قبل بقدر ما تحسّ به الآن. ربّما لأنّها تشكّ في داخلها بأنّها مذنبة على عكس ما تؤكّده ميساء. ربّما لأن إحساسها بإجرامها تجاه روزلين ملأ كيانها سوادًا وغطّى على كلّ احترامها لنفسها.

*****

ما أن تخطت مدخل المكتب حتى فوجئت بكل من فيفيان وجورج والسكرتيرة يقفون عند آلة صنع القهوة في اجتماع حميميّ غير معهود. استداروا باتجاهها في ترحيب بالغ ومثير للشكوك. رفعت حاجبيها في استغراب ثمّ ابتسمت دون اهتمام وهي تحيّيهم. توجّهت إلى مكتبها دون أن تكلّف نفسها عناء التوقف عندهم. لم تكن بنفسها رغبة في الحديث عن سهرة الأمس أو معاتبة جورج على توريطها. لاحقتها فيفيان وهي

تناديهـا في حمـاس:
- رنيم إلى أين؟ كنّا ننتظرك.
التفتت إليها في استغراب أكبر:
- تنتظروني؟! ما الأمر؟
باغتتها فيفيان وهي تمسك بكفّها في حركة مفاجأة ثمّ هتفت في دهشة:
- أين خاتمك؟
ثم أردفت بسرعة وهي تغمزها في دهاء:
- هل تخفينه عنا؟ لا تخافي لن نحسدك على سعادتك.
ابتسمت رنيم في برود وهي تجيب:
- ليس هناك خاتم يا عزيزتي. من ادّعى غير ذلك؟

بهتـت فيفيـان الـتي كانـت واثقـة مـن معلوماتهـا. ميشـال نفسـه أراهـا الخاتـم المـاسيّ وأفـضى إليهـا بتفاصيـل خطـة الليلـة الماضيـة. هـل يكـون قـد أجّـل التنفيـذ إلى وقـت لاحـق؟ أم تراهـا رنيـم..؟

أكدّت رنيم ظنّها الأخير وهي تقول في هدوء مستفز:
- لديّ عمل كثير.. أستأذن الآن.

تابعتهـا بنظراتهـا في حقـد متزايـد وهـي تبتعد في اتجـاه مكتبها. يجـب أن تكسر أنفهـا المتعجـرف ذلـك يومًـا مـا. هـل حسـبت نفسـها أمـيرة شرقيّـة بالفعـل؟ ميشـال الـذي لـم يكـن يفكـر يومًـا بالـزواج وجـد نفسـه غارقًـا في الرومانسـيّة وهـو يعـدّ مخططًـا دقيقًـا ومدروسًـا لليلـة الأحـلام تلـك مـن أجلهـا. لـم يفعـل رجـل ذلـك مـن أجلهـا هـي أبـدًا وهـا هـي قـد اقتربـت مـن الأربعـين دون أن يكـون في حياتهـا أدنى مخطـط لـزواج أو ارتبـاط أو إنجـاب طفـل مـا. ورنيـم الطفلـة الشـقية المدللـة ترفـس بقدميهـا فرصـة مـن ذهـب دون تـردّد أو اعتبـار لمشـاعر الرّجـل. لـم تكـن هـي لترفـض لـو أن ميشـال تقـدّم إليهـا.

*****

أوقـف هيثـم السـيارة أمـام المبـنى الـذي ظهـر عنوانـه أمامـه عـلى الورقـة. كانـت والدتـه قـد اتصلـت بـه ذلـك المسـاء وطلبـت منـه أن يمـرّ لاصطحـاب ميسـاء الـتي رافقـت ياسـمين إلى شـقتها. كانـت الشـمس قـد غابـت منـذ نحـو

نصف السّاعة ولم تكن زهور تريد لميساء أن تركب وسائل النقل العامّة وحدها في المساء. تأفّف في داخله. كانت علاقته بميساء سيّئة مؤخرًا. قصّته مع لورا ثم رفضه لياسمين كل ذلك جعلها تتخذ منه موقفًا صارمًا. لم يعد التّواصل معها سهلاً وذاك يحمّله عبئًا إضافيًّا لم يعد يتحمّله. تنهد قبل أن يخرج هاتفه ويكوّن رقمها. انتظر للحظات وهو يستمع إلى الرّنين من الجانب الآخر، ثمّ جاءه صوت مجيبها الآلي. زفر وهو يغلق الخطّ في انزعاج. ها أنّها قد نسيت هاتفها على الوضع الصّامت من جديد. أوقف المحرّك ونزل من السيارة. ربّما عليه أن يذهب إليها.

غادرت رنيم محطة المترو بخطى متمهلة. لم تكن تستعجل العودة إلى الشقة. لكنها لا تملك خيارات كثيرة. لا شك أنّ ياسمين قد انتبهت لغيابها وربّما بدأت بعض الشكوك تراودها. إن كانت تفرّ من لقائها حتى لا تفضحها نظراتها وحركاتها، فإن اختفاءها ذاته مثير للرّيبة. كانت قد اقتربت من مبنى إقامتها حين توقفت سيارة رياضيّة صغيرة قبالته. لم تعر الشّابّ الذي نزل منها أدنى اهتمام وتابعت طريقها بخطوات متّزنة. لمحته وهو يتقدّم في اتجاه عمارتها ويقف أمام بابها. بدا لها أنّه يعاين لوحة الأرقام في المدخل. تلك اللوحة الإلكترونية التي يرقن عليها الرّاغب بالدخول رقمًا سريًّا فيمكنه من فتح الباب الخارجيّ للعمارة. بعد لحظات رأته يبتعد عن اللوحة ويقف جانبًا وهو ينظر إلى هاتفه. عقدت رنيم حاجبيها في شك. لم يكن وجهه مألوفًا وكان من الواضح أنّه لا يعرف الرّقم السّرّيّ. ومن الواضح أيضًا أنه يماطل منتظرًا أن يفتح الباب شخص آخر.

تمهلت في سيرها وقد تسارعت نبضاتها. بشكل غريزيّ امتدّت كفّها إلى داخل حقيبة يدها لتتحسّس قنبلة الغاز التي اقتنتها حين تسلمت قضيّة بعينها في مرسيليا. موكلتها آنذاك كانت شابّة تسكن بمفردها والمتّهم رجل تبعها إلى شقتها حين عودتها إليها مساءً. اقتفى خطواتها في حذر وحين فتحت باب الشقة دفعها داخلها واقتحم المكان عنوة ليقوم باغتصابها. بعد تلك القضية صارت تنتبه أكثر إلى الحوادث التي توردها الجرائد في قسم «المتفرقات» عن عمليات الاقتحام الليلية والسّرقات بيد مسلحة. كل تلك الحوادث تبدأ حين يتمكن شخص مختلّ القيم من تجاوز حواجز المراقبة والحماية ليجد السبيل مفتوحًا أمامه لتحقيق مآربه الدنيئة.

openkalam.com

أخــذت نفسًــا عميقًــا واســتجمعت شــجاعتها. هــل يكــون الأوان قــد حــان لاســتعمال قنبلتهــا؟ في نهايــة الأمــر احتمــال أن يكــون الشــاب مجرمًــا ضئيــلٌ جــدًّا. قــد يكــون مجــرّد زائــر نــسي أن يأخــذ الرّقــم الــسّرّيّ مــن أحــد الســكان، لكــنّ الحــذر واجــب.

كان هيثــم مــا يــزال يقــف مكانــه حــين وصلــت إلى المدخــل. تجاهلتــه وكوّنــت الرّقــم عــلى اللّوحــة ثــمّ دفعــت البــاب الــذي فتــح بشــكل آليّ. قبــل أن ينغلــق البــاب خلفهــا كانــت كفــه قــد امتــدت بسرعــة لتوقــف الدّفــة. التفتــت إليــه في تحفــز فهتــف عــلى الفــور:

- شكرًا.

ثمّ أضاف موضّحًا:

- كنت أنتظر شقيقتي لكنّها لا تردّ على هاتفها.

هــزّت رأســها في تفهّــم وتقدّمــت في هــدوء. في نهايــة الأمــر لا يبــدو ذا شــكل مريــب. صحيــح أن قامتــه الفارعــة وعضلاتــه المفتولــة تثــير الرّهبــة. لكــنّ ملامحــه الهادئــة كانــت مطمئنــة. وقفــا معًــا أمــام المصعــد. ســبقته رنيــم وضغطــت عــلى زرّ الاســتدعاء ثــم وقفــت تنتظــر. لــم يكــن ينظــر إليهــا بــل بــدا مشــغولاً بهاتفــه. ربمــا يكــون صادقًــا في حديثــه عــن شــقيقته. دخــلا المصعــد معًــا فضغطــت رنيــم عــلى رقــم طابقهــا. حــين لاحظــت عــدم تحرّكــه ســألته بتلقائيــة:

- أيّ طابق؟

حانــت منــه نظــرة إلى الرّقــم المــضيء عــلى اللوحــة الإلكترونيــة وقــال عــلى الفــور:

- الطابق الثالث.

سرى في أوصالهــا توتــر مفاجــئ. كانــت هــي قــد ضغطــت عــلى الــزّرّ الثالــث للتــوّ. حــين توقــف المصعــد عجّلــت بالخــروج متجنبــة النظــر إلى الخلــف. كانــت تريــد الوصــول إلى الشــقة بــأسرع مايمكــن قبــل أن يجــد الوقــت لفعــل أيّ شيء مهمــا كان مــا ينــوي فعلــه. لكنّهــا لــم تكــن تجهــل أن الممــرّ ليــس شــديد الطــول وأن بإمكانــه اللحــاق بهــا بخطواتــه الواســعة في لمــح البــصر. حــين وقفــت أمــام بــاب الشــقة حانــت منهــا التفاتــة سريعــة إلى الخلــف، فمــا راعهــا إلا أن رأتــه مــا يــزال يتبعهــا. بسرعــة شــديدة صعــدت علامــة الإنــذار في رأســها إلى مســتواها

الأقصى. كانت شقتها هي الوحيدة الواقعة في تلك الجهة من الممرّ وهذا الشاب لا يمكن أن يكون شقيق ياسمين. تذكر جيدًا أنّها حدثتها عن مراهق في المدرسة الثانوية. لذلك فإنّ كذبه بخصوص شقيقته واضح. فتحت حقيبتها بتأنٍّ وتظاهرت بإخراج المفاتيح وبحركة سلسة تسللت أصابعها إلى قنبلة الغاز وأخذت نفسًا آخر.

نظر هيثم في القصاصة التي تحمل العنوان من جديد ثم رفع رأسه بحثًا عن الشقة الرابعة. انتبه إلى أنّ الفتاة ذات الملامح العربيّة التي رافقته في المصعد كانت تتقدّم في الاتجاه الذي يقصده. تذكر أن ميساء تحدّثت عن شريكة لياسمين في السّكن. ربّما تكون هي. على أي حال كانت تسير في الممرّ المؤدي إلى الشقة الرابعة.

- من فضلك.

كان يهمّ باستيقافها ليسألها عن ياسمين ويطلب منها استدعاء ميساء التي من المفترض أن تكون بالدّاخل، لكن قبل أن ينهي جملته فوجئ بها وهي تستدير بقوّة وتضغط على زرّ الإطلاق لينفجر الغاز المسيل للدّموع دفعة واحدة في وجهه. كانت خطوات قليلة تفصله عنها لذلك أصابه الغاز بشكل مباشر. في اللحظة الموالية كان صراخه المتألم يملأ أرجاء الممرّ وهو يرتمي على الجدار بعد أن فقد توازنه وكفه تضغط على عينه اليسرى.

بأصابع مرتجفة أخرجت رنيم مفاتيحها وأدخلتها في القفل في انفعال. خلال ثوانٍ كان تتدفع الباب بقوّة وتتجاوزه بأوصال مرتعدة تاركة هيثم يتلوّى في الخارج. ما أن أوصدت عليها باب الشقة حتى تنهدت في ارتياح. إنّها في أمان الآن. ما الذي ينبغي عليها فعله؟ هل تبلغ الشرطة؟ قبل أن تفكر في الخطوة الموالية فتح باب الغرفة الداخلية وظهرت ياسمين مفجوعة تتبعها ميساء. هتفت ياسمين في قلق:

- ما الذي يحصل؟ ما هذا الصراخ؟

- لن تصدّقي!

كانت رنيم تشعر بالإثارة وهي تسرد على مسامعهما تفاصيل المغامرة التي عاشتها منذ حين. ما أن أنهت روايتها حتى سارعت ميساء لتطلّ من العين السّحريّة وقلبها يحدّثها بأمر ما. مجرّد أن تبيّن لها وجه الشاب المنهار على الأرض حتى شهقت في جزع وبادرت إلى فتح الباب. أوقفتها

رنيم بحركة حادّة:

- أنت مجنونة؟ ماذا تفعلين؟ يجب أن نستدعي الشرطة.

لكن ميساء التي تملكها جزء حقيقي دفعتها عنها بقوّة وهبّت إلى الخارج. هتفت وهي تنحني إلى جوار الشاب الذي كان يتنفس بصعوبة:

- هيثم؟ أنت بخير؟

امتقع وجه رنيم حين سمعت الاسم. إذن هذا هو هيثم؟ يا للورطة! همهمت في ارتباك وهي تنقل نظراتها بينهما:

- كيف لي أن أعرف؟ ظننته يتبعني و...

قاطعتها ياسمين في قلق:

- هل نطلب الإسعاف؟

هزّت رنيم كتفيها في استهانة وهي تقول:

- إنه مجرد غاز سيختفي تأثيره بعد قليل.

لكن ميساء التي كانت تجثو على الأرض إلى جانبه هتفت وهي تدسّ كفّها في جيوب سترته تبحث عن شيء ما:

- ليس بالنّسبة إلى مريض الرّبو.

بعد لحظات كانت تخرج آلة التنفس اليدويّة. وضعتها في فمّ هيثم الذي كان يمرّ بأزمة حادّة وأخذت تضغط المحلول داخل حلقه في توتّر، حتى استردّ أنفاسه. ساعدته ميساء على الوقوف وأسندته حتى ارتمى على أريكة غرفة الجلوس، بينما كانت كفه تغطي عينه اليسرى التي كانت محمّرة من الالتهاب.

لم تستطع رنيم أن تكتم ابتسامة تسللت إلى شفتيها، همست في خفوت:

- إنّه يستحق ذلك على أيّ حال.

لم يصل همسها إلا إلى ياسمين التي كانت تقف غير بعيد عنها، لكنّها لم تلق تعليقًا ساخرًا كما توقعت، ولم يبد عليها أيّ أثر للمزاح أو الاستمتاع، بل ابتعدت باتّجاه المطبخ وهي تقول:

- سأحضر كمّادة باردة.

تبعتها رنيم حتّى صارتا بمنأى عن ميساء وشقيقها. قالت من جديد:

- لم أقصد أن أؤذيه لكنّه يستحق ذلك من أجل سخافته في السّابق.

انتظرت مرّة أخرى أن تبدي ياسمين ملاحظة متواطئة فتضحكان معًا.

لكنّها بشكل مالبثت منيعة أمام دعاباتها. راقبتهافي استغراب شديد وهي تخرج مكعبات الثلج في صمت وتعكف على تحضير الكمّادة متجاهلة إياها، ثمّ تعود في اتجاه ضيفيها دون أن تعلق بكلمة واحدة.

لم تكن رنيم تستوعب تصرّف ياسمين البارد، لكنّها عادت لتقف إلى جوارها في غرفة الجلوس وهي تحاول التّصرّف بشكل طبيعيّ. أليس ذلك ما تفعلانه في العادة؟ كلّ كلمة تصدرها إحداهما تجد صداها عند الأخرى، كأنّهما في تخاطب روحيّ؟ لماذا تبدو الاتّصالات معطّلة ذلك اليوم؟ كانت تجاهد حتى تبدو مسترخية ومنطلقة كعادتها. لم يكن ذلك يسيرا وياسمين لا تسهّل عليها المهمّة على الإطلاق.

قالت ميساء أخيرًا وهي تعاين مقلة شقيقها المحمّرة:

- هل ستكون قادرًا على السّياقة؟

هز رأسه علامة الإيجاب وهو يغمض عينه ويفتحها بحركة متكرّرة، ثم قال في غيظ:

- لو كنت رددت على هاتفك لما حصل شيء من هذا.

شحب وجه ميساء وهي تمتم بكلمات اعتذار، في حين قالت ياسمين بصوت لم يغادره الضعف:

- أنا آسفة، لقد أخّرتها. كانت تساعدني على تسجيل مواعيد الدّواء.

انتبهت رنيم في تلك اللحظة إلى سحنة ياسمين المتغيّرة. هكذا إذن. كان يجب أن تلاحظ منذ البداية شحوب بشرتها وغياب الابتسامة التي لا تكاد تفارق محيّاها في العادة، لكن يبدو أن الأمر قد وصل إلى العقاقير والأدوية.

قال هيثم مخاطبًا ميساء وهو يقف من مكانه في استعجال:

- حسن يجب أن نذهب الآن.

ثم أضاف بلهجة أكثر ليونة مخاطبًا ياسمين:

- انتبهي لنفسك جيّدًا.. ولا تنسي تعلميات الطبيب بالرّاحة التامة.

ثم دفع ميساء أمامه بخفة لتسبقه باتجاه الباب. رافقتهما ياسمين إلى الخارج ثم عادت أدراجها باتجاه غرفتها. سارت في خطّ مستقيم متجاهلة رنيم عمدًا.كانت تعاقبها على اختفائها منذ الأمس. لحقت بها رنيم في جزع وشدّتها منذراعها لتوقفها وهي تقول في اهتمام:

- ما الأمر؟ ما قصّة الأدوية التي تأخذينها؟ ولماذا الرّاحة التامة؟

سحبت ياسمين ذراعها وحدجتها بنظرة عتاب طويلة ارتجفت لها أوصال رنيم.

- هل يهمّك أن تعرفي؟

بهتت من لهجتها الغريبة ونظراتها النّافذة المربكة.

- هل لديك شك في ذلك؟ لماذا تعاملينني كأنني شخص غريب اليوم؟ ما الذي حل بك؟

فوجئت بالدّموع التي اندفعت من عينيها بغزارة، كأنّها قاومتها طويلاً وما عادت بها قدرة على كتمانها. سحبتها رنيم إليها، ساعدتها على الجلوس واحتضنت كتفيها مواسية، وهي لا تدري سببًا لبكائها. همست ياسمين أخيرًا بصوت مختنق:

- كنت الشخص الوحيد الذي انتظرت زيارته في المستشفى، إن لم يكن لصداقتنا فلحقّ الجوار.

انعصر قلب رنيم بشدّة في صدرها. كل ما فكرت به البارحة هو أن تفرّ من رؤيتها، لم يخطر ببالها أنّها قد تمرّ بأوقات عصيبة وتحتاج إلى وجودها إلى جانبها. ليس لحقّ الجوار فقط، بل بحقّ كلّ الأوقات التي جمعتهما في هذه الشقة، بحقّ كلّ فنجان شاي وكلّ قطعة كعك تقاسمتاها، بحقّ كلّ جلسة متواطئة استمرّت إلى ساعات الصّباح الأولى، بحقّ كلّ ضحكة رسمتها على وجهها بعد يوم عمل مجهد. كانتا أكثر من جارتين بكثير. ومن حقّ ياسمين أن تعاتبها بحقّ كلّ ذلك.

- أنا آسفة، اغفري لي تقصيري.

كانت تعتذر من أجل غيابها وقت الحاجة، ولأسباب أخرى تجهل ياسمين كل شيء عنها، أشياء لم يكن المجال يسمح أبدًا بذكرها، وربما تعتذر أيضًا لأنها قرّرت للتوّ أن تنفيها في مكان قصيّ من ذاكرتها إلى أجل غير مسمّى.

obeikandl.com

-٣٠-
طوق النّجاة

استلقت على ظهرها في إعياء. أغمضت عينيها محاولة الاسترخاء. تحتاج قسطًا من الرّاحة.. الرّاحة. أنّى لها بالرّاحة وضميرها الموجوع ينتفض فرقًا في كل ثانية مع مشهد المشنقة الذي لا يفارق خيالها في كل لحظة من لحظات الليل والنهار؟ نفس اللقطة تتكرّر في ذهنها منذ الحادثة في إلحاح مزمن وتستعيد معها نفس الإحساس المزلزل بالرّعب بنفس درجة القوّة والتأثير.

أخفت وجهها بين كفيها في محاولة مضنية للنسيان أو التناسي. لم تكن الوحدة تسعفها. فتحت عينيها ونظرت إلى السّاعة. لماذا تأخرتِ يا رنيم؟ تنهّدت وهي تنهض من مكانها. تقضي ساعات اليوم بين السّرير والأريكة. تجلس ثم تستلقي.. تستلقي ثم تجلس. تشاهد برامج التلفاز دون تركيز وتفتح كتبًا لا تكاد تلتقط من صفحاتها سوى كلمات مبعثرة. تتلو بعض الآيات القرآنية فتسكن ويهدأ روعها، ثم تستيقظ من أحلام اليقظة أو المنام على نفس المشهد المفزع.

تناولت هاتفها وكوّنت رقمًا. كانت تحتاج إلى تبديد وحشتها. ولم تكن الأرقام في ذاكرة هاتفها كثيرة.

تعالى رنين الهاتف بشكل مزعج بينما كان أفراد العائلة مجتمعين على مائدة العشاء. أخرج هيثم هاتفه من جيبه تحت نظرات والدته المتفحّصة. عقد حاجبيه في انزعاج وهو يطالع الرّقم الظاهر على الشاشة ثم ضغط على زرّ التجاهل قبل أن يحوّل الجهاز إلى الوضع الصّامت ويعيده إلى جيبه. لمح الابتسامة الرّاضية التي تسللت إلى شفتي زهور. لن يعتكف كعادته في غرفته للرّدّ على اتصالها. كانا قد تشاجرا ذلك اليوم.

لم يعد يفهمها. يقرّ بحقّها في استعجال الارتباط، فهو أيضًا لا يرضى باستمرار علاقة غير واضحة المعالم إلى أجل غير مسمّى. لكنّه سبق وشرح لها ظروفه وترقبات عائلته. وهي بدأت تبدي تلكؤًا في تعلم الدّين في الفترة الأخيرة. أصبحت تتململ من الشروط المطلوبة وتستعظمها. تراجعت عن

وعودهـا السّـالفة وصـارت تعـزف عـلى أوتـار جديدة..يلزمهـا وقـت لتقتنـع وتطبّـق، وتطالبـه بـ«وقفـة رجـل» أمـام أهلـه، بـأن يتحدّاهـم ويثبـت حبّـه لهـا.. تتّهمـه بالتخـاذل والتهـاون والتلـوّن، بأنّـه لـم يعـد عـلى سـابق عهـده معهـا.. تطـارده بالاتصـالات طـوال والنهـار وتظهـر أمامـه في أوقـات غـير متوقّعـة وفي أطـر غـير مناسـبة ويجـنّ جنونهـا حـين يصدّهـا أو يتهـرّب منهـا.

- بنيّ، لماذا توقفت عن الأكل؟

انتبه حين جائه صوت والدته. ابتسم وهو يقول مطمئنًا:

- شكرًا، لقد شبعت.

نظـرت إليـه في شـكّ. لـم تكـن شـهيته مفتوحـة ذلـك المسـاء، والاتصـال الأخـير أجهـز عـلى مـا تبقـى منهـا. لـم تكـن تجهـل هويّـة المتصـل. لكنّهـا لـم تكـن تملـك أن تفعـل أكـثر ممـا فعلـت. لا تريـد لفـترة التوتـر الـتي شـملت العائلـة كلهـا أن تعـود مجـدّدًا. يعـرف رأيهـا جيّـدًا في فتاتـه تلـك. وهـو أصبـح رجـلاً الآن. لا يمكنهـا أن تمـلي عليـه تصرفاتـه أو توبخـه كمـا تفعـل مـع وائـل الصغـير.

ارتفـع رنـين الهاتـف مجـدّدًا، لكنّـه لـم يكـن هاتـف هيثـم هـذه المـرّة. وقفت ميسـاء مـن مكانهـا مهرولـة وهـي تهتـف قبـل أن تتـوارى خلـف بـاب غرفتها:

- لا شك أنّها ياسمين.

دون شـعور منـه رفـع هيثـم كفـه ليلمـس عينـه اليـسرى الـتي ظلـت تحرقـه طـوال اليـوم بـين الفينـة والأخـرى. عقـد حاجبيـه في ضيـق. لـم تكـن ذكـرى حادثـة الأمـس تثـير روح الدّعابـة في داخلـه. كان موقفًـا سـمجًا سـخيفًا ومزعجًـا. ليـس لأنّـه تعـرض إلى اعتـداء بالغـاز للمـرّة الأولى في حياتـه، وليـس لأن المعتدية فتـاة. ليـس لأيّ سـبب مـن هـذه الأسـباب. فقـط لأنّـه اضطـر إلى اسـتعمال آلـة التنفـس البغيضـة تلـك. وأمـام مـن؟ أمـام ياسـمين وجارتهـا غريبـة الأطـوار. منـذ سـنوات ومرضـه يسـبّب لـه الإحـراج. بعـد مـرور فـترة الطفولـة الـتي تجعـل الولـد يشـعر بالتميّز باختلافـه حـتّى وإن كان يختلـف بالمـرض، لـم تكـن لـه ذكـرى واحـدة طيّبـة مـع آلـة التنفس. حـين كـبر أصبـح يحـاول إخفـاء حقيقـة مرضـه عـن رفاقـه. وبفضـل العـلاج والرياضـة كانـت أزماتـه التنفسـية تتناقـص وتتقلـص، وكان يأمـل أن يصبـح يومًـا مـا شـخصًا كامـل العافيـة. حـين أخـبره الطبيـب بأنّـه قـد يـأتي يـوم يسـتغني فيـه عـن الآلـة بصفـة نهائيّـة، أصبـح

يحلـم كل ليلـة بـأن يكـون اليـوم الجديـد هـو ذاك اليـوم. لـم يكـن يعلـم عـن مرضـه سـوى عـدد قليـل مـن المحيطـين بـه ولـم يكـن يمتعـه إضافـة شـخصين جديديـن إلى القائمـة.

- كيف حالها؟

بـادرت زهـور ميسـاء بالسّـؤال مـا أن رأتهـا ترجـع لتسـتعيد مكانهـا عـلى المائـدة.

- مسـكينة.. إنهـا تشـعر بالوحـدة طـوال النهـار. جارتهـا في السّـكن تغيـب طـوال اليـوم في العمـل. إنهـا محاميـة. تصـوّري أنّهـا لـم ترجـع إلى الشـقة بعـد!

هـزّت زهـور رأسـها في تعاطـف. في حـين تكلـم العـم عبـد الحميـد بلهجـة عتـاب:

- لمـاذا لـم تأتـوا بهـا للبقـاء معنـا في فـترة نقاهتهـا؟ إنهـا بحاجـة إلى مـن يرعاهـا ويهتـمّ بصحتهـا. أهـذا حـقّ فاطمـة عليـك؟

هزّت زهور رأسها في حرج ثم هتفت وقد راقت لها الفكرة:

- معك حق. كان يجب أن أفكر في ذلك.

صفقت ميساء في حماس وهي تقول:

- سآخذ إجازة من الجامعة لأكون معها في البيت.

حدجتها زهور بنظرة صارمة:

- وجـود ياسـمين لـن يكـون وسـيلة للتّهـرب مـن الـدروس يـا بنـت. لا تنـسي أن الاختبـارات اقتربت.

لـوت ميسـاء شـفتيها في احتجـاج، في حـين التفتـت زهـور إلى هيثـم وسـألته في لهجـة خاصّـة:

- هيثم، ما رأيك؟

التفت إليها في ارتباك:

- رأيي؟ في ماذا؟

- في إقامة ياسمين بيننا حتى تتعافى. هل يضايقك ذلك؟

هزّ كتفيه متظاهرًا بعدم اكتراث:

- إن كنتم ترون ذلك مناسبًا فلا مانع لديّ.

لـم يكـن يـدري مـا الـذي يستشـعره لمجيئهـا عـلى وجـه الدّقـة. حـين أتـت للبقـاء بينهـم لبضعـة أيـام منـذ شـهور ضايقـه وجودهـا. لـم يعـد بإمكانـه

التبسّط والمزاح كالعادة. صار يتناول عشائه بمفرده في المطبخ ويستأذن كلما دخل البيت أو أراد الخروج من غرفته. لم يكن وضعًا مريحًا بالكامل. وهو يعلم أنّ الوضع سيكون مشابهًا هذه المرّة أيضًا، فضلاً عن كون البنت تمرّ بأزمة نفسية تتطلب معاملة خاصّة. لكنّه بشكل ما لم يكن متضايقًا مثل المرّة الماضية. بشكل غريب لم تضايقه فكرة اقتحامها لعالمه من جديد.. بقدر ما ضايقته نظرة الشفقة في عينيها مساء أمس.

*****

- آتي إلى بيتكم؟

فوجئت حين تلقت اتصال ميساء الجديد بعد نصف ساعة من اتصالها بها. لا شك أن موضوعها قد طرح على مائدة العشاء وتدارسه أفراد العائلة قبل أن تعود إليها ميساء بهذا الطلب.

- نعم، هذا هو الحل الأمثل. ستكونين مرتاحة جدًّا معنا.

- لكن...

ترددت ياسمين للحظات؛ حين اتصلت بها لم تكن تفكر في هذا الحلّ. لم تكن تطلب منها الكثير، فقط زيارة من حين إلى آخر. تعلم أنّها بحاجة بالفعل إلى رفقة متواصلة. لكن...

- سنكون جميعًا سعداء بوجودك بيننا.

- دعيني أفكر.

هتفت ميساء في إلحاح:

- لا تفكري كثيرًا. سأمرّ عليك مساء غد مع هيثم حين ينهي حصّته المسائية.

تنهدت وهي تقول في استسلام:

- حسن إذن.

في تلك اللحظة سمعت وقع خطوات رنيم في الرّدهة. ها قد رجعت أخيرًا.لم تكن قد وصلت إلى باب غرفتها بعد حين سمعت ضربات خفيفة عليه. فتحت الدّفة لتجد وجه رنيم المبتسم أمامها.

- كيف أنت اليوم؟

هزّت ياسمين رأسها لتقول عكس ما تنطق به سحنتها الباهتة:

- أنا بخير.

طالعتها رنيم بنظرة متفحّصة ثم قالت في اعتذار:

- آسفة لتأخري؛ كنت مشغولة جدّا اليوم! كان يجب أن أتحضّر جيّدًا لجلسة الغد.

وضعت أكياس مشتريات على المنضدة وهي تضيف:

- أنت لم تطبخي أليس كذلك؟ لقد طلبت وجبة لشخصين من المطعم.. ومن الآن فصاعدًا لن يكون هناك طبخ! هل سمعتِ؟ الطبيب أمرك بالرّاحة التامّة.

ابتسمت ياسمين وهي تقول بصوت واهن:

- لكن إن لم أفعل شيئًا فكيف أشغل وقتي؟ إني أحسّ بوحدة فظيعة حين أقضي اليوم بمفردي.

سكتت رنيم متفكرة. إنها على حق حتمًا. الفراغ مرهق أيضًا. قبل أن تعلق همست ياسمين مردفة:

- على أي حال، سأذهب لقضاء بضعة أيام في منزل ميساء.

نظرت إليها رنيم مبهوتة. لم يخطر ببالها أن تفكر ياسمين بترك الشقة. لم يكن الافتراض واردا منذ أيام قليلة، لكن يبدو أن الأمور تغيّرت بسرعة بينها وبين هيثم وجعلت الحواجز الماضية تختفي. يبدو أنّ موقفه الرجولي في المستشفى والذي حدّثتها عنه ياسمين بكثير من التأثر كان له دوره في قرارها. تذكرت حينها أنها مدينة له باعتذار. كانت تعتقد أحقيتها بالانتقام بعد أن أطلقت الغاز في وجهه، لكنها تدرك الآن أنه قد كفّر عن ذنبه في وقت سابق.

ربما كان ذلك أفضل. تعلم أن ظروف عملها لا تسمح لها بالبقاء المستمرّ إلى جانب ياسمين، وهي بالتأكيد في حاجة إلى الرّفقة والرّعاية. تمنّت لو كان بإمكانها الإلحاح عليها حتى لا تذهب. لكنّها تدرك أنّه سيكون طلبًا أنانيًّا للغاية، وهي قد استنفدت رصيدها من الأنانية لشهور مقبلة. ابتسمت وهي تغالب مشاعرها المتضاربة وقالت في حنوّ:

- إن كان ذلك أفضل لك فلا مانع لديّ.

لا يهمّ الآن، لا يهمّ. ربما تكرهها لاحقاً، لكنّها لا تستطيع مواجهتها الآن.

obeikandl.com

حياة عمر في الميزان وصحّة ياسمين أيضًا. ألم يقل الطبيب إنها يجب أن تتجنّب الانفعالات القويّة؟ في تلك اللحظة لم تكن واثقة من صدقها مع نفسها. هل كانت تضحي من أجل إنقاذ كليهما؟ أم كانت تعطي نفسها مهلة إضافية فربما يقضي الله أمرًا لم يكن في الحسبان؟ لكنّها كانت تدرك حتمًا أنّ الحقيقة التي تُحبس طويلاً في الظلام تجعل مَن سجنها ظلمًا يدفع الثمن غاليًا حال خروجها إلى النور.. وتصفي حساباتها وحدها، دون أن تلجأ إلى المحاكم.

Obeikandl.com

-٣١-

العائد

- سيّدي هلا عرّفت نفسك؟

تنحنح الشرطيّ ذو الزيّ الرّسمي وقال بصوت واثق:

- العقيـد إيريـك جاربيـال. كنـت قائـد الفرقـة الـتي داهمـت شـقة المتهـم بعـد الحادثـة.

- أخبرنا عمّا حصل آنذاك؟

حـين وصلـت مـع شريطيّـين آخريـن مـن رجـال الفرقـة، أردنـا التأكـد أوّلاً مـن خلـوّ المـكان.. طرقنـا بـاب الشـقة فجاءنـا ردّ مـن شـخص بالدّاخـل. لكـن مـا أن علـم بهويّتنـا حـتّى امتنـع عـن فتـح البـاب أو التّجـاوب معنـا. لذلـك اضطررنـا إلى كـسر البـاب واقتحـام المـكان.

- هل تمكنتم من استجواب الشخص الموجود داخل الشقة؟

- لا يا سيدي. حين تمكنا من دخول الشقة كان الرجل قد هرب.

- هرب؟ كيف ذلك؟

- قفز من النافذة يا سيّدي. الشقة واقعة في الطابق الثاني.

- هل يمكنك تقديم وصف تقريبي لهذا الشخص؟

- لقـد لمحتـه لثانيـة واحـدة حـين كان يهـمّ بالقفـز. كان شـابًّا في نحـو الثلاثين، يبـدو أنـه أصيـل أحـد بلـدان شـمال إفريقيا.

سأله المدّعي العام في اهتمام:

- هل يمكنك التعرّف عليه إن احتجنا إلى ذلك؟

أومأ الشرطي برأسه في تأكيد: نعم سيدي. أعتقد ذلك.

التفت المدّعي العام إلى منصّة المحلفين وهو يقول:

- الأبحـاث مازالـت جاريـة للقبـض عـلى هـذا الشـخص الـذي نعتقـد أنـه شريـك للمتهـم في عمليـة التفجـير.

وقفت رنيم وهتفت في حزم:

- أعترض سيدي الرئيس. هذه تأويلات باطلة لا دليل عليها!

نظر إليها المدّعي العام بتحدٍّ وهتف بدوره: هذا ما ستثبته التحقيقات.

obeikandl.com

- اعتراض مرفوض.

ضرب القاضي الطاولة بمطرقته وهو ينطق بتلك الكلمات، في حين شدّت رنيم على قبضتها في غضب وزمّت شفتيها في صمت. تنهدت وهي تستمع في ضيق إلى استنتاجات المدّعي العام المكبّلة، وما أن أنهى عرضه وعاد إلى مكانه حتى وقفت استعدادًا للاستجواب. همست مخاطبة عمر في مرارة واضحة:

- لست قادرة على تحقيق المعجزات.. لكنني سأفعل ما بوسعي.

تابعها عمر بنظرات قلقة وهي تتّجه إلى وسط القاعة.

- سيّدي العقيد جابريال، حين فتشتم الشقة، هل عثرتم على أيّ دليل يدين موكّلي؟

همهم الرّجل في تفكير، فأضافت رنيم بسرعة مغيّرة السؤال:

- طيّب هلا أخبرتني كيف وجدتم الشقة؟ أيّ نوع من الشقق هي؟ هل تشبه وكر عصابة تخطط لعمليات ارهابيّة؟ هل كانت هناك ملفات، منشورات، أدوات تدريب، أو أيّ وثيقة أو أجهزة تدل على انتماء موكلي إلى أي مجموعة كانت؟

- ربما كان المتهم حذرًا بما فيه الكفاية ليخفي أو يتخلص من كل الأدلة الممكنة.

- ماذا عن الشخص الآخر؟ هل كان هناك في الشقة ما يدل على إقامة شخصين؟ سريران مثلاً، فرشاتا أسنان؟ ملابس من مقاسات مختلفة؟

قال العقيد في تماسك محافظا على ملامح محايدة:

- حسب المعاينة، كلّ شيء في الشقة يشير إلى إقامة شخص واحد فيها.

وقف المدّعي العام وهو يهتف بحدّة:

- لكن هذا لا ينفي إمكانيّة أن يكون الشّخص الثاني مجرّد زائر.. في حين يكون مقرّ العصابة في مكان آخر.

قالت رنيم في حدّة واندفاع:

- لماذا لا يمكننا اليوم أن نصدّق أنّ هناك طيبة ومشاعر إنسانيّة نبيلة في أشخاص من حولنا؟ لماذا نجد صعوبة إلى هذه الدّرجة في تقبّل رواية موّكلي؟ لقد أشفق على ذلك المشرّد وقام بإيوائه بضعة أيّام. فهل يتحوّل سلوكه الإنساني الكريم إلى لعنة تطارده؟ هل كان ذنبه أن تعرّض لحادثة

أليمـة تـاركًا شـخصًا مجهـول الهويّـة في شـقّته؟ هـل كان ذنبـه أن يكـون ذلـك الشـخص مسكونًا بالخـوف مـن الشّرطـة فيقفـز مـن نافـذة الشـقة ويختفـي؟ دعـني أخـبرك سـيّدي.. وفّـروا جهودكـم، فلـن تسـفر أبحاثكـم عـلى إثبـات علاقـة مـوكلي بـأيّ تنظيـم إرهـابي، أو جماعـة مـن أيّ نـوع كانـت!

زفـرت وهـي تعـود إلى مكانهـا، في حـين غـادر الشـاهد المنصّـة. قبـل أن يظهـر الشـاهد المـوالي، دخـل الحاجـب الثـاني القاعـة مسـتعجلاً وهـرول إلى منصّـة القـاضي مقاطعًـا سـير الجلسـة. بعـد لحظـات سرت همهمـة مرتبكـة في القاعـة مـع ارتفـاع أصـوات صاخبـة في الخـارج، كانـت أصداؤهـا تصـل إلى أسـماع الحاضريـن. أمـام الفـوضى العامّـة الـتي غـزت المـكان، ضرب القـاضي بمطرقتـه عـلى الطاولـة وهتـف:

- سترفع الجلسة لأسباب أمنيّة. أرجو من الجميع إخلاء القاعة في هدوء.

اشرأبـت رنيـم بعنقهـا محاولـة استشـفاف مـا يحصـل، لكـنّ الجلبـة مـن حولهـا حالـت دون ذلـك. هتـف عمـر في قلـق وهـو يراهـا تقـف مبتعـدة:

- أين تذهبين؟

أشارت إليه بكفها بعد أن لمحت مرافقه يتقدّم باتجاهه:

- سأنظر ماذا يحدث وألحق بك إلى المستشفى.

حـين وصلـت رنيـم إلى الـرّواق الخارجـي اتسـعت عيناهـا في ذهـول مـن غرابـة المشـهد. كانـت مجموعـة مـن الرّجـال ذوي الملامـح العربيّـة قـد هاجمـت رجـال الحراسـة وتشـابكت معهـم بالأيـدي. تعـالى الـصّراخ والهـرج، وخرجـت الهـراوات مـن مكامنهـا لتنهـال عـلى أجسـاد المقتحمـين المتدافعـة. ومـن حـين إلى آخـر كانـت تميّز الهتافـات المزمجـرة الصّاخبـة.. «الله أكـبر».

هرولـت في اتجـاه المخـرج الجانـبيّ الـذي هيأتـه فرقـة الحمايـة لتسريـب المحلفـين والقـاضي وكل مـن كان بالقاعـة قبـل أن يقتحمهـا المعتـدون الغربـاء. زفـرت في ارتيـاح حـين أصبحـت في منـأى عـن الأجـواء الفوضويّـة وسرحـت بنظراتهـا في ذهـول. يبـدو أنّ أبعـاد المسـألة آخـذة في التّوسّـع بقـدر يفـوق بمراحـل إدراكهـا وسـيطرتها، ولـن تسـتغرب تبـنّي جماعـة إسـلاميّة محليّـة مـا لقضيّـة موكّلهـا في القريـب!

*****

سار عمر إلى جوار مرافقه في تؤدة متوكئًا على عكازيه اللذين أصبحا يعوّضان الكرسيّ المتحرّك. استقلّ سيّارة الشرطة المتوقفة في فناء المحكمة الخلفي، وسرح مع أفكاره متجاوزًا فضاءها الضيق ذا النوافذ المعتمة التي تمنع عنه صور العالم الخارجيّ. في مجلسه ذاك، كانت تصله أصوات الشارع المميّزة فتهبه تسلية يومه التي ينتظرها مع كلّ زيارة إلى المحكمة في شوق. انزوى في ركنه الصّغير في استسلام دون أن يثير فيه التّماس السمعيّ المجرّد مع الحياة الماضية دونه أيّ هواجس بشأن حريّته المسلوبة. كان يعيش اللحظة بشغف، وكأنّ تلك الأصوات هي غاية ما يأمله من حريّة. كيف وصلت بك الحال يا عمر إلى الرضا بالفتات؟ شيء ما انكسر في داخله في تجربة الحبس تلك. جزء من كرامته قد سلب. انخفض سقف طموحاته حتى اقتصر على إثبات براءته، ولو بعد دهر.

انتبه حين توقفت السيّارة بعد أن قطعت مسافة بدت له أقصر من العادة. هل وصل بتلك السّرعة إلى المستشفى؟ أم أنّ استغراقه المستميت قلّص إدراكه للزمن؟ نزل من السيّارة بمساعدة الشرطي المرافق ليطل على مبنى غريب. لم يكن ما يواجهه مبنى المستشفى الذي تعوّد عليه. توكأ على العكازين وتقدّم برفق في اتجاه البوابة دون أن يجرؤ على السّؤال. لم يتطلب منه الأمر الكثير من التفكير ليدرك إلى أي مكان يمضي به مرافقه.

بعد أن اجتاز البهو الضيّق وجد نفسه في ممرّ مظلم كئيب تحفّه الأبواب الحديديّة من الجانبين. سبقه الشرطي وفتح الزنزانة الأخيرة ثم أفسح له المجال. خطا عمر إلى الدّاخل وهو يعرج بشكل واضح. ألقى نظرة قلقة على المكان الضيّق والخالي من كل قطع الأثاث عدا مقعد خشبي ينبت من الجدار ويمتدّ على أحد جوانبه. حين أغلق الحارس البوّابة وابتعدت خطواته، أيقن أنّه قد وصل إلى مسكنه الجديد. اتخذ مجلسًا على طرف المقعد واتكأ بظهره علىالجدار محاولاً تخفيف آلام المفاصل التي ماتزال تهاجمه من حين إلى آخر. لم يكن يعلم كم سيطول مكوثه هناك. لكن من المؤكد أن الظروف ستكون مختلفة. لن تأتي ممرضة للاطمئنان عليه كل بضع ساعات ولن يحصل على الحبوب المسكنة بسهولة. أغمض عينيه وهو يزفر في ضيق. لك الله يا عمر! لك الله!

مضت دقائق ثقيلة ساكنة. كان قد تعوّد الوحدة في غرفة المستشفى،

لكنّ جسده لم يتعوّد على الخشب الصلب ولم يكن من المتاح أن يجد وضعيّة مريحة لأطرافه وظهره.. هل سيكون بوسع رنيم أن تفعل شيئًا من أجله؟ ابتسم في تهكم. وهل بإمكان متهم بتفجير إرهابيّ أن يحصل على امتيازات في سجنه؟ فليحمد الله على فترة العلاج التي قضاها في العناية الطبيّة. أمّا فترة النقاهة فلن تكون فترة راحة على ما يبدو.

فتح عينيه حين تناهى إليه صوت خطوات صاخبة في الممرّ، ثمّ لمع مفتاح معدنيّ في الظلام وأصدر صريرًا مزعجًا وهو يدور في قفل الزنزانة من جديد. وبصفة مفاجئة، فتحت البوابة على مصراعيها لاستقبال وافدين جدد. تابع في انتباه حركة الشبان الذين تقدّموا في نظام إلى الدّاخل ولاحظ على ضوء مصباح الممرّ ذي الإنارة الخافتة أنّ معظمهم كان ملتحيًا ويلبس قميصًا طويلاً أبيض وقد ظهرت عليهم آثار أتربة وغبار. فكّر في شيء من السّخرية بأن إدارة السّجن تعمّدت زجّ كلّ الموقوفين من أصول عربية في زنزانة واحدة حتى لو خصّصت شبرًا واحدًا لكل منهم. وبسرعة احتلت المجموعة المكان وتربّع بعضهم إزاء بعض كأنّهم متعوّدون على تلك الظروف ذات الرفاهيّة المحدودة، فانكمش عمر على نفسه في ركنه وقد أصابه إحساس بالاختناق من روائح العرق والغبار التي غزت المكان. بسرعة، انتظمت صفوفهم في حلقات وارتفعت أصواتهم بأحاديث مختلفة متفرّقة، وكأنّهم لا يكترثون البتة بمكان الجلسة وظروفها.

- دكتور عمر؟

التفت مشدوهًا حين ناداه أحدهم. نظر إلى الشاب الغريب الذي اقترب منه زحفاً. تأمّله للحظات محاولاً تذكر الملابسات التي جمعتهما وما لبث أن هتف في ذهول:

- نادر؟ ماذا تفعل هنا؟

لا يدري كيف ظهر أمامه وكأنّما قد انشقّت عنه الأرض فجأة. لم يكن المشرّد نفسه الذي اعترض طريقه منذ بضعة أشهر بسحنته الشاحبة وثيابه المتّسخة. بدا أوفر صحّة وأنظف هندامًا بقلنسوّته وجلبابه الناصعين. ارتمى عليه معانقًا في حرارة ومودّة أحسّ لها عمر ألمًا موجعًا كتمه بصعوبة حتى لا يكدّر صاحبه. جلس نادر إلى جواره في ارتباك وهو يطالع شكل عمر المتغيّر ثم قال:

- ما الذي حلّ بك يا دكتور؟ وما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟

- تلك قصة طويلة.

- أن يصل رجل مثلي إلى السّجن فهذا لا يثير عجب أحد. أما أنت يا دكتور، فلا شك أن قصّة عجيبة وراء وجودك هنا!

ابتسم عمر في مرارة ثمّ أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يشرع في سرد تفاصيل ما حصل معه في الأشهر الماضية. استمع إليه نادر في انتباه ودهشة شديدين قبل أن يقاطعه في ذهول:

- هل تصدّق أنّني جئت مع «فرقة الفرسان» لمساندتك، وأنا لا أعلم أنّك أنت!

- فرقة الفرسان؟!

نعم، هؤلاء هم. جماعة خيّرة من المسلمين الملتزمين، آووني واهتمّوا بي بعد أن فررت من شقّتك وعدت مشرّدًا من جديد. وجدوا لي عملاً.. أنا الآن أدرّس العربيّة! وما عدت خارجًا عن القانون، فقد حصلت على أوراق ثبوتيّة وإقامة قانونيّة. هم يهتمّون برفع كلمة الإسلام، ولا يتركون مسلمًا في ضيق دون أن يمدّوا إليه يد المعونة.. لذلك خرجنا اليوم لنحتجّ أمام قاعة المحكمة ونعترض على المحاكمة غير العادلة التي يتعرّض لها المتّهم في تفجير شركة الكيميائيّات.. الذي هو أنت! ما زال الخير في الدّنيا يا صاحبي، وجميلك الذي غمرتني به سيُردّ إليك ولو آجلا.. شخص نقيّ ذو يد بيضاء مثلك سيجد حتما من يهتمّ لنصرته بتسخير من الله وحده.

ألقى عمر نظرة شاملة على المجموعة التي تشاركه الزنزانة وقد ملأه الشكّ. هل كان يحتاج حقًّا إلى حركة احتجاجيّة تسانده؟ أن تصبح حالته قضيّة رأي عام، هذا أمر جيّد ولا شكّ. لكن هؤلاء الشّباب واضحي الانتماء والمرجعيّة، قد يورّطون أنفسهم بالتّدخّل، بل أدهى.. قد يستغلّهم النّائب العامّ لإثبات تهمة «التنظيم الإرهابيّ» وقد قدّم إليه «الشّركاء» على طبق من ذهب!

على الجانب الآخر من الغرفة جلس رجلان يلبسان بزات رسميّة يتابعان في انتباه ما يحصل داخل الزنزانة. كان الجدار العازل يسمح لهما بالرؤية من جانب واحد دون أن يتفطن أحد النزلاء إلى وجودهما. لم تكن الجلبة الطاغية تسمح لهما بتمييز حوار الرّجلين بين الأحاديث المتداخلة، لكن

Opeikanoir.com

ذلك لم يمنع أحدهما من الابتسام في ظفر وهو يقول لصاحبه:
- أرأيت؟ ألم أقل لك أنّ شركائه سيحاولون الوصول إليه بطريقة أو بأخرى؟
هزّ الآخر رأسه في تأييد وهو يعبّر عن إعجابه بفكرة زميله:
- لم أعتقد أنهم قد يقدمون على مساندته بصفة علنية معرّضين أنفسهم للخطر!
- سأطلب من العقيد جابريال المجيء.. فربما أمكنه التعرّف على الرّجل الذي فرّ من شقّة المتّهم ليلة الحادثة.

*****

جرت رنيم عبر ممرات المستشفى في اضطراب. ما أن وصلت إلى مكتب الاستقبال حتى هتفت بالموظفة وهي تلهث:
- ما الذي حصل لنزيل الغرفة رقم ١١٢؟
رفعت الموظفة رأسها بهدوء وألقت عليها نظرة باردة ثم قالت ببطء يكاد يكون متعمّدًا:
- تقصدين المتهم في التفجير الإرهابيّ؟ لقد تمّ نقله إلى السجن المدنيّ.
حدّقت فيها رنيم في ارتباك. السّجن المدنيّ؟ كانت تعلم أنّهم سينقلونه لا محالة. لكنها تمنّت أن يتأخر ذلك إلى حين صدور الحكم في القضيّة. حكم لصالحه يعفيه من كل السّجون. لكنّ قرار اللجنة الطبية كان مختلفًا. حثت خطواتها في اتجاه المخرج وقد أدركت أنّ تعقيد القضية قد ازداد في ذلك اليوم درجة إضافية.. وربّما درجات. لا يدرك المرء أن الأمور قد تصبح أكثر سوءًا مما هي عليه إلا حين تسوء أكثر بالفعل. بترت اندفاعها فجأة حين لمحت وجهاً مألوفًا. غيّرت وجهتها على الفور وانطلقت على إثر المرأة التي كانت تتقدّم بسرعة. لحقتها عند المصعد. ما أن أصبحت على قيد مترين منها حتى هتفت مستوقفة:
- الدكتور عمر ليس هنا.
التفتت إليها كارولين في دهشة. تبادلتا نظرات متوترة للحظات قبل أن تردف رنيم:

- جئتِ من أجل الدكتور عمر أليس كذلك؟

هـزت كارولـين رأسـها علامـة الإيجـاب وهـي تطالعهـا في حـذر. أمـام صمـت مخاطبتهـا أضافـت رنيـم: لقـد تـمّ نقلـه إلى السّـجن المـدنيّ.

هتفت كارولين في جزع حقيقي: السّجن المدنيّ؟! لماذا؟

سألتها رنيم من جديد وهي تتفحّص ملامحها عن كثب:

- هل تهتمّين لأمره؟

كانت إجابتها تلقائية، دون تفكير: طبعًا أهتم!

- هل تعتقدين أنه بريء؟

- أليس كذلك؟

تنهدت رنيم وهي تقول في حزم:

- هـذا مـا أعتقـده وأحـاول إثباتـه، لكـن هنـاك مـن يحـاول إغراقـه بشـتى السّـبل.

ابتسمت كارولين وهي تقول في امتنان صادق:

- لكنك تبلين بلاءً حسنا. شاهدت مرافعاتك.. ستنجحين.

زفرت رنيم ثمّ همست بلهجة محمّلة بالرجاء:

- إن كنـت تعرفـين أيّ شيء يمكنـه أن يفيدنـا في القضيـة فأخبريـني بـه الآن.. أرجـوك.

أشارت كارولين بكفيها في توتر:

- أنا لا أعرف شيئًا.. لم أكن هناك يوم الحادثة.

قبـل أن تعلـق رنيـم ارتفـع رنـين هاتفهـا المحمـول. نظـرت إلى اسـم المتصـل ثـم التفتـت إلى مخاطبتهـا في تـردّد. كان يجـب أن تـردّ عـلى ذلـك الاتصـال. قالـت أخـيرًا منهيـة الحـوار:

- حسـن إذن. إن تذكـرت أيّ شيء يخـصّ القضيـة اتصـلي بي. هـذه بطاقـتي الشـخصيّة.

أخـذت منهـا كارولـين البطاقـة وأومـأت برأسـها. ثـم ابتعـدت بخطـى مسرعـة كأنهـا تفـرّ فـرارًا. ربّمـا تلقـي بهـا في أقـرب سـلة مهمـلات، وربمـا ترميهـا في قـاع حقيبـة يدهـا وتنـسى أمرهـا إلى الأبـد. لـم تكـن رنيـم تعـوّل بشـدّة عـلى اتّصالهـا. زفـرت بقـوّة ثـم ضغطـت عـلى زرّ الـرّد: مـا الأمـر؟

- ظهر الشاهد المنتظر.

-٣٢-
خارج الشرنقة

وضعت حقيبتها الصغيرة على الأرض أمام السّيارة الرّياضية ثم صعدت لتجلس على أحد المقاعد الخلفيّة. اهتمّ هيثم بوضع الحقيبة في صندوق السّيارة، في حين التفتت إليها ميساء وهتفت في مرح:

- سعيدة لمجيئك.

بادلتها ياسمين الابتسامة في صمت. ربّما لم تكن مستبشرة بنفس الدّرجة بهذا الانتقال، لكنّه الأفضل لها في الظروف الرّاهنة. حياة العائلة المليئة بالنشاط خير من وحدتها القاتلة في الشقة الخالية. وإن كانت تفرض الأولى على نفسها فرضًا بدون حماس، فإنها ذاقت عذاب الثانية بما يكفي في الأيام الماضية، حتى ما عادت في كيانها ذرّة تحمّل. كلما تصاعدت تلك الأفكار إلى رأسها همّت بالبكاء، وهاهي الدّموع على أعتاب عينيها من جديد، تنفر بشكل لا يقاوم.. ولم تكن هناك إلا ثرثرة ميساء الغزيرة لتنتشلها من عالمها الدّاخلي الذي تغوص فيه بشكل لا إرادي كلما سكنت الأصوات من حولها. تُرغم نفسها على التركيز معها ومتابعة أحاديثها. تتشبّث بذلك الخيط الرفيع الذي يصلها بالواقع حتى لا تسقط من جديد في ظلمة الهواجس التي تنسج حول روحها شرنقة متينة تزداد ضيقًا بها يومًا بعد يوم.

- تريدين التوقف في مكان ما قبل الذهاب إلى البيت؟

كانت السّيارة قد توغلت في الشوارع الباريسيّة المتخمة بالعربات وقد غدا التجوال فيها ضربًا من ضروب المغامرة وقت الذروة. وبدا أن أحدًا من الركاب لم يكن يستعجل الوصول إلى نقطة النهاية.

- إن كنت لا تمانعين، يمكننا التوقف في الطريق لبعض النزهة.

لم تكن لدى ياسمين أيّ رغبة تذكر. كانت مستسلمة بالكامل لمخططات مرافقيها.. وكانت تجد راحة في الاستسلام لمنسوب الكلمات المرتفع الذي يتدفق من شفتي ميساء وللأصوات المبهمة لنشرة إخبارية محلية تتسرّب من راديو السيارة. كانت تلك الفوضى التي تغمر رأسها تسليها. فوضى

جميلة ومسرّية تمنع عقلها من التفكير.. وبشكل ما كانت تأنس شلل عقلها المؤقت. كانت في حاجة إلى تلك الاستراحة القسرية.

- وصلنا.

انتبهت حين توقفت عجلات السّيارة في شارع ضيّق. نظرت حولها في تشوّش. لم يكن المكان مألوفاً. لم يصلوا إلى منزل الخالة زهور بعد. نزلت خلف ميساء في ارتباك. استسلمت لكفها التي سحبتها في حماس في اتجاه تعرفه. بعد لحظات، كان ثلاثتهم يدخلون غرفة مصعد زجاجي، لم يكن يصعد إلى طوابق داخل بناية ما، إنّما يتسلق هضبة «مونمارتر»* في الهواء الطلق متيحًا لركابه فرجة ممتعة على أزقة الحيّ الضيقة المتعرجة والمترعة بدكاكين تبيع التذكارات الباريسية. اقتربت ياسمين من الواجهة البلوريّة وتركت نظراتها تسرح إلى البعيد لثوانٍ قليلة. كانت تخاف المرتفعات والبنايات العالية، لكنها كانت تشعر بالخفّة في تلك الغرفة المنزلقة.

جرّتها ميساء خارج المصعد وهي تسألها:

- هل جئت إلى «مونمارتر» من قبل؟

هزّت رأسها علامة النفي ونظراتها تتوقف عند بناء ناصع البياض ينتصب في شموخ أمامها، مالئًا المساحة البصريّة فوق الهضبة. بشكل ما ذكّرها بصور شاهدتها في وقت ما على شاشة التليفزيون للقصر الهندي المشهور «تاج محل».

بعد أن ألقوا نظرة سريعة على البناية المتربّعة على المرتفع، ولوها ظهورهم وتوجهوا إلى الدّرجات الحجرية العريضة التي تمتدّ حتى أسفل الهضبة حيث ركبوا المصعد، في حين تؤدي العلوية منها إلى مدخل كاتدرائية «القلب المقدس»** التي حسبتها ياسمين للوهلة الأولى نسخة من «تاج محل». بعد دقائق قليلة، تمكن ثلاثتهم من إيجاد موقع مناسب فوق المساحة المعشوشبة التي كانت تموج بالخلق في ذلك الوقت من النهار. جموع من السياح ومن الباريسيين المختنقين بنسق حياة محمومة

---

* Montmartre: حي سياحي يقع في أعلى نقطة للتضاريس الطبيعية في باريس، في الدائرة ١٨ للمدينة.

**Sacré Cœur: من أهم الكتدرائيات الباريسيّة، تم تشييدها بين سنتي ١٨٧٥ و١٨٩١.

الوتيرة يلجؤون إلى ذلك الحيّ الهادئ أصيل المعالم ليملؤوه صخبًا، حيث هناك متسع لهموم وأحلام الجميع.

قال هيثم وهو يشير إلى الأفق البعيد:

- أحبّ هذا المكان لموقعه المميّز وللمنظر الممتع والمريح للأعصاب الذي يتيحه للزوّار.. انظري، باريس كلها تحتك. المباني الشاهقة تبدو ضئيلة ومتناهية الصغر، والسماء تبدو أوسع وأكثر إشراقًا.. من هنا يمكنك مشاهدة معظم المعالم الباريسية المشهورة. على اليمين برج إيفل، وتلك البناية العالية هي برج «مونبارناس» *، أعلى بناية في باريس على الإطلاق.. على شمالك ترين «البانتيون» ** المخصّص لتكريم الشخصيات الفرنسية التي تركت لمسات مميزة في تاريخ البلاد، وغير بعيد عنه هناك بناية تشبه في شكلها الخارجي مصفاة بترولية بأنابيبها الضخمة الملونة، هل ترينها؟ ذلك هو مركز «جورج بومبيدو» *** للفن والثقافة.

كانت تستمع إليه في انتباه وهو يعرّفها بمختلف المباني المشهورة التي يزخر بها قلب المدينة حين راودها تساؤل غريب. ترى هل يصطحب لورا إلى هنا ليتفرّجا معًا على باريس من علٍ؟ ظهر وجه لورا في رأسها فجأة. كانت آخر من اتّصل بها يوم الحادثة. غادرت الغرفة لتتلقى اتصالها، وحين عادت صدمتها الفاجعة. أحسّت بألم في رأسها. بشكل مذهل كانت كل فكرة مهما كانت بسيطة وغير ذات أهميّة تأخذها إلى مأساتها، دون أن تدري. كيف قادها التأمّل في هذا المشهد الخلاب إلى ذلك اليوم وتلك الواقعة؟ جاهدت حتى تعود إلى التركيز مع كلمات هيثم:

- على بعد شوارع قليلة، هناك ساحة صغيرة مليئة بمقاهٍ من نوع خاص.. هناك يجلس رسّامون يأتون من أماكن مختلفة من العالم ويعرضون على المارّة وروّاد المقاهي رسم وجوههم بمحاكاتها أو بتقنية الكاريكاتير.. هذه

---

* Montparnasse: حي باريسي ينسب اسمه إلى جبل يوناني كانت تسكنه حسب الأساطير الإغريقية «حوريات الإلهام»

** Panthéon: مبنى أثري يجمع رفات شخصيات وطنية فرنسية. يقع في قلب الحي اللاتيني ويرجع تشييده إلى القرن الثامن عشر. تحمل واجهته عبارة منحوتة نصّها: الوطن ممتنّ للرّجال العظماء.

*** Georges Pompidou: الرئيس التاسع عشر لفرنسا من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٤.

السّاحة تعتبر موطن الفنّ المعاصر وقلب مونمارتر النابض. فهناك كان يقيم بيكاسو، وفي تلك السّاحة كان يرسم ويعرض لوحاته.

كانت ميساء قد غادرت مجلسها بين ياسمين وهيثم وابتعدت بضع خطوات. تابعتها ياسمين بعينيها وهي تنحني على المرقب المنتصب في أعلى الهضبة في متناول السيّاح وتضع قطعة نقدية في الثقب المخصّص لذلك. همست دون أن تلتفت إلى هيثم الذي كان يفصله عنها متر واحد ونظراتها تشرد في الفضاء الفسيح بلا وجهة:

- كيف حال لورا؟

ظهر الارتباك على هيثم وتحوّلت نظراته على الفور إلى شقيقته. بدا أن الاسم المحظور لم يصل إلى مسامعها، فقد تابعت استكشافها للأفق دون أن تلتفت إليهما. قال بسرعة وهو يخفض صوته:

- إنها بخير، لا تقلقي بشأنها.

هزّت رأسها في صمت. تتفهم إجابته المقتضبة. لا شك أنه لا يريد الاسترسال في الحديث عنها بالقرب من ميساء. ما يزال الموضوع يثير الخلافات بين أفراد العائلة. همست مجدّدًا بلهجة حزينة:

- هلا اعتذرت منها بدلاً عنّي؟ لم يعد بإمكاني أن أتابع اللقاءات معها.

في تلك اللحظة، التفتت إليها ميساء وهتفت:

- ياسمين، تعالي وألقي نظرة!

وقفت ياسمين على الفور دون أن تنتظر ردًّا من هيثم وانضمّت إلى ميساء أمام عدسة المرقب. أطرق هيثم في تفكير. هل كان عليه أن يخبرها بحقيقة الوضع؟ ربّما كان مخطئًا منذ البداية بإقحامها في هذا الموضوع؟ مهما كان الأمر، ليس من حقه الآن أن يضيف همومًا إلى همومها.

*****

نقرت على باب الغرفة بلطف وانتظرت للحظات قليلة. كان الظلام مخيّمًا على المكان حين وصلت، لكنّها أرادت أن تتأكد. دفعت دفّة الباب ببطء وأطلت على داخلها.

- ياسمين؟

نادت بصوت هامس. كانت تعلم أنّه لا أحد هناك، لكنّها دخلت. جالت نظراتها في أنحاء الغرفة في صمت حزين. ياسمين ذهبت. كانت تعلم أنّها ستغيب لوقت قصير ثمّ ترجع، لكنّها كانت تحسّ لرحيلها وجعًا غريبًا في صدرها. لأنّها ستفتقد روحها الحانية التي تملأ المكان دفئًا؟ أم لأنها تخفي عنها سرًّا ترزح بمفردها تحت وطأته ولا تجد من يقاسمها ثقله؟ مهما كانت أسباب ألمها فالأكيد في تلك الليلة هو أنها لن تقصّ تفاصيل يومها على أحد، ولن يشاركها أحد في التفكير في الترتيبات اللازمة للجلسة المقبلة.

وقفت أمام مرآة ياسمين وطالعت وجهها خلالها. من أنت؟ مرّرت أصابعها على ملامحها ببطء، كأنّها تقرؤها على طريقة «برايل». منذ يومين، لم تتعرّف إلى نفسها في عيني ميشال. ولن يكون من المجدي أن تبحث عنها في عيني ياسمين الآن لأنّ الصورة التي ستراها مغلوطة، أجمل بكثير من الحقيقة، بقدر حسن الظنّ الذي تنطوي عليه صاحبتها.

ابتعدت عن المرسى وشقّت العباب بلا وجهة، واليوم فقدت بوصلتها وما عاد بإمكانها الرّجوع إلى نقطة البداية، حيث رنيم القديمة التي كانتها في مرسيليا، ولا الوصول إلى الضّفة الأخرى التي انجذبت إليها بقوّة مغناطيسيّة لا تدركها، حيث رنيم جديدة تتولّد من شرنقة تجربتها الباريسيّة. تاهت منها ذاتها في خضم التجربة، فلا هي تطهّرت تمامًا من حياة النزق الماضية ولا عاد بإمكانها الرّجوع إليها القهقرى. من أنت؟ ماذا أصبحت اليوم غير كيان تائه لا يشبه شيئًا؟

زفرت وهي تنحني على الوسادة. استكان رأسها على سطحها وانسابت عبراتها في هدوء. بين عينيها كانت ترى وجه ياسمين الذي أذهبت هالات الألم السّوداء نضارته، ووجه عمر الذي رحمته نيران الحريق ولم ترحمه آهات لياليه المسهدة. أيّ قدر جعلها تقف بينهما في محنة شديدة؟! رغم محاولاتها المضنية لا تنسى النظرة التي تألقت في عيني عمر وهو يتحدّث عن ياسمين. كلمات الثناء الوحيدة التي سمعتها منه كانت موجّهة إليها. كان بإمكانها أن تحدّثه عنها، لكنها لم تفعل. وكان بإمكانها أن تحدّث ياسمين عنه، لكنها لم تفعل. ولعلها.. لن تفعل، في وقت قريب. لأنها ساعة إعلان الحقيقة ستفقد شخصين عزيزين غيّرا حياتها إلى الأفضل. ولأنها لا

تريد فقدهما، كذبت. وربّما تستمر في الكذب إلى أجل غير مسمّى. ربّما إلى حين تسترجع مناعتها.

أغمضت عينيها وهي تحسّ بوجع كبير يجتاح جسدها. تشعر بالحاجة إلى إغفاءة فوريّة تسحبها إلى فضاء اللاشعور، لكن ألمها الجسدي يبقيها مستيقظة دون إرادة منها. هناك في بطنها قطعة من العذاب تشتعل. ظنّت أنها أمرها قد قضي، لكنها أخطأت التقدير.

الألم يعاودها الآن شبيهًا بما بعد الجراحة الأولى. يذكرها بعذابات فاتت وأسدلت عليها السّتار، وبعذابات الحاضر التي تطاردها بإلحاح مزمن. للحظات تشابكت الأمور واختلطت عليها. لم تعد تميّز بين ألم روحها ووجع جسدها. أو لعل طوفان الندم الذي أغرقها كان مهيمنًا إلى درجة التغطية على العناء الجسدي لفترة وجيزة. لكنها الآن تدرك مصدر أوجاعها. تدرك أنّها لم تعط لجسدها فرصة النقاهة بالكامل. تشعر بانجرافها إلى قعر الغيبوبة الذي كانت تتوق إلى لقائه منذ قليل. ربما استجاب الله لدعائها بشكل فوري. هل أخطأت بتمني ذلك الخلاص الآني؟ صرّت على أسنانها بقوّة وعصرت عينيها في مقاومة مستميتة.

فجأة سمعت هاتفها يرنّ. إنّه يرقد هناك في حقيبتها، لكنّها غير قادرة على الوصول إليه. مدّت أصابعها التي لم تستطع منعها من الارتعاش، لكنها ماتزال بعيدة. شدّت عضلاتها مستنفرة بقايا طاقتها وغطست بكفها داخل الحقيبة. الرّنين ما يزال متواصلاً بنفس النّغمة. الصّوت يزداد وضوحًا وأصابعها تبحث عنه بعصبية داخل الحقيبة. لقد اقتربت. ما أن لامست سطحه المعدني البارد حتى عاد إليها الأمل. انقضت عليه في لهفة وضغطت على زرّ الرّدّ دون انتظار. قبل أن يصلها صوت مخاطبها همست بصوت لاهث متعب:

- اطلب الإسعاف.. أرجوك.

*****

كانت تجلس القرفصاء. ظهرها يلامس جدارًا باردًا وجذعها ينحني إلى الأمام في تقوّس. الغرفة قارسة وخالية من كل متاع، يعمّها البياض. لم

obeikandl.com

تكن ترى أي منفذ خلال جدرانها الناصعة. مكعّب مغلق أبيض. لم تكن تدري كيف وصلت إلى هناك. انكمشت على نفسها في ركن قصيّ. تجمّدت في مكانها وعيناها الصغيرتان المرعوبتان تتحركان في اضطراب. تسمع وشوشة خافتة تناديها، مثل فحيح عميق يقتحم عزلتها ولا تدرك له مصدرا.

فجأة، خطر ببالها الموت. هل يمكن أن تموت بتلك البساطة؟ وهذا المكان البارد الكئيب عديم المنافذ، هل يمكن أن يكون قبرًا؟ أضافت تلك الأفكار ذعرًا إلى ذعرها. كانت شابة. كانت طموحة ومليئة بالحيويّة. كانت في صحّة جيّدة.. قبل تلك العمليّة المشؤومة. فهل تموت فجأة وبدون مقدّمات؟ لم يكن الاحتمال واردًا في ذهنها. كانت ترى الحياة أمامها كالطريق الطويل التي لا يُرى آخرها.. وهي كانت في بدايتها. لديها أحلام ومخططات للمستقبل، وأخطاء يجب أن تصحّحها، واعتذارات عليها أن تقدّمها.. وتوبة إلى الله، مازالت تؤجلها. ارتجفت أوصالها حين وصلت إلى ذلك الحدّ. هل فات الأوان؟ هل فات الأوان؟

- كيف حالها الآن؟

همس جورج بصوت خفيض مخاطبًا الممرّضة حين أنهت تثبيت الأنبوب المزوّد بالسّائل المغذي إلى وريد رنيم. أجابته بنفس الصّوت الخافت مراعاة لسبات المريضة القسري:

- حالتها مستقرّة الآن. لكنها بحاجة إلى الكثير من الرّاحة.

هزّ جورج رأسه موافقًا ثم زفر في ضيق. كان اتصاله بها ذلك اليوم محض صدفة، ولم يكن بإمكانه أن يتخيل لوهلة واحدة أن يجدها على تلك الحالة. صوتها عبر الهاتف كان ينطق بالضعف والألم، والكلمات القليلة التي تجاوزت شفتيها قبل أن ينقطع الصوت مع تدحرج هاتفها إلى الأرض كانت كافية ليصل قلقه إلى مستوياته القصوى. لكن لم تكن بيده حيلة. كان عليه أن يعود أدراجه إلى المكتب ويبحث عن عنوانها بين أوراقه المتداخلة ومن ثمّ الاتصال بالإسعاف. حين وصل إلى شقتها، لم تكن سيارة الإسعاف هناك. من حسن حظها أنها تركت باب الشقة غير موصد. اهتدى إليها بسهولة حين رأى الضوء المتسرّب من الغرفة التي كان بابها نصف مفتوح. حملها بين ذراعيه وهرول في اتجاه المخرج. حين صار في الشارع سمع صفارات سيارة الإسعاف وهي تقترب.

انتبـه مـن أفـكاره حـين سـمع أنينهـا وهـي تتملمـل في رقدتهـا. وقـف مـن مجلسـه عـلى المقعـد القريـب مـن النافـذة وهـرول إليهـا. كانـت تشـدّ بقبضتهـا بقـوّة عـلى المـلاءة البيضـاء وتعـصر عينيهـا بألـم واضـح. هتـف في قلـق وارتبـاك:

- رنيم.. هل تسمعينني؟

خفتـت حركتهـا رويـدًا رويـدًا وإحساسـها بالـدّفء يرتفـع. لـم تعـد تشـعر بالصقيـع ينخـر عظامهـا. إنهـا تسـمع أنفاسـها هادئـة منتظمـة الآن. شيء مـن الارتيـاح ينسـاب عـبر وريدهـا ويعـبر إلى ثنايـا جسـدها في هـدوء وطمأنينـة. فتحـت عينيهـا أخـيرًا وشـعور غريـب يراودهـا. مزيـج مـن الفـرح والدّهشـة والحـيرة. كان حلمًـا؟ بـل كابوسًـا! لـم تكـن قـد اسـتوعبت مـا يحصـل معهـا بعـد. لكـن مـا أن وقعـت عيناهـا عـلى جـورج حـتى رتبـت الأحـداث في ذهنهـا تلقائيًـا.. منـذ الاتصـال الهاتفـي. ابتسـمت وهـي تطالـع منقذهـا. إنهـا أفضـل حـالاً الآن.

اقترب منها جورج وقال في ارتياح:

- حمدًا لله على سلامتك.

استمعت بفكـر سـارح إلى توصيـات الممرّضـة الـتي انصرفـت بعـد أن وعـدت بمـرور الطبيـب «مـن جديـد» بعـد أقـل مـن ساعة. هـل فقـدت الوعـي لوقـت طويـل؟ فاجأهـا جـورج وهـو يقـول بلهجـة غريبـة:

- هل كنت أنت من تبرّع بكليته لميشال؟

أزعجهـا السـؤال بقـدر مـا آلمتهـا الذكـرى. تلـك العمليـة المشـؤومة. كان عليهـا أن تفكـر أكـثر قبـل أن تقـدم عليهـا. لكـن جـورج، هـل قـاده تفكـير منطقـي بحـت إلى ذلـك الاسـتنتاج؟ أجـاب عـلى تسـاؤلها الصّامـت في جملتـه المواليـة:

- الطبيب انتبه إلى غياب الكلية في معاينته.

ابتسـمت في شـحوب دون أن تعلـق. كانـت فـورة عاطفـة ومجازفـة مراهقـة. لكنّـه يبقـى عمـلاً إنسـانيًا.. حاولـت إقنـاع نفسـها بتهكـم. احتمـال التوافـق بينهـا وبـين ميشـال جينيًـا كان ضئيـلاً، لكنهـا دون كل المحيطـين بـه كانـت الشـخص المناسـب. لـو كانـت مكانـه في حاجـة إلى كليـة لتمنّـت أن يتهـوّر أي شـخص غريـب ويتـبرّع لهـا بكليـة سـليمة. تذكّـرت أن تسـأله:

- ماذا قال الطبيب؟

بدا عليه التّردّد. لم يكن يريد أن يكون من يحمل إليها الخبر:

- فشل كلويّ.

شردت نظـرات رنيـم في ذهـول. كليتهـا الوحيـدة المتبقّيـة لا تعمـل بشـكل جيّـد؟ وهبـت ميشـال الكليـة السّـليمة واحتفظـت بالسّـقيمة؟ يـا للسّـخرية! لا عجـب أنّ آلامهـا تـدوم منـذ العمليّـة الأولى، وهـي تعزّيهـا إلى تأثـير الجراحـة. كيـف عسـاها تتقبّـل هـذا الخـبر؟

استدرك جورج مهوّنًا:

- المرض في طوره الأوّل، ويمكن الشفاء منه بجلسات التّصفية.

فاجأته رنيم وهي تقول في جلد:

- الحمد لله على كلّ حال.

لـم يملـك أن يعلّـق بكلمـة. أيّ عبـارة شـفقة أو مواسـاة كانـت لتـسيء إلى الصـبر الـذي أبدتـه أمـام المصـاب. راقبهـا وهـي تـشرد مـن جديـد إلى حيـث لا يـدري. بعـد صمـت قصـير، قـال وهـو يلتقـط حقيبـة كانـت عـلى كـرسي قريـب ويضعهـا فـوق المنضـدة إلى جوارهـا:

- مـررت بشـقتك هـذا الصبـاح. حـين قـال الطبيـب أنّـك سـتبقين هنـا لبعـض الوقـت فكـرت بأنـك سـتحتاجين بعـض أشـيائك.

شكرته بإيماءة من رأسها فتنهد جورج وهو يضيف:

- حسن آنستي، أنت الآن في إجازة مفتوحة.

همّت بالاعتراض، لكنها اصطدمت بملامحه الحازمة:

- لقـد أهملـت صحّتـك بمـا يكفـي. إقامتـك في المستشـفى ستسـتمرّ إلى أن يعلـن الطبيـب أنّـك قـادرة عـلى اسـتئناف حياتـك العمليّـة. اتفقنـا؟

- مـاذا بشـأن القضيـة؟ يجـب أن أواصـل العمـل عليهـا! لا يمكنـني أن أتخـلى عنـه الآن.. أرجـوك!

تفـرّس في وجههـا في عجـب وتأثـر. سـألها في شـك وكلمـات المدّعـي العـامّ تـرن في رأسـه:

- هل تهمّك القضية إلى هذه الدّرجة؟

هزّت رأسها بقوة علامة الإيجاب، فقال بلهجة قاطعة:

- حسـن، سـأهتمّ بأمرهـا إذن. كنـت سـأعيدها لفيفيـان في فـترة تغيّبـك، لكـن إن كنـت حريصـة عـلى متابعـة العمـل عليهـا، فسـأعوّضك لفـترة. مـاذا قلـت؟

سألته في ارتياب:

- لكنّك غير مقتنع باعتماد البراءة!

ابتسم مطمئنًا:

- قلت إنني سأعوّضك، وذلك يعني أنني سأعمل بالطريقة التي تريدين. أعطني تعليماتك وسألتزم بها.

تضرّج وجهها وهي تبتسم في ارتياح، ثم قالت بسرعة:

- أمهلني بضعة أيام ريثما أعيد ترتيب أوراق القضية وأكتب تقريرًا مفصّلاً يساعدك على الإحاطة بكل المعطيات التي بحوزتي.. لم أكن أعتقد أنني قد أسلم القضية لشخص آخر يومًا ما، لذلك فإن ملفاتي تعمّها الفوضى.

- خذي وقتك. ولا ترهقي نفسك.

- تركت بعض الملفات في المكتب.. وأخرى كانت عندي في الشقة. لعلها بقيت حيث وجدتني، فوق السرير.. هل يمكنك إحضارها لي في أقرب وقت؟

هزّ رأسه موافقًا ثم توجّه نحو الباب بعد أن أعاد على مسامعها توصياته بالرّاحة والالتزام بالعلاج. كان يهمّ بالانصراف حين استوقفته كأنها قد تذكرت شيئًا:

- في الغرفة الثانية، ستجد كتابًا صغيرًا مزخرفًا فوق المنضدة. هلا أحضرته لي؟

كانت تلك هدية ياسمين إليها في أيامهما الأولى معًا في الشقة. تذكرته فجأة بعد أن سهت عنه لوقت طويل. ربما آن أوان العودة إليه؟ سرت في جسدها رعشة باردة وهي تذكر كابوسها. ربما كانت فرصة جديدة. لن تفرّط فيها هذه المرّة.

أومأ جورج مبتسمًا ثم ابتعد ملوّحًا. تنهّد حين أصبح وحيدًا في الشارع وعاد بذاكرته إلى الوراء.. إلى سبب اتصاله بها ذلك المساء. اتصال المدعي العامّ كان أشبه بالتهديد. القضية أصبحت في حكم المنتهية. المعطيات الجديدة حسمت الأمر. هذا ما قاله الرّجل بلهجة الواثق المتعالي. كرهه في تلك اللحظة. وربما كان إحساسًا متبادلاً، ربّما كره المدعي العامّ اللحظة التي فكر فيها بوضع الدّفاع في عهدته. لم يكن يتصوّر أن يلقى خصمًا صعب المراس متمثلاً في شخصية رنيم المندفعة والصلبة. وعدها بإكمال عملها، وسيفعل ما بوسعه. أصبحت لعبة تحدٍّ مسلية بالنسبة إليه. لعبة

obeikandl.com

تعيد إلى عمله المضني المتعة التي يفتقدها. متعة البدايات.

في غرفة المستشفى، أطرقت رنيم للحظات متفكرة. لم تمنعها نشوة الاستفاقة والعودة إلى الحياة من استعادة لحظات البرودة القارسة التي مرّت بها. هل كانت على وشك الموت؟ عاد جسدها إلى الارتجاف ممّا جعلها تُحكم ضمّ اللحاف إليها. لم تكن قادرة على التفكير.. لكن العبرات أخذت تتساقط من عينيها تباعًا في صمت خاوٍ، كخواء روحها في تلك اللحظة. لم تفكر في الموت حين وقعت وقعتها الأولى في مرسيليا. كان الحب واليأس يشغلانها. وربّما تمنّت أن تغادر دنيا لا يكون فيها ميشال لها ومعها. كانت حياتها فارغة وتفكيرها سطحيًا. كانت تعيش اللحظة بكل جوارحها وتتخذ كل آهة حجمًا خرافيًا في نظرها يفوق قيمتها الحقيقية. كانت تافهة ومحدودة الإدراك. الآن أصبحت متيقنة من شيء وحيد. مهما بدت تائهة وضائعة فهي لا تريد العودة إلى ما كانت عليه؛ إنّها تتلمّس الطريق مثل الأعمى، لكنّها تتقدّم في الوجهة الصّحيحة. ستصل إلى الضفة الأخرى حيث الأمان، ولو بعد حين. في الانتظار، ستستمرّ في المحاولة، وستكفّر عن ذنوبها واحدًا تلو الآخر.

ربّما كانت اللحظة التي أدركت فيها تغيّر نظرتها إلى الأمور هي اللحظة الفاصلة في مسيرتها الشخصيّة. تكّة موسيقيّة، تسمعها وحدها، ترنّ في وعيها فجأة لتعلن مرورها إلى مرحلة أخرى. لم يكن تغيّرا آنيا انبثق من العدم، بل تدرّجا داخليا بطيئا نحو استقرار مرتقب. نما في أعماقها حتّى مرحلة النضج ثمّ طفا على السّطح حيث أصبح مكانه الطبيعي، فتتحوّل القناعات الخفيّة التي ترسّبت طبقاتها واحدة إثر الأخرى في عقلها الباطن إلى أفعال ومواقف.

أسندت رأسها على خلفية السّرير ثم تناولت هاتفها. هناك أمر أخير عليها أن تنجزه قبل أنتخلد إلى راحة حقيقية. طلبت رقمًا دوليًا ثم أخذت تنتظر الرّدّ بتوتر. هتفت ما أن جاءها الجواب:

- أبي، كيف حالك؟ أنا بخير، لا تقلق بشأني.. كنت أقصدك في خدمة.

عضّت على شفتها السفلى حين جاءها ردّه البارد:

- تحتاجين إلى المزيد من السّيولة؟

ترددت لثانيتين قبل أن تقول في اقتضاب:

- أحتاج خمسين ألفًا.. اعتبرها سلفة. سأردّها لك في أقرب فرصة.

جاءها صوته حاملاً علامات استغراب واضحة:

- خمسين ألف جنيه؟

- بل خمسين ألف يورو.

لم تخف عليها صدمته وهو يقول في شك:

- تريدين سيارة؟

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتمتم في ضيق:

- ليس بالضبط.. أرجوك لا تسألني بما سأفعله بها. لكنّني أحتاجها بشكل ضروري. هل يمكنني الاعتماد عليك؟

وضعت السماعة بعد أن وعدها في التفكير بالأمر. فعادت إلى الاستلقاء في إعياء.بعد لحظات، وجدت في نفسها القوّة فامتدت ذراعها لتتناول الحقيبة التي وضعها جورج على المنضدة. أخذت تخرج محتوياتها في دهشة وهي تقلب قطع الملابس الغريبة التي لا تذكر أنها ارتدتها من قبل. ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكة. لا شك أن ياسمين ستفتقد بعضًا من حاجياتها هذه الأيام.

obeikandl.com

-٣٣-
علبة الشوكولاتة

فتحت ياسمين عينيها ببطء. حدّقت في سقف الغرفة للحظات ثم ابتسمت. مضت ليالٍ كثيرة منذ نعمت بليلة نوم هانئة كهذه. بعد تناولها منقوع أعشاب دافئة من تحضير خالتها زهور، أحسّت بخمول في أعصابها ووجدت النّوم يتسلل إلى جفونها بسهولة ويسر. رفعت رأسها وألقت نظرة على المكان المجاور لها على السرير. كانت ميساء قد اختفت. هل نامت أكثر مما ينبغي؟ تمطت ببطء وتمهل ثم وقفت من مكانها. رتّبت السرير بهدوء وهي تحسّ بنوع من الرّاحة النفسيّة تتخللها ذلك الصباح. بشكل ما كانت تشعر بتحسّن. لعله تأثير المناخ العائلي الدّافئ. خرجت إلى الرّدهة فقادتها رائحة الخبز المحمّص المتسللة من الباب الموارب إلى المطبخ. ابتسمت وهي تطالع زهور التي جلست تحتسي قهوتها الصباحية وتتصفح جريدة الأمس.

- يبدو أنّني نمت كثيرًا.

بادلتها زهور الابتسامة وهي تدفع إليها بشرائح الخبز السّاخنة وعلبة المربى منزليّة الصّنع.

- صحّة وعافية يا حبيبتي. أنت بحاجة إلى الرّاحة.

سألتها ياسمين في شيء من الحرج:

- ميساء ذهبت إلى الجامعة؟

هزت زهور رأسها علامة الإيجاب وهي تقول كأنها فهمت مرادها:

- الجميع انصرفوا لأشغالهم. ليس في البيت غيرنا. ما رأيك في الخروج للنّزهة بعد الفطور؟

كانتا تتمشيان بهدوء ورويّة في «حقول مارس» * المعشوشبة التي تمتد

---

* Champs de Mars: واحدة من أكبر المناطق الخضراء في باريس تقع في الدائرة العاشرة بين برج إيفل و المدرسة العسكرية. سميت الساحة بهذا الاسم نسبة إلي مارس إله الحرب عند الرومان، حيث صممت في ١٧٥١ لتكون مجالا للتدريبات العسكرية، قبل أن تتحول إلى حديقة. وقد شهدت الساحة كلا من أحداث الثورة الفرنسية واحتفالات التحرير.

خلف «برج إيفل» الشاهق حين بادرتها زهور متسائلة:
- هل اتصلت بفاطمة؟
هـزّت رأسـها علامـة النفـي وهـي تطالـع الـبرج في شرود. بـدا كئيبًـا وبشـعًا عـن قـرب بأعمدتـه المعدنيـة الرّماديـة المتشـابكة. يختلـف كثـيرًا حـين يـضيء بـآلاف المصابيـح الصغـيرة في المسـاء بشـكل مبهـج. كانـت تـراه كذلـك مـن نافـذة شـقتها، ولـم يخطـر ببالهـا أن يكـون المعلـم الباريـسيّ الأذيـع صيتًـا والـذي شـيّد في الذكـرى المائـة للثـورة الفرنسـية مخيّبًـا للآمـال بتلـك الصفـة. ربمـا كان مزاجهـا الـسّيء يجعلهـا تبالـغ؟ تسـاءلت في سرهـا في حـين واصلـت زهـور:
- أعلـم أنـك لا تريديـن شـغلها بأمـرك، لكنهـا بـدت متحـيّرة حـين اتصلـت بي مسـاء أمـس. أخبرتهـا أنـك منهكـة بالعمـل وتأويـن إلى الفـراش باكـرًا.. لكنهـا لـن تطمـئن حـتى تسـمع صوتـك. فهـلا فعلـت؟
هـزّت رأسـها علامـة الإيجـاب، وشـبح ابتسـامة يظهـر عـلى شـفتيها. كانـت زهـور تريـد أن تـسري عنهـا بعـض الـشيء، لكـن شـعورًا بالاختنـاق كان يغلبهـا. التفتـت إليهـا وهـي تقـول في حـرج:
- هلا انصرفنا؟
- كما تشائين.
لـم تـرد إحباطهـا.. لكـن صدقًـا، اختيـار هيثـم لهضبـة مونمارتـر كان أكـثر توفيقًـا. همسـت وهـي تتفقـد حقيبتهـا:
- أظنني أحتاج المرور إلى الشقة.. لقد نسيت أقراص الدّواء.
بعـد ثلـث السـاعة كانتـا تتجـاوزان مدخـل العمـارة. وقفـت زهـور في غرفـة الجلـوس تنتظـر في حـين غابـت ياسـمين خلـف بـاب غرفتهـا. لبثـت تحـدّق في دهشـة في أشـيائها المبعـثرة في فـوضى. هـل أمضـت رنيـم الليلـة هنـا؟ أخـذت الأقـراص الـتي كانـت عـلى منضدتهـا ثـم عـادت لتتأمـل كومـة الأوراق الـتي اسـتقرّت فـوق السّريـر في اسـتغراب. مـا الـذي جـاء بهـا إلى هنـا؟ أخـذت تتصفـح الأوراق الكثـيرة الـتي امتـلأت بخربشـات متداخلـة ومـا لبثـت نظراتهـا أن توقفـت عنـد اسـم مألـوف.. البروفيسـور «سـامي كلـود» وقـد رسـمت تحتـه سـطور عـدّة بقلـم أحمـر. رفعـت حاجبيهـا في دهشـة. مـاذا يفعـل اسـم والدهـا في أوراق رنيـم؟ هـل طلـب منهـا أن تهتـمّ بأمـر مـا مـن أجلـه؟ عـادت لتتصفـح الأوراق بفضـول متزايـد. لكـنّ مفاجأتهـا كانـت أكـبر هـذه المـرّة وهـي تحـدّق

في غـير اسـتيعاب في النسـخة المصـوّرة مـن بطاقـة هويـة رجاليـة. تسـمّرت في مكانهـا وتصلبـت عضلاتهـا في حـين غاصـت نظراتهـا في الصّـورة غـير مصدّقـة، ووجيـب قلبهـا يتصاعـد بشـكل لا سـيطرة لهـا عليـه. قـرأت الاسـم المصاحـب في لهفـة، فأحسّـت لوهلـة بـالأرض تميـد تحـت قدميهـا. تشـبثت بحافـة السّريـر حـتى تسـترجع توازنهـا وشريـط طويـل مـن الأحـداث والأخبـار يتسـارع في ذهنهـا. كانـت المفاجـأة تفـوق طاقتهـا. جلسـت هـذه المـرةّ عـلى طـرف السرير وهـي تحـاول عبثًـا ترتيـب أفكارهـا. الدكتـور.. عمـر الرّشـيدي؟ هـو لا غـيره؟ أخفـت فمهـا بكفهـا لتمنـع صرخـة مكتومـة مـن تجـاوز شـفتيها.

- ياسمين.. هل انتهيت؟

جاءهـا صـوت زهـور تسـتعجلها فأيقظهـا مـن الدوّامـة الـتي سـقطت فيهـا. هتفـت بصـوت مختلـج:

- أنا.. أنا قادمة.

وقفـت مـن مكانهـا في اضطـراب وهـي لا تعـي مـا تفعلـه. بأصابـع مرتجفـة تناولـت الورقتـين، تلـك الـتي تحمـل اسـم والدهـا والأخـرى الـتي تحمـل صـورة صديـق المـترو الغريـب، ودسّـتهما في حقيبتهـا ثـمّ هرولـت لتغـادر المـكان برفقـة زهـور. سـتعيدهما فيمـا بعـد، بعـد أن تسـتوعب مـا يحصـل مـن حولهـا.

*****

دخلـت غرفـة ميسـاء مدّعيـة التّعـب وطلبـت الاختـلاء بنفسـها لبعـض الوقت. كانـت قـد تناولـت الغـداء مـع خالتهـا زهـور في أحـد مطاعـم الحـيّ اللاتيـني الـتي ترتفـع عـلى واجهاتهـا يافطـات عربيـة وفرنسـية تحمـل كلمـة «حـلال». تمشـتا قليـلاً عـلى ضفـاف نهـر السّـين، قبـل أن تعلـن ياسـمين سـأمها مـن جديد فقفلتـا راجعتـين. عبسـت زهـور وهـي تغـادر الغرفـة لتتركهـا وحيـدة واتجهـت إلى مطبخهـا لتحضـير وجبـة العشـاء. لـم يكـن شـكلها يدعـو إلى الاطمئنـان. بـدت سـاهمة طـوال النزهـة، لكـنّ مزاجهـا الصباحـي المُـرضي انقلـب بشـكل مفاجـئ بعـد مرورهـا عـلى شـقتها. أصبحـت تشـك أن ذلـك المـكان يدفعهـا إلى الاكتئـاب بطريقـة يصعـب عليهـا تفسـيرها.

بتركـيز شـديد أخرجـت ياسـمين الوريقـات الـتي اختلسـتها مـن دفاتـر رنيـم

وأخـذت تحملـق فيهـا محاولـة استشـفاف الرّابـط بـين والدهـا والدكتـور عمـر وقضيـة تفجـير شركـة الكيميائيـات. تناولـت هاتفهـا وطلبـت رقمـه الخـاصّ ولبثـت تنتظـر. لمفاجأتهـا، جـاء ردّه منـذ المحاولـة الأولى. بـدا كمـن يتوقـع اتصـالاً حـين قـال بهـدوء غريـب:

- كيف حالك ياسمين؟ كنت بانتظارك.

رفعـت حاجبيهـا في دهشـة. فكـرت في شرود، هـل يكـون باتريـك قـد بلغـه بمـا حصـل معهـا؟ ارتفعـت نبضـات قلبهـا وهـي تنتظـر ملاحظتـه التاليـة، لكنـه قـال بـبرود كأنـه يسـتعجلها:

- هات ما عندك.

أحسّـت بدموعهـا تتجمّـع في مقلتيهـا مـن جديـد والألـم يعتـصر قلبهـا. إن كان يعلـم بمـا مـرّت بـه فلمـاذا لـم يتصـل بنفسـه؟ لمـاذا اكتفـى بانتظـار اتصـال منهـا؟ هـل مـن المفـترض أن يتـصرّف الوالـد بتلـك الطريقـة؟ لا تظـنّ. هـزّت رأسـها بقـوّة لتمنـع عبراتهـا مـن التسرّب. لـم تكـن تتصـل بـه للحديـث بـذاك الموضـوع، ولـن تحيـد عـن مسـارها. سـألته بصـوت مرتجـف محاولـة المراوغـة:

- هل تذكر شركة الكيميائيات.. تلك التي حصل بها الانفجار منذ شهور؟

تجلت في صوته المفاجأة وهو يردّ في فضول:

- ماذا بشأنها؟

حاولت أن تحافظ على ثبات صوتها وهي تتابع:

- هل تعرف شخصًا يُدعى عمر الرّشيدي.. يعمل بتلك الشركة؟

مـرّت لحظـات مـن الصّمـت كأنّ البروفيسـور يحـاول خلالهـا تذكـر أمـر مـا، ثـم أجـاب بلامبـالاة:

- لا أعتقد.. لا أذكر أحدًا بهذا الاسم.

ألحّت بقوّة:

- حـاول أن تتذكـر.. إنـه دكتـور شـابّ يقـترب مـن الثلاثـين.. التحـق حديثًـا بالشركـة، ويعمـل في مجـال الطاقـات النظيفـة.

عاد الصّمت ليحل للحظات إضافية قبل أن يهتف متذكرًا:

- آه.. نعـم، عرفتـه.. رأيتـه مـرّة حـين كنـت أزور البروفيسـور دانيـال في مكتبـه. حدّثـني عـن بحـث جديـد وطلـب رأيي فيـه.. لكـن، مـا شـأنك أنـت بـه؟

قاطعته في لهفة متجاهلة سؤاله:

- إذن أرسل إليك بحثه؟

- آه، نعـم. لكـن انشغالي في الفـترة الماضيـة منعـني مـن الاطـلاع عليـه. هـلا أخبرتـني مـا الأمـر؟

تنهدت بقوّة ثم أردفت:

- هل يمكنك أن تشهد بهذا أمام المحكمة؟

- أمام المحكمة؟

- نعـم، الدكتـور عمـر يحتـاج إلى شـهادتك. بعـض زملائـه يتهمونـه بسرقـة ملـف الأبحـاث. لكـن شـهادتك سـتثبت عكـس ذلـك.

سألها مرّة أخرى في شك:

- لكن ما شأنك أنت بالأمر؟

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتمتم في حذر:

- أفعـل هـذا مـن أجـل رنيـم.. زميلـتي في السـكن. فهـي.. فهـي.. محاميـة الدكتـور عمـر.

- طيب سأنظر في الأمر.

طاردته في إصرار:

- عـدني بأنـك سـتفعل. أرجـوك. هـل عـدت مـن سـفرك؟ مـتى يمكنـك المجيء إلى باريس؟

أجابها في تسليم:

- حسن، حسن.. سأفعل.

بعد صمت قصير متوتر سألها في شك حذر:

- ألم تتصل بك إيلين هذه الأيام؟

فوجئت بتغييره للموضوع بسرعة. لم يكن من عادة إيلين الاتصال بها.

- لا، لم تفعل.

- وباتريك؟ هل مازال يضايقك في الشركة؟

تـردّدت للحظـات. إذن هـو لـم يكـن يعلـم بشـأن انقطاعهـا. وهـي الـتي حسـبته يريـد الاطمئنـان عليهـا. أجابـت متصنعـة اللامبـالاة وهـي تتجنّـب إخبـاره عـن مرضهـا:

- لا، لم يفعل. كل شيء على ما يرام.

عـاد السكون ليخيـم عـلى المكالمـة لبعـض الوقـت، ظلـت ياسـمين خلالهـا

obeikandl.com

تتساءل في حيرة عن سبب توقعه اتصالاً منها، قبل أن يستطرد كمال في شيء من الضيق:
- إذن أنت لا تعلمين؟
- أعلم بم ؟
- بأني.. غادرت المنزل.. أنا وإيلين.. سننفصل.
- تنفصلان؟
تمتمت في دهشة. حين لم تجد منه جوابًا أضافت في قلق:
- ماذا عن ريّان وسارة؟ هل فكرت بهما؟
كانا أول من خطر ببالها. هتف في شيء من الحدّة:
- إنهما راشدان الآن. إن أرادا البقاء مع والدتهما فلهما ذلك.. وإن أرادا المجيء معي فبيتي مفتوح لهما. لكن إيلين.. لم يعد هناك مجال لاستمرار ما بيننا.
هل هذه طريقته في الاهتمام بالأمر؟ كانت تريد أن تلومه وتعاتبه. زواجان، انفصالان وثلاثة أطفال مشرّدون. ربّما كانت هي أصغر من ريان وسارة بكثير حين تخلى عنها فلم تشعر بغيابه، لكن الأمر قد يبدو أصعب على أخويها لأنه كان قريبًا منهما لفترة أطول. لا، لم يكن الأمر كذلك.. بالتأكيد شعرت بغيابه. ما أن وصلت إلى سنّ الإدراك وتبيّنت أنّ عائلتها منقوصة من عنصر أساسي وطبيعي في كل أسرة. نشأتها بدون أب إلى جانبها لا يمكن أن يكون أمرًا عاديًّا وإن سكتت عنه في استسلام طيلة السنين الماضية. لذلك كانت تشعر بالأسى من أجل أخويها.. ومن أجل إيلين. زوجة أخرى يتخلى عنها البروفيسور سامي كلود.
خرجت لتجلس إلى زهور بذهن غائب. أنبأتها بكلمات مقتضبة عن طلاق والدها وإيلين المرتقب، ثمّ سرحت في الفراغ غير مستجيبة لمحاولات زهور لمجاذبتها أطراف الحديث. راقبتها هذه الأخيرة في قلق متنامٍ. تبدو أسوأ من الأمس. ماذا يمكنها أن تفعل لتسرّي عنها؟
- ترافقيني إلى المتجر؟ أحتاج بعض البهارات.
هزّت رأسها علامة النّفي وهي تشعر بشيء من الضّيق:
- سأستلقي قليلاً في الغرفة. أشعر ببعض التعب.
عادت أدراجها إلى الغرفة وتمدّدت على السرير. لم تمض بضع دقائق

حتى سمعت باب المنزل يغلق مع مغادرة زهور. زفرت بقوّة وهي ترفع ذراعيها خلف رأسها. إنّها تفكر بأشياء كثيرة اليوم. انفصال والدها عن إيلين.. سارة وريان، كيف يشعران؟ ملف الأبحاث، قضية التفجير الإرهابي.. رنيم والدكتور عمر. عمر.. هذا هو اسمه إذن. أخيرًا وضعت اسمًا على ذلك الوجه الحبيب. ووجدت وجهًا لذلك المتّهم المجهول الذي طالما حدّثتها عنه رنيم. زمّت شفتيها في ألم. لم يكن اكتشافًا مبهجًا. تقلبت على جانبها الأيمن ثم تناولت هاتفها. ربما عليها أن تسأل عن أحوال أخويها. لا شك أنهما يقضيان أوقاتًا عصيبة هذه الأيام.

- سارة، كيف حالك؟

فوجئت حين وصلها صوت سارة الباكي وهي تتكلم بصعوبة بين دموعها:

- ياسمين.. هذه أنت؟

هبّت جالسة في توتر وهي تحاول تهدئتها:

- سارة عزيزتي.. هوّني عليك.

لكن نشيج سارة كان يرتفع أكثر وصوتها يتهدّج أكثر:

- ماما يا ياسمين.. ماما.

- إيلين؟ هل هي بخير؟

- إنّها بالمستشفى.. في العناية المركزة.

- ما الأمر؟ ما الذي حصل لها؟

- لقد.. لقد.. حاولت الانتحار.

شحب وجه ياسمين بشدّة مع كلمتها الأخيرة وتصلبت أصابعها على جهاز الهاتف في حين اتّسعت عيناها في عدم تصديق. إنه كابوس. كابوس حقيقي.

*****

قفزت ميساء داخل السيارة في مرح وهي تهتف:

- شكرًا لمجيئك.

لم يكن هيثم يمرّ لاصطحابها من الجامعة كل يوم. كثيرًا ما كانت دروسها تنتهي في وقت مبكر قبل انتهاء يوم عمله، فتركب المترو العمومي.

أمّا حين تتأخر دروسها، فتتصل به كي يعودا إلى البيت معًا، رغم ما يسببه له ذلك من إطالة للمسافة ومن تورّط في الزّحام الباريسي. ألقت ميساء نظرة على المقعد الخلفي حيث تكدّست بعض الأكياس وهتفت في فضول:

- ما كل هذا؟

ابتسم هيثم وقال في هدوء:

- بعض المشتريات.

مالت ميساء إلى الخلف لتعاين محتوياتها:

- هل طلبت منك أمي التسوّق من أجل العشاء؟

هزّ رأسه نافيًا في صمت متحفظ، أثار استغراب ميساء وفضولها أكثر. فتحت الكيس الأول وتناولت علبة شوكولاتة وهتفت في سرور:

- هل أتناول واحدة؟

حدجها هيثم بنظرة حازمة وهو يقول:

- ليست لك. إن سمحت لك ياسمين، خذي واحدة منها.

شهقت ميساء في صدمة:

- إذن كل هذا من أجل ياسمين؟ وأنا أختك الحبيبة، أليس لي نصيب؟

كست وجهه حمرة قانية مع احتجاجها الطفولي. قال مداريًا ارتباكه وهو يتجنّب النّظر إليها:

- الشوكولاتة تساعد على تهدئة الأعصاب.. وياسمين تحتاجها في ظروفها الحالية.

تظاهرت ميساء بالتعب وهي تلقي برأسها على مسند مقعدها وتهمس متأوّهة:

- وأنا أيضًا مرهقة من الجامعة وأعصابي تالفة.

حدجها بنظرة ساخرة ثم ابتسم في هدوء ولم يعلق. حين توقفت السّيارة أمام منزل العائلة، حملت ميساء الأكياس وصعدت السّلّم على عجل. توقفت فجأة أمام الباب المغلق والتفتت إلى هيثم الذي كان يصعد الدّرجات في هدوء وراءها. قالت في دعابة غير بريئة:

- هل أعطي ياسمين الأكياس أم أدعك تفعل؟

رماها بنظرة مصطنعة الصّرامة دون أن يتكلم وتجاوزها ليفتح الباب. حين دلفا إلى البهو بدا المنزل هادئًا على غير العادة. دارت ميساء على

الغـرف بسرعـة ثـم رجعـت لتقـول في حـيرة:
- يبدو أن أمي وياسمين خرجتا في مشوار ما.
في تلك اللحظة، فتح الباب الخارجي وظهرت زهور. بادرتهما في ترحيب:
- جيّد أنكما وصلتما مبكرًا. كنت قلقة على ياسمين التي بقيت وحدها.
هتفت ميساء في استغراب:
- ياسمين بقيت وحدها؟ أين هي إذن؟
تبـادل ثلاثتهـم نظـرات قلقـة ثـم ركضـت ميسـاء في اتجـاه الغرفـة مـن جديـد. عـادت هـذه المرة وهـي تمسـك بقصاصـة ورقيّـة. هتفـت في انفعـال وهـي تمـدّ بهـا إلى والدتهـا:
- انظـري مـاذا وجـدت عـلى المنضـدة: «اضطـررت إلى السـفر إلى ليـون لأمـر طـارئ. لا تقلقـوا بشـأني».
صرخ هيثم في عدم تصديق:
- سافرت إلى ليون!
عقدت زهور حاجبيها في تفكير وهي تقول:
- أخبرتـني اليـوم أن والدهـا وزوجتـه عـلى وشـك الانفصـال.. ربمـا كانـت قلقـة عــلى أخويها؟
صرخ هيثم مجددًا في انزعاج:
- وهـل يتطلـب منهـا ذلـك السّـفر فجـأة إلى ليـون دون إعـلام أحـد وهـي في حالتهـا تلـك؟
أشارت زهور إلى ميساء في استعجال:
- اتصـلي بهــا أرجــوك، اتصــلي بهــا.. إنــه خطــئي، مــا كان عــليّ أن أتركهــا بمفردهــا في البيــت.
تناولـت ميسـاء هاتفهـا وكوّنـت رقـم ياسـمين، في حـين أشـاح هيثـم بوجهـه في عبـوس، تنـاول أكياسـه مـن الأرض ثـم وقـف مغـادرًا الرّدهـة وسـار في عصبيـة باتجـاه غرفتـه. اسـتوقفته زهـور في تسـاؤل:
- ماذا سنفعل بشأن ياسمين؟
استدار بقوّة وانفجر غاضبًا:
- ومــاذا تريديــن مــنّي أن أفعــل؟ إن كانــت الآنســة لا تهتــم بصحّتهــا ولا تستشـير أحـدًا ولا تضـع اعتبـارًا لأحـد في هـذا البيـت، فهـل تتوقعـين مـنّي أن

أهتـم؟ فلتحـل مشـكلاتها بنفسـها بعيـدًا عنّـا، إن كان هـذا مـا تريـده.

قاطعته زهور في دهشة:

- هيثـم، لمـاذا كل هـذا الانفعـال؟ ياسـمين تمـرّ بأزمـة نفسـية، ويجـب أن نفعـل مـا بوسـعنا لمساعدتها. منـذ دخلـت هـذا البيـت أصبحـت واحـدة منـا، وكل مـا يهمّهـا يهمّنـا.

زفـر في حـدّة وهـو يـصرّ عـلى أسنانه. ربّمـا انفعـل أكـثر ممّـا يجـب. ربمّـا كان غضبـه مبالغًـا فيـه. ربّمـا تـرك العنـان لمشـاعر صبيانيّـة سـخيفة غطـت عـلى تفكـيره العقـلاني. مسـح عـلى وجهـه بكفـه ثـم قـال محـاولاً اسـترجاع هدوئـه:

- وماذا بوسعنا أن نفعل؟ لقد ذهبت وانتهى الأمر.

- نلحق بها.

نظر إليها في احتجاج ثم قال محاولاً الحفاظ على هدوئه:

- أنا آسف. لست ذاهبًا إلى أي مكان.

لمـاذا عليـه أن يقطـع كل تلـك المسـافة إلى ليـون ليلحـق بهـا؟ لقـد غـادرت بكامـل إرادتهـا، وهـي عـلى اكتئابهـا وتأزمهـا ليسـت مختلـة عقليًّـا ولا ناقصـة المـدارك. يمكنهـا أن تتـصرّف بمفردهـا، وحـين تـدرك حاجتهـا إليهـم سـتتصل وتطلـب المسـاعدة، أليـس كذلـك؟

في تلك اللحظة هتفت ميساء:

- ياسمين، أين أنت؟

كانـت تحـاول منـذ دقائـق الاتصـال بياسـمين وبـدا أن مشـكلة في الإرسـال تمنـع حصولهـا عـلى الخـط. تعلقـت أعـين زهـور وهيثـم بوجـه ميسـاء، ولبثـا ينتظـران مـا تسـفر عنـه المكالمـة.

جاءها صوت ياسمين مبحوحًا ومختنقًا:

- أنا في القطار. سيغادر الآن.

- أنت تبكين؟

لـم تسـتطع إخفـاء آثـار الدمـوع في صوتهـا وهـي الـتي استسـلمت للبـكاء مـا أن اتخـذت مجلسًـا في القطـار وتـدارت عـن أعـين بقيّـة المسـافرين. حاولـت أن تتماسـك وهـي تقـول:

- لا تقلقـوا بشـأني. سـأقضي بضعـة أيّـام مـع أخـويّ ثـم أعـود. زوجـة أبي حاولـت الانتحـار. إنّهـا في المستشـفى الآن تحـت العنايـة المركـزة.. وأبي مسـافر،

لذلك فإنّهم في حاجة إليّ.

- حاولت الانتحار؟

تلك الكلمة كانت كفيلة بشحن الجوّ بعلامات الإنذار القصوى. الانتحار من جديد. بدا أن الوضع أخطر مما توقع أيّ منهم. أنهت ميساء المكالمة ثم هتفت بسرعة وارتباك:

- زوجة والدها حاولت الانتحار.. وهي تبدو منهارة بالكامل.. أنا قلقة عليها.

دون تفكير التفت هيثم إلى والدته وقال في جديّة:

- هل أنت جاهزة؟ يجب أن نغادر على الفور حتى نصل قبل حلول الظلام.

أومأت زهور برأسها موافقة ثم خاطبت ميساء بلهجة آمرة:

- ميساء، اتصلي بوالدك وأعلميه أرجوك. سيتفهم الوضع بالتأكيد.

هتفت ميساء في احتجاج وعلى وجهها علامات القلق:

- أريد أن أذهب أيضًا.

حدجتها زهور بنظرة صارمة وهي تقول:

- وائل سيرجع قريبًا، يجب أن يجد أحدًا في البيت. حضري طعام العشاء ولا تغادري المنزل أبدًا حتى يرجع أخوك وأبوك، فهمت؟

هزت رأسها في تسليم دون اقتناع وسارت في إحباط باتجاه غرفتها. استوقفها هيثم فجأة. التفتت إليه مستفسرة فبوغتت بالكتلة التي طارت من بين يديه باتجاهها. تلقفتها بحركة مرتبكة ونظرت بين يديها في دهشة لتتأمل علبة الشوكولاتة. ابتسم هيثم في تهكم خفيف وهو يقول:

- إنها لك.

obeikandl.com

-٣٤-

المواجهة

ركضت ياسمين عبر ممرّات المستشفى وهي تقاوم العبرات. كفاها ما بكت في القطار طيلة الساعات الفائتة. لم تكن تبكي خوفاً على إيلين أو شفقة على أخويها، لكنّ الحادثة أعادت إلى ذهنها كل الذكريات المكبوتة منذ ذلك اليوم العصيب في قسم الصّحّة النفسيّة بالمستشفى الباريسيّة. كانت صورة قدمي روزلين المتدليتين من السّقف تظهر أمام عينيها بوضوح أكبر يزداد كل لحظة حتّى تكاد لا ترى غيرها. جاهدت حتّى تحافظ على تركيزها وهي تقرأ اللافتات على الأبواب وتبحث عن الغرفة المنشودة.

توقف اندفاعها فجأة وهي تلمح سارة وريان يجلسان على مقاعد الانتظار في مدخل قسم العناية المركزة.. لكنّ ما أوقفها هو وجود شخص ثالث إلى جوارهما. شخص لم تحسب حسابًا لوجوده في هذا المكان في ظل هذه الظروف. باتريك. أحسّت بنظراته تحرقها وهو يرفع عينين متعبتين ليرمقها في ازدراء لخّص كل مخاوفها.

- ما الذي جاء بك؟ هل تشمتين؟

كلمة واحدة إضافيّة منه كانت لتدفعها إلى نوبة بكاء جديدة. تشمت؟! هل هو جادّ فيما يقول؟! تجاوزته وهي تحبس أنفاسها واتجهت إلى سارة تحتضنها. وبدا أن علامات انهيارها الواضحة جعلته يحجم عن المزيد من البذاءة التي لا داعي لها. جلست بين أخويها تربت على كتفيهما محاولة أن تكون ذات نفع، لكنّها وجدت ريان يقول في ثبات مطمئنًا إياها:

- ستنجو يا ياسمين.. ستنجو.

هل بدت في حاجة إلى من يواسيها أكثر منهما؟ هل كانت حالتها مزرية إلى تلك الدّرجة؟ مسحت وجهها بطرف وشاحها وتركت سارة تريح رأسها على صدرها. لبثتا متعانقتين في صمت لبعض الوقت بينما كانت أصابعها تسرح بين خصلات شعر سارة الملساء. لم يحاول باتريك مضايقتها مجدّدًا. ربّما احترامًا لابني شقيقته. وربّما لإحساسه بالضعف وإيلين ترقد في حالة حرجة خلف الجدار الذي يتكئ عليه.

لم تدر كم مضى عليها من الوقت وهي تجلس في غرفة الانتظار حين تناهى إليها وقع خطوات مسرعة تقترب. حين رفعت رأسها لم تصدّق ما رأت. كانت زهور تجري في اتجاهها في لهفة. وقفت لاستقبالها في ذهول وعانقتها في امتنان. ثم ما لبثت أن لاحظت هيثم الذي كان يقف غير بعيد عنهما وعلى وجهه علامات الاستياء. تمتمت في ارتباك:

- لم يكن عليكما المجيء.

تكلمت زهور في حرارة:

- كيف يسعنا أن نتركك تواجهين هذا الموقف وحدك يا صغيرتي.

ثم تحوّلت نظراتها إلى الثلاثة الآخرين الذين كانوا يتابعون المشهد في فضول ممزوج بالاستغراب. تمّت عملية التعارف بسرعة بمساعدة من ياسمين، في حين تبادل هيثم وباتريك نظرات طويلة معبّرة لكنّ أحدًا منهما لم يعلق على لقائهما السّابق في المستشفى الباريسيّة. بعد لحظات جاء الطبيب فوقف الجميع لملاقاته في ترقّب ونفاد صبر.

وضعها مستقرّ. قمنا بغسيل معدتها للتخلص من آثار التسمّم. ستنام الآن بمفعول المخدّر حتى الصّباح. لذلك لا داعي لبقائكم هنا طوال الليل. بإمكانكم المغادرة وأخذ قسط من الرّاحة.

تنفس الجميع في ارتياح. وكانت ياسمين أكثرهم ابتهاجًا. اكتشفت في تصريح الطبيب كيف حاولت إيلين إنهاء حياتها. لا شك أنها ابتلعت كميّة من الأدوية. جعل ذلك الاكتشاف جزءًا من صورة روزلين يختفي من لاوعيها. لم تكن هناك ساقان إضافيتان تتأرجحان من السقف.

تكلم باتريك أخيرًا بعد أن انصرف الطبيب مخاطبًا القادمين الجدد بلهجة باردة محايدة:

- أدعوكم لقضاء الليلة في منزل إيلين.. كان لطفًا منكم المجيء إلى هنا لمشاركتنا المصاب.

عبست ياسمين ولم تعلق. لم تكن تنتظر منه دعوة لقضاء الليلة مع إخوتها في منزل والدها! كما أنّه من حقها دعوة خالتها زهور وابنها للانضمام إليها. هزّ هيثم رأسه شاكرًا ومرحبًا بالدّعوة. لم يكن ذلك جزءًا مما خطط له في طريقه إلى ليون. كان ينوي استئجار غرفة في نزل قريب له ولوالدته، لكنّ لقائه بباتريك جعله يغيّر رأيه. لم يكن من المناسب

obeikandl.com

لياسمين أن تبيت في منزل واحد مع طفلين ورجل غريب، وفي نفس الوقت لا يمكن لأحد أن يمنعها من البقاء مع أخويها وهما في أمسّ الحاجة إلى الرّعاية. حتى إن فكر بالعكس فوالدته لم تكن لتتركه يفعل. لذلك كانت الدّعوة مناسبة.

تناول الجميع طعام العشاء معًا في غرفة الجلوس. وجبة خفيفة حضرتها زهور بما توفر في المطبخ. كانت إيلين أكثر ولعًا بالأكلات المعلبة والجاهزة، لذلك لم يكن المجال مفتوحًا للكثير من الابتكار. أخذ ريان حصّته وصعد إلى غرفته مبكرًا، وكانت تلك طريقته في الإعلان عن رفضه لكلّ شفقة أو تعاطف. في حين اكتفى باتريك بلقيمات قليلة ثم استأذن للخروج إلى الحديقة، حيث شرع في التهام سجائره المعطرة الواحدة تلو الأخرى. إثر ذلك صعدت ياسمين رفقة سارة إلى غرفتها لتساعدها على النّوم بعد أن أبديتا شهيّة ضحلة. حين نزلت ياسمين مرّة أخرى كانت السّاعة قد اقتربت من منتصف الليل. جلست في المطبخ مسندة رأسها على المائدة وهي تتابع بنظرات ساهمة زهور التي كانت تغسل الأواني وتنظف المكان من آثار تدخلها ذلك المساء. همست أخيرًا بصوت ضعيف كأنها تفكر بصوت عالٍ:

- حين ينتهي كل هذا.. حين تسترجع إيلين عافيتها وتعود إلى البيت.. سأرحل إلى تونس.

التفتت إليها زهور وبدت عليها علامة المفاجأة:

- ترحلين؟!

قبل أن تردّ، سمعت خطوات في الرّدهة. كان هيثم الذي ملّ من مشاهدة التليفزيون وحيدًا قد اقترب من باب المطبخ. قالت ياسمين بنفس الهدوء متجاهلة وجوده:

- سأكون أفضل هناك.. لم تكن تجربتي في فرنسا موفقة على أي حال.

جاءها صوته من خلفها متسائلاً في برود:

- ماذا عن رسالة الدكتوراه؟

التفتت لتلقي عليه نظرة عابرة ثم أجابت في لامبالاة:

- إن تواصل الأمر بهذا الشكل فأظنني سأصاب بالجنون قبل أن أحقق شيئًا في ذلك البحث.

- لم أكن أعلم أنك ضعيفة بهذا الشكل.

رفعت رأسها لتواجه نظرة تهكم قاسية في عينيه.

- هيثم!

زجرته زهور في استياء. لكن لم يكن هناك مجال للتراجع. لبثت كلماته عالقة في هواء الغرفة قبل أن تهتف ياسمين بصوت مخنوق:

- ماذا تتوقع منّي؟ لست قادرة على فهم هذا المجتمع أو الاندماج فيه.. فضلاً عن التأثير عليه. فكيف تراني أتمكن من إنهاء هذا البحث الذي يكاد يقضي عليّ وهو في بدايته؟

لم تكن ردودها بالقوّة التي عهدها فيها كلما كانت بينهما مشادّة كلاميّة. بدا أنها قد غرقت في الضعف لأسابيع مضت ووهنت القوة الكامنة في أعماقها. لم تعد لديها الطاقة الكافية لتصطدم معه في جدال جديد. ربّما كانت ضعيفة حقًّا. ربّما لم تكن في مستوى الطموحات التي رسمتها في بداية المشروع. حبست عبراتها حتى لا تبكي من جديد، لكنّه لم يرحمها. قال بنفس القسوة المقصودة:

- هذا هراء. كلام فارغ. تتحدّثين عن فهم المجتمع والاندماج فيه؟ لا تكوني سخيفة. لا يمكنك أن تندمجي مهما حاولت.

تمتمت في هدوء:

- ألم تكن أنت من تحدّث عن ذلك؟ حسن، لقد أقنعتني.

هتف في حدّة لاذعة:

- كنت أستفزّك. ألم تفهمي ذلك؟ الاندماج؟ دعي عنك تلك الكلمات الجوفاء التي يتشدّق بها الفرنسيون وهم لا يعنونها على الإطلاق. حتى بالنسبة إلى من وُلد ونشأ على الأراضي الفرنسيّة ودخل مدارسها وخالط أهلها لعقود، ليس الأمر تلقائيًّا ولا يسيرًا. لكي تندمجي يجب أن تكوني بيضاء البشرة، زرقاء العين وشقراء الشعر.. وأن تفعلي كل ما يُطلب منك ويفترض بكل فرنسي أصيل أن يفعله: تسهرين وترقصين، تصاحبين وتشربين الخمر.. ومع ذلك يمكنك أن تنتظري لوقت طويل حتى تحصلي من هذا المجتمع على شهادة حسن سيرة! لذلك فإن الاندماج الذي تتحدثين عنه هو مجرد وهم. مجرد كونك مسلمة يعني أنك لن تسمحي لنفسك بالذوبان في مجتمع لا دين له.. بل من واجبك ألا تفعلي! هنا تعيشين

صراعًا بشكل يومي للبقاء والاستمرار وحماية ثوابتك. قد تمرّ عليك أوقات تترنحين فيها وتوشكين على السّقوط، لكن عليك مواصلة الطريق والحفاظ على احترامك لنفسك.. لأنّ تخليك عن هويتك يعني ضياعك. إن لم تكوني نفسك.. فلن تكوني شيئًا على الإطلاق!

كان يلهث وهو ينهي كلماته الأخيرة. وكانت أعين ياسمين وزهور شاخصة إليه في ذهول. وقبل أن تعلق إحداهما بكلمة، كان يأخذ نفسًا جديدًا ويندفع وقد أعطاه ما قرأه على وجهيهما من تأثير لكلماته السابقة شحنة من الطاقة الإضافية:

- لذلك لا تتذرعي بعدم قدرتك على الاندماج لتبرّري خوفك من مواصلة البحث الذي بدأته. هل ظننت أن النتائج ستقدّم إليك على طبق من فضة؟ إنّها دراسة اجتماعية وليست فرضًا مدرسيًّا! في البحوث العلمية تجرى التجارب في المختبرات، أما في البحوث الاجتماعية فالتجارب تحصل في مكان آخر، احزري ماهو؟ المجتمع! لست في حاجة إلى تقمّص الدّور بل إلى دراسته. واختلافك يجعلك قادرة على معاينة ما لا يمكن رؤيته من الداخل. النظرة الخارجيّة والمحايدة هي ما يجب أن يقدّمه العلم، وأنت مؤهلة لذلك تمامًا. ومهما بدا ذلك قاسيًا، فربّما كان من حسن حظك أن تهيّأت لك الظروف لرؤية هذه التجارب عن قرب.. فبدل الغرق في الحزن والتعاسة كما تفعلين، من الأفضل أن تتماسكي وتستعيدي رباطة جأشك لتتمكني من استثمار الفرصة النّادرة التي أتيحت لك لتقدمي إضافة إلى العالم.

ثم أضافت بلهجة تشوبها سخرية خفيفة:

- وربما حلت مشكلة الانتحارات التي تؤرق الرأي العام الفرنسي على يديك.

- لقد نُعتُّ بالإرهابيّة!

قالتها بلهجة من يلفظ أعمق أسرارها الدّفينة خارج أسوار قلبها الحصينة.

- ولن تكون آخر مرّة.

لم تبد عليه الدّهشة مثلما توقّعت. واصل بنفس الهدوء:

- طالما كان هناك مرضى نفسيّون طلقاء في الشوارع، قد تتكرّر التّجربة. معك..أو مع أيّ منّا. لذلك تعوّدي على نغمتها في أذنيك ولا تلقي إليها

Op.eikandl.com

بـالاً.

تكلمت زهور أخيرًا لتصرخ فيه:

- والآن هل انتهيت؟ هلا تركتها تستريح؟!

رفـع كفيـه معلنًـا استسـلامه دون كلمـة إضافيّـة. كان قـد أفـرغ جرابـه ولفـظ الكلمـات المحتقنـة في جوفـه طـوال الأيـام الماضيـة. انسـحب في هـدوء إلى الرّدهـة ومـن ثـمّ إلى البـاب المـؤدّي إلى الحديقـة المظلمـة. أحـسّ بضيـق تنفـس مفاجـئ. أخـرج آلتـه ليبـخ قـدرًا مـن محتوياتهـا في حلقـه، ثـم أخـذ شـهيقًا عميقًـا. زفـر في ضيـق وهـو يسمع وقـع خطواتهـا المرتبكـة عـلى الـدّرج وهـي ترتقـي إلى الطابـق العلـوي. كانـت الأصـوات تتـسرب إليـه عـبر البـاب نصـف المفتـوح.

كان يجـب أن يكـون قاسـيًا. هـذه البنـت في حاجـة إلى بعـض الصّدمـات لـكي تسـتيقظ. لـن يتركهـا تستسـلم إلى اليـأس وتنجـرف مـع تيّـار الألـم الـذي بـات يبعدهـا عـن مسـار حياتهـا السّـابقة. أيـن ذهبـت ياسـمين الـتي عرفهـا في لقائـه الأول بهـا؟ أيـن ذهبـت النّظـرة المتحديـة واللهجـة الواثقـة؟ تلـك الياسـمين لـن يتركهـا ترحـل وتـترك المجـال لأخـرى عديمـة الإرادة والعزيمـة. لـن يدعهـا تذهـب إلى الأبـد، فمازالـت في خاطـره مهمّـات أخـرى لـم يعهـد بهـا إليهـا بعـد.

انتبـه مـن أفـكاره حـين لمـح باتريـك يجلـس في ركـن مظلـم عـلى مقعـد حجـريّ عريـض. هـداه ضـوء السّـيجارة المشـتعلة إلى مكانـه. سـار في اتجاهـه دون تفكـير واسـتجاب إلى دعوتـه الصّامتـة للانضمـام إليـه في جلسـته الكئيبـة تلـك. عـرض عليـه سـيجارة فرفضهـا هيثـم بابتسـامة سـاخرة وهـو يقـول:

- لا أريد أن أموت شابًّا.

ابتسـم باتريـك بـدوره وهـو يلقـي بالسـيجارة عـلى الأرض ويدهسـها بقدمـه في حركـة ازدراء. لـم يـدر هيثـم إن كانـت كلماتـه قـد أقنعتـه أم أنـه قـد اكتفـى مـن السـجائر الكثـيرة الـتي أنهاهـا قبـل مجيئـه. سـاد صمـت ثقيـل بينهمـا لـم يحـاول هيثـم أن يقطعـه. كان باتريـك مـن بـادره قائـلاً:

- أنا آسف بشأن ما حصل المرّة الماضية.. في المستشفى.

كان هيثم يدرك عمّا يتحدّث بالضبط. تركه يواصل دون أن يقاطعه.

ليسـت لـديّ مشـكلة شـخصيّة مـع ياسـمين.. بـل هـي قـد تكـون مدهشـة في عملهـا حـين تريـد ذلـك.

وافقه هيثم بهزّة خفيفة من رأسه فتابع في ألم:

- إن جعلها مسؤولة عما حصل مع روزلين يجعلني مسؤولاً بشكل ما عمّا حصل لإيلين، أليس كذلك؟

هزّ هيثم حاجبيه في دهشة. لم يكن يدري عمّا يتحدّث. أردف باتريك كأنّه يخاطب نفسه:

- كنت دائمًا أعتقد أنّه لا يستحقها وأنّها دفنت نفسها حيّة حين ارتبطت به.. كان يتركها باستمرار تهتمّ بالصغار مثل أم عزباء وحيدة ويسافر عبر العالم. كانت تمرّ بفترات من الوحدة والوحشة، فتمتنع حتى عن الشكوى إليّ رغم أنّني قريبها الوحيد.. لأنّها تعرف رأيي فيه منذ البداية. لذلك حين تعكر الجوّ مؤخرًا وكثرت المشاحنات بينهما، سعدت لأنها وجدت في نفسها الشجاعة لتصارحني بحقيقة الوضع. ولم أضيّع الفرصة.. حثثتها على طلب الطلاق! لم يفت الوقت لتبدأ حياة مختلفة بعد أن أفنت شبابها مع رجل لا يدرك قيمتها. كنت أفكر في بداية جديدة لنا جميعًا في باريس.. وضعت خططًا لتسليتها مع سارة وريان وتغيير جو الكآبة الذي أحاط بهم في الفترة الأخيرة. لكنها كانت تفكر بشكل مختلف تمامًا.. فكرت في الطلاق كسلاح أخير تسلطه عليه ليعود إليها. نوع من التهديد لا أكثر. ظنّت أنه سيشعر بالخطر ويخاف على استقرار عائلته فيسارع بمصالحتها. لذلك.. لذلك.. حين جاءتها أوراق الطلاق لتخط عليها إمضاءها أصيبت بصدمة.. لم تسر الأمور كما أملت.. اكتشفت متأخرة جدًا أنها لم تعن له بقدر ما عنى لها، وكان ذلك طول الوقت.. طول الوقت كانت مخدوعة وواهمة.

تنهّد بعمق قبل أن يضيف في مرارة:

- لم أكن أعتقد أنّها تحبّه إلى تلك الدّرجة. تحبّ رجلاً يهملها ويحتقرها ويهجرها.. لكنّ حياتها معلقة بكلمة منه. أليس ذلك ضربًا من الجنون؟

سكت باتريك أخيرًا بعد أن لفظ كل ما يثقل كاهله وشردت نظراته نحو الفراغ.

- حسن. أنا لا أعرف والد ياسمين ولم ألتقه يومًا.. لكن لا أعتقد أنّني سأحبّه! لقد آذى ياسمين كثيرًا. طلق والدتها وهي طفلة لا تفقه شيئًا عن الأبوّة ولم يعتبر نفسه مسؤولاً عنها على الإطلاق وربّتها والدتها كأم عزباء وحيدة أيضًا.. وهذا لا يعجبني.

نظـر باتريـك إلى هيثـم في دهشـة كأنّـه لـم يتوقـع منـه تلـك الكلمـات. هـزّ هيثـم حاجبيـه وهـو يقـول بـشيء مـن السـخرية:

- ماذا؟ هل توقعت أن أدافع عنه؟

ابتسم باتريك وهو يهزّ كتفيه:

- أعترف. لقد فاجأتني!

- لماذا؟ لأنني دافعت عن ياسمين سابقًا؟

- حسن. ظننت أن المسلمين يدافعون بعضهم عن بعض.

أكمل هيثم عنه بلهجة ودودة:

- مهما كانت الظروف، وحتى لو كانوا على خطأ.. هذا ما قصدته؟

واصل باتريك اعترافه:

- الرجـال الشرقيّـون لديهـم نظـرة دونيّـة للمـرأة. يعتبرونهـا عـورة يجـب تغطيـة جسـدها بالكامـل، ويحتجزونهـا في البيـت لتربيـة الأطفـال والاهتمـام بالأشـغال المنزليّـة.. حـتى مـن يتزوجـون الأوروبيـات منهـم يحاولـون إسـقاط تقاليدهـم المترمّتـة عليهـنّ، ومهمـا بـدا الرجـل متحـضرًا ومتفتحًّـا فـإن نزعتـه الشرقيـة تطفـو عـلى السّـطح عاجـلاً أم آجـلاً.. وبمـا أنـك رجـل شرقيّ أيضًـا فشـككت بـأن تفكـر بشـكل مختلـف.

عقـد هيثـم حاجبيـه في انزعـاج، ثـم مـا لبثـت أسـاريره أن انفرجـت وهـو يقـول في مـرح غـير متوقـع:

- وهكذا تكتمل النظرة السّوداوية! هل هناك ما يمكنني فعله لتغييرها؟

ثم أضاف بجدّيّة أكبر:

- حسـن. هـذا النـوع مـن الرّجـال موجـود بالتأكيـد.. وسـلوكه هـذا مسـتمدّ مـن بيئـة وتقاليـد وعـادات باليـة أكـثر ممّـا يرتبـط بالإسـلام. أنـت تـدرك هـذا عـلى الأقـل؟

قال باتريك حائرًا:

- أعترف أنني لا أدرك الفرق!

سأله هيثم في اهتمام:

- أخبرني، ماذا تعرف عن الإسلام؟

انفجر باتريك ضاحكًا بشكل مفاجئ وهو يهتف:

- أرجوك، ليس هذا!

- ماذا؟

مشكلتكم أيها المسلمون هي أنّكم لا تعترفون بحقّ الاختلاف. ما أن يسترسل بي الحديث مع أحدكم حتى أجده يحاول إقناعي بالإسلام!

ابتسم هيثم وقد أدرك ما يرمي إليه وقال مازحًا:

- ربّما لأنّ المسلمين الذين التقيتهم طيّبون وأرادوا بك خيرًا؟

- أنا في غنى عن طيبتهم وإسلامهم.

كانت لهجته حازمة. تمتم هيثم ملاحظًا:

- تبدو العقدة قديمة وراسخة.

- لم يساعد شيء على تحسين الوضع! لا تعتقد أنني أطلق أحكامًا جائرة. لقد عشت في طهران لبعض الوقت وراقبت الوضع عن قرب.

تمهل هيثم للحظات قبل أن يقول متفكرًا:

- ربما ليس المجتمع الإيراني هو المحيط الأمثل لإدراك الفرق، فالتقاليد هناك شديدة ومسيطرة.

- حسن، ماذا تقترح؟ تونس مثلاً؟

كانت نظرة متهكمة تظهر في عينيه. ابتسم هيثم وهو يهزّ كتفيه:

- لا أنصحك.. قد تشك لوهلة بأنّ البلاد تنتمي إلى الإسلام.

- ماذا إذن؟

لم يكن الخيار سهلاً وكانت تنقصه التّجربة للحسم. هل هناك بلاد في العالم تمثل الإسلام في أخلاقه واعتداله وعدالته وتقديره للمرأة؟ شعر بالعجز وبانتصار الآخر. قال أخيرًا في تسليم:

- حسن، لست خبيرًا بأحوال المجتمعات المسلمة كلها.. لكن البلاد العربيّة اليوم إجمالاً لا تطبّق إسلامها كما يجب، ولذلك فهي متخلفة كما ترى. أعلم أن الوضع لا يغري أحدًا بالانضمام.. لكنّ المسلمين الجدد يكونون أفضل حالاً، لأنّهم تلقوا الإسلام من مصادره. ومهما بدا ذلك غريبًا وغير منطقي، حاول ألا تحكم على الإسلام من تصرّفات المسلمين.. أو على الأقل لا تحكم من تصرفات أولئك الذين ينتمون إليه بالوراثة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا حين وقف الرجلان ليدلفا إلى المنزل الدافئ بعد أن أصابتهما برودة الفجر اللاذعة. ابتسم باتريك وهو يصافح هيثم شاكرًا:

obeikandi.com

- كنت أظنك متعصّبًا ومملاً.. لكن رفقتك كانت مسلية الليلة.
ابتسم هيثم وهو يقول بدوره مغيظًا إياه:
- لا أظنك ترغب بسماع رأيي فيك.. لأن الأمر لم يتغيّر كثيرًا.

*****

نزلت ياسمين الدّرجات المؤدّية إلى الطابق الأرضي بخفة وحذر. مشت على أطراف أصابعها حتّى مدخل غرفة الجلوس وأطلت برأسها. لم يكن هناك أحد. كانت بعض الأغطية الصوفية المطويّة تستقرّ على جانب أحد المقاعد وبدا أنّها لم تستعمل تلك الليلة. لا شيء ما عدا ذلك. تنهّدت في ارتياح ثمّ انسحبت نحو المطبخ. كانت قد عرضت على زهور من باب كرم الضيافة أن تقضي الليلة في غرفة والدها وزوجته، حيث السّرير المزدوج الوحيد في المنزل، لكنّها رفضت وفضلت أن تنضمّ إليها في فراشها الأرضّي المكون من البطانيات والأغطية المحشوّة بالصّوف التي قامت بفرشها قرب سرير سارة في الطابق الثاني. لم تهتمّ لأمر باتريك فقد رأت أنه قد خدم نفسه بنفسه واستأثر بغرفة المكتب، حيث السرير الإضافيّ الذي تعودت أن تنام عليه خلال فترة إقامتها في ليون. وهكذا بقيت غرفة النوم الرئيسيّة خالية في غياب أصحابها. لم تحمل همّ هيثم الذي لم تر وجهه منذ مشادتهما تلك، لكنّها توقعت أن يحتل أريكة غرفة الجلوس؛ لم يكن هناك مكان آخر له على أيّ حال.

استغربت حين لم تجده في غرفة الجلوس. أين يمكن أن يكون قد نام إذن؟ خطر ببالها فجأة أن يكون قد غادر. هل يرحل ويترك زهور هنا؟ بدا ذلك ممكنًا، فهو بالتأكيد لم يحصل على إجازة. غادر باريس مساءً بعد دوامه ولم يتسنّ له الحصول على إذن. إن كان يريد الوصول إلى مكتبه قبل بداية الدّوام الصّباحي فلا شك أنّه قد سافر منذ ساعة على الأقل. ألقت نظرة فضولية على الطريق عبر النافذة، علها تلاحظ وجود سيارته أو تتيقن من غيابها. لكنّ شجيرات الحديقة الكثيفة لم تكن تسمح برؤية الكثير. عدا سيارة إيلين التي ظهرت في المرآب المكشوف وسيارة باتريك التي تسدّ المدخل، لم تلمح أي سيارة أخرى.

كانـت السّـاعة تشـير إلى السّـابعة إلا ربـع حـين دخلـت المطبـخ. نهضـت مبكـرة مـن مرقدهـا لتحـضر طعـام الفطـور لسـكان البيـت الدائمـين منهـم والمؤقتـين، بعـد ذلـك يذهبـون جميعًـا إلى المستشـفى للاطمئنـان عـلى مصـير المريضـة. نامـت نومًـا متقلبًـا في الليلـة الماضيـة. غصبًـا عنهـا ظلـت تفكـر في كلمـات هيثـم. هـل كانـت تغطـي فعـلاً عجزهـا عـن مواجهـة هواجسـها وراء سـتار الاندمـاج؟ هـل ظنّـت أن تعلُّلهـا بالظـروف المجتمعيـة والمعطيـات الخارجيـة سـيجعلها أقـل مسـؤولية عـن قرارهـا بالفـرار؟

لكـنّ ذلـك لـم يكـن اكتشـافها الوحيـد. كانـت تظـنّ الأمـر مختلفًـا بالنسـبة إلى هيثـم وميسـاء. لقـد ولـدا هنـا ونشـآ هنـا. دخـلا المـدارس الفرنسـيّة وجيرانهمـا فرنسـيّون وأصدقـاء طفولتهمـا ومراهقتهمـا وشـبابهما فرنسـيّون أيضًـا، فلمـاذا يبـدو الأمـر بتلـك الصعوبـة الـتي استشـفتها في خطبـة هيثـم العصمـاء المشـحونة بالألـم؟ كانـت تعتقـد أنّهـا الوحيـدة الـتي تلقـى صعوبـات في معـترك المجتمـع الغـربي، لأنهـا وافـدة جديـدة ولأنّهـا لـم تتعـود الحيـاة الباريسـيّة الصاخبـة. ولأنّهـا لـم تسـمع ميسـاء تشـكو يومًـا مـن مشـكلاتها مـع الحجـاب؟ ولأنّ هيثـم سـخر منهـا حـين تحدّثـا عـن الاندمـاج في تلـك المـرّة؟ كانـت تعلـم أنّـه استفزها. لقـد وضّـح ذلـك حـين جاءهـا إلى المكتـب ليعتـذر. ومـع ذلـك فقـد اسـتمرّت تعتقـد أنـه في مكانـه الصحيـح، كالسـمكة الطليقـة في رحـاب البحـر. ولا يمكـن أن ينظـر إليـه أحـد عـلى أنـه أجنـبيّ دخيـل، في بذلتـه الرسـميّة الأنيقـة ولهجتـه الباريسـيّة الصّرفـة.

انتبهـت حـين فتـح البـاب الخارجـي مُصـدرًا صريـرًا معدنيًّـا قطـع سـكينة الصبـاح الصّافيـة. قفـزت مـن مكانهـا وهرولـت إلى الرّدهـة. توقـف اندفاعهـا فجـأة حـين قابلهـا وجـه هيثـم المتعـب وهـو يتجـاوز العتبـة إلى الدّاخـل. بـدا أنـه لـم ينـم بعـد. حيّاهـا ببسـاطة ثـمّ قـال هـو يتوجـه إلى غرفـة الجلـوس:

- لم يكن إيجاد المسجد سهلاً.. فاتتني صلاة الجماعة.

لـم ينتظـر ردًّا منهـا واسـتمرّ في طريقـه. تراجعـت بدورهـا إلى المطبـخ ولـم تفكـر في مغادرتـه مجـدّدًا. لـم يرحـل إذن. انهمكـت في طـلي قطـع الخـبز المحمّـص بالزّبـدة والمـربّى المعلبـة في انتظـار أن تـدبّ الحيـاة مجـدّدًا في المـنزل. بعـد دقائـق قليلـة نزلـت زهـور لتنضـمّ إليهـا في إعـداد الفطـور. ثـمّ تلاهـا باتريـك. ألقـى تحيـة مقتضبـة ثـم سـار عـبر المطبـخ ليخـرج إلى الحديقـة

عــبر المنفــذ الخلفــي. تســلل عبــق ســجائره الصباحيّــة عــبر البــاب نصــف المفتــوح ففتحــت ياســمين النافــذة لتهويــة المــكان. أخــيرًا نــزل ريــان وســارة معًــا، يــدًا بيــد، كأخويــن متّحديــن في المصائــب وانضمّــا إلى مائــدة الطعــام.

خرجت زهور لتلقي نظرة على غرفة الجلوس ثم عادت عابسة:

- هيثــم يبــدو مرهقًــا. ســأتركه ينــام أكــثر.. يبــدو أنّــه لــم يســترجع قــواه بعــد رحلــة السّــيارة ليلــة البارحــة.

تدخل باتريك بشكل غير متوقع ليقول:

- لقد سهرنا نتحدّث إلى وقت متأخر.

أخفــت ياســمين علامــات المفاجــأة الــتي ظهــرت عــلى وجههــا لثانيــة واحــدة، وســارعت بصــبّ القهــوة الممزوجــة بالحليــب في الكــؤوس الفارغــة. لــم تكــن تتخيّــل أي نــوع مــن الأحاديــث يــدور بــين هيثــم وباتريــك. لكــن يبــدو أنهمــا انســجما بشــكل غريــب حــتى مــرّ الوقــت دون أن يشــعرا بــه؟ أم تراهمــا قضيــا ســاعات في الشــجار؟ مســحت تلــك الفكــرة مــن رأســها سريعًــا. لــو كان الأمــر كذلــك لتناهــت إليهــا أصواتهمــا العاليــة حتمًــا. حســن ربّمــا فكــرت بذلــك حــين تفطّنــت إلى النظــرات الغريبــة الــتي تبادلاهــا في المستشــفى. وربّمــا لأن مــزاج كليهمــا مســاء أمــس كان ملتهبًــا ومتأهّبًــا لاســتلام أول شرارة عابــرة.

- ياسمين، انتبهي!

أفاقــت مــن أفكارهــا عــلى صــوت ســارة وقــد أشــارت إلى كأســها الــتي امتــلأت بالقهــوة وفــاض الســائل عــلى جانبيهــا في ســخاء. ســارعت بمســح المائــدة في ارتبــاك وتشــوّش. إنّهــا تفكــر كثــيرًا مؤخــرًا. عقلهــا يعمــل بشــكل مســتمرّ ولا يــترك لهــا مجــالاً للرّاحــة. غرقــت مجــدّدًا في أفكارهــا الكثــيرة قبــل أن يقــول باتريــك قاطعًــا الصّمــت الــذي خيّــم عــلى الجميــع:

- سنغادر مباشرة بعد الإفطار.

ثم أضاف بعد لحظة ليجيب على سؤال لم يطرحه أحد:

- لندع هيثم ينام بعض الوقت.

-٣٥-
تغييـــــــــر

فوجئ عمر حين ظهر ذلك الرّجل الغريب أمامه. وازدادت دهشته حين عرّف بنفسه على أنّه المحامي الذي سيتولى القضية من الآن فصاعدًا. محامٍ جديد؟ لا، بل صاحب المكتب ورئيس رنيم. ما الذي حلّ برنيم؟ شرح له جورج باقتضاب حالتها الصّحيّة وتفويضها له لينهي العمل مكانها. قال جورج بلهجة مطمئنة وهو يلمح علامات الانزعاج في عينيه:

- لقد شرحت لي الأستاذة رنيم كل شيء، وليس هناك من داع للقلق.

أراد عمر أن يصدّقه. لكن الأيام الماضية كانت ثقيلة ومرهقة. لم تظهر رنيم ولم يصله منها خبر طوال ثلاثة أيام. آخر لقاء جمعه بها كان بعد نقله إلى زنزانة منفردة. أعلمته بأنّه تمّ الإفراج عن فرقة الفرسان الذين اقتحموا المحكمة لتأييده، بعد أن وقّعوا تعهدًا بالابتعاد عن أعمال الشغب. ما عدا نادر، الذي يتمّ التحقيق معه. بشكل ما، تعرّف عليه العقيد جابريال بصفته الشاب الذي قفز من النافذة حال اقتحام الشرطة لشقة عمر. والآن يحاولون الحصول على اعترافاته بخصوص التنظيم الإرهابي الذي من المفترض أن ينتمي إليه كلاهما! تمنّى من كل قلبه أن يكون نادر ثابتًا ومقنعًا. لم يكن ينتظر منه شيئاً سوى أن يقول الحقيقة كاملة، ويردّ إليه جزءًا من جميله السّابق عليه. لم يعد مشرّدًا ولا خارجًا عن القانون.

رغم غياب رنيم غير المتوقع، لم يخطر بباله على الإطلاق أنها قد تتخلى عنه هذه المرّة. تلك الشكوك قد ولّت الآن وبات يثق فيها بالقدر الكافي ليعتقد أن أمرًا ما حبسها عن المجيء. فكّر أن بعض الظروف الشخصيّة قد تكون منعتها.. مرض أو طارئ ما، أو أنّها توصّلت إلى أمر بخصوص القضيّة وجدته أكثر أهميّة من المجيء لزيارته. فضّل التفكير في الاحتمال الثاني. لم يكن يريد الانغماس في مستنقعات الآمال الزّائفة، لكنّه لم يرد الاعتقاد بأنّها أصيبت بسوء. ما يزال بحاجة إليها.

جائه جورج بالأخبار مفصّلة. استُجوِب نادر بقسوة ولمدّة ساعات دون

obeikandi.com

توقـف عـلى أمـل أن يتفـوّه بمـا يُديـن عمـر ويغرقـه بصفـة نهائيّـة. لكـنّ نـادر كان ثابتًـا بشـكل مذهـل. كـرّر الرّوايـة نفسـها مـرّات ومـرّات بكامـل تفاصيلهـا مهمـا اختلفـت الأسئلة الموجّهـة إليـه وتنوّعـت الإسـتراتيجيات الـتي اتّبعهـا حاكـم التحقيـق.

- تحدّثـت إلى حاكـم التحقيـق وبـدا لي أنـه لـن يتـمّ إقحـام نـادر في قضيّتنـا. استمعوا إلى أقوالـه وتوصّلـوا إلى أنـه لا يمكـن أن يكـون شريـكًا في التّفجـير. مـن المفـترض أن يخـلى سـبيله اليـوم.

زفـر عمـر وأسـدل جفنيـه في تعـب. حمـدًا لله. كانـت أيامًـا عصيبـة مـرّ بهـا وشـفتاه لا تفـتران عـن الدّعـاء، فإمّـا نجـاة وإمّـا كابـوس أسـود آخـر.

- هنـاك المزيـد.. حـين قامـت الشرطـة بتفتيـش مقـرّ إقامـة نـادر، لـم تعـثر عـلى أدلّـة إدانـة.. لكنّهـا وجـدت بحوزتـه حقيبـة ظهـر سـوداء مسروقـة. هـل تعـني لـك شِـيئاً؟

- ماذا؟

- الحقيبة. أعتقد أنّها تخصّك.

- تذكـر عمـر بسرعـة حقيبتـه الـتي فقـدت مـن الشـقة. الحقيبـة الـتي تحـوي ملـف أبحاثـه المفقـود.

- الملف؟ هل وجدتموه؟

كانـت اللهفـة ونفـاد الصـبر واضحـين في صوتـه. ابتسـم جـورج وهـو يشـير إليـه بكفـه مهدّئًـا:

- نعـم لقـد وجدنـا الملـف. لكـن دعـني أكـن صريحًـا معـك. لا يجـدر بنـا أن نعلّـق عليـه آمـالاً عريضـة. فالبروفيسـور كريسـتوف نـوارو ذكـر أن ملفاتـه المطبوعـة سرقـت مـن مكتبـه.

هتف عمر في حدّة:

- لكن الملف يحمل اسمي وبياناتي!

هز جورج رأسه متفهمًا.

- لا أريـد إحباطـك.. لكنّـني أسـتبق حجـج المدّعـي العـام. سـيقول إنّـه مـن اليسـير تبديـل الصّفحـات الخاصّـة بالبيانـات، وأنّ ذلـك لا يثبـت شـيئًا.

- يمكنـني الاسـتظهار غيبـا بمحتـوى الملـفّ بـكلّ دقّـة، وأراهـن البروفيسـور كريسـتوف إن كان قـادرًا عـلى القيـام بالمثـل!

- رويـدك! هـذا النّـوع مـن التّحديـات قـد لا يكـون في صالحنـا إن كان البروفيسـور كريسـتوف قـد سبق لـه أن اطلـع عـلى محتـوى الملفّ، كما يمكنـه الادّعـاء بـأنّ شريكـه الـذي قـضى -دكتـور صامويـل -هـو الأدرى بالمضمـون العلمي الدّقيـق للبحـث.. وبذلـك يعيـد إلى أذهـان المحلّفين خسـارته الإنسـانيّة الفادحـة بوفـاة صديقـه وتلميـذه، ويسـتدرّ تعاطفهـم بـدل اسـتثارة شـكوكهم.

أضـاف بعـد لحظـات وهـو يشـهد علامـات التوتـر عـلى عضـلات وجـه عمـر المشـدودة:

- لقـد وجدنـا الملـف.. وهـذا جيّـد. لكـن علينـا أن نجـد الوسـيلة المثـلى لاسـتعماله لصالحنـا. فليـس مـن الحكمـة أن نحـرق ورقـة رابحـة ونحـن لا نملـك بعـد مـا نصـدّ بـه ادّعـاءات الطـرف الآخـر.

*****

جلسـت ياسـمين في عربـة القطـار. اتـكأت عـلى جانـب المقعـد وسرحـت بنظراتهـا إلى الفـراغ عـبر النّافـذة الزّجاجيّـة. تأمّلـت في شرود أشـجار الـسّرول والصّنوبـر الباسـقة الـتي تحـفّ سكة الحديـد وتسـابق القطـار دون أن تسـبقه، فتتهـاوى في الفـراغ حـين يتجاوزهـا. مـرّ أسـبوع واحـد منـذ ركبـت القطـار في رحلـة الذهـاب. وهاهـي تقطـع المسـافة نفسـها في الاتجـاه المعاكـس. لكـنّ شـيئًا مـا تغـيّر خـلال تلـك الأيـام.. بـل أشـياء كثـيرة.

تطلعـت إلى هاتفهـا في نظـرة تفقديـة. لـم تكـن تنتظـر اتصـالاً، بـل تتمـنّى واحـدًا. خـلال الأسـبوع المنـصرم لـم تتلـق اتصـالاً واحـدًا مـن رنيـم! آلمهـا كثـيرًا أن تنسـاها. الغفـران والتمـاس الأعـذار كانـا مـن مبادئهـا الرّاسـخة. تعامـل الجميـع بتفهّـم وتفـترض حسـن النّيّـات. لكنّهـا وبشـكل لا تسـتوعبه، كانـت تميـل إلى القسـوة حـين يتعلّـق الأمـر بعلاقتهـا برنيـم. ربّمـا لأنّ صداقتهـا أصبحـت تعـني لهـا أكـثر مـن أيّ صداقـة عقدتهـا في المـاضي. لذلـك كانـت تأمـل أن تكـون لهـا مكانـة مماثلـة في قلـب رنيـم. ومـاذا لـو لـم تكـن صداقتهـا تعـني لهـا الـشيء الكثـير؟ آلمهـا الخاطـر وأرّقهـا، فانـزوت في قوقعتهـا وآثـرت عـدم المبـادرة بالاتصـال بهـا. كانـت الغلبـة لكبريائهـا.

عوضًـا عـن اتصـالات رنيـم، كانـت تتلقـى بشـكل شـبه يومـيّ اتصـالات أخرى..

مـن طـرف لـورا. الاتصـال الأوّل تزامـن مـع تغيّـب هيثـم عـن عملـه. اتصلـت لتطمـئن عليـه لأن هاتفـه كان مغلقًـا. حـين رجعـت ذلـك اليـوم مـن المستشـفى بعـد زيارتهـا لإيلـين لـم تتمكـن مـن إعلامـه باتصالهـا. كان قـد غـادر إلى باريـس. لـم يكـن مـن المفـترض بـه أن يأخـذ إجـازة مطوّلـة مـن أجـل زوجـة أبيهـا -الـتي سـتصبح قريبًـا طليقتـه- والـتي لا تمـتّ إليـه بـأيّ صلـة قرابـة. بـل ربّمـا كان الأمـر ليبـدو غريبًـا لـو أنـه تـصرّف بطريقـة مغايـرة.

في مسـاء نفـس اليـوم، سـافر باتريـك بـدوره بعـد أن تمكـن مـن التحـدّث إلى إيلـين الـتي غـادرت غرفـة العنايـة المشـدّدة مـع بقائهـا تحـت المراقبـة الطبيّـة. في الأيـام المواليـة، اسـتمرّ تدفـق الاتصـالات اليوميّـة مـن باتريـك ولـورا لأسـباب خاصّـة بـكلّ منهمـا. باتريـك يتّصـل عـلى الهاتـف الأرضيّ ويتحـدّث غالبًـا إلى ريـان وأحيانًـا إلى سـارة للاطمئنـان عـلى صحّـة إيلـين ومعنويـات المراهقـيْن. في المـرّات القليلـة الـتي تولـت فيهـا الـردّ عـلى الهاتـف عاملهـا بـأدب وسـأل عـن أحوالهـا. لـم يعـاود مزاجـه الـسيّء الظهـور.

لـورا كانـت تتصـل عـلى هاتفهـا المحمـول في فسـحة الغـداء. تبيّنـت مـن ذلـك أنّهـا لـم تعـد تتنـاول غداءهـا مـع هيثـم في ذلـك المطعـم. لكـن تلـك الاتصـالات كانـت تذكرهـا بحقيقـة الوضـع، أنّ هنـاك علاقـة مـا بينهمـا. مـع أن فحـوى حديثهـا كانـت تـتراوح بـين الشـكوى والتذمّـر لأن الأمـور لا تتطـوّر بالقـدر الـذي تنتظـره لـورا. فلـم تجـد ياسـمين غـير الاسـتمرار في تصبيرهـا وتثبيتهـا، فلعـل هيثـم يخطـط لأمـر مـا لا تعلمانـه؟

بعـد يومـين غـادرت إيلـين المستشـفى. كانـت شـديدة الشـحوب، كأنّهـا عائـدة مـن عالـم المـوتى. لا لـم يكـن ذلـك مجـازًا، فهـي كادت تعـبر الحـدّ الفاصـل بـين الحيـاة والمـوت بالفعـل. كانـت ياسـمين تتوقـع حـدّة وتحامـلاً مـن إيلـين عليهـا أو ربّمـا تصـوّرت أن تنقـم عليهـا لتـصرّف والدهـا. لكـنّ شـيئًا مـن ذلـك لـم يكـن. كانـت في غايـة الاستسـلام كأنّ الأمـر لـم يعـد يعنيهـا. نظراتهـا فارغـة وشـاردة معظـم الوقـت. لكنهـا أبـدت الكثـير مـن الحنـان حـين ضمّـت ولديهـا إلى صدرهـا وأبقتهمـا إلى جوارهـا جـزءًا مـن الليـل. حـين انفـردت بياسـمين ذات مسـاء، قالـت وفي عينيهـا لمعـة تصميـم غريبـة:

- سـأجعل والـدك يدفـع الثمـن غاليًـا.. سـأطارده في المحاكـم وسـيكون اسـمي مرادفًـا لأسـوأ كوابيسـه لوقـت طويـل.

لمعـت العـبرات في عيـني ياسـمين قبـل أن تتدحـرج برفـق عـلى وجنتيهـا وقالـت مبتسـمة:

- افعلي ذلك، افعلي.. لكن أرجوك لا تؤذي نفسك مجدّدًا.

في صباح اليـوم التـالي اعتـذرت زهـور لترجـع إلى بيتهـا. لـم تكـن مضطـرّة أبدًا للبقـاء كلّ ذلـك الوقـت وهـي بالـكاد تعـرف إيلـين. لكنّهـا فعلـت ذلـك مـن أجـل ياسـمين بـلا شـك.

ورغـم شـديد امتنانهـا آثـرت ياسـمين أن تذهـب إلى شـقتها حـال عودتهـا إلى باريـس. أعلمـت زهـور يـوم أمـس بأنّهـا تنـوي العـودة بمـا أن باتريـك قـادم لقضـاء عطلـة نهايـة الأسـبوع مـع شـقيقته وربّمـا يأخـذ إجـازة تطـول لأيّـام إضافيـة، لكنّهـا لـم تؤكـد أنّهـا سـتعود للإقامـة عندهـم. وزهـور لـم تسـألها. هـل حسبت أن الأمـر محسـوم ولا يدعـو إلى اتفـاق جديـد؟ ربّمـا. لكنّهـا تـدرك الآن أن ياسـمين الـتي غـادرت شـقتها منـذ أسـبوع لأنّهـا غـير قـادرة عـلى احتمـال وحدتهـا وهواجسـها، ليسـت ياسـمين الـتي تركـب القطـار الآن وتشـق طريقهـا نحـو العاصمـة الفرنسـيّة.

كلّ شيء بـدأ حـين نعتهـا هيثـم بالـ«ضعيفـة» والــ«سـخيفة» والـــ«جبانة». ربّمـا لـم يقلهـا بالحـرف الواحـد، لكنّـه قصدهـا. صفـات لـم تنكرهـا لحظتهـا، لكنّهـا ثـارت عليهـا بينهـا وبـين نفسـها فيمـا بعـد وهـي تسـتعيد الكلمـات مـرّات ومـرّات وتقلّبهـا عـلى جميـع وجوههـا. لـم تكـن يومًـا كذلـك ولا يجـب أن تكـون! ورغـم اقتناعهـا بأنّهـا لـم تسـتردّ صحتهـا النّفسـيّة بالكامـل لكنهـا باتـت ترفـض أن تظهـر بالشـكل الـذي كشـف عنـه هيثـم بدقـة متناهيـة.

بـدون تـردّد، جذبـت حقيبتهـا وسـارعت بمغـادرة رصيـف القطـار في اتجـاه محطـة المـترو. رغـم اسـتيائها مـن رنيـم لكنّهـا فضلـت مواجهتهـا عـلى مواجهـة زهـور وعائلتهـا. لا يمكنهـا اليـوم أن تـدرأ عـن نفسـها التهـم سـالفة الذكـر، لكنّهـا سـتثبت لنفسـها وللجميـع خـلال فـترة وجـيزة أنّهـا قـادرة عـلى تجـاوز الأزمـة. وهكـذا وطّنـت العـزم عـلى خـوض معركتهـا وحيـدة.

دفعـت بـاب الشـقة ففوجئـت بالظـلام يلفهـا. عـبرت الرّدهـة حـتى وصلـت إلى غرفتهـا لتتخلـص مـن حقيبتهـا الصغـيرة. أضـاءت المـكان وألقـت نظـرة سريعـة. كانـت الفـوضى نفسـها الـتي عاينتهـا المـرّة الماضيـة مـا تـزال حـاضرة. إلا أن دفاتـر رنيـم الـتي كانـت ملقـاة عـلى سريرهـا الأسـبوع المـاضي كانـت قـد

obeikandl.com

اختفت. تذكرت حينذاك أنّها لم تُعد الورقتين اللتين اختلستهما. هل يشفع لها أنها أقنعت والدها بالتقدّم للشهادة في القضية؟ خرجت من غرفتها وطرقت في حذر باب غرفة رنيم. انتظرت لحظات دون فائدة. أين تكون في هذا الوقت من يوم السّبت؟ هل تمارس هوياتها المزمنة بالتّسوق؟ سارت عبر غرفة الجلوس حتى وصلت إلى المطبخ المفتوح. على المائدة كانت فناجين قهوة متسخة وفتات خبز محمّص تذكر أنّها تركتها هناك منذ أكثر من أسبوع. عقدت حاجبيها في شك وهي تعاين ترتيب المطبخ. لم يبد أن رنيم قد تناولت طعامها في الشقة طيلة الأيام الماضية. أو أنّ معجزة ما حصلت وغسلت الصحون بنفسها؟ فتحت الثلاجة وقلبت محتوياتها بنظرات متفحصة لترجح أحد الاحتمالين. كانت علب الطعام الجاهز التي اشترتها رنيم الأسبوع الماضي ماتزال موجودة، وتاريخ الصلاحيّة التي قاربت على الانتهاء يشهد على ذلك! هذه المرّة تركت كبرياءها جانبًا وسارعت لتتناول هاتفها. ليس الأمر مطمئنًا البتّة. كوّنت الرقم وانتظرت للحظات في قلق. حين جاءها صوتها هتفت على الفور:

- رنيم، أين أنت؟

*****

جلس هيثم للحظات في السّيارة بعد أن أوقف محرّكها. لا يذكر أنّه تردّد من قبل وهو يهمّ بدخول بيته كما يفعل الآن. هل كان علمه بأنّها في الدّاخل هو السّبب؟ أعلمته والدته بأن ياسمين سترجع اليوم إلى باريس، لكنّها لم تكتف بمجرد إعلامه. طلبت منه أن يعتذر عن الكلام الذي قاله في حقها ذلك المساء في ليون. لوى شفتيه في امتعاض. لم يكن مقتنعًا بأنّ عليه الاعتذار. لكنّ طلب زهور بدا أشبه بالأمر منه بالاقتراح. ولم تكن لحظات الـتّردّد تلك إلا للبحث عن الكلمات المناسبة. لقد قال ما قاله وانتهى الأمر. ليس نادمًا أبدًا. ولعل إثارة الموضوع مجدّدًا ولو على سبيل الاعتذار سيحرجها وربّما ينكأ جرحًا يأمل أنه أوشك أن يندمل. سحب أكياس المشتريات التي أوصت بها والدته من المقعد المجاور

وهـو يسـحب نفسًـا عميقًـا، ثـم زفـر بقـوّة وهـو يغلـق البـاب ويشـغل نظـام الإنـذار الخـاصّ بالسـيارة. يـا معـين! تتالـت خطواتـه متسـلقة السـلم المـؤدي إلى البنايـة وهـو يسـأل الله أن يعينـه عـلى مـزاج والدتـه ونفسـيّة ضيفتهـا.

استقبلته ميساء عند الباب واستلمت منه الأكياس وهي تهتف في حماس:

- هل أحضرت علبة الشوكولاتة التي طلبتها؟

كانـت تتعمّـد تذكـيره بعلبـة الشـوكولاتة الـتي اشـتراها مـن أجـل ياسـمين منـذ أسـبوع وكانـت مـن نصيبهـا في نهايـة المطـاف. لكـنّ الظـروف تغـيّرت في غضـون أسـبوع واحـد ولـم يعـد بإمكانـه أن يقـدّم إليهـا الشـوكولاتة بنفـس البسـاطة الـتي بـدا عليهـا الأمـر حـين فكـر فيـه أول مـرّة. سـترى في ذلـك وسـيلة للاعتـذار وربّمـا أسـوأ. محاولـة اسـترضاء سـخيفة لطفلـة تنسـيها قطعـة مـن الحلـوى غضبهـا! ولـم يكـن يريدهـا أن تشـعر بـأيّ مـن ذلـك. ليسـت طفلـة. لـم يكـن يراهـا كذلـك. فكّـر أن أي مبـادرة قـد تحصـل منـه الآن سـتكون تشـويهًا للمشـهد الأصـلي الـذي راوده منـذ أسـبوع. مـع أنّـه لـم يعـد واثقًـا تمامًـا ممّـا كان يفكـر فيـه منـذ أسـبوع.

حدج ميساء بنظرة باردة وهو يقول باقتضاب:

- لا.

- لكن لمـاذا؟

تجاهـل احتجاجهـا وهـو يواصـل سـيره نحـو غرفـة الجلـوس وعينـاه تتفحصـان المـكان. لـم يجـد لهـا أثـرًا في مجـال بـصره، لكنّـه لـم يجـرؤ عـلى السّـؤال. مـاذا لـو ظهـرت فجـأة مـن المطبـخ أو مـن الحمـام؟ جلـس في هـدوء عـلى الأريكـة الخاليـة وعلـق نظراتـه بالتليفزيـون المفتـوح دون غـيره. كان وحيـدًا في الغرفـة يهـز سـاقه في توتـر وينتظـر. لكـن مـاذا ينتظـر؟

ارتفـع رنـين الهاتـف الأرضي ليخرجـه مـن شروده. تلفـت حولـه في اسـتطلاع. لـم تظهـر والدتـه الـتي بـدا مـن الضجيـج الصّـادر مـن المطبـخ أنهـا غارقـة بـين الطناجـر والمقـالي، ولـم يبـد أن ميسـاء اهتمّـت، أو لعلهـا منسـجمة في بعـض الأحاديـث مـع ضيفتهـا؟ توجّـه نحـو الهاتـف ورفـع السـماعة:

- ألو؟

- السلام عليكم.

كان يتوقـع وجودهـا في الغرفـة المجـاورة، لذلـك لـم يتخيّـل أن يسـمع صوتهـا

عـبر الهاتف.

- ياسمين؟ كيف حالك؟

انتبه إلى أنه لم يردّ السلام. قبل أن يتدارك كانت تجيب:

- الحمد لله، أفضل من أيّ وقت مضى.

شعر بنبرة القوّة المتحدّية في كلماتها فابتسم. قال في اقتضاب:

- جيّد.

كأنّها أحسّت بابتعادها عن موضوع اتصالها سارعت تقول:

- هلا أخبرت خالتي أنّني لن أحضر اليوم؟

- خيرًا إن شاء الله؟

- إنّهـا جـارتي في السّـكن.. إنّهـا مريضـة وعـليّ أن أعـدّ بعـض الحاجيـات مـن أجلهـا.

- صديقتك المتوحّشة تلك؟ تمنياتي لها بالشفاء العاجل!

قالهـا بتكشـيرة جافّـة كأنّـه لا يعـني مـا يقـول، فسـمعها تضحـك بخفـوت ثـم مـا لبثـت أن تماسـكت. كأنّهـا تسـترجع هـي الأخـرى تفاصيـل تلـك الحادثـة حـين هاجمتـه رنيـم بقنبلـة الغـاز. لكـنّ عينيـه اتّسـعتا دهشـة. لقـد ضحكـت! كاد ينـسى أنّهـا قـادرة عـلى الضحـك. لا يـدري لمـن يحسـب هـذا الإنجـاز، لـه أم لهـا. لكنّـه إنجـاز عـلى أيّ حـال. إنّهـا عـلى طريـق الشـفاء. وجـد نفسـه يغتنـم الفرصـة ويسـأل مجـدّدًا: تأتـين غـدًا إذن؟

- إن شاء الله.

وضـع السـماعة والابتسـامة لـم تفـارق شـفتيه. لا يذكـر آخـر مـرّة تحدّثـا فيهـا بهـدوء دون اضطرابـات جويّـة. ربّمـا مـرّت الأزمـة؟ أطلـت ميسـاء برأسـها مـن الغرفـة وحمّلقـت فيـه في اسـتغراب ثـمّ هتفـت:

- من المتّصل؟

- إنّها ياسمين. قالت إنّها ستأتي في الغد.

أجابهـا بهـدوء ثـم سـار في اتجـاه غرفتـه قبـل أن تطـرح سـؤالاً آخـر لا حمـل لـه بالـرّدّ عليـه. بعـد أن أغلـق بـاب الغرفـة خلفـه وقـف شـاردًا للحظـات. منـذ ثـوانٍ قليلـة أدرك السـبب الـذي جعلـه يشـتري لهـا علبـة الشـوكولاتة ذلـك اليـوم.

*****

هرولت ياسمين عبر ممرّات المستشفى وهي تحتضن علب الطعام التي عكفت على تحضيرها طيلة الصباح حتى لا تنزلق منها أو تتناثر محتوياتها. كثر تردّدها على المستشفيات في الفترة الأخيرة. بعد روزلين وإيلين وتجربتها الشخصيّة، هاهي تزور رنيم. طرقت على بابها بلطف وهي ترسم ابتسامة واسعة على وجهها:

- صباح الخيـــــــــــر.

هتفت بلهجة مرحة وهي تطل برأسها. وما لبثت ابتسامتها أن تقلصت حين انتبهت إلى الرجل الجالس قرب سرير رنيم وملفات كثيرة بين يديه. تطلع في اتجاهها للحظة ورنيم تصيح مرحّبة:

- تعالي ياسمين.. اقتربي. أقدّم لك جورج رئيسي في العمل. كنّا نحضر للجلسة القادمة. كدنا ننتهي. اجلسي أرجوك.

هزّت ياسمين رأسها في تفهّم ثمّ توجّهت نحو المنضدة في زاوية الغرفة وتشاغلت بترصيف العلب، في انتظار أن تنتهي رنيم من أشغالها. سمعتها وهي تقول بصوت عالٍ لتنبهها أنها مقصودة بالكلام وبنبرة لا أثر للحزن فيها:

- يبدو أنني محامية فاشلة! ما أن تنحّيت عن القضيّة حتّى بدأت البشائر تهلّ. وجدنا الحقيبة المفقودة وملف الأبحاث! ثم اتصل البروفيسور الذي حدثتك عنه، هل تذكرين؟ اتصل ليعلن رغبته في الشهادة في قضيتنا! اتصلت به عشرات المرّات وتركت الرسائل الصّوتيّة واحدة إثر الأخرى.. ولمّا تملكني اليأس وتوقفت عن ملاحقته اتّصل من تلقاء نفسه، تصوّري!

عبّرت ياسمين عن فرح يداخله شيء من الدّهشة. لم يكن الخبر مفاجئًا لها، فوالدها وعدها بأن يشهد. لكنّها لم تكن تأمن أن ينسى وينساق في مشاغله الكثيرة ويضيع الوعد. لذلك سرّها أن يعجّل بالاتصال. علق جورج معترضًا:

- لولا إلحاحك الطويل ومثابرتك لما حصل شيء من هذا. إنّها النتيجة الطبيعية لجهودك الماضية، ولو لم تقطفي ثمارها بنفسك.

شكرته رنيم ثم أضافت بعد هنيهة لتشرح المستجدّات لياسمين:

- حين وجدنا الملف شك جورج في فائدته.. فبإمكان المدّعي العام الطعن في صحّته وافتراض تزوير الصّفحات التي تنسب البحث إلى صاحبه.

لكـن شـهادة البروفيسـور كلـود سـتحل المشـكلة دون شـك. وصـول نسـخة إلكترونيـة إليـه مـن طـرف الدكتـور عمـر دليـل واضـح عـلى ملكيتـه للعمـل.. فالبروفيسـور كريسـتوف نـوارو كمـا تعلمـين قـال إنّ المختلـس حطّـم الجهـاز بعـد أن فشـل في اكتشـاف كلمـة الـسّرّ الخاصّـة بـه!

هـزّت ياسـمين رأسـها علامـة المتابعـة وفي عينيهـا نظـرة مهتمّـة. كانـت تكتـم في صدرهـا صيحـة فـرح. تـدرك أخـيرًا أنّهـا قدّمـت شـيئًا ذا بـال للدكتـور عمـر. شـهادة والدهـا ليسـت مجـرّد شـهادة عابـرة أو وثيقـة حسـن سـير وسـلوك، بـل قـد تكـون المفتـاح الرئيـسي للحصـول عـلى الـبراءة. مـن يـدري؟

غـادر جـورج المستشـفى بعـد أن جمـع أوراقـه واتّفـق مـع رنيـم عـلى بعـض النّقـاط المتعلقـة وظلـت هـي إلى جوارهـا بقيّـة سـاعات الصّبـاح. تناولتـا طعـام الغـداء معًـا وهمـا تتنقـلان بـين الأحاديـث دون التّطـرّق إلى المواضيـع الحزينـة.

قالت رنيم وهي ترمق ياسمين بنظرة معجبة:

- تبدين في كامل لياقتك اليوم. أخبريني ماهو السّرّ؟

تفادت ياسمين الرّدّ وهي تعيد الكرة إليها:

- أنـت أيضـا متـورّدة الوجنتـين ومشرقـة الوجـه. يبـدو أن نظـام المستشـفى ناسـبك.

ضحكت رنيم وعلقت في مرح:

- أظنّ أن الإجازات الإجباريّة ليست سيّئة في نهاية الأمر.

شـاركتها ياسـمين ضحكهـا المبتهـج. كانـت بالفعـل «أفضـل مـن أيّ وقـت مـضى»، رغـم أنّ العبـارة أفلتـت منهـا عـلى وجـه التحـدّي حـين فاجأهـا صـوت هيثـم عـبر الهاتـف.

حـين خرجـت مـن عنـد رنيـم فضّلـت أن تتمـشّى لبعـض الوقـت. كان الزّمـان شـتاء، وكان شـتاء باريـس الـذي تختـبره للمـرّة الأولى فريـدًا مـن نوعـه. بـين نفحـات الثلـج الخفيفـة الـتي تـنزل مـن السّـماء ببـطء وتـؤدة بأشـكالها المزخرفـة المنحوتـة بيـد الخـلاق المصـوّر ثـمّ تختفـي طبقاتهـا البيضـاء الرقيقـة في غضـون سـاعات قليلـة، فـلا تجـد لهـا أثـرًا في الغـد، وزخّـات المطـر الكثيفـة الـتي تهطـل فجـأة فتجلـد المدينـة بسـياطها وتغسـل شـوارعها النظيفـة أصلاً، ثـم تتوقـف فجـأة كمـا بـدأت وتنحـسر السّـيول في لمـح البـصر وكأن مطـرًا لـم يكـن، بـين هـذا وذاك كانـت تمـرّ أيّـام تتجـلى فيهـا السّـماء بزرقـة صافيـة

عميقة لا تشوبها سوى لفافات قطن متفرّقة تتمثل سُحُبًا، حتى تكاد تجزم أنّ الطقس ربيع لولا البرد القائم الذي ينخر العظام ويتسلل عبر الكنزات الصّوفية والمعاطف السّميكة.

وكان يوم الأحد ذاك من هذا الصنف الأخير المغري بالتشمّس. سارت ياسمين في الشوارع شبه المقفرة محتمية بقفازيها وشالها الصّوفيّ على مهل. تتوقف أحيانًا للتأكد من الاتجاه عبر سؤال المارّة القلائل أو التطلع إلى خريطة ما للمدينة. ظلت تؤجل ركوب المترو كلما اقتربت من إحدى محطاته، حتّى وجدت نفسها تدخل سوقًا شعبية. ضاعت وسط الزحام. واكتشفت في شيء من الاستمتاع أنّ كل أهل البلاد لا شك تجمعوا في هذه السوق. نقلت نظراتها بين الوجوه. لمحت شابًا ذا ملامح عربيّة يساوم عجوزًا فرنسيّة تفاصله في سعر التفاح والبرتقال الذي يبيعه، فتختلط كلماته الفرنسيّة المعوجة بلهجته المصريّة الأصيلة. يمتدح بضاعته ويعلو صوته بخليط من اللغات يتعسّر على العجوز فهمه، فتضحك على مبالغته التي تدركها بالفطرة وتأخذ منه وتسلّم.

وهي تسير مبتعدة، فكرت ياسمين أنّها مختلفة عن البائع المصري. فرنسيتها طليقة ولغتها بليغة يسهل فهمها. ولعل الرجل رحل عن بلده مضطرًا لضيق الحال. يعمل جاهدًا في بلاد غريبة لا يتقن لغة أهلها ولا يسهل عليه التواصل معهم لكنّه مضطرّ إلى كسب قوت يومه، ولعله يعول زوجة وأطفالاً. هل يشغل ذلك الرّجل نفسه بنظرة المجتمع الفرنسي إليه؟ هل يبات ليله أرقًا لأن أحدهم سخر من لهجته أو علق على لون بشرته الحنطي الذي لوّحته الشمس؟ هل يعدّ الأيام ويخمن كم يلزمه من الوقت ليعتبروه واحدًا منهم؟

ابتسمت في سخرية. «مشكلة مزيّفة». هذا ما كان ليردّده أستاذ الفلسفة الذي درّسها في المرحلة النّهائيّة من دراستها الجامعيّة. كل ما يحيد عن المهمّ هو بالتّأكيد مشكل مزيّف. هدفها الحصول على شهادة الدكتوراه ودراسة ظاهرة الانتحار. وفاة روزلين؟ مشكلة مزيّفة. كانت «حالة» تدرسها. حاولت الموت مرّة. أنقذوها فأعادت الكرّة. نجحت. اغتنمت خطأ فتاة مبتدئة. هذا ما كانته، فتاة مبتدئة. وهي لن تتجاوز هذه المرحلة إلا بالتعلم والممارسة. محاولة إيلين؟ مشكلة مزيّفة. لا علاقة لها ببحثها. لم

تختر الموت بسبب ظروف العمل. ولن تعاود المحاولة. تعهّدت بذلك أمام ولديها. كانت لحظات يأس جارف، لكنّ العقل استعاد حضوره وسيطرته. ستتجاوز الأمر وتستعيد حياتها. وهي أيضًا، ستستعيد حياتها. حين تتجاهل كل المشكلات المزيّفة التي تعترضها.

حين وصلت إلى منزل زهور كانت قدماها متورمتين من المشي. لكنّ تلك الفسحة كانت ضروريّة. ممتعة ومريحة للعقل، رغم إرهاقها للجسد. تحسّ بصفاء نفسي جديد عليها. ولم يخف انشراحها على أحد. لكنّ أحدهم لم يطرح تعليقًا مزعجًا. جميعهم تعاملوا معها كأنّها لم تكن مريضة يومًا وهي لم تعترض. تلك الليلة نامت قريرة العين. ما أن وضعت رأسها على الوسادة حتّى غطت في نوم عميق.

في الصّباح التّالي، وهي تراقب ميساء تروح وتجيء في غرفتها وتستعدّ للذّهاب إلى الجامعة، همست بخفوت وهي تحتضن ساقيها بذراعيها وتريح ذقنها على ركبتيها:

- تعلمين، أخوك كان على حقّ. كنت ضعيفة وجبانة.

توقفت ميساء عن الحركة وتطلعت إليها في ارتباك ثمّ قالت ببطء:

- حدّثتني أمّي بما جرى.

أضافت وهي تتخذ مجلسًا بالقرب منها وتضغط على كفّها في ودّ:

- لا تدعي كلماته تحبطك.

هزّت رأسها علامة النّفي وابتسامة خفيفة تتسلل إلى شفتيها:

- بالعكس.. كلماته أيقظتني. كنت مستسلمة ويائسة. انجرفت مع التيّار دون مقاومة.. وكنت بحاجة إلى يدّ تهزني بعنف حتى أعود إلى رشدي.. أظنّني مدينة له.

قالت ذلك بابتسامة متألقة.

كان هيثم يهمّ بالخروج من البيت إلى عمله، لكنّه لم يكن يجد ربطة العنق التي يريد. توجه إلى غرفة ميساء ليسألها عنها، فهي كانت تهتمّ بترتيب الحاجيات في خزانته. كان يهمّ بطرق الباب حين تسلل إلى أذنيه حديث البنتين الهامس. لم يكن يقصد التنصّت، لكنّه توقّف هناك دون شعور منه، يستمع في اهتمام إلى بقيّة الحديث ووجيب قلبه يرتفع بنسق مرتبك.

سألتها ميساء في حذر:

- إذن لست غاضبة منه؟

هزّت ياسمين رأسها ببطء نافية:

- في البدايـة آلمتـني الكلمـات. لكنّـني كنـت غاضبـة مـن نفـسي أكـثر.. لأنّـني أدركـت أنّـه عـلى حـقّ.

ابتسمت ميساء وهي تقول:

- أمـي لقنتـه درسًـا قاسـيًا بسـبب ذلـك.. وأظنّـه رأى بعـض الكوابيـس منـذ ذلـك الحـين.

ضحكت ياسمين في خفوت وهي تقول مازحة:

- حفظ الله خالتي. أعلم أنّني أستطيع الاعتماد عليها.

أطـرق هيثـم للحظات ثـم ابتسـم في رضـا. ليـس ذلـك سـيّئًا في نهايـة الأمـر. ابتعـد عـن غرفـة ميسـاء في خطـوات حـذرة وانسـحب بهـدوء إلى غرفتـه. ليـس بحاجـة أكيـدة إلى ربطـة العنـق تلـك. يمكنـه أن يضـع غيرهـا. أمـا الكلمـات القليلـة الـتي سـمعها، فهـي كافيـة لتبقيـه بمـزاج جيّـد طـوال النهـار.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٣٦-
سامي كلود

أمـام قاعـة المحكمـة، صافـح جـورج البروفيسـور سـامي كلـود بحـرارة وهـو يهتـف في امتنـان:

- أشكرك سيّدي عـلى مجيئـك في الوقـت المناسـب. شـهادتك سـتصنع فارقًـا في القضيّـة لا محالـة.

ابتسـم كمـال وهـو يهـزّ رأسـه في استحسـان. لقـد قـام بواجبـه لإنقـاذ شـخص يحتـاج المسـاعدة. سـار عـبر الرّدهـة المؤدّيـة إلى الفنـاء المفـروش بالرّخـام لمبـنى المحكمـة الشـاهق وهـو يشـعر بالرضـا. لـم تكـن المـرّة الأولى الـتي يدخـل فيهاقاعـة محكمـة، فهـو مسـجل ضمـن قائمـة المحلفـين المتطوّعـين وسـبق وتـمّ اسـتدعاؤه للتحكيـم في بعـض قضايـا الجنايـات. المزيـد مـن الخطـوات العمليّـة الـتي تجعـل منـه مواطنًـا صالحًـا في نظـر المجتمـع. ألا يكفـي أن يكـون بروفيسـورًا ذا مكانـة علميـة مرموقـة؟ لا، لا يكفـي. يفعـل مـا بوسـعه ليكـون مثـالاً محترمًـا يشـار إليـه بالبنـان. مثـالاً للنّجـاح والاندمـاج.

كانـت بدايـة اندماجـه زواجـه مـن إيلـين. فرنسـيّة صرفـة. ثـمّ تحصّـل عـلى الجنسـيّة الفرنسـيّة. مهـلاً، لـم يتقـدّم بطلبهـا بصفتـه متزوّجًـا مـن فرنسـيّة. غـروره كان يـأبى عليـه ذلـك. اتّبـع الخطـوات التقليديّـة. بطاقـة إقامـة لعـشر سـنوات، ثـمّ طلـب رسـميّ معـزّز بشـهادات علميّـة وتجربـة مهنيّـة لا يسـتهان بهـا. تقبّـل بطاقـة الهويّـة الجديـدة كحـقّ مكتسـب. فرنسـا سـتفخر بانتمـاء باحـث متمـيّز مثلـه إليهـا. اغتنـم الفرصـة ليغـيّر اسـمه حينهـا. كانـت لديـه فسـلفة خاصّـة بالموضـوع. لـم تكـن مسـألة التّمسـك بالجـذور والافتخـار بالانتمـاء العـربي تعـني لـه شـيئًا. وكان يحتـاج اسـمًا أعجميًـا ليتـوّج مسـيرته الحافلـة ويضـع ختـم الجـودة عـلى سـيرته الذّاتيّـة. كان يـدرك أنّ الأبحـاث الصّـادرة مـن مخابـر أوروبيّـة أو أمريكيّـة تلقـى قبـولاً أكـبر في كلّ أرجـاء العالـم، حـتّى في البـلاد العربيّـة حيـث يولـون اهتمامًـا كبـيرًا إلى اسـم المحـاضر الزائـر وبلـده أكـثر مـن محتـوى بحثـه ومحاضرتـه.

كان يعلـم يقينًـا أن الاسـم الجديـد لـن يكـون لـه أثـر عمليّـة تجميـل تمحـو

obeikandl.com

ملامحـه العربيّـة ولـون بشرتـه البرونـزيّ، لكـنّ الاسـم مـع الملامـح يعطـي انطباعًـا عـن انتمـاء لاتيـني أو جنـوب إيطـالي. ولأنّ تغيـير اسـمه تزامـن مـع نقلـة في مجالـه المهـنيّ، فإنـه لـم يعانيـم مـا يتعـرّض لـه بعـض «الفرنسـيّين الجـدد» مـن سـخرية وتهكّـم. وهكـذا عـرف في ميدانـه الجديـد باسـمه الجديـد ولا شيء غـيره. وحـين يحصـل ويلتقـي ببعـض معارفـه القدامـى الذيـن يعرفـون حقيقـة هويّتـه جـدّ المعرفـة، فإنّـه يحـرص عـلى إلقـاء تحيّـة عابـرة لا تسـمح بالكثـير مـن السّـؤال والاسـتجواب.

وكانـت تـزوره مـن حـين إلى آخـر نوبـات نـدم. يتذكّـر فاطمـة فـيراوده حنـين إلى المـاضي. لكنّـه سرعـان مـا يمحـو تلـك الأفـكار الدّخيلـة ويسـتغرق في العمـل حـتّى يغرقهـا فتختنـق وترحـل عـن وعيـه. يخزّنهـا بعيـدًا في اللاوعـي رافضًـا التّعاطـي معهـا. فالطريـق الـذي مـضى فيـه ذو اتجـاه واحـد. لا يمكنـه أن يقفـل راجعًـا بهـذه البسـاطة. منـذ اللحظـة الـتي غـيّر فيهـا اسـمه وهويّتـه أصبـح شـخصًا آخـر مختلفًـا عـن كمـال. أصبـح فـردًا مـن عائلـة كلـود وعليـه أن يتحمّـل تبعـات ذلـك. مـع الوقـت، أصبحـت نوبـات النـدم أقـل حـدّة وأخـفّ وطـأة. أصبـح ينجـح في ردّهـا بسـهولة وسرعـة. ازدادت مناعتـه ضـدّ المـاضي مـع تقدّمـه في السـنّ وارتقائـه في السـلّم الاجتماعـي والمهـنيّ. تقمّـص الشـخصيّة وتشـبّع بهـا، حـتّى صـار الحديـث بالعربيّـة أمـرًا عارضًـا في حياتـه. يضعهـا في قائمـة مميّزاتـه، كأنّهـا لغـة أجنبيّـة أخـرى يضيفهـا إلى قائمـة لغاتـه عـلى السّـيرة الذاتيّـة، حـتّى أصبـح يتكلّمهـا بلكنـة تبـدو أجنبيّـة. لـولا زياراتـه المتواتـرة إلى تونـس مـن أجـل إدارة بعـض الممتلـكات، ربّمـا كان نسـيها، مثلمـا ينـسى المـرء لغـة أجنبيّـة لـم يسـتخدمها منـذ فـترة طويلـة. ومـع الوقـت أصبـح يشـعر بحـرارة تفـور داخلـه كلّمـا جـاء عـلى ذكـر المـاضي. أليـس كلّ مـا يفعلـه اليـوم ثـورة عـلى تلـك الفـترة؟ نجاحـه وعملـه واندماجـه.. أليـس كل ذلـك ردًّا صافعًـا أراد أن يواجـه بـه فاطمـة؟ فاطمـة الـتي وضعتـه يومًـا في مقيـاس تقييمهـا القيمـيّ وأسـندت إليـه علامـة دون المسـتوى؟

في المرحلـة الجديـدة، لـم تعـد إيلـين تلزمـه. بعـد سـنوات العمـل الجـادّ والمضـني يحتـاج إلى بعـض التّجديـد في حياتـه. يحتـاج إلى اسـترجاع عمـره الـذي انفرطـت حبّاتـه عـلى غفلـة منـه مثـل عقـد خـرز. يحتـاج إلى نفَـس شـاب يعيـد إلى سـهراته تألقهـا وبريقهـا. وكان اسـمها «ساشـا». شـابّة روسـيّة كانـت

ضمـن بعثـة طلابيّـة حطّـت بـين جنبـات فصلـه منـذ سـنتين. هـل كان هـو مـن اقتنصهـا أم هـي مـن فعـل؟ شـدّت انتباهـه منـذ الوهلـة الأولى، بنظراتهـا الجريئـة ومبادراتهـا. كأنهـا تقـول علانيـة: «لا أهتـمّ بنظـرة الآخريـن». وهـل يجـب عليـه أن يشـعر بالخجـل؟ لمـاذا لا يفكـر أحـد في فـارق السّـنّ حـين يرتبـط نجـم سـينمائيّ بشـابة في عمـر حفيدتـه؟ ثـمّ أليـس هـو أحـد نجـوم المحافـل العلميّـة المحليّـة والعالميّـة؟ لمـاذا قـد يحتـاج إلى مباركـة أحـد إذن؟

ربّمـا كانـت في مثـل سـنّ ياسـمين أو تكبرهـا بقليـل. لكنّهـا شـعلة حقيقيّـة. امـرأة ناضجـة ومثـيرة. ليسـت فتـاة غـرّة مغمضـة العينـين مثـل ابنتـه الـتي أبـت أن تكـبر. غرقـت في المبـادئ والمثاليـات الـتي سـقتها إياهـا والدتهـا وتجاهلـت حقيقـة العالـم الماديّـة المتحفّـزة.

أخرجه رنين هاتفه من أفكاره. تطلع إلى الشاشة. ساشا. جاءت في وقتها.

- ساشا عزيزتي.. كنت أنتظر اتّصالك. هل أراك الليلة؟

في ثـوانٍ معـدودة، عـاد شـابًا ينضـح حيويّـة ويتّقـد نشـاطًا، يجيـب في مـرح ويرسـل النّـكات مسترسـلة مثلمـا يتقبّلهـا. وعـادت ذكرياتـه مـع فاطمـة لتنزلـق إلى ركـن بعيـد مـن لاوعيـه، حيـث كان يخفيهـا منـذ زمـن طويـل.

Obeikandl.com

obeikandl.com

-٣٧-
خارج الملعب

على مائدة العشاء، تصاعد رنين هاتف بإلحاح مزعج، وتجاهله صاحبه بنفس الإلحاح. انتظر توقّفه عن الرّنين ثمّ عدّله على الوضع الصّامت وأخفاه متجنّبًا النّظرات التي توجّهت إليه في فضول وتساؤل. لم تكن المرّة الأولى التي يتعرّض فيها هيثم لموقف محرج بسبب الاتصالات الغريبة التي تصله في أيّ وقت، وفي كلّ وقت. لكن اليوم كلّ شيء اختلف. إنّها النّهاية هذه المرّة. عليه أن يصمد لبعض الوقت ولن تتصل به بعد ذلك.

ما الذي جدّ؟ في ذلك الصباح، وضع حدًا لعلاقته بلورا. هكذا. دعاها لشرب فنجان قهوة في فضاء الاستراحة بالشركة، فطارت إليه كفراشة جذلة. لم يفعل ذلك منذ زمن. وطفقت تعبّر عن سرورها بعودة المياه إلى مجاريها بينهما بعد أن جافاها لفترة. صعّبت عليه المسألة. لكنّه قرّر أن يكون حاسمًا. قاطعها قبل أن تتمادى. يا بنت الحلال، الطريق بيننا مسدود. هنا تنتهي الرّحلة. أنا لست مناسبًا لك وأنت لست مناسبة لي. ننتمي إلى عالمين مختلفين بينهما برزخ لا يبغيان. بكت وتشبّثت به أكثر. اعتذر مخلصًا لأنه أخذ كل ذلك الوقت ليصارحها.

ما الذي جدّ؟ منذ أشهر قليلة كانت قضيّة لورا تشغله وتؤرّقه. مواجهات مع والدته وتشوّش في ذهنه طول الوقت. لم يعد شيء في حياته يسير كما ينبغي. ثمّ ظهرت ياسمين. شاركته رفع الحمل. اهتمّت بلورا وتعليمها الدّين فلم يعد هناك مسوّغ للقاءاتهما المتخفيّة. ثمّ وبشكل لم يدركه، أخذت تلك البنت تشغل حيّزًا من اهتمامه. طريقتها الطفولية المتهوّرة في تحدّيه، والشّرارات الكهربائيّة التي تنطلق في الجوّ كلما جمعهما فضاء واحد. تحدٍّ مسلٍّ أصبح لذيذًا مع الوقت. ولورا؟ كانت تحاصره بنزعتها التملكيّة حتّى ضاق بها ذرعًا. أين أنت؟ لماذا تأخرت؟ متى ستأتي؟ أصبح التواصل معها خانقًا. ولم تعد مستميتة في تعلم الإسلام كما بدت حين دخلت عالمه بحيويّتها المتدفّقة. حماستها تجاه كل شيء غدت باهتة، إلا في انتزاع إثباتات الحبّ منه. وببطء تسرّبت مشاعره تجاهها خارجه، متسللة

على أطراف أصابعها. ليستيقظ يومًا ويعاين بمنتهى الدّهشة أنه لم يعد هناك مكان في قلبه للورا.

قطع رنين هاتف آخر تدفق أفكاره. لم يكن هاتفه. تطلعت ياسمين الجالسة على الطرف الآخر من المائدة إلى هاتفها في دهشة وهي تقرأ الاسم الذي ظهر على الشاشة. دون شعور منها ذهبت نظراتها إلى هيثم ثمّ ما لبثت أن وقفت مستأذنة لتغادر الغرفة. أحسّ هيثم في صدره وخزة لنظرتها تلك. لم يكن يجهل هويّة المتّصل. هل كان يتوقع اتصالها بها؟ لا يدري أي كلام ستصبّه لورا في أذني ياسمين الآن. لكنّ الخطأ يبقى خطأه وحده منذ البداية، وسيتحمّل تبعاته رِدحًا من الزّمن حتى تنتهي لورا من حياته جملة واحدة.

- هيثم، ما الأمر؟

لم تخف تقلبات وجهه على زهور التي كانت تطالعه في قلق. رسم على شفتيه ابتسامة شاحبة وهزّ رأسه علامة النفي. لا شيء، ليس هنالك ما يقلق. أو هكذا كان يرجو. لكنّ صبره كان محدودًا والجلوس إلى مائدة الطعام صار عقابًا لا قبل له به. وقف وهو يقول:

- الحمد لله، شبعت.

أخذ طبقه وتوجه إلى المطبخ ليضعه في المغسلة. فوجئ بياسمين التي كانت قد أنهت اتصالها تقف وسط المطبخ. بدا عليها الارتباك وهي تراه يتقدّم نحوها. غمغمت في شحوب:

- إنّها لورا.

لم يكن بحاجة إلى توضيحها. سألها في ضيق:

- ماذا تريد؟

قالت وهي تعبث بهاتفها بين أصابعها في توتّر:

- تريد أن تراني.

هتف على الفور في حدّة مفاجئة:

- لا تذهبي إليها.

لم تردّ عليه ياسمين، بل تسمّرت في مكانها وهي تطالع شخصًا يقف ورائه. التفت هيثم ببطء ليلفي والدته تقف عند باب المطبخ وهي تحدجه بنظرة سابرة. لا شك أنها سمعت بعض كلامهما. التغيير الذي

opelikandi.com

يقـرؤه عـلى وجهها لا يـدع مجـالاً للشـك.

- ياسمين، أرجوك.. هلا تركتنا قليلاً؟

زفـر هيثـم وهـو يضـع الطبـق عـلى طاولـة المطبـخ ويجلـس عـلى الكـرسي القريـب. هـا أن الاسـتجواب سـيبدأ. اسـتجابت ياسـمين لطلـب زهـور وهرولـت مغـادرة الغرفـة في صمـت، فأغلقـت هـذه الأخـيرة البـاب ثـم اقتربـت مـن ولدهـا وهـي تقـول بلهجـة عميقـة قـرأ اللـوم بـين طياتهـا:

- هل هي تلك الشابة مجددًا؟

قاطعها هيثم بسرعة وهو ينظر في وجهها بقوّة:

- أمي، لـورا خرجـت مـن حيـاتي بشـكل نهـائيّ.. لـم يعـد لهـا وجـود بالنسـبة إليّ!

طالعتـه بـشيء مـن الدّهشـة للحظـات، ثـم همسـت وقـد ذهـب عنهـا الاسـتياء والغضـب:

- حقًّا؟

أومأ برأسه مؤكدًا وهو يقول بابتسامة خفيفة:

- نعم، صدّقيني.

سألته في تردّد: إذن.. فيم كنتما تتحدثان؟

هرش مؤخرة رأسه في ضيق وهو يقول:

- لـورا انتهـت بالنسـبة إليّ.. لكنّهـا مازالـت تحـاول العـودة عبثًـا. يلزمهـا بعـض الوقـت لتسـتوعب حقيقـة الوضـع.

- وياسمين؟

كانـت تسـأله في حـذر وأمـل. ابتسـم وهـو يـرى النّظـرة المترقبـة في عينيهـا. قـال مطمئنًـا: دعيـني أتـصرّف هـذه المـرّة.

حدّقـت فيـه غـير مصدّقـة، لا تريـد أن تخطـئ التقديـر. لكـنّ النظـرة في عينيـه كان تدعوهـا إلى أن تصـدّق. ابتسـمت أخـيرًا وقـد ترقرقـت العـبرات في عينيهـا. أمسـكت بكفـه ثـم همسـت بصـوت حـانٍ:

- حسن إذن، سأدع الأمر لك. حين تصبح جاهزًا خبّرني لنخطبها رسميًّا.

قبّـل كفهـا في امتنـان، لكنـه لـم يسـتطع تجاهـل إحسـاس غريـب في صـدره. هـل تراهـا توافـق؟

*****

obeikandi.com

حثّت ياسمين الخطو نحو بوابة المطعم الذي باتت تعرفه جيّدًا. تجاهلت طلب هيثم بعدم لقاء لورا وتقدّمت في اتجاه المكان الذي اتفقتا عليه، وفي الموعد الذي حدّدتاه سابقًا. صرّت على أسنانها في حنق. هؤلاء الفرنسيّون الحمقى، هل ينتحرون مثلما يتنفسون؟ تذكرت كلمات لورا اليائسة على الهاتف. «سأضع حدًا لحياتي إذا تخلى عنّي». هل كانت جادّة في قولها؟ أم أنّه مجرد تهديد سخيف؟ مهما كان الأمر فهي لم تقدر على تجاهله، ليس وهي تنطق بكلمة «السّرّ» التي تقلب كيانها في لحظات: الانتحار. ألم تصبح مسلمة الآن؟ وهل ينتحر المسلمون؟!

ما أن تجاوزت المدخل حتى لمحت كفًا تلوح لها من ركن المطعم البعيد. اتجهت نحو المائدة القصيّة المخصّصة لأربعة أشخاص والتي احتلت لورا أحد مقاعدها. حيّتها وجذبت كرسيًا لتجلس قبالتها. لكنّ نظرات لورا كانت معلقة على المدخل وراءها كأنها تنتظر شخصًا آخر. بعد ثانيتين هتفت في لهفة:

- ألن يأتي؟

- من تقصدين؟

- هيثم!

ثم أضافت وعيناها تتسعان ذهولاً:

- أنت لم تخبريه؟!

- أخبره بماذا؟

- بأنّني سأنتحر!

هزّت ياسمين رأسها وهي تقول في حزم:

- لقد طلبت رؤيتي وها أنا قد جئت. لم أعدك بأنني سأحضر هيثم معي.

ثم تابعت في رجاء:

- كما أن هيثم لم يهتمّ.. حاول منعي من المجيء. لكنّني هنا لأننا صديقتان.. ولأنّني أهتمّ لأمرك. انسي أمر هيثم الآن.

قاطعتها لورا وهي تضرب المائدة بقبضتها بقوّة وصرخت في جنون:

- كان يجدر به أن يأتي! كان يجدر به أن يهتمّ!

ثم أخفت وجهها بين كفيها قبل أن تنخرط في بكاء صامت تصاعد نسقه

ليغـدو مريـرًا تتخللـه الشـهقات المكتومـة. تكلمـت بعـد حـين، حـين هـدأ نشـيجها وتوازنـت أنفاسـها. قالـت بصـوت ضعيـف مرتعـش:

- آه، كـم أنـا غبيـة! ظننـت أنـه سيهبّ لإنقـاذي.. كمـا فعـل في المـرّة الأولى. أعـرف ولعـه بنجـدة الفتيـات الواقعـات في مـأزق. هـل تـراه وجـد فتـاة أخـرى يائسـة اسـتحوذت عـلى انتباهـه؟

عـادت إلى البكاء مـن جديـد وعـادت ياسـمين إلى تهدئتهـا. صرخـت، اسـتنكرت وشـتمت. وحاولـت ياسـمين أن تفتـح عينيهـا عـلى الحقيقـة. طريقهـا مـع هيثـم كان مغلـق المنافـذ منـذ البدايـة، لأن عائلتـه لـم تقبـل بهـا. وهـو حـاول جهـده، ثـم انتهـى إلى التسـليم والرّضـوخ. إن كانـت تحبّـه فعليهـا ألا تحمّلـه مـا لا يطيـق. ثـم جرّبـت التسـلل إليهـا مـن منطـق الكرامـة. كيـف تطـارد رجلاً زهـد فيهـا؟ عائلتـه لـم ترحّـب بهـا؟ في كثـير مـن الأحيـان لا يكـون الحـبّ وحـده كافيًـا لنجـاح علاقـة مـا. اسـتمرّت تحاججهـا وتطيّـب خاطرهـا برهـة مـن الزّمـن، وبـدا أنهـا لانـت بعـض الـشيء وأخـذت تسـتمع إليهـا في هـدوء. قالـت ياسـمين وهـي تلحـظ باستحسـان إصغاءهـا:

- انـسي هـذا الأمـر الآن. مـا رأيـك في أن نقـوم بنشـاط مختلـف، نغـيّر الجـو؟ هـل زرت مسـجد باريـس الكبـير؟ مـا رأيـك أن نتنـاول بعـض الحلويـات الشرقيّـة ونـشرب الشّـاي الأخـضر بالنّعنـاع في المقهـى الملحـق بـه، ثـم نتجـوّل في باحـة المسـجد وحديقتـه البهيّـة؟ المـكان ذو طابـع معمـاريّ خـاصّ كأنّـه ينتمـي إلى زمـن غابـر! وبعـد ذلـك نراجـع بعـض مـا تعلمنـاه. سـترين أن اللجـوء إلى الله سـيخفف عنـك ويهبـك المزيـد مـن السّـكينة!

سكتت لورا وكأنها تزن بميزان عقلها اقتراح ياسمين ثم قالت ببساطة:

- إيمـاني مضطـرب هـذه الفـترة. دعـوت الله أن يعيـد إليّ هيثـم، لكنّـه لـم يسـتجب.

ثم واصلت معتذرة:

- لا أريـد أن أثقـل عليـك أكـثر. إن كنـت غـير قـادرة عـلى الإصـلاح بيـني وبـين هيثـم فـلا داعـي لاسـتمرار لقاءاتنـا. مـن الأفضـل أن ينتهـي كل شيء مـرّة واحـدة!

لاحظت الصّدمة في عيني ياسمين فاستطردت:

- لقـائي بـك سـيذكرني بـه باسـتمرار لا محالـة. وإن كنـت سـأطوي الصفحـة

فسـأفعل ذلـك مـرّة واحـدة.

بـدون مقدّمـات، وقفـت مـن مكانهـا وتناولـت حقيبتهـا يدهـا وهـي تقـول في استعجال:

- يجدر بي الذهاب الآن. شكرًا لمجيئك.

قالـت ذلـك وهـي ترسـم ابتسـامة مصطنعـة، ثـم ابتعـدت بوجـه يعلـوه الوجـوم.

obeikandl.com

-٣٨-
ليلة مسهدة

اهتمّت رنيم منذ الصّباح الباكر بفرز حاجياتها وجمعها في الحقيبة التي أحضرها جورج؛ ستغادر المستشفى اليوم. خضعت لجلسات تصفية دم مكثّفة في الأيّام الماضية. أربع مرّات في الأسبوع لمدّة خمس ساعات في كلّ مرّة. كرهت الآلات والأسلاك التي تلفظها مثل خرقة بالية، فتتمدّد على سريرها بقيّة اليوم كجثة هامدة. الطّبيب قال إنّها أصبحت أفضل حالاً. لقد تعلمت الدّرس. ستلتزم بحميتها، وإن عادت إليها الأعراض فلن تتردّد في مراجعة طبيبها. لكنّها اليوم لا يمكن أن تبقى معزولة عن العالم أكثر. لا يمكنها أن تجلس هنا في الانتظار في حين أن الجلسة النّهائيّة ستكون يوم غدٍ. لن تفوّت عليها ذلك مهما حصل.

سمعت طرقات على باب الغرفة. زائر صباحيّ؟ تساءلت من يكون، جورج أم ياسمين؟ لا أحد غيرهما يعلم بوجودها هنا. رفعت رأسها مبتسمة وتأهبّت لاستقبال زائرها.

- صباح الخير عزيزتي.

تسمّرت في مكانها في ارتياع وهي تحدّق في الوجه الذي طالعها.

- ما هذا الترحيب؟! ألست مسرورة برؤيتي؟!

قال ذلك في شيء من السّخرية الخفيفة. تمالكت نفسها وسارت في اتجاهه لتحتضنه مرحّبة.

- أبي.. أهلاً بك.. كل ما في الأمر هو.. أنك فاجأتني.. لم أتوقع.. رؤيتك هنا.

لم تتوقع مجيئه؟! لقد طلبت منه خمسين ألف يورو! لا شك أنه تساءل وقلب الأمور على وجوهها كلها ثم قرّر تفقد الوضع بنفسه. طبعًا بعد أن أخذ الوقت اللازم لتهوية جدول أعماله المزدحم وتخصيص مساحة زمنيّة لها. لا يمكنها أن تلومه. فلتضع اللوم على نفسها لأنها لم تكن مقنعة كفاية على الهاتف. قالت في ارتباك وتلعثم:

- كيف وصلت.. إلى هنا؟

كان يعقد حاجبيه في تجهم. قال في حدّة:
- ذهبت إلى شقتك فأعطتني موظفة الحراسة عنوان المكتب.. وفي المكتب أعلمني رئيسك بوجودك في المستشفى. والآن أخبريني، ما الذي يجري؟
ازدردت ريقها في قلق. لا يبدو أنّ جورج قد ثرثر معه كثيرًا. قال بشيء من اللين:
- من أجل هذا تحتاجين خمسين ألف يورو؟ لديك مشكلات صحّيّة؟
مشكلات صحّيّة؟ يبدو ذلك مناسبًا. ربّما أفضل من كل الأكاذيب التي فكرت بها. سيجنّبها هذا الخيار الحديث عن ميشال وعن عمر. عصفوران بحجر واحد. سكتت للحظات تحبك كذبتها وتدرس نتائجها. أحسّت ببعض الذنب لما تُقدِم عليه، لكنّها فكرت أنّها وسيلتها الوحيدة للحصول على ما تريد دون استجواب دقيق قد تخرج منه خائبة. قالت في ثبات فاجأها هي نفسها:
- أجريت عمليّة زراعة كلية. قائمة الانتظار كانت طويلة وحصص غسيل الكلى الطويلة شبه اليوميّة كادت تفقدني صوابي. لذلك دفعت. فحصلت على واحدة بشكل سريع. هذا ما حصل.
حدّق فيها الرجل في ذهول.
- يا إلهي! رنيم.. هل كنت ستخفين هذا عنّا؟ ابنتي تمرض وتشتري كلية في السّوق السّوداء وأنا لا أعلم شيئًا؟ لو كنت أخبرتني لأحضرت المبلغ في وقت أسرع!
-تمتمت:
- لم أرد إثارة قلق أحد.. ثمّ هناك صديق.. أعارني المبلغ، وسأعيده إليه.
هزّ رأسه موافقًا. ثم قال في حزم:
- حسن إذن. سآتي بالمبلغ لتعيديه إليه، ثمّ تذهبين معي.
- أذهب معك؟ إلى أين؟
قال ببساطة كادت تجعلها تقهقه:
- إلى البيت!
البيت؟ في ذاكرتها لم يكن هناك بيت. هناك مربّية وخدم وفضاء واسع غاب عنه أصحابه، بالكاد ترى ظلالهم خلاله لسويعات قليلة في الليل أو

النهار. رمقته في شك، فأضاف مشدّدًا:
- أنت تحتاجين إلى فترة نقاهة طويلة وإلى العناية والاهتمام. لن أتركك هنا وحدك.
سألته وهي تضحك:
- هل تقاعدتما مبكرًا أنت وأمي؟
كشر وهو يتظاهر بالغضب:
- ألا يروق لك ذلك؟!
ضحكت مجدّدًا فقال في شبه اعتذار:
- حسن، لم نتقاعد بعد.. لكنّنا سنفعل ما بوسعنا للبقاء في البيت معظم الوقت. ما رأيك؟
تنهدت في تسليم. لا يمكنها أن تعارضه. جمع كفيه معًا في إشارة حاسمة وهو يهتف:
- اجمعي أشياءك ريثما أرى الطبيب ونتمّ إجراءات الخروج.
قاطعته في اندفاع:
- لا، لا داعي لرؤية الطبيب.. كنت سأخرج لا محالة.
ثم تناولت الأوراق التي كانت على المنضدة وهي تقول في حماس مريب:
- انظر، هذه أوراق الخروج.. لا ينقصها إلا توقيعي. حتى أشيائي جمعتها. لا تتحرك، سألبس حذائي ومعطفي ونخرج معًا!
لم يكن بمقدورها المغامرة بتركه يغادر قبلها ويطرح الأسئلة هنا أو هناك عن حالتها الصّحية. قالت وهي تتأبّط ذراعه وتسير إلى جواره في دهاليز المستشفى:
- هل يمكننا تأجيل السّفر بعض الشيء؟ هناك قضيّة هامّة أعمل عليها و...
قاطعها في حزم:
- هل جننت؟ أي قضية هذه تنسيك صحتك؟ لقد أجريت عملية زرع كلى منذ فترة وجيزة يا عزيزتي. أنت في حاجة إلى الرّاحة التامّة!
- أحتاج يومين.. يومين فقط. ولن أرهق نفسي.
قال في امتعاض وهو يقرص خدّها:
- حسن. يومان فقط. ولا يوم إضافي. اتفقنا؟ بعدها تسافرين معي إلى

obeikandl.com

مصر.

هزّت رأسها في تسليم وهي تخفي الألم الذي تسبّبه لها فكرة الرّحيل. لكن ما باليد حيلة. إمّا النقود وإمّا البقاء. لا يمكنها أن تضمن الاثنين معًا. لكنّه رحيل مؤقت. بالتأكيد، مؤقت.

حين وضعت رنيم مفتاحها في قفل باب شقتها ألفت الباب مفتوحًا. دفعته برفق وتطلعت إلى الدّاخل. كان والدها قد ودّعها أسفل البناية وقصد فندقه بعد أن وعدها بأن يزورها في الغد ومعه المبلغ المطلوب، حتى تعيده إلى صاحبه. انشغل بالها بين التفكير في كذبتها الجريئة على والدها وجلسة يوم غد، وحين وقعت نظراتها على ياسمين خلف منضدة المطبخ أحسّت بوخزة في صدرها حين تذكرت كذبة أخرى إضافيّة.

في تلك اللحظة رفعت ياسمين رأسها عن طبق السمك الذي كانت تعدّه وسارعت بمسح كفيها في مريلة المطبخ وهبّت لاستقبالها:

- أهلاً بعودتك إلى بيتك.

عانقتها في حذر وهي تبعد أصابعها التي تعبق برائحة السّمك المميّزة حتى لا تتسخ ملابسها ثمّ ضحكتا في مرح. سألتها رنيم حين عادت لتنهمك في تحضير أكلتها:

- متى وصلت؟ لم أعلم أنك ستأتين اليوم.

- علمت أنّك تغادرين المستشفى فأردت أن أرّحب بك كما يجب.

ابتسمت رنيم في امتنان ودمعت عيناها فجأة. قبل أن تستفسر ياسمين كانت تقول بسرعة:

- والدي وصل اليوم. سأسافر معه إلى مصر.

- تسافرين؟ متى؟ لماذا؟

- آه، والدي قلق على صحّتي. يريدني أن أكون تحت المراقبة لبعض الوقت. من المفترض أن أرحل بعد يومين.

كانت ترسم ابتسامة واسعة تحاول أن تداري بها ارتباكها.

- لكنك بخير، أليس كذلك؟

- نعم، بالتأكيد. لكن تعلمين كيف يتصرّف الأولياء! خصوصًا مع الأبناء الغائبين. لا تقلقي، لن أغيب أكثر من أسبوعين. لم أزر عائلتي منذ أكثر من سنة. تبدو لي فرصة مناسبة لتغيير الجوّ.

هـزّت كتفيهـا علامـة اللامبـالاة وأخـذت أصابعهـا تعبـث ببعـض المناشـف المطويـة أمامهـا.

- والقضيّة؟ ماذا عنها؟

غـدًا سـتكون الجلسـة النهائيّـة. أمـلي أن ينتهـي كل شيء عـلى مـا يـرام فأسـافر هانئـة البال.

أضافـت وهـي تسـترخي عـلى المقعـد وتمـدّ ذراعيهـا فـوق رأسـها في تمـط كسـول:

- ستكون إجازة مستحقة للاحتفال بأهم انتصار مهنيّ لي.

تمتمت ياسمين في دعاء:

- إن شاء الله.

سألتها رنيم فجأة:

- هل تريدين المجيء؟

- إلى أين؟

- إلى المحكمة.

تردّدت ياسمين للحظة. لم تكن واثقة مما تريده بالضبط.

- ألـن يكـون ذلـك مزعجًـا؟ أقصـد حضـور فتـاة محجبـة لمحاكمـة رجـل متهم بالإرهـاب، ألـن يزيـد ذلـك الأمر سـوءًا؟

- لا تكوني سخيفة!

أطلقـت ياسـمين ضحكـة مرتبكـة. مـاذا دهاهـا؟ لا يمكنهـا أن تنكـر أنهـا فكـرت في الأمـر منـذ أيّـام. خطـر لهـا أن تذهـب لمسـاندة عمـر في محنتـه. لكـن بـدا لهـا فجـأة أن وجودهـا سـيحرجه. بشـكل مـا سـتكون عبئًـا عليـه، وربّمـا عـلى رنيـم أيضًـا.

وقفـت رنيـم وهـي تتجنّـب النّظـر في عيـني رفيقتهـا وقالـت في نـبرة خاليـة مـن التعابـير:

- إن غيّرت رأيك أخبريني.

- شكرًا لك. سأفكر في الأمر.

مشـت في اتجـاه غرفتهـا وهـي تخفـي الرّجفـة الـتي أوشـكت أن تتملكهـا. إن لم تكـن قـادرة عـلى مواجهـة ياسـمين وشرح الأمـر لهـا، فلتأخذهـا إليـه لتكتشـف كل شيء بنفسـها. لـن تحتـاج حينهـا إلى توضيـح أو اعتـذار. تتظاهـر بأنهـا لـم

تكن يومًا على علم وترسم الدّهشة على وجهها بإتقان تحترفه. رغمًا عنها صارت تحترف الكذب. لكنّ ذلك سيكون مفاجأة سارة لعمر بالتأكيد. في يوم واحد يسترجع حريته ويلتقي من جديد بصديقته المجهولة.

*****

تقلبت ياسمين في سريرها تلك الليلة بعد أن أطفأت النّور. كانت تحاول النوم لكنّ أفكارًا تمنعها. تذكّرت سؤاله الغريب في عربة المترو منذ شهور مضت. «هل سبق والتقيت إرهابيًّا؟».حين حدّثتها رنيم عن موكّلها «الإرهابيّ»، كانت تحسبه بريئًا من باب حسن الظنّ في المسلم أيًّا كان، تمامًا كما تستمرّ في الاعتقاد بأنّ اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر هي تدبير صهيوأمريكي. أمّا الآن، فقد باتت تجزم ببراءته وهي تستعيد تفاصيل نقاشهما حول «الهويّات القاتلة» في حسرة وإشفاق.

تفكّرت في تلك الصّدفة الخارقة التي جعلت رنيم تترك عملها في مرسيليا وتأتي إلى باريس لتشاركها السّكن وتهتمّ بقضيّة عمر. كانت تؤمن أنّ الصّدف هي جزء من قدر مسطور، آليّات على الطّريق ومسبّبات لقضاء كتبه الله. لذلك تقاطعت طريقها مع طريقي رنيم وعمر، لتحقيق قدر ما، لا يعلمه إلا الله. تدرك الآن بأنّها لم تكن لتتمنّى لصديق المترو الغريب محامية خيرًا من رنيم. ربّما كانت خبرتها محدودة، لكنّها تتمتع بنصيب وافر من الذكاء، فضلاً عن صلابتها في الدّفاع عن الحق. وتلك العاطفة الرّقيقة التي تلمحها في مقلتيها كلّما جاءت على ذكره، ستكون حافزًا إضافيًّا لا محالة.

غمرتها موجة من الاطمئنان أذهبت النّعاس عن جفونها تمامًا. تركت السّرير وجلست إلى مكتبها. فتحت دفترها وانبرت تكتب وصورة عمر خلف القضبان بين عينيها:

«مقدّمة. عزيزي الموظّف، هذه الدّراسة التي بين يديك لن تحلّ مشكلاتك الوظيفيّة بلمسة سحريّة، لكنّها ستضعك على طريق تشخيص الخلل وتحديد مقوّمات الحلّ. ولتعلم بداية وقبل كلّ شيء أنّ وضعك مهما بدا مأساويًّا فهو ليس أحلك من ليل بريء حُكِم بالسّجن المؤبّد! فعملك لا يقيّدك ولا يستعبدك، وإن فعل فارحل عنه أو استبدله، لأنّه لا

يستحقّ العناء! والإرادة الحرّة -ولو في ظل حرمانك من العمل- تظلّ أثمن ما تملك، وحياتك في كنفها حتى لو بدت سقيمة فهي أهون من الأشغال الشّاقة الإجباريّة».

تزاحمت في رأسها كلمات هيثم في لقائهما الأوّل، فابتسمت وتابعت:

«لو ظننت أنّ الانتحار سيخلّصك من حياة تافهة ويمنحك تذكرة إلى جنّة الآخرة، فاعلم أنّ كلّ الأديان السّماويّة وأغلب الدّيانات الوضعيّة تحرّم قتل النّفس. ولو حدّثتك نفسك بإقدامك على عمل شجاع وتضحية جسيمة تمهّد طريق الحريّة لمن بعدك، فالشّجاعة الأكبر تكون بمواجهة ما يؤرقك ومحاولة تغييره بيديك ولسانك. فخسارة هي أن تقدم على تضحية (قد) لا تلقى من الاهتمام ما تتوقعه، فتذهب شجاعتك جزافًا. ولتتفكّر في الشكل القاطع والنّهائيّ للموت الذي اخترته، فإنّه قرار لا رجعة فيه، ولا يسدّ الباب أمام كلّ الفرص الممكنة».

استرسلت تكتب وتكتب، وقد تفتّقت قريحتها عن حكمة لم تعهدها في نفسها. كانت خلاصة تجربتها الحديثة غضّة طريّة، تنساب على الورق طواعية. واكتشفت في غمرة حماسها أنّ كلّ جزء من مغامرتها الفرنسيّة كان لبنة تضاف إلى لبنات تكوّن رؤيتها الجديدة لنفسها وللعالم من حولها.

توقّفت عن الكتابة حين سمعت رنّة هاتفها الخافتة. دون أن تترك القلم، مدّت ذراعها لتلتقط الجهاز وفتحت الرّسالة. قرأتها مرّة ثم دعكت عينيها في عدم تصديق. نحّت دفترها جانبًا وأعادت قراءتها من جديد.

«ياسمين، هل تتزوّجينني؟».

لم يكن حلمًا. لم تكن هلوسة مسائيّة. كانت تلك الكلمات الثلاث هي فحوى الرّسالة التي وصلتها على هاتفها. المرسل.. هيثم. حدّقت في شاشة الهاتف في شك. هل هو جادّ؟ لا شك أنّه كذلك. لم يكن الزّواج من المواضيع التي تقبل المزاح. كما أن الأوتار مشدودة بينهما.. منذ الأزل! لا مجال إلى أن يمازحها بهذا الصّدد.

«ياسمين، هل تتزوجينني؟».

أعادت قراءة الكلمات القليلة. لم يكن لها معانٍ كثيرة. ومع أن الطريقة لم تكن تشبه في شيء الصورة التي رسمتها في خيالها لطلبات الزّواج المثاليّة، لكن للكلمات وقعها. رجل يطلب من امرأة أن تربط بقية حياتها

بـه. ببسـاطة. هـذا مـا كانـت عليـه.

عـادت أفكارهـا إلى ذلـك الوجـه المألـوف الـذي وضعـت عليـه اسـمًا غريبًـا منـذ فـترة وجـيزة. إلى ذلـك المحتجـز في غياهـب السـجون. في أحلامهـا العميقـة كانـت تـراه ينحـني أمامهـا في عربـة المـترو عـلى ركبـة واحـدة ويرفـع إليهـا باقـة حمـراء ويهمـس بتلـك الكلمـات السـاحرة:

- ياسمين، هل تتزوّجينني؟

في عربـة المـترو؟ نعـم! جـلّ مـا كان يجمعهمـا هـو عربـة المـترو والكتـب، فـإن تخيلتـه في مـكان غـير عربـة المـترو فسـيكون ذلـك حتمًـا في مكتبـة. يبـدو المشـهد مختلفًـا عـن طلبـات الـزواج الرومانسـية الكلاسـيكية الـتي تكـون حديقـة الأسـماك أو نافـورة موسـيقية مسرحًـا لهـا. تلـك الأحـلام تبـدو سـاحقة البعـد الآن. حـتى أنّهـا لـم تفكـر فيـه بتلـك الطريقـة منـذ زمـن. تـدرك بـشيء مـن العجـب أنّـه لـم يحتـلّ سـوى جـزء ضئيـل مـن تفكيرهـا في الأسـابيع الماضيـة. بشـكل مـا لـم تنتبـه إليـه في حينـه، أصبحـت ذكـراه جـزءًا مـن المـاضي. نـوع مـن الذّكريـات البعيـدة الـتي تبعـث عـلى الابتسـام والحنـين. أمـا اهتمامهـا بقضيتـه فهـو يشـبه الاهتمـام بأمـر صديـق قديـم واقـع في محنـة.

كانـت قـد تسـاءلت مـرّة وهـي تتحـدّث إلى رنيـم إن كانـت سـترفض يومًـا خاطبًـا مـا لأنهـا تنتظـر فارسًـا مجهـولاً اختفـى فجـأة كمـا ظهـر؟ لكـن اليـوم، الفـارس لـم يعـد مجهـولاً. كمـا أنـه لـم يعـد قـادراً عـلى الاختفـاء. أصبـح بإمكانهـا تتبـع أخبـاره مـتى شـاءت. مـا الـذي اختلـف إذن؟ هـي.. لـم تعـد تنتظـره. ليـس للأمـر علاقـة بمحنتـه وقضيّتـه الـتي قـد تطـول، وصحّتـه الـتي ستسـتهلك وقتًـا وجهـدًا حـتى تتماثـل لشـفاء تـام. لا. مشـاعرها تجاهـه بليـت وتلاشـت مـن قبـل ذلـك بزمـن.

عـادت بأفكارهـا إلى الرّسـالة، وإلى مرسـلها. هيثـم؟ تـتزوّج هيثـم؟ حسـن، مـا الـذي يعيبـه؟ شـابّ مـؤدّب وذو عقـل راجـح، وسـيم، يحجـب الشـمس بطولـه، مهنـدس ووظيفتـه ممتـازة، أمّـه صديقـة والدتهـا وأختـه صديقتهـا المقرّبـة، عائلتـه تحبهّـا وترحّـب بهـا، وعائلتهـا كذلـك. كمـا أنّـه هـذه المـرّة يطلبهـا بنفسـه. كأنّـه يريـد تأكيـد اختيـاره الحـرّ. مـا الـذي يضايقهـا هـذه المـرّة؟

لـورا؟ عـاد وجـه لـورا ليطفـو عـلى السّـطح. هـل يمكنهـا أن تتجاهـل وجودهـا؟ كانـت حـاضرة طـوال الوقـت. منـذ عرفـت هيثـم، عرفـت أن هنـاك

لورا في حياته. وجودها لفترة طويلة في قلب قصّته الغراميّة مع لورا كان يزعجها بشكل لا يطاق. ألم يكن يختلي بلورا في جلسات حميميّة في المطاعم والأماكن العامّة؟ ألم يكن يحادثها على الهاتف بشكل مستمرّ وربّما يسترسل الغزل بينهما؟ ربما كانت نيّته طيّبة. ربّما وجد لنفسه الأعذار حينها. لكنّها في تلك الآونة لم تجد له عذرًا واحدًا. هل يمكنها الارتباط برجل تعرف عنه كل هذا؟

هل تظلمه؟ هل تكون مجحفة في حقه إن حمّلته وزر تلك العلاقة وحده؟ ألم تكن لورا تطارده وتضيّق عليه ليكون معها في كل وقت؟ لكنّها الآن لا ترى إلا نصيبه من الخطأ. لم تشفع له مواقفه الشهمة معها. كان رجلا بحقّ حين احتاجت إلى من يخرجها من أزمتها. مهلاً! قفزت إلى ذاكرتها كلمات لورا في لقائهما الأخير. «إنّه مولع بنجدة الفتيات الواقعات في مأزق. هل تراه وجد فتاة أخرى يائسة استحوذت على انتباهه؟». تصاعدت الدّماء إلى رأسها. فجأة رأت نفسها هي تلك الفتاة اليائسة. التفت إليها لأنها وحيدة وغريبة ومنهارة؟ لكنّها لم تعد كذلك. إنّها أكثر قوّة ممّا يظنّ! هل يعتقد أنّها في حاجة مستمرّة إلى المراقبة والمواساة؟ هل وجد فيها ضالة تشبع غريزته بتقديم الحماية والتّوجيه، كما فعل مع لورا؟ أظلمت الدنيا في عينيها وتحوّل تردّدها إلى غضب عارم. ذلك المغرور. من يظنّ نفسه؟ في حركة متسرّعة أمسكت بهاتفها وضغطت على الأزرار في عصبيّة:

«آسفة. طلبك مرفوض».

ثمّ «إرسال». حين استلقت على سريرها لم يكن غضبها قد هدأ، لكنّها شعرت بكآبة غريبة. هل كانت ردّة فعلها طفوليّة متهوّرة؟ ربّما كان الأجدر بها أن تعطي لنفسها مهلة للتفكير، فيبدو قرارها متروّيًا وجدّيًّا. أمّا ردّها السّريع المستعجل فقد يحسبه مجرّد اندفاع وردّ اعتبار بعد أن رفضها منذ شهور. ولم يخب ظنّها، إذ وردت إليها رسالة جديدة بعد ثوانٍ قليلة.

«حسن، صفّينا الحسابات القديمة. والآن، هل يمكنك التفكير في طلبي بجدّيّة؟».

زمجرت في غيظ وهي تلقي بالهاتف بعيدًا عنها بحركة عصبيّة. سيطرت على نفسها بصعوبة وكتمت غيظها. لن تتسرع بالرّدّ مجدّدًا. ستضع أعصابها في ثلاجة وتحاول النّوم الآن. يجب أن تفعل. لكنّها ستحاول طويلاً

obeikandi.com

قبـل أن تنجـح في إطفـاء اللهيـب المسـتعر داخلهـا، وتغالـب النّعـاس فتغلبـه، قبـل الفجـر بقليـل.

*****

لـم يسـتطع عمـر النّـوم تلـك الليلـة. في الغـد سـتكون الجلسـة الأخـيرة. طـوال الأسـابيع والشـهور الماضيـة الـتي قضاهـا في غرفـة المستشـفى المريحـة نسـبيًّا ثـمّ في زنزانـة السّـجن الضّيّقـة العفنـة، كان يتسـاءل كلّ يـوم إن كان يعيـش كابوسًـا مزعجًـا. لكنّـه كان يسـتيقظ في اليـوم المـوالي ليجـد أنّ الكابـوس مـا يـزال مسـتمرًّا. كابـوس هجـر عالـم الأحـلام وسـكن واقعـه حـتى طغـى عليـه. هـل يسـتيقظ في الغـد ليجـد أن الكابـوس قـد انتهـى بشـكل قاطـع وكليّ هـذه المـرّة؟

أراح جبينـه عـلى ركبتيـه وهـو مغمـض العينـين في ظلمـة الزنزانـة الرّهيبـة. مـا الـذي سـيحصل يـوم غـد؟ سـيقف أمـام تسـعة أشـخاص غربـاء، ألـف وجوههـم وحفظهـا خـلال الشـهور المنصرمـة. لـم يتبـادل كلمـة واحـدة مـع أحدهـم يومًـا. سيجلسـون بسحناتهم المغلقـة الصّارمـة ويقـرّرون مصـيره بـكلّ بـرود، ثـمّ يعـود كلّ منهـم إلى حياتـه الماضيـة، كأنّ شـيئًا لـم يكـن. لـن يتغـيّر شيء في حيـاة أحدهـم بعـد ذلـك. ربّمـا يتذكـرون في المسـتقبل تلـك القضيـة بابتسـامة أو إيمـاءة. ربّمـا يصفونهـا بالمسـتعصية أو المرهقـة، وربّمـا يفتخـر بعضهـم لأنّـه كان جـزءًا مـن حلهـا. لكـن عليـه هـو وحـده سـتعود تبعاتهـا. إمّـا حيـاة كريمـة وبـراءة ترفـع الـرأس، وإمّـا مـوت بطـيء في غياهـب السـجون. اقشـعر جسـده لتلـك الفكـرة. قـاوم فـورة الاستسـلام الـتي أرادت أن تتمكـن منـه. سيظلّ ثابتًـا. سـيكون قويًّـا. هـذا مـا يجـب أن يكـون عليـه. ظاهريّـاً عـلى الأقـلّ.

حـين اسـتيقظ عـلى فـراش المستشـفى منـذ شـهور وجسـده مشـلول الحركـة مشـدود الأطـراف ملفـوف في البيـاض، تسـاءل في عجـز عـن الحكمـة الإلهيـة ممّـا يحصـل معـه. لأنّـه واثـق مـن وجـود حكمـة مـا، وإن اسـتعصى عليـه إدراكهـا في حينهـا. سـواء كانـت ابتـلاء يـرقى بـه إلى مرتبـة أعـلى، أو اختبـارًا يضـع قـوّة إيمانـه عـلى المحـك، أو فرصـة أخـيرة للتّوبـة والتّكفـير عـن ذنـوب ماضيـة..

عاهـد نفسـه عـلى أن ينجـح، في الصـبر عـلى الابتـلاء أو اجتيـاز الاختبـار أو اغتنـام الفرصـة.

ومـع ذلـك فقـد مـرّت بـه أوقـات بـردت فيهـا عزيمتـه وفـتر تصميمـه. ولـولا وجودهـا إلى جانبـه، لـكان اليـأس تمكّـن منـه. رنيـم. اقتحمـت عالمـه عنـوة وفرضـت نفسـها. وجـد صعوبـة في تقبّلهـا، ثـم سـلّم مقاليـد أمـره إليهـا، وانتهـى بـه المطـاف إلى عـدم الاسـتغناء عنهـا. لكنّهـا يومًـا مـا سـتغادر حياتـه كمـا دخلتهـا، حـين ينتهـي دورهـا. وربمـا كان ذلـك اليـوم هـو يـوم غـد. ولـن يكـون الأمـر سـهلاً. رغـم عظـم مصابـه إلا أنّ قلبـه لـم يغفـل عـن التيّـارات الغريبـة الـتي تمـلأ الجـو في حضورهـا. روحهـا المشـعّة تركـت بصمـة داخلـه سـيجد صعوبـة في محوهـا. لكنّـه لـم يحـاول أن يخـدع نفسـه قـط. يعلـم أنّهـا لـن تكـون جـزءًا مـن مسـتقبله. كلا، سـتصنع مسـتقبله حتمًـا بدورهـا في قضيتـه. لكنّهـا سـتتوقّف عنـد ذلـك الحـدّ. لـن تجتـاز معـه ذلـك الخـط الأحمـر.

ليـس الرّجـل المناسـب لهـا. حـتّى بعـد أن ينتهـي كلّ شيء ويسـتعيد حرّيتـه، سـيكون مدمّـرًا. سـيبدأ حياتـه مـن الصفـر. بـدون عمـل أو مـورد رزق، بجسـد مشـوّه وذاكـرة مليئـة بالنّـدوب. فرانكشـتاين آخـر. همـا مثـل الجميلـة والوحـش. لكـنّ عاطفتهـا وحدهـا لـن تكفـي لـدرء بشـاعته وإعادتـه بلمسـة سـحريّة إلى وسـامته القديمـة. سـيتطلب وقتًـا مهـولاً حـتى يقـف عـلى قدميـه ويعيـد التـوازن إلى أركانـه المتصدّعـة.

وهـي ليسـت المـرأة المناسـبة لـه. ربّمـا تقـع في مرتبـة وسـطى، بـين كارولـين وفتـاة المـترو. لكنّهـا حتمًـا مرتبـة «دون المطلـوب». منـذ عرفهـا، كان مـن حـين إلى آخـر يقـول في نفسـه: «كـم سـيكون ذلـك رائعًـا لـو تلـتزم رنيـم!». لـم يكـن يقصـد الالـتزام الأخـلاقي أو الإنسـاني، فهـي لطالمـا أدهشـته بحسّـها الـرّاقي وحماسـتها للقضايـا العادلـة. لكـنّ مـا يطلبـه هـو الالـتزام في بعـده الدّيـني. ليتهـا تقـترب أكـثر مـن صـورة فتـاة أحلامـه. وكان يـدرك كلّمـا راوده ذلـك الخاطـر أنّـه لا يريدهـا كمـا هـي، بـل يتمـنّى أن تطـرأ عـلى شـخصيّتها تغيـيرات توافـق هـواه. وكان يعلـم كـم أنّ ذلـك خطـر! في الطّبيعـة، وفي العلاقـات الإنسـانيّة خاصّـة، مـن الخطـر محاولـة تغيـير الآخريـن. ذلـك يسـمّى «الحـبّ المشـروط»، وهـو يـؤذي صاحبـه قبـل أن يـؤذي مـن يحـبّ. كانـت لتناسـبه لـو أنّهـا التزمـت. لكـن تلـك الــ «لـو» الشرطيّـة كانـت مكمـن الخطـأ. وكان عليـه أن يعـرض عـن

تلك المشاعر في وقت مبكر.

ابتسم في مرارة. انتبه إلى أنه يشغل نفسه بأعراض جانبيّة ليتناسى حركة عقارب الدّقائق والسّاعات التي تتحرّك في رأسه بنمط غير اعتيادي. لا معنى لكلّ ما يفكر فيه إن لم تشرق وجوه المحلفين وهم يغادرون قاعة المداولات، وإن لم ينطق القاضي بالكلمة السّحريّة «براءة». في تلك الآونة، لم يكن في حاجة إلى التفكير أو تجزية الوقت. كان يحتاج نشاطًا آخر هو كلّ ما تبقى بين يديه من أسلحة، وربما كان أكثرها فتكًا في عتمة الليل المبهمة.

الدّعاء.

Obeikandl.com

-٣٩-

الجولة الأخيرة

- لازلتِ في السرير؟ ألا تأتين؟

كانت رنيم من اقتحم غرفتها في صخب لتطرد النوم عن جفونها. دعكت عينيها في تعب وهمست بصوت خافت مثقل بالنّعاس:

- آه، لم أنم جيّدًا البارحة.. لا أظنّني قادرة على النّهوض الآن.

تردّدت رنيم للحظات. لا تريد أن تكون لحوحة في دعوتها. لم تدعها من قبل لمرافقتها فلماذا تصرّ اليوم بشكل قد يثير شكوكها؟ مطت شفتيها قبل أن تدير كعبيها في اتجاه الباب وتقول بهدوء:

- طيّب. أنا ذاهبة. استريحي.

تابعتها ياسمين بعينين ناعستين ثمّ تنهدت وقد اختفت كل رغبة لديها في النوم. لن تذهب إلى قاعة المحكمة، لكنّها ستظل مشغولة البال طوال النهار. ستتخيّل ما يحصل هناك كل حين وتنتظر عودة رنيم بصبر نافد. لكنّ النهار سيكون أطول، على عمر.. وعلى رنيم أيضًا. دعت لهما بالتّوفيق وهي تزيح اللحاف وتضع قدميها على الأرض. وقعت عيناها على الهاتف المستقرّ على أرضية الغرفة قرب الحائط فعقدت حاجبيها في شك. انحنت تلتقطه وتعاين الأضرار التي لحقته من زوبعة غضب عبرت فضاء الغرفة منذ زمن غير بعيد. عدا بعض الكدمات السّطحية، لم يبد أن عاهة باطنيّة قد ألمّت به. فتحت قائمة الرسائل لتتأكد. حالما تراءت أمامها الرّسالتان الواردتان الأخيرتان زفرت في استياء. لم يكن حلمًا! عليها أن تواجه ذلك الواقع حين تلتقي ميساء وخالتها زهور. تساءلت في قلق عما ينتظرها منهما عندما يبلغهما رفضها. كان الله في عونك يا ياسمين على هذا اليوم الطويل!

*****

openkang.com

لغـط كثـير يمـلأ فضـاء قاعـة المحكمـة. تنبّـؤات. توقّعـات. ملاحظـات متفرّقـة. الـكل يـدلي بدلـوه والـكلّ يجـزم بـأنّ الحقيقـة بحوزتـه دون غـيره. علامـات التـوجّس والقلـق ظهـرت عـلى وجـوه قليلـة. معظـم الحاضريـن لا يهمّهـم المتّهـم ولا يعبـؤون بشركـة الكيميائيّـات. مجـرّد متفرّجـين عـلى عـرض شيّق يبهـر الأنفـاس. وقـد اقـترب مشـهد النّهايـة. لذلـك احتشـدت كل تلـك الجمـوع الـتي تخشى أن تفـوّت عـلى نفسـها المتعـة العظمـى بعـد أن تابعـت في اهتمـام وترقّـب مختلـف الفصـول السّـابقة.

أعلـن الحاجـب عـن دخـول القـاضي ومستشـاريه فانقطـع الصّـوت فجـأة وبـترت الكلمـات عـلى الشـفاه. سـكون عميـق سـبق تـلاوة القـاضي للائحـة الاتهـام وإعلانـه ابتـداء الجلسـة. وقـف المدّعـي العـام أوّلاً. كانـت مرافعتـه خفيفـة لطيفـة لـم تتجـاوز الدّقائـق الخمـس وهـي في عُـرف المرافعـات تعتـبر قصيرة مختزلـة. لـم يكـن هنـاك الكثير ليقولـه. التّهـم واضحـة والذّنـب جـليّ. - «جميعنـا هنـا نـدرك جيـدًا تـورّط المتّهـم في التّهـم سـالفة الذكـر»، وكأنّ الرجـل يسـتبق الحكـم ويقـرّ بأشـياء مازالـت في علـم الغيـب.

بعدهـا تهيّـأ جـورج لاسـتلام دوره، لكـنّ رنيـم شـدّته مـن ذراعـه فجـأة وهمسـت في تصميـم:

- دعني أفعل.
- هل أنت واثقة؟

وكيـف لا تكـون واثقـة؟ لقـد سـاهمت في إعـداد جميـع بنـود المرافعـة وحفظتهـا عـن ظهـر قلـب. رغـم ابتعادهـا الجسـديّ عـن المكتـب وقاعـة المحكمـة لكـنّ أفكارهـا كانـت تحـوم حـول القضيّـة باسـتمرار. لذلـك فهـي عـلى أتـمّ الاسـتعداد لترافـع. سـتلوم نفسـها بقيّـة عمرهـا إن لـم تفعـل. مـن يمكنـه الدّفـاع عـن عمـر أفضـل منهـا؟ مـن يؤمـن ببراءتـه أكـثر منهـا؟ تعلـم أنّهـا قـادرة عـلى ترجمـة طاقتهـا إلى كلمـات توصـل المعـنى إلى قلـوب المحلفـين. أو هـذا مـا كانـت ترجـوه.

تقدّمـت بخطـى واثقـة. توسّـطت القاعـة وواجهـت بنظراتهـا منصّـة المحلفين. ثـمّ انطلقـت. طفقـت تتحدّث لسـاعة كاملـة. عادت لتشريـح كل الأدلـة وتفصيل كل الشـهادات لتقـف عـلى مواطـن الضّعـف فيهـا وتبـدّد تأثـير كلمـات المدّعـي

openkandil.com

العـام القاطعـة. راقبـت تأثـير عملهـا عـلى وجـوه المحلفـين. لـم تكـن تحتـاج إلى أكـثر مـن الشـك. يكفـي أن يشـك أحدهـم أو بعضهـم في صحّـة الاتهامـات فيؤثـر في الآخريـن. الشـك معدٍ.

تذكـر ذلـك الشريـط القديـم الـذي طالمـا كان مصـدر إلهـام لهـا. «اثنـا عـشر رجـلاً غاضبًـا» *. اثنـا عـشر محلفًـا يدخلـون قاعـة المـداولات وهـم مقتنعـون بمسـئولية المتّهـم الشّـابّ الكاملـة في جريمـة قتـل والـده. واحـد منهـم فقـط كان «يشـك». ومـع اسـتمرار الجـدال تـسرّب شـكه إلى الأحـد عـشر الآخريـن. مـع كل تصويـت جديـد كان عـدد «أصحـاب الشـكوك» يرتفـع. وتـوالى اسـتخراج الثغـرات في حجـج الاتّهـام ليعلنـوا بعـد سـاعات المداولـة الطويلـة قرارهـم المعجـزة: «غـير مذنـب». لـم تكـن الأدلـة كافيـة لإنـزال العقوبـة القصـوى بالمتّهم .هـذا مـا يلزمهـا الآن. معجـزة مماثلـة.

- شكرًا لاستماعكم.

حـين عـادت إلى مكانهـا كانـت تلهـث. صافحهـا جـورج في حـرارة والبهجـة تطـل مـن عينيه:

- كنت مذهلة يا صغيرتي!

- أحتاج إلى شراب منعش.

كان ذلـك مـا قالتـه وهـي تسـبقه إلى خـارج القاعـة. حلقهـا الجـافّ يشـتعل نـارًا ويطلـب شـيئًا بـاردًا ليطفـئ لهيـب جوفهـا. لقـد انتهـى كل شيء. لـم يعـد أمامهـا مـا تفعلـه سـوى الانتظـار. هـل كانـت راضيـة عـن أدائهـا؟ لـن تـرضى حـتى تسـمع الحكـم الشـافي بأذنيهـا.

كانت تنهي كأس العصير الثانية حين هتف جورج في تجهم:

- لقد عاد المحلفون.

أعـادت الـكأس ببـطء إلى مائـدة الكافيتيريـا وهـي تشـعر بـبرودة مفاجئـة تجتـاح جسـدها. عـادوا بهـذه السرعـة؟! كان ذلـك يعـني أحـد أمريـن: بـراءة واضحـة أو إذنـاب واضـح. لـم يكـن هنـاك شـك مماثـل لذلـك الـذي ظهـر في شريطهـا المفضـل. تحتـاج إلى معجـزة أكـبر إذن.

---

*Angry Men ١٢: شريـط درامـي أمريـكي عـرض سـنة ١٩٥٧، تـدور كل أحداثـه تقريبـا في قاعـة تـداول المحلفين.

في قاعـة المحكمـة عـمّ الارتبـاك في صفـوف الحاضريـن. المـداولات المختصرة كانـت مصـدر تأويـلات متضاربـة. حـين دخـل المحلفـون متتابعـين بوجوههـم المغلقـة الـتي لا تفتـح بابًـا لقـراءة الأفـكار عـادت الأنفـاس لتنحبـس مـن جديـد. للحظـات، لـم يكـن يسـمع في فضـاء القاعـة غـير حفيـف الـورق. ذلـك الظـرف المغلـق الـذي يحمـل مصـير الرّجـل الشـاحب كان يتنقـل بـين الأيـدي، مـن ممثـل المحلفـين إلى الحاجـب ليسـتقرّ بـين كفـي القـاضي.

فتحـه ببـطء وطالـع القصاصـة الوحيـدة في جوفـه بنظـرات محترفـة فارغـة مـن أيّ انفعـال. اسـتدار يمينًـا ثـم يسـارًا عارضًـا القصاصـة عـلى مستشـاريه الذيـن اكتفيـا بهـزّة رأس تحمـل مـن المعـاني مـا تحمـل. حـين وضـع نظاراتـه الطبيـة عـن أنفـه وواجـه النّظـرات المتوتّـرة في القاعـة كانـت قـدرة رنيـم عـلى التحمّـل قـد وصلـت إلى أدنى مسـتوياتها.

- بخصوص تهمة سرقة الأبحاث، ماهو حكم المحلّفين؟

- غير مذنب.

شـدّت قبضـة رنيـم عـلى سـترة جـورج في انفعـال وقـد أنعشـها الأمـل. لقـد كان أداء البروفيسـور كلـود مقنعًـا في نهايـة الأمـر. أنصتـت إلى القـاضي الـذي تابـع اسـتعراض التّهـم:

- تهمة الانخراط في تنظيم إرهابيّ؟

- غير مذنب.

ممتـاز. تبرئـة نـادر قـادت إلى تبديـد التّهمـة. انحبسـت الأنفـاس في انتظـار التّهمـة الأخـيرة.

- تهمة تنفيذ تفجير إرهابيّ؟

- مذنب.

دوّت الكلمـة في الجـوّ مثـل القنبلـة. تجمّـدت عينـا عمـر في الفـراغ ولـم ينطـق بكلمـة. ألـم يـئن لهـذا الكابـوس أن ينتهـي؟ إلى مـتى يسـتمر هـذا الابتـلاء؟ كان الحكـم أقـوى مـن أن يتحمّلـه في جلـد. أحـسّ بـالأرض تميـد تحـت قدميـه وأعـين كل الحاضريـن بالقاعـة موجهـة نحـوه بعـد أن كانـت معلقـة بالقـاضي، ترصّـد كل حركـة أو ردّة فعـل تبـدر عنـه. لا يمكنـه أن يمنحهـم المشـهد الـذي ينتظرونـه ويطمعـون فيـه. لـن يـروه منكسـرًا مذبوحًـا. رغـم تنفسـه المضطـرب والفـوضى الـتي تعـمّ حواسّـه والـدّوار الـذي يعصـف برأسـه، حـاول رسـم قنـاع

obeikandl.com

الثقـة عـلى وجهـه. لا بـد أن هنـاك مخرجًـا مـا. لا بـد أن الله سـيهيئ لـه أمـرًا. لـن يسـتمرّ هـذا الظلـم إلى الأبـد. فلتكـن ثقتـه بـالله كبـيرة. تـوكل عـلى الله فهـو حسـبك.

أخفـت رنيـم فمهـا بكفهـا في صدمـة وترقرقـت عـبرات حـارّة عـلى وجنتيهـا في صمـت. في حـين انحـنى جـورج نحـو عمـر وهـو يغمغـم في اضطـراب:

- سنستأنف. لا تقلق. سنستأنف.

في تلـك اللحظـة، دوّت صرخـة عاليـة في آخـر القاعـة متزامنـة مـع تهـاوي جسـد كارولـين عـلى الأرض. تسرّبـت همهمـات مرتبكـة مـن أشـخاص مجهولـين سـارعوا بإحضـار بعـض المـاء.

- «لقد فقدت الوعي».
- «المسكينة لم تتحمّل الصّدمة».
- «لا شك أنّها مقرّبة من المتّهم».

****

لـم يسـتطع هيثـم التركـيز في عملـه وهـو يجلـس خلـف الحاسـوب طـوال الفـترة الصّباحيّـة. كانـت أفـكار مضطربـة تنهـش خلايـا دماغـه دون توقـف وتبعـث أزيـزًا متّصـلاً يشـغله عـن كل عمـل يسـتوجب حضـورًا ذهنيًّـا، أي عـن كل عمـل يمكنـه إنجـازه في مكتبـه. غـادر القاعـة الـتي أصبـح هواؤهـا خانقًـا بشـكل مفاجـئ وأخـذ يـذرع مسـاحة غرفـة الاسـتراحة الضيّقـة بخطـوات مرتبكـة.

مـاذا الآن؟ هـا قـد نفـذ مـا برأسـه وتقـدّم إليهـا. فعـل ذلـك دون أن ينـبئ أحـدًا، مـع أن والدتـه وميسـاء كانتـا لتطـيرا فرحًـا لـو أخطرهمـا بمـا اعـتزم عليـه. لكنّـه اختـار التحـرّك خلسـة. اغتنـم فرصـة غيابهـا عـن البيـت. مغادرتهـا المفاجئـة ألهمتـه بعـض الشـجاعة. لـم يكـن بوسـعه محادثتهـا وهـي داخـل جـدران بيتـه وبـين أفـراد عائلتـه. لـم تكـن لتتصرّف عـلى سجيّتها وهـو قريـب. وهـو لـم يكـن ليتحمّـل رؤيتهـا في الصبـاح المـوالي تتنـاول فطورهـا عـلى بعـد أمتـار منـه وهـو يتعـرّق حرجًـا، ولا أحـد حولهمـا يـدري بأمـر الرّسـائل الـتي تبادلاهـا في هـدأة الليـل.

ومـع ذلـك فهـي لـم تتأخـر في الـرّدّ. فاجأتـه. صدمتـه. لكنّـه فضّـل التقليـل

obeikandl.com

مـن أمـر ردّهـا المتسـرّع ورجّـح كفّـة الثـأر للكرامـة والعنـاد. آثـر أن يمنـح نفسـه بعـض الأمـل، وأن يمنحهـا فرصـة تفكيـر أطـول وأعمـق. فربّمـا تغـيّر رأيهـا. هـل تفعـل؟ غادرتـه ثقـة الأمـس الـتي ألهمتـه الرّسـالة الثانيـة. تناقـص مسـتواها تدريجيًّـا، كأنّ قطراتهـا تسـرّبـت ببـطء مـن كيـس مثقـوب. مـاذا لـو كانـت لا تريـده أساسًـا؟ ومـاذا لـو كان هنـاك شـخص آخـر في حياتهـا؟ مـاذا لـو... مـاذا لـو... عـلى امتـداد السـاعات الـتي اسـتهلكها الفطـور والجلـوس في المكتـب والحركـة اللاشـعوريّة بـين مختلـف غـرف القسـم، اسـتمرّت التسـاؤلات القائمـة في الإلحـاح عليـه.

عـاد بخـط الزّمـن إلى الـوراء وتوقـف مـرارًا أمـام كل حـادث وكل موقـف جمعـه بهـا عـلى امتـداد الشـهور الماضيـة، وحـاول تقييـم النظـرة الـتي قـد يولدهـا كل موقـف لديهـا عنـه. لأوّل مـرّة، راوده بعـض النـدم لأنّـه جعلهـا تتعـرّف إلى لـورا. نـدم غـير منطقـيّ، لأنّـه لـولا وجـود لـورا في حياتـه –سـابقًا– لمـا انبثقـت الفرصـة ليتعـرّف أكـثر عـلى ياسـمين! يذهلـه الارتبـاط الوثيـق بـين التجربتـين عـلى اختلافهمـا. لـورا كانـت فـورة شـهامة. وربّمـا بـوادر ضعـف أمـام شـقراء جذابـة. هـل كان يخـدع نفسـه حـين فكـر في الاقـتران بهـا؟ الآن يعلـم أنّـه لـم يكـن صادقًـا مـع نفسـه بشـكل كافٍ. أمـا ياسـمين، فكيـف يصفهـا؟ بشـكل لا يدركـه، كانـت مـرآة عاكسـة جعلتـه يواجـه حقيقتـه للمـرّة الأولى. مخاوفهـا وتحدّياتهـا، لحظـات ضعفهـا وتمرّدهـا، ومبادئهـا الـتي تتشـبّث بهـا ورؤيتهـا الآخـذة في الاتّضـاح.. كلهـا كانـت تخاطبـه بشـكل مبـاشر، حـتى أحـسّ يومًـا برغبـة مفاجئـة بالمـضيّ إلى جوارهـا عـلى نفـس الطريـق.

فكـر فجـأة في الاتصـال بميسـاء. الفتاتـان تبـدوان مقرّبتـين مؤخـرًا. لا يمـرّ يـوم واحـد دون أن تتّصـل إحداهمـا بالأخـرى. إن كانـت ياسـمين قـد تحدّثـت إلى ميسـاء بمـا جـرى ليلـة أمـس، فسـيظهر ذلـك في صوتهـا. ضغـط عـلى زرّ الاتصال،ولـم ينتظـر كثـيرا قبـل أن يجيئـه ردّ ميسـاء مسـتعجلاً:

- هيثم، هلا اتصلت لاحقًا؟

ارتبك. لم يكن ذلك الجواب المتوقع. سألها في ضيق:

- أنت مشغولة؟

- ياسمين على الخط الآخر، وهي لا تبدو في حالة جيّدة.

ازدرد ريقه الذي جفّ على حين غرّة وتساءل بصوت مبحوح:

- هل هي بخير؟

- لم أفهم منها بشكل جيد. لم تتوقف عن البكاء. سأحاول أن أتحدّث إليها ثم أعود إليك.

هتف بسرعة:

- لا تغلقي الخط. سأكون في انتظارك حالما تنهين اتصالك معها.

- حسن.

زفرت ميساء قبل أن تضغط على الزرّ لتعود إلى المكالمة الأولى. وصلتها شهقات ياسمين ضعيفة متقطعة معلنة انتهاء نوبة البكاء السّابقة. قالت في هدوء متودّد:

- والآن هلا أخبرتني، ما الذي يبكيك؟

أخذت ياسمين نفسًا عميقًا لتسيطر على ارتعاش صوتها. تحاول أن تتمالك نفسها. لكنّ الصّور التي تملأ رأسها وتأبى أن تفارق عينيها كانت تدفعها دفعًا إلى الاسترسال في البكاء. كانت تنتظر اتصالاً تأخر وصوله من رنيم، كأنّ الجلسة تمدّدت بقدر غير متوقع. فتحت التليفزيون محاولة الانشغال عن ضيقها وضجرها بتسلية خفيفة. أخذت تتنقل بين القنوات دون تركيز، لكنّ أصابعها تجمدت على جهاز التّحكم حين ظهر أمام عينيها ذلك المشهد المفجع. حدّقت في الشاشة في ذهول لتميّز ملامحه المتصلبة وومضات آلات التصوير المحتشدة تضيئه بقسوة ليظهر جانب وجهه المشوّه عاريًا بدون حماية. كان مقيّد المعصمين، مشدود الذراعين، وحراسة لصيقة تحيطه وتمنع التحامه بكوكبة الصحفيين التي كانت في انتظاره خارج قاعة المحكمة. هل انتهى كل شيء؟ لم يظهر وجهه في وسائل الإعلام من قبل. لا يظهر وجه المتّهم للجماهير العريضة قبل أن يتمّ الحكم في قضيته. لكنّ ما رأته أضاف طبقة أخرى إلى مخاوفها. إذا كان بريئًا، فلماذا القيود؟

حين انتهى مفعول الصّدمة الأولى، حاولت قراءة العبارات التي كانت تظهر تباعًا أسفل الشاشة تعليقًا على المشهد الذي يُبثّ مباشرة. وهنا كانت الصّاعقة الكبرى: «الحكم بالسجن عشرين عامًا على المتهم في قضية التفجير الإرهابي بشركة الكيميائيات بليون». أفلت جهاز التحكم من يدها وتناثرت العبرات على وجنتيها. أحسّت بحمم تتدفق داخلها في فوران محتدم. صور ضبابية كثيرة تحجب رؤيتها. ساقان تتدليان من السقف.

أصابـع اتهـام تشـير إليهـا في سـخرية وأبـواب تغلـق في وجههـا بصفاقـة. «لا للحجـاب».. «المـوت للمسـلمين».. «الإرهابيّـة». لافتـات صامتـة مشـفرة تفـك رموزهـا وحدهـا عـلى الوجـوه الـتي تحاصرهـا مـن كل جانـب حـتى تقطعـت أنفاسـها في فضـاء حرّيتهـا المخـتزل. أغمضـت عينيهـا بقـوّة في حـين أخـذ جسـدها في الاهـتزاز في نشـيج مرتفـع. انحـدرت فجـأة إلى حيـث كانـت منـذ أسـبوعين. ضعيفـة، كئيبـة، مستسـلمة. ليسـت تبـكي مـن أجـل عمـر وحـده. تبـكي نفسـها. تبـكي خوفهـا مـن مسـتقبل مجهـول بدايـة طريقـه مظلمـة. لا مـكان لأمثالهـا في هـذه البـلاد العنصريّـة الظالمـة!

لـم تـدر كـم مـضى عليهـا مـن الوقـت وهـي تحـدّق في الفـراغ والدّمـوع تفـرّ مـن عينيهـا فـرارًا في نسـق متسـارع، حـتى أيقظهـا اتصـال ميسـاء.

- حكموا عليه بالسجن عشرين عامًا.. لكنّه بريء! أنا أعلم أنّه بريء!

- عمّن تتحدثين؟ من الذي سجن؟

- إنّـه شـاب عرفتـه في ليـون.. إنسـان هـادئ ومسـتقيم.. لا يمكـن أن يكـون إرهابيًّـا! لكنّهـم ألصقـوا التّهمـة بـه لأنـه مسـلم.. ألا يكفيـه مـا أصابـه؟ لقـد تـأذى كثـيرًا في الانفجـار.. ويريـدون لـه أن يقـضي بقيّـة حياتـه وراء القضبـان؟ هـذا ظلـم! والله ظلـم!

لـم يكـن هنـاك الكثـير ليقـال. إنّـه ظلـم جـارف لا يملـك أحـد أمامـه شـيئًا. أنهـت ميسـاء الاتّصـال ثـمّ تذكـرت هيثـم الـذي كان ينتظرهـا بصـبر نافـد عـلى الخـط الثـاني. دون مقدّمـات، اندفعـت تحدّثـه عـن ذلـك الشّـابّ الـتي تبـكي مـن أجلـه ياسـمين. تدفّقـت الكلمـات مـن شـفتيها بغـزارة وتأثـر. نقلـت إليـه القصّـة كمـا سـمعتها منـذ حـين مـع بعـض الإضافـات الدّراميّـة الـتي جعلتهـا أشـبه بمسلسـل عـربيّ تعيـس، يمـوت البطـل في نهايتـه. لـم تكـن تـدري بالأثـر الـذي تتركـه قصّتهـا في نفـس أخيهـا الـذي اسـتمع في صمـت مطبـق، قبـل أن يقـول بصـوت جـافّ خـالٍ مـن التّعابـير:

- طيّب.

ثم يغلق الخط دون كلمة إضافيّة.

*****

دخلت رنيم مكتبها الذي هجرته منذ أسابيع بخطوات مرتبكة كئيبة. كانت مشوّشة التّفكير. لا تدري ما عليها فعله. ألقت بنفسها على المقعد الوثير في استسلام، ثمّ عادت لتعتدل في جلستها زاجرة نفسها. ليس وقت الاستسلام. فتحت الملفات ونشرت الأوراق فوق المكتب في اضطراب. لا تدري من أين تبدأ. لكنّها يجب أن تبدأ. الوقت ضيّق جدًّا. يجب عليها أن ترحل إلى مصر في الغد. حين وعدت والدها بذلك كانت تظنّ القضية منتهية. كانت موقنة بنجاحها. كان الأمل متفوّقًا في نفسها على الخوف.. قبل أن تنهار آمالها جميعًا دفعة واحدة.

عشرون سنة سجنًا؟ هل كانت تتوقع ذلك الحكم الفظيع؟ وعمر المسكين، ماذا كان يتوقّع؟ تنهّدت وهي تمسح عينيها بأطراف أصابعها لتتخلص من الدّموع التي أوشكت أن تتسرّب مخالفة لإرادتها. ما نفع المال الآن إن لم تتوفر الحرّية؟! عليها طلب الاستئناف. لكن كيف يقتنع القاضي بطلبها دون معطيات جديدة في القضية؟ قد يتطلب البحث عن دليل جديد ومقبول شهورًا وربّما سنوات. يا للهول!صار كل شيء يدفعها إلى الغرق في اليأس.

- آنسة رنيم؟

رفعت رأسها مبغوتة على صوت طرقات خفيفة على بابها.

- هل يمكن أن أتحدّث إليك للحظة؟

هل غفت على مقعدها؟ أم سرح عقلها فغاب إدراكها؟ لم تدر كيف وصل ذلك الرّجل أمامها! أين السكريتيرة؟ كم السّاعة؟ نظرت إليه في تشوّش قبل أن تتذكر من يكون. ما الذي يريده منها الآن؟ ليس لديها وقت تضيّعه معه.

- بماذا يمكنني أن أخدمك؟

كانت لهجتها جافة وملامحها المجهدة تشي بضيقها. لكنّ هيثم جذب مقعدًا وجلس قبالتها قبل أن يقول في جدّية بالغة:

- أريد أن أعرف. ما علاقة ياسمين بذلك الرّجل المتّهم بالإرهاب؟

عقدت رنيم حاجبيها لبرهة وهي لا تستوعب ما يقوله. يتحدّث عن علاقة بين ياسمين وعمر؟ مهلاً، كيف عرف؟ تمتمت في حذر محاولة

استدراجه حتى يفصح عمّا بحوزته:

- معذرة. ما الذي تتحدّث عنه؟

لقد حكم عليه بالسجن لفترة طويلة، أليس كذلك؟ ياسمين كانت منهارة اليوم بعد أن عرفت بالحكم الصّادر في القضية.. كأنّ المتّهم يهمّها شخصيًّا. لذلك يجب أن أفهم منك.. هل هناك علاقة ما بينها وبين ذلك الشخص؟

سألته في حدّة:

- بأيّ صفة تسمح لنفسك بطرح هذا السؤال؟

- آه.. محاولة يائسة لأفهم سبب رفضها لي.. هل تراها فعلت ذلك من أجله؟ أبدو مثيرًا للشفقة، أليس كذلك؟

قال ذلك ببساطة لم تخف المرارة في طيّاتها، فغاص قلب رنيم بين ضلوعها وانكمش. ازدردت ريقها بصعوبة وهي تقاوم البرودة التي لفت أطرافها بقسوة. إذن ياسمين تعرف. يا للهول! منذ متى؟ كيف حصل ذلك؟ دوّامة من الأسئلة تعصف برأسها.

واصل هيثم في حرارة وصدق:

- ذلك الرجل هل هو جادّ معها؟ أعني هل هناك شيء حقيقيّ بينهما؟ ربّما لا يحق لي أن أمنعها من انتظاره عشرين عامًا، مع أن ذلك ضرب من الجنون! لكنّني أريد أن أتأكد من أنها لا تضيّع وقتها وعمرها سدى. هل تعلمين شيئًا تفيدينني به؟

تمالكت رنيم نفسها قليلاً وتمتمت بصوت مرتجف:

- الدكتور عمر بريء.. سنستأنف القضية ونثبت براءته إن شاء الله.

هل كان ذلك هو الجواب الذي انتظره هيثم؟ لم يظهر على ملامحه أنه اكتفى، فأردفت ببرود:

- علاقته بياسمين أمر لا يخصّني ولا يمكنني إفادتك بصدده. أنا هنا محامية ومعاملاتي معه مهنيّة بحتة. لا أملك الجزم في هذا الموضوع الذي يمسّ حياة موكلي الخاصّة جدًّا.

ابتسم هيثم في عدم اقتناع وقال:

- لكنّ ياسمين صديقتك وزميلتك في السّكن. ألا يجعل ذلك منك مطلعة بعض الشيء؟

obeikandi.com

- لماذا لا تطرح عليها السؤال بنفسك؟

لم ترمش وهي تطالعه بوجه خالٍ من أي تعابير، فوقف في تسليم وهو يلوح بكفه:

- كان الأمر يستحق عناء المحاولة. لا بأس.

سرحت في الفراغ للحظات بعد أن خلا المكتب من صوت هيثم الأجش وقامته الفارعة. ربما كان ذلك أفضل. كانت تحمل همّ مصارحة ياسمين بحقيقة شخصيّة عمر قبل رحيلها. لم يعد هناك حاجة لذلك. أحدهم قام بذلك عنها. من؟ لا علم لها. لم يعد ذلك مهمًّا. هل كان عليها أن تصارح هيثم بما تعرفه؟ هل تصرّفت بأنانية مرّة أخرى؟ وما الجدوى الآن. لقد رفضته. ومع ذلك فهو ما يزال جادًّا في طلبها. فلتتركه يحاول من جديد. ربّما كان ليستسلم إن علم باعترافات ياسمين السّابقة؟

ماهي نسبة الأمل بأن يبتسم لك القدر يا رنيم؟ أن تثبت براءة عمر، ويقبل منك خمسين ألف يورو، وتنجح جراحته التجميلية، وتتزوّج ياسمين هيثم ويبادلك عمر المشاعر؟ دمعت عيناها هذه المرّة، فلم تقاوم دموعها. تركتها تنساب على وجنتيها في هدوء. ليست طمّاعة كبيرة. ستكتفي بالنّصف الأوّل من الأمنية. حرّية عمر وشفاؤه. هل تكتفي بها حقًّا؟ يجب أن تكون بعيدة، بعيدة جدًا، حتى لا تتألم. أو حتى لا يشعر أحد بألمها.

كيف انتهى بها المطاف على تلك الحالة؟ تذكّرت في تشوّش أمنياتها التي تخلّت عنها بزوج أوروبيّ وسيم. هل كانت تتصوّر في أسوأ كوابيسها أن تقع في حبّ رجل مغربيّ، إذا ما خاطبها بلهجته الصلفة الجافّة فقد لا تميّزها عن اللغات الإفريقيّة العميقة؟ ثمّ ماذا كانت تتوقّع؟ أن تنقذه من السّجن فيتزوّجها ويعيشان في سعادة أبد الدّهر؟ لست في شريط أجنبيّ مدبلج يا عزيزتي، بل في واقع الحياة. والنّهايات في الواقع تختلف عنها في حكايات الجنّيات والأفلام العربيّة والمكسيكيّة والتركيّة.

- آنسة رنيم؟

مسحت وجهها بسرعة قبل أن تلتفت باتجاه الباب.

- نعم؟

حدّقت في وجه الرجل المألوف في استغراب. وجه آخر لم تتوقّع رؤيته اليوم.

- أنـا حـارس شركـة الكيميائيـات، هـل تذكرتـني؟ هـل يمكـن أن أتحـدّث إليـك للحظـة؟

أومـأت برأسـها عـلى الفـور وأشـارت إلى المقعـد طالبـة منـه الجلـوس وعيناهـا لا تفارقـان وجهـه في ترقّـب وفضـول. هـل يحمـل إليهـا مـا يمكنـه أن يحقـق الأمنيـة الأولى؟

- لسـت أدري إن كان مـا سـأذكره ذا أهميّـة، لكنّـني لـن أكـون مرتـاح الضمـير إن لـم أخـبرك بذلـك. هنـاك تفصيلـة صغـيرة لـم أذكرهـا في شـهادتي في المحكمـة.. لكنّـني أخـبرت بهـا المحقـق ليلـة الحادثـة. فيمـا بعـد نسـيت الأمـر ولـم يطلـب مـنّي أحـد أن أراجـع تفاصيـل شـهادتي. في الحقيقـة لـم يكـن هنـاك الكثـير لأقولـه لأنّـني لـم أكـن واثقًـا، لكـن اليـوم في قاعـة المحكمـة تجـلى الأمـر أمـام عيـني.

لم تكن رنيم تفهم شيئًا. استعجلته في نفاد صبر:

- بماذا يتعلق الأمر بالضّبط؟

- آه، نعـم. سـأختصر. ليلـة الحادثـة، رأيـت شـخصًا يغـادر الشركـة مسرعًـا وسـط الظـلام بعـد الانفجـار الأوّل. لكنّـني لـم أتبـيّن ملامحـه بشـكل كافٍ لأتعـرّف عليـه. كانـت امـرأة في الحقيقـة. لكنّـني اليـوم تذكـرت كلّ شيء.. حـين رأيتهـا تسـقط مغشـيًّا عليهـا في المحكمـة بعـد أن تـمّ الإعـلان عـن قـرار المحلفـين.

- كارولين!

لـم تسـمع رنيـم شـيئًا مـن ثرثـرة الرّجـل بعـد ذلـك. هرعـت إلى حقيبتهـا وانهمكـت تبحـث عـن القصاصـة الـتي سـجلت عليهـا عنوانهـا. حـين وجدتهـا اتّسـعت ابتسـامتها في ظفـر. قاطعـت الرجـل الـذي كان مـازال يـبرّر ويعتـذر وهتفـت وهـي تلتقـط معطفهـا وحاجيّاتهـا:

- شكرًا لك سيدي.

ثمّ هرولت في اتّجاه الباب مخلفة إيّاه وراءها.

*****

وقفـت أمـام المبـنى الـذي أشـار إليـه العنـوان عـلى القصاصـة بـين أصابعهـا.

أخـذت نفسًـا عميقًـا قبـل أن تتجـاوز المدخـل وتبحـث في جهـاز الاسـتقبال عـن اسـم صاحـب الشـقة. كانـت تعلـم أنّهـا قـد تحتـاج يومًـا عنـوان أصدقـاء كارولـين في باريـس، ولـم يخـب حدسـها. لكنّهـا تعلـم أيضًـا أنّ مهمّتهـا اليـوم لـن تكـون بسـيطة. لـم تنجـح في جعلهـا تتكلـم سـابقًا. لكـنّ الأمـر لـم يعـد يقبـل المسـاومة. يجـب أن تحصـل منهـا عـلى اعـتراف اليـوم أيًّـا كان محتـواه. إنّهـا بحاجـة إلى شـهادة عيـان جديـدة لتقنـع المحكمـة بالاسـتئناف، والوقـت المتـاح أمامهـا ضيّـق. ضيّـق جـدًا. كارولـين بـدت متأثـرة بالحكـم اليـوم في قاعـة المحكمـة، وهـل يمكـن تفسـير إغمائهـا بطريقـة أخـرى؟ ربّمـا بعقـدة ذنـب أيضًـا؟ وذلـك يعـني أنّهـا قـد تتكلـم بسـهولة إذا وجّهـت إليهـا الأسـئلة المناسـبة. رغـم اضطرابهـا، كانـت رنيـم واثقـة مـن أنّهـا تقـوم بعملهـا بشـكل جيّد.ضغطـت عـلى الـزّرّ وانتظـرت للحظـات حـتّى جاءهـا صـوت أنثـويّ عـبر جهـاز الاسـتقبال.

- آنسة ماريان؟ هل يمكنني التّحدّث إلى كارولين؟

بـدا الـتردّد عـلى صاحبـة الشـقة الـتي حتمًـا تلقـت تعليمـات بتمريـر عـدد محـدود مـن الأشـخاص.

- كارولين ليست هنا. هل تريدين ترك رسالة؟

- أنـا صديقتهـا. كنّـا معًـا اليـوم في المحكمـة وقـد بـدت لي في حـال سـيّئة. أردت الاطمئنـان عليهـا. هـل تحسّـنت منـذ الصبـاح؟

لم تنخدع ماريان بمحاولة رنيم اليائسة. قالت في تصميم جاف:

- إنّها بخير. لكنها ليست هنا الآن.

تركـت رنيـم جهـاز الاسـتقبال وزفـرت في ضيـق. مـاذا تفعـل الآن؟ هـل ترابـط أمـام المبـنى تنتظـر قدومهـا أو خروجهـا؟ مشـت ببـطء في اتجـاه المقهـى الواقع عـلى الجانـب الآخـر مـن الشـارع. تخطـت المدخـل الضيّـق وجالـت بعينيهـا عـلى الطـاولات الصغـيرة المتناثـرة في الشرفـة المغطـاة وفي القاعـة الدّاخليـة الـتي عكسـت مصابيـح صفـراء خافتـة بقـع ضـوء متناثـرة خلالهـا، وقـد أرخـى المسـاء سـتائر شـفافة لـم تحلـك عتمتهـا بعـد في الخـارج. لـم تكـن قـد تخـيّرت موقعًـا بعـد حـين ارتفـع رنـين هاتفهـا. طالعـت الرقـم الغريـب الـذي ظهـر عـلى الشاشـة في شرود ثـمّ ضغطـت عـلى زرّ الإجابـة.

- أستاذة رنيم.

كان صوتًا أنثويًّا مفعمًا بالألم. سألت في شكّ:

- كارولين؟ هذه أنت؟

ردّت مخاطبتها بسرعة متهرّبة:

- لا يهمّ من أكون. استمعي إليّ جيّدا.. الدّكتور عمر بريء. أعلم ذلك يقينًا. لقد ألصقوا التّهمة به ليتخلّصوا منه ويسطوا على أبحاثه عن «الاندماج البارد».

- من هم؟ من يكونون؟

- إنّهم أكبر منك ومنّي. لا يمكننا الوقوف في وجوههم. لقد خطّطوا لكلّ شيء بإحكام، بما في ذلك التضحية ببعض النفوس البشريّة البريئة.. لقد قتلوا من قبل ولن يتردّدوا في الضرب مرّة أخرى إذا مسّت مصالحهم من قريب أو بعيد. «الاندماج البارد» سيدرّ عليهم أرباحًا لا تقدّر بثمن، لذلك لا يمكن لشيء أن يردعهم. البروفيسور كريستوف كان عينهم السّاهرة في الشركة، وأنا.. أنا كنت أداتهم في التنفيذ عن جهل وسذاجة.

لم تستطع أن تقول أكثر. ازدردت ريقها بصعوبة وهي تشعر بغصّة في حلقها. كانت في حال يرثى لها منذ الصباح. يتقاذفها ضمير استفاق من غيبوبته متأخرًا، وتمسّك غريزي بأمان واهٍ انتصر حتى تلك اللحظة. وزيارة رنيم كانت لحظة فاصلة جعلت توازنها الهش الذي يشدّ كريستوف خيوطه بحزم ودقة منذ البداية يتهاوى دفعة واحدة.

كلّ شيء بدأ حين عرض عليها أستاذها السابق كريستوف أن تنضمّ إليه في الشركة التي يحتلّ مركزًا مرموقًا فيها. حين طلب منها مراقبة عمل الدكتور عمر، ظنته يريدها أن تتعلم منه. ولأنّ عمر كان كتومًا، كان عليها أن تزور مكتبه ومختبره في أوقات متفرّقة من النهار، تتحدّث إليه عن أيّ شيء، وتسجل كل ما يفعله.. المستحضرات، الآلات، التجارب. تفتّش في سلة مهملاته وتقتنص الأوراق المتناثرة.. وتكتب عنها تقارير. عمر كان يتجاهل وجودها معظم الأحيان ويتركها تتنقل في المكان على حرّيتها. وهي كانت طالبة بليدة. كريستوف كان يعلم هذا، لأنها عملت معه لوقت طويل. في البداية ظنته أسلوبًا جديدًا في التعليم. ثمّ مع الوقت أدركت أن كريستوف جعلها جاسوسة على عمر! هل يمكنها أن تلومه على استغلالها؟ تدرك أنّها لم تكن تنفع لأيّ شيء آخر، وعملها في الكيميائات كان مضيعة للوقت. لولا

التّوصيات لما وجدت عملاً. كانت تجسيدًا لكل الحماقات التي تُروى عن الشقراوات. لكنّها الآن تحاول أن تصلح شيئاً من أخطائها الماضية.

- كارولين. أخبريني ماذا فعلت؟

لم تحاول أن تنفي هويّتها مرّة أخرى. لكنّها لا تستطيع الاعتراف أيضًا. لم تكن تفهم التقارير التي تكتبها، لكن كريستوف كان يجدها رائعة. كان قادراً من خلالها على الإحاطة بما يجري في مختبر عمر. ثمّ جاء الوقت الحاسم الذي طلب فيه منها أن تضيف مادّة ما إلى اختبار عمر. كيف أقنعها بذلك؟ قال إن عمر سيرفض تدخله بالتأكيد، وإنّ تلك التجربة ذات أهميّة وقد تعطي للمشروع أبعادًا جديدة لا يدركها عمر. قال إن ذلك سيعود بالفائدة على الجميع. هل صدّقته؟ كانت تشعر بالذّنب لأنّها كشفت أسرار بحث عمر دون وعي منها، لذلك فإنّ فكرة القيام بتجربة تساعده في التقدّم أوحت إليها بأنّها قد تعوّض عن سوء تصرفها السابق! لم تكن تعلم أن الأسوأ سيحصل؛ حين دوّى الانفجار الأول انتابها الهلع. اشتعلت النار في المحرّك وانقطع التيار الكهربائي. أيقنت أن في الأمر خطأ ما. خافت. هرولت في اتجاه المخرج وهي تلوم نفسها على حماقتها. في تلك اللحظة، لم تفكر إلا في الفرار قبل عودة عمر واكتشافه فعلتها. لم تكن تدرك أن زمرة المحتفلين كانت ما تزال في غرفة الاستراحة. لم تكن تعلم أنّ عمر سيرجع إلى مختبره قريبًا.. لتنفجر البناية كلها وهم بداخلها.

- لا يهمّ الآن ما الذي فعلته أنا أو غيري. أستاذة رنيم، لقد حسموا الأمر لصالحهم منذ زمن. ولن يتردّدوا في جعلي الضحيّة الموالية إن أنا تكلّمت.. لن أكون إلا رقمًا إضافيًّا في حساباتهم. حياتي ليست لها قيمة، وكذلك حياة الدكتور عمر.. كان من المفترض أن نقضي جميعًا في الانفجار وتختفي كلّ آثار الجريمة في الحريق الهائل.. لذلك تأكدي من أنّ الاستئناف مضيعة للوقت. لن يتغيّر من الأمر شيء. ما عدا سقوط ضحايا جديدة.

هتفت رنيم في غضب:

- لماذا تتصلين إذن؟

- هناك حلّ وحيد، أظنّه ينفع. أن يتدخل ملك المغرب من أجله! لقد تمكّن من إطلاق سراح البستانيّ «عمر الرّداد» في قضيّة القتل في بداية التسعينيات.. هؤلاء الأشخاص متنفذون وسيفعلون شيئًا من أجل ابن

بلدهـم، مـع أن السـيّدة مارشـال كتبـت بدمهـا «عمـر قتلـني»، فقـد أطلقـوا سراح البســتانيّ.

لـم يكـن هنـاك أحـد في فرنسـا يجهـل قصّـة عمـر الـرّدّاد. ذلـك المغـربي المهاجـر الـذي اتهـم سـنة ١٩٩١ بقتـل السّـيدة مارشـال الـتي كان يعمـل عندهـا بسـتانيًا بعـد أن عـثر عـلى جملـة كتبـت بـدم الضحيـة قـرب الجثـة «عمـر قتلـني». صـدر حكـم بالسّـجن ثمانيـة عـشر سـنة بحـق المتهـم، ثـمّ تـمّ الإفـراج عنـه سـنة ١٩٩٦ بعـد تدخـل ملـك المغـرب حسـن الثـاني لـدى الرئيـس الفرنـسي جـاك شـيراك. لكـنّ المتّهـم مـا يـزال يحـاول إثبـات براءتـه حـتى اليـوم. القضيـة شـغلت الـرأي العـام الفرنـسي والمغـربي، كمـا أنتجـت أشرطـة وثائقيـة وسـينمائية، وصـدرت كتـب تتنـاول تفاصيـل القضيّـة.

قاطعتها رنيم في مرارة:

- هـذه ليسـت مجـرّد جريمـة قتـل. إنّـه اتّهـام بعمـل إرهـابيّ! هـل تفهمـين معـنى ذلـك؟

سـمعت بكاءهـا عـبر أسـلاك الهاتـف. كانـت تشـعر بالذّنـب. مازالـت هنـاك فرصـة للتأثـير عليهـا؛ همسـت في رجـاء:

- كارولـين، يجـب أن نلتقـي. يجـب أن تخبريـني بشـكوكك، بـكلّ مـا تعرفينـه. تأكـدي أنّـني سـأحميك. سـتتمتعين بنظـام حمايـة الشـهود.

- لا.. لا.. سيجعلونني أدفع الثمن.. سأكون البيدق التالي.

- أرجـوك، ثقـي بي.. غـدًا صباحًـا، السـاعة الثامنـة. نذهـب أنـا وأنـت إلى مكتب النائـب العـام.. تعترفـين بـكلّ ما عنـدك، والقانـون سـيحميك منهـم.. اتّفقنا؟

لم تسمع سوى نشيج كارولين بعد ذلك، قبل أن ينقطع الخط.

*****

ألقـت ياسـمين نظـرة عـلى سـاعة الحائـط مـن جديـد قبـل أن تغـيّر وضعيتهـا عـلى الأريكـة وتلـفّ اللحـاف عـلى جسـدها مـرّة أخـرى. السّـاعة تشـير إلى الواحـدة والرّبـع بعـد منتصـف الليـل. لقـد تأخّـرت رنيـم. تأخّـرت كثـيرًا. حاولت الاتّصـال عـلى هاتفهـا مـرّات عـدّة، لكنّـه كان يـرنّ حـتّى يبـحّ صوتـه ولا مجيـب. فكـرت أنّهـا قـد تكـون بصحبـة والدهـا. ستسـافر معـه في الغـد إلى مـصر.

تسافر؟ هل يمكنها أن تسافر بعد النّازلة التي حلت ذلك الصباح؟ تعلم أنّ عمر ليس مجرّد موكل بالنّسبة إليها، وقضيّته ليس تسلية تستقيل منها حين تشعر بالتّعب. لذلك رجّحت أنّ رنيم تعمل حتى ذلك الوقت لتجد مخرجًا لعمر من ورطته المعقدة. لكن لماذا لا تردّ على هاتفها؟

كان يومًا مرهقًا. أمضته بين العناوين الضخمة التي ملأت شاشات القنوات الفضائية والأفكار السّوداويّة التي بدأت ضئيلة في الصّباح ثمّ تعاظم شأنها بعد أن امتصّت كلّ طاقتها، تستمدّ العون من وحدتها وتعيس ذكرياتها. حين حل المساء، كانت قد غدت جسدًا نحيلاً بروح معذبة. تركن في استسلام إلى الجزء الأكثر دفئًا من شقتها، وتنتظر رنيم كأنّها ستحمل بين يديها معجزة تنثر الضوء وتنفض القتامة عن كئيب هواجسها.

انتفضت في ذعر حين قاطع رنين هاتفها سرب الخفافيش السّوداء التي ملأ حفيف أجنحتها مساحات إدراكها. التقطت الجهاز في لهفة وتطلعت إلى الشاشة التي حملت رمز رسالة قد وصلت للتوّ.

- «أنت نائمة؟».

عقدت حاجبيها في استغراب وعادت لتطالع اسم المرسل. لم تكن رنيم. لم تتوقع أن يظهر ذلك الاسم على جهازها مجدّدًا بعد الحوار المقتضب الذي دار بينهما مساء أمس. هيثم؟ ما الذي يريده الآن؟ فكرت في تجاهله، فهي من المفترض أن تكون نائمة بالفعل في مثل ذلك الوقت، لولا تأخر رنيم. وضعت الهاتف جانبًا واستلقت من جديد. حاولت أن تشغل نفسها بأيّ شيء، لكنّ أفكارها كانت تعود إلى الرّسالة وعيناها تحومان حول الهاتف دون أن تقدر على صرفهما بعيدًا. حسمت أمرها. اعتدلت في جلستها والتقطت الهاتف مجدّدًا ثم كتبت كلمة واحدة جافّة.

«لا».

على الطرف الآخر، كان هيثم ينتظر على أحرّ من الجمر. انتظر دقيقة ثم اثنتين. حين لم يصله ردّها أيقن أنّها بالتأكيد نائمة. ما الذي يتوقعه والسّاعة قد تجاوزت الواحدة والنّصف؟ ما الذي يفكر فيه بالتّحديد؟ ستضحك منه حتمًا حين تستيقظ صباحًا وتجد رسالته الليلية السّخيفة. لكن ماذا بوسعه أن يفعل والنوم يجافي جفونه وأفكاره تأبى أن تمنحه قسطًا من الرّاحة؟ حين غادر مكتب صديقتها المحامية لم يكن أفضل

حـالاً مما كان عليه بعـد اتصالـه بميسـاء. بعـد العمليّـة المخابراتيّـة المضنيّـة الـتي شـغلته لبضـع سـاعات حـتّى وجـد عنـوان مكتـب رنيـم، لـم يعـد هنـاك الكثـير ليفعلـه. ومـع مـرور الوقـت كان ضيقـه وتوتـره يتزايـدان. غـدا عصبيًـا مضطربًـا. أسـاء الأدب مـع والدتـه عـلى العشـاء وتسـبّب مزاجـه المتعكـر في مشـادّة كلاميـة مـع ميسـاء، كان يـدرك أنّـه لا ذنـب لهـا فيهـا. إلى مـتى سيسـتمر عـلى تلـك الحـال؟ إنـه بحاجـة إلى إجابـات. إجابـات سريعـة تنهـي كل شيء.. أو تبـدأ كل شيء. ثـلاث أسـئلة ملحـة. ولا أحـد يملـك إجابتهـا غيرهـا. بعـد سـاعات مـن التفكـير بـدت لـه نصيحـة المحاميـة معقولـة. إن كان يريـد أن يعـرف، فليسـأل المعنيّـة بالأمـر.

كادت أنفاسـه تنقطـع حـين اهـتزّ هاتفـه بصمـت معلنًـا وصـول رسـالة أبـت إلا أن تعتـصر قطـرات صـبره الأخـيرة قبـل أن تـأتي. تألقـت عينـاه في تحفـز وهـو يقـرأ ردّهـا المقتضـب. كانـت تفكـر، وقـررت الحديـث إليـه؟ إذن كانـت مسـتيقظة في نهايـة الأمـر. ربّمـا أصابهـا الأرق.. مـن التفكـير في ذلـك السـجين المتهـم بالإرهـاب؟ كبـح جمـاح أفـكاره المؤلمـة بسرعـة. سـيعرف كل شيء بعـد قليـل، حـين تجيـب عـن أسـئلته. لا داعـي لاسـتعجال النتائـج.

فكـر، كيـف يبـدأ الحديـث؟ أصابـه الارتبـاك فجـأة وتجمّـدت أصابعـه عـلى لوحـة المفاتيـح. هـل يسـأل عـن حالهـا؟ أم يدخـل مبـاشرة في صلـب الموضـوع؟ لا هـذا ولا ذاك. كتـب في ألـم:

«لم أستطع النوم. كان يومًا سيّئًا».

ترقبـت ياسـمين الرّسـالة التاليـة في حـيرة وتوتـر. بالتأكيـد هنـاك رسـالة تاليـة. لا يمكـن أن يكـون قـد أرسـل الأولى لمجـرّد العلـم بنومهـا مـن يقظتهـا. يريـد شـيئًا مـا حتمًـا. تذكـرت كلمـات ميسـاء الأخـيرة قبـل أن تنهـي اتصالهـا منـذ سـاعات. هيثـم كان ينتظـر عـلى الخـط الثـاني ليطمـئن عـلى حالهـا. ارتفـع نسـق نبضاتهـا فجـأة. ليـس مجـدّدًا. إن تجـرأ وأظهـر شـفقته فسـتلقنه درسًـا لـن ينسـاه. انحبسـت أنفاسـها وعيناهـا تتجمّـدان في الفـراغ. أليسـت مثـيرة للرّثـاء حقًـا؟ إنّهـا كذلـك. إنّهـا كذلـك. يـا إلهـي! لقـد عـادت إلى نقطـة الصّفـر بـل غاصـت تحتهـا في يـوم واحـد. وهـذا الرّجـل وصـل في الوقـت المناسـب ليهيـل عـلى جثمانهـا حفنـات الـتراب الأخـيرة فترقـد روحهـا إلى الأبـد. مـا عـادت بداخلهـا طاقـة لتلقـن أحـدًا درسًـا في أيّ أمـر كان.

كانـت عـلى وشـك الغيـاب في نوبـة بـكاء جديـدة، حـين وصلـت الرّسـالة المنتظـرة.

«لم أستطع النوم. كان يومًا سيئًا».

أعـادت قراءتها لمرّات في شـك. هـل هـو مـن يشـكو سـوء يومـه الآن؟ ومـن العجيـب أن التفكـير في مغـزى الرّسـالة شـغلها عـن رغبتهـا المسـتعجلة في العويـل. لوهلـة فكرت في أن تكتـب «يومي كان سّيئًا أيضًـا». نـوع من المساندة المعنويّـة الـتي كانـت هـي أحـوج النـاس إليهـا. ورغـم تسـاؤلها الفضـولي عمّـا عكـر صفـو يومـه، فـإن إحساسًـا غريبًـا بتـدرّج الحديـث نحـو ألفـة غـير متوقعـة أزعجهـا. ألـم ترفـض طلبـه بالـزّواج بالأمـس؟ كتبـت في عصبيّـة فجائيـة أصبحـت تلازمهـا في الأوقـات الأخـيرة. بـل كلمـا كان الأمـر يتعلـق بهيثـم.

«هل تريد الدّردشة؟ لا أظنّ الوقت مناسبًا».

كان هيثـم قـد غـادر سريـره وأخـذ يـذرع الغرفـة بخطـوات واسـعة مضطربـة. مـا الـذي دهـاه حـتى يشـكو أمـره إليهـا؟ كان يومًـا سـيّئًا؟ مـاذا لـو كان ردّهـا مـن قبيـل «هـذا أمـر لا يعنيـني» أو «لسـت مسـؤولة عـن أحـوال الطقـس» أو «اذهـب وابـكِ في حضـن أمـك»؟ ستكون ضربـة موجعـة لكبريائـه ورجولتـه. لا، لـن تفعلهـا. فهـو يثـق في أخلاقهـا. لـن تُقـدِم عـلى جرحـه بهـذا الشـكل وهـو يشـكو إليهـا جـراح هـواه. هـل تفعلهـا؟ سرت في جسـده قشـعريرة بـاردة وهـو يفتـح رسـالتها الـتي وصلـت للتـوّ. دردشـة؟ يـا إلهـي، هـذا أفظـع! الآن أصبحـت تحسـبه مـن الشـباب الصّائـع الـذي يضايـق الفتيـات في ظلمـة الليـل لمجـرّد التّسـلية والدّردشـة الفارغـة! احسـم أمـرك يـا هيثـم وإلا انتهـت الليلـة بمـا لا تحمـد عقبـاه. بوجـه متجهـم وأنفـاس مضطربـة أخـذ يرقـن رسـالته الجديـدة. سـيكون حازمًـا هـذه المـرّة.

«لا أريـد الدّردشـة أبـدًا. هـي أسـئلة بسـيطة أحتـاج أجوبتهـا منـك ولـن أزعجـك بعـد ذلـك».

إن كانـت الإجابـات كلهـا بــ«لا» فسـيشرق فجـر اليـوم الجديـد عـلى حيـاة أكـثر بهجـة، أمـا إن كانـت إجابـة واحـدة بـ«نعـم» فسـيتمنّى أن يدخـل قمقـم عـلاء الديـن ولا يخـرج منـه إلا في بـلاد بعيـدة. بسـم الله، كتـب:

«السؤال الأول: هل هناك رجل آخر في حياتك؟».

بـدأ بالسـؤال الأهـمّ والأكـثر حسـمًا. لـم يعـد يسـتطيع الانتظـار ليفصـل

الحق عن الباطل في هذا الموضوع. والآن فلتبدأ دقائق الانتظار المميتة.
لم تستطع ياسمين أن تمنع الابتسامة من التّسلل إلى شفتيها وهي تقرأ السؤال الأوّل. رجل في حياتها؟ هل فسّر حزنها على عمر بهذا الشكل؟ لا يلام إن اختلطت عليه الأمور. رفضها القاطع بالأمس والحزن الشديد الذي كانت ميساء شاهدة عليه اليوم، وبالتأكيد نقلت تفاصيله إليه، كفيلان بإحكام الالتباس. لم يكن بالعجرفة التي حسبتها فيه في نهاية الأمر. كانت مغتاظة من ردّه المتعالي على رفضها. «صفينا الحسابات القديمة». لكن وراء تلك الكلمات الباردة شديدة الثقة، كان هناك ارتباك وتوتر. قضى يومًا سيئًا؟ لم يستطع النوم؟ لأنّالوساوس تراوده بخصوص أسباب رفضها؟ اندفعت دفقة دماء غير متوقعة نحو وجنتيها وصبغتهما بلونها القاني وشعرت بمغص مفاجئ. لا تذهب أفكارك بعيدًا يا ياسمين. تتبّعي الخيط إلى نهايته.
«لا».
اكتفت بتلك الكلمة الواحدة ثم أراحت رأسها على مسند الأريكة وقد تبخرت كل رغبة لديها في البكاء. صار لديها موضوع شيّق يشغلها.. لبعض الوقت.
على الجانب الآخر، قفز هيثم في الهواء وهو يشدّ على قبضته ويطلق هتافات نصر مكتومة بين أسنانه حتّى لا يوقظ سكان الدّار الغارقين في النّوم. سيطر بسرعة على اندفاعه وقد تذكر أنه لم يحصل إلا على ثلث الإجابة. كتب السؤال الثاني وأرسل:
«السؤال الثاني: هل أبدو شريكًا غير مناسب في نظرك؟».
كلمة «شريك» بدت له أخف وطئًا من «زوج» وأقلّ إحراجًا. كان بودّه أن يكون أكثر دقة وإسهابًا في هذا السّؤال بالذات. يريدها أن تصارحه بالعيوب التي تزعجها فيه، فربّما كان بإمكانه توضيح بعض الأمور أو الدّفاع عن نفسه، ويا حبذا لو استفاضت في تعديد مميزاته التي تجعل منه عريسا لا يفوّت! لكنه في هذا الظرف يحتاج إلى إجابة واضحة وقاطعة: هل رفضها متعلق بشيء في شخصه أو في سلوكه؟
توقفت ياسمين عند السّؤال الثاني في تردّد. عاد وجه لورا ليظهر أمامها في إلحاح. هل كانت علاقته بلورا سبب رفضها؟ ليس بالضبط. تلك النقطة

في ماضيـه تزعجهـا، لكنهـا تقـدّر لـه تراجعـه في الوقـت المناسـب. لقـد أصلـح خطـأه في نهايـة الأمـر، ويمكنهـا أن تعطيـه فرصـة ليبرهـن عـلى التغيـير الـذي عـزم عليـه. إنّـه يسـتحق تلـك الفرصـة.. لأسـباب كثـيرة. لأنّـه شـابٌ طيّـب مـن عائلـة طيّبـة، لأنّـه وقـف معهـا في محنتهـا، لأنـه مايـزال يطلـب ودّهـا رغـم صدّهـا.

«لا».

كتبـت الـردّ دون تفكـير ثـم تسـاءلت في شـك: مـا الـذي جعلهـا تتـسرّع برفضـه بالأمـس؟ الشـفقة؟ تلـك الفكـرة الحمقـاء الـتي دسّـتها لـورا في رأسـها قبـل أن ترفـع أشرعتهـا وترحـل في اتجـاه جديـد.. تبـدو سـخيفة الآن. لـو كان دافعـه الأول هـو الشـفقة لـكان نـسي أمرهـا مـع طلـوع الشـمس. شـفقة الرّجـل تتحلـل بسرعـة حـين تجـرح كبريـاؤه. لكـن حبّـه قـد يتحمّـل ضربـات موجعـة قبـل أن يقـرّر الاستسـلام. مـاذا قالـت؟ حـبّ؟ فغـرت فاهـا في عـدم تصديـق. هـل ذهـب خيالهـا بعيـدًا؟

مـن حسـن حـظ هيثـم، لـم تكـن ياسـمين هنـاك لتشـهد رقصتـه الانفراديّـة الصبيانيـة الـتي كان إيقاعهـا الوحيـد ترنيمـة مرتجلـة دندنهـا بصـوت منخفـض حـتى لا تتجـاوز فضـاء غرفتـه الضيـق. فلـم تكـن لتتعـرف عـلى الشـابّ الرّصـين الـذي تعـوّدت رؤيتـه. لكنّـه عـاد بعـد برهـة وسـيطر عـلى فرحتـه السـابقة لأوانهـا. فرفضهـا مـازال قائمًـا حـتى لـو كانـت تنفـي تعلـق الأمـر بشـخصه أو بشـخص آخـر يشـغل فكرهـا.

«السؤال الثالث: هل تمانعين في التفكير في طلبي مجدّدًا؟».

ضحكـت ياسـمين في اسـتمتاع وهـي تقـرأ السّـؤال الجديـد. هـا هـو يخطبهـا مـرّة ثانيـة خـلال يومـين، مسـتغنيًا عـن لهجـة الأمـر المتعاليـة. إن لـم يكـن هـذا تعويضًـا عـن الإهانـة القديمـة! بأنامـل مرتعشـة رقنـت حـرفي الكلمـة الأخـيرة وأرسـلت:

«لا».

الــــ«لا» الثالثـة الـتي تعـني تعليـق أعـلام الفرحـة وإضـاءة الفوانيـس الملوّنـة في غرفـة هيثـم وفي ثنايـا قلبـه. كان يومًـا مجهـدًا، لكنـه انتهـى عـلى نوطـة سـعيدة. ارتمى عـلى سريـره وهـو يتنهـد في ارتيـاح. أطفـأ الأنـوار وأغمـض عينيـه للحظـة ليمـلأ رئتيـه بهـواء سـعيد، ثـم عـلى ضـوء الشاشـة الخافـت كتـب

obeikandl.com

رسالته الأخيرة لتلك الليلة:
«الآن يمكنني أن أنام. وربما تزورني بعض الأحلام السعيدة».

*****

وضعت ياسمين الجهاز جانبًا وعادت لتستلقي في استرخاء وعلى شفتيها ابتسامة حالمة. كم من المدهش أن تنتهي سهرتها الكئيبة بهذا الشكل المتفائل. وكم من الغريب أن تتضاءل الهموم وتتقلص حين يشاركها أحد ما في حملها. لم تكن بحاجة إلى سماع الكلمات واضحة على لسانه، اهتمامه كان كافيًا. كما أنّ ذكرى خطابه السّابق عادت قويّة وحاضرة في ذهنها. بإمكانها أن تمسك بزمام أمورها مجدّدًا. ورنيم ستهتمّ بمشكلة عمر بالتأكيد. هناك بصيص أمل وليد عاد ليدغدغ أحلامها ويمسح زجاج عدساتها المتسخ.

انتفضت في مكانها حين دار مفتاح في قفل باب الشقة. لقد غفت. هبّت واقفة لاستقبال رنيم التي ظهرت عند الباب وقد ظللت هالات سوداء عميقة عينيها. كان يبدو عليها الإرهاق الشديد. ألقت ياسمين نظرة سريعة على السّاعة التي تجاوزت عقاربها الرابعة صباحًا بقليل ثم هتفت في قلق:

- أين كنت حتّى هذه السّاعة؟

تهالكت رنيم على المقعد. أسندت رأسها إلى الخلف ومدّت أطرافها في استسلام وهي تغمغم بصوت مبحوح يكاد النعاس يودي به:

- في المكتب.

- كلّ هذا الوقت؟

سألتها ياسمين في ذهول وهي تجلس إلى جوارها. ابتسمت رنيم في وهن وهي ترنو إليها بنظرة جانبية من جفنيها المتثاقلين.

- كان يومًا طويلاً.

كان يومًا طويلاً بحق. حين أنهت مكالمتها مع كارولين توجّهت مباشرة إلى مكتبها. كتبت مذكرة مفصلة عن حوارها معها وتركتها على مكتب جورج. لن يكون لديها الوقت الكافي لتشرح كل شيء مشافهة في الغد. تمنّت حينها لو أنّها أخذت معها جهاز التّسجيل. فضلاً عن توثيق اعترافات كارولين

المبهمـة كانـت لتختـصر وقتًـا ثمينًـا لاسـتكمال بحثهـا. كريسـتوف وعلاقاتـه الغامضـة بأطـراف نافـذة في عالـم الطاقـة، كانـت تلـك علامـة الاسـتفهام الكبـيرة الـتي سـتقودها إلى حـلّ إشكالات القضيّـة كلّهـا. لـم تغـادر المكتـب إلا بعـد أن اطمأنـت لـترك بـين يـدي رئيسـها مـا يكفـي مـن المعطيـات حـتى يواصل إجـراءات الاسـتئناف في غيابهـا. لكنّهـا سـتشرف عـلى الخطـوة الأولى بنفسـها قبـل رحيلهـا. صبـاح الغـد سـترافق كارولـين إلى مكتـب المدّعـي العـام حـتى تطمـئن إلى عـدم تراجعهـا عـن اعترافـات ذلـك المسـاء.

استمعت إليهـا ياسمين في انتبـاه وهـي تلخـص بكلمـات مقتضبـة مسـتجدّات يومهـا الحافـل. بـدأت بزيـارة الحـارس في مكتبهـا متحفظـة عـلى تفاصيـل لقائهـا بهيثـم. كانـت مرهقـة، وكانـت تفضـل إنهـاء اليـوم بأفـكار مريحـة تمكنهـا مـن الاسـتغراق في النـوم بعـد قليـل. لكـنّ ياسـمين الـتي أثـارت الأخبـار السّـارة حماسـتها، هتفـت في ابتهـاج:

- لا تتصوّريـن كـم كان نهـار اليـوم شـاقًا عـليّ أيضًـا.. حـين رأيـت الصـور عـلى الفضائيـات وعلمـت بالحكـم الجائـر الـذي صـدر بحـق الدكتـور عمـر.. كـدت أجـنّ! لكـن الحمـد لله، هنـاك مخـرج للأزمـة.. أليـس كذلـك؟

هـزّت رنيـم رأسـها موافقـة وهـي تبتلـع غصّـة. هاهـو الحديـث الـذي حاولـت تلافيـه يسـعى إليهـا هرولـة. واصلـت ياسـمين وهـي تسـتمتع بتحرّرهـا مـن الهواجـس القاتمـة الـتي لازمتهـا طـوال النهـار:

- مـن الجميـل أن ينتهـي هـذا اليـوم الـذي حسـبته أسـوأ أيامـي عـلى خـير.. هـل تعلمـين؟ هنـاك المزيـد مـن الأخبـار السّـارة.

احتبسـت أنفـاس رنيـم في ارتيـاع. هـل سـتزفّ إليهـا خـبر اكتشـافها لحقيقـة شـخصية عمـر؟ هـل تكـون قـد حاولـت زيارتـه أو تعريفـه بنفسـها؟ بـل ربمـا أسـوأ.. قـد يكـون كل منهمـا قـد اعـترف للآخـر بمشـاعره وتعاهـدا عـلى الوفـاء والصـبر والجهـاد... إلـخ.

- لقد خطبني هيثم.

- حقًّا؟

لـم يكـن الخـبر جديـدًا عـلى رنيـم. لكنّهـا رفضتـه. هكـذا قـال. أيـن الخـبر السّـعيد إذن؟ ثـأرت لنفسـها؟تابعت ياسـمين وابتسـامة حييّـة تزيـن وجههـا:

- أظنه.. مناسبًا.. أليس كذلك؟

- مناسبًا؟

ضحكت ياسمين مدارية خجلها لكنّ نظرة عينيها كانت تشع بريقًا وشى بالسّعادة التي تخجل من إبدائها. ولم تفهم رنيم شيئًا! كان هناك بون شاسع بين ما فهمته من هيثم ظهر ذلك اليوم وما تقرؤه في عيني ياسمين، وقد قارب الفجر على البلوج.

- تعلمين.. لم أكن أفكر في زواج تقليديّ. لكنّه قد لا يكون سيّئًا في نهاية الأمر.

- أنت.. متأكّدة؟ ماذا عن الحبّ؟

- الحبّ قد يأتي بعد الزّواج..

- وقد لا يأتي!

صوت بداخلها كان يزجرها. يا غبيّة! ألم تكن تلك المعجزة التي تتمنّينها؟ لكنّ عاطفة صادقة تجاه ياسمين كانت تأبى عليها أن تدفعها في اتّجاه هيثم كأنّها تستعجل الخلاص.

- رويدك يا عزيزتي، إنها مجرّد خطبة.. سأصلي الاستخارة بطبيعة الحال.. لكنني أشعر بـــــ.. نوع من الارتياح المبدئي.

- آه.. تهانينا إذن.

دقّ قلب رنيم بشدّة وهي تبادل ياسمين ابتسامتها. كل شيء يبدو خياليًا في تلك السّاعة وهي التي تعاني من إرهاق شديد يمنعها من التفكير المتزن. تذكرت شيئًا هامًّا. أمر آخر عليها الانتهاء منه قبل رحيلها. انحنت لتفتح حقيبة يدها التي استقرت على الأرض في إهمال وأخرجت منها لفافة ورقية مكتنزة.

- لديّ طلب أخير.. هل يمكنني أن أعتمد عليك في حفظ سرّ صغير؟

- سرّ؟

طالعتها ياسمين في فضول ثمّ توقفت نظراتها على اللفافة التي مدّتها رنيم تجاهها.

- هذه خمسون ألف يورو.. كنت أريد تسليمها إلى عمر حال مغادرته السّجن.. من أجل عمليّة التّجميل لحروقه.. لكن يبدو أن ذلك سيتأخر قليلاً.. لذلك.. أرجو منك الاحتفاظ بها لبعض الوقت. يمكنك إيداعها في حسابك.. وإن حصل وأطلق سراحه في غيابي سلميها إلى جورج حتى يوصلها

إليـه.. بصفتـك ممثلـة لجمعيـة خيريّـة تعـنى بحقـوق الإنسـان أو مـا شـابهها.

قاطعتها ياسمين في حيرة:

- خمسون ألف يورو؟ من جمعية خيرية؟ ما الذي يجري رنيم؟

زفرت رنيم في ضيق وهي تتمتم:

- لا أريـده أن يعـرف أن المبلـغ مـن طـرفي.. لـن يقبلـه. أمّـا إذا كان مـن طـرف مجهـول أو مـن منظمـة مـا فسـيبدو مثـل ردّ اعتبـار أو تعويـض مـن المجتمـع المـدنيّ. هـل فهمـت؟

رنـت إليهـا ياسـمين في صمـت. لـم تكـن هنـاك كلمـات تعـبّر عـن إكبارهـا لمـا تفعلـه رنيـم. روح العطـاء بداخلهـا أكـبر مـن كلّ كنـوز الدّنيـا. كانـت تتنـدّر بشـأنها في سرّهـا وتقـول: رنيـم وهبـت حبيبهـا الأوّل كليـة، ولعلّهـا لـن تـتردّد في إهـداء الثـاني كليتهـا الثانيـة، لـو أمكـن لبـشر أن يعيـش بـدون كلى!

- هـذا مبلـغ مبـدئي. لا أدري كـم سـتكون تكلفـة العمليّـة، أو العمليّـات. لكـنّ هـذا المبلـغ سـيمكنه مـن اسـترجاع ثقتـه بنفسـه والإقبـال عـلى الحيـاة. سـأتدبّر أمـري لاحقًـا إن كانـت الكلفـة أكـبر مـن ذلـك.

احتضنتها ياسمين بشكل مفاجئ جعلها تتسمّر مكانها.

- ياسمين، أنت بخير؟

دون أن ترفع رأسها، همست ياسمين في أذنها:

- فك الله أسره قريبًا.. وجمع بينكما في خير.

لـم تـدر رنيـم أيّ الأحاسـيس غلبـت في تلـك اللحظـة. الدّهشـة أم الغبطـة أم الحيـاء.. لكنّـه كان أجمـل دعـاء طـرق مسـامعها حـتى ذلـك اليـوم، ومـن آخـر شـخص ظنّـت أنـه قـد يـرد عـلى لسـانه. لوهلـة، صدّقـت بـأن المعجـزات قـد تغـدو حقيقـة.

*****

وصلـت إلى رصيـف المـترو قبـل الموعـد بنصـف سـاعة. كانـت مسـتعجلة. لـم يكـن هنـاك شـك في ذلـك. لكـنّ مُواعِدتهـا لـم تكـن عـلى نفـس القـدر مـن الحماسـة. أيقنـت بذلـك بعـد أن مـرّت سـاعة كاملـة وهـي تقـف عاقـدة ذراعيهـا أمـام صدرهـا في صمـت خاشـع، ترقـب عربـات المـترو الـتي تتوقّـف الواحـدة

تلو الأخرى، فتلفظ أعدادًا لا حصر لها من المسافرين من أبوابها المشرعة ثمّ تبتلع غيرهم وتغلق الدّفتين المعدنتين في صكة حاسمة قبل أن تصفر وتزمجر مبتعدة، مبدّدة في كل مرّة قسمًا إضافيًّا من آمال رنيم.

دون أن تتحرّك من مكانها، كانت تتصفّح الوجوه المتخلفة على الرّصيف في اهتمام في البداية، ثمّ في فتور آخذ في التنامي، حتّى يتفرّق جميعهم عبر منافذ الخروج، ثم يأتي غيرهم ليتكرّر المشهد. حين أصبح مقدار التأخير ساعة إلا ربع، استعملت هاتفها. أصغت إلى المجيب الآلي في كلّ مرّة وهو يعلن تغيّب صاحبة الخط. طوال السّاعتين التاليتين دأبت على معاودة الاتصال كلّ خمس دقائق، دون أن تحصل على أيّ ردّ.

تساءلت مقاومة اليأس، كم من الوقت عليها أن تنتظر قبل أن تقرّر بأنّ كارولين لن تأتي أبدًا؟ إن كان التّأخير المقبول في معظم دول أوروبا يقدّر بربع ساعة فقط، ففي بعض بلدان أمريكيا اللاتينيّة، يمكنك انتظار شخص ارتبطت معه بموعد لمدّة ثلاث ساعات دون أن يعتبر مجحفًا في التأخير. حين أوشكت ساعة الانتظار الثالثة على الانتهاء أدركت أنّ أكثر اللاتينيين رحمة لن يكون متسامحًا لتضييع كل ذلك القدر من وقته في عاصمة السّرعة والحركيّة. لن تأتي كارولين.

في هدوء، تهالكت رنيم على مقعد بلاستيكي شاغر ملتصق بجدار الرّصيف تحت الأرضي وفي عينيها خواء وشرود. كانت الأشياء تتداعى من حولها في صمت، رغم صخب المكان وكثرة مرتاديه، فلم يعد هناك حضور يشدّها إلى الواقع غير أفكارها. وغاصت في قمقمها.

ارتفع رنين هاتف فجأة، قريبًا جدًّا منها. كان هاتفها. تسلل صوته على استحياء متخللاً الفراغ الذي يلفّ ذهنها. ثمّ توقّف، قبل أن يعود من جديد في إلحاح أكبر يشدّها من الأعماق، حتى انتفضت ورفعته إلى أذنها، دون أن تتكلم.

- رنيم، أين أنت؟ الطائرة ستقلع بعد ساعتين. يجب أن تكوني في المطار الآن!

الطائرة. المطار. الرّحيل. لقد سبحت في الفراغ لوقت طويل وأصبح عليها أن تعود إلى الواقع. بصعوبة حاولت استرجاع مداركها التي تعطلت لبضع دقائق. هناك تذكرة باسمها إلى مصر، وشخص ينتظرها في المطار

هـو والدهـا. حقيبـة حاجيـات جمعتهـا عـلى عجـل قبـل الفجـر مسـتقرّة عنـد عتبـة غرفتهـا تذكرهـا بالموعـد الثـاني لهـذا اليـوم الحاسـم. وكان السـؤال الملـحّ الـذي ينتظـر الـردّ عليـه الرّجـل المتوتـر عـلى الهاتـف: هـل تخلـف موعدهـا الثـاني لأنّ شـخصًا مـا أخلـف الموعـد الأول معهـا؟

استـمرّ والدهـا في الـصراخ واسـتمعت هـي بذهـن غائـب. إذا رحلـت الآن فلـن تتمكـن مـن الحصـول عـلى اعترافـات كارولـين. مهمـا تركـت مـن توصيـات لجـورج فهـو لـن يسـتعمل العنـف أبـدًا، وقـد لا يتوصّـل إلى شيء معهـا. وقـد لا يعـثر عليهـا أصـلاً.. هـل سـتكون هـي أكـثر حظًـا منـه؟ غيـاب كارولـين اليـوم قـد يعـني أنهـا فكّـرت مليًّـا واختـارت ركـوب أوّل طائـرة تغـادر فرنسـا إلى وجهـة غـير معلومـة، وفي أهـون الحـالات، تكـون قـد قـرّرت الاختفـاء والتّـواري عـن الأعـين حـتّى تنـسى رنيـم أمرهـا، ولـن يكـون مـن السـهل العثـور عليهـا بعـد ذلـك.

إذا رحلـت الآن، سـيحصل عمـر عـلى خمسـين ألـف يـورو مهمـا حصـل، وإن لـم تفعـل فقـد يعاقبهـا والدهـا باسـتردادها وربّمـا أفظـع.. يقطـع عنهـا المسـاعدات ويسـدّ أمامهـا الطـرق حـتى تستسـلم. معـاداة والدهـا ليسـت بالأمـر الهـيّن وهـي أعلـم النـاس بطـول ذراعـه. إذا رحلـت الآن فيمكنهـا العـودة بعـد فـترة قصـيرة بعـد أن يطمـئن والدهـا إلى اسـترجاعها صحّتهـا. سـيتحمّل عمـر أسـبوعين إضافيـين أو ثلاثـة مـن الأسر حـتى تعـود لاسـتلام زمـام الأمـور. وجـورج سـيقوم بالإجـراءات الممكنـة في غيابهـا.. طلـب عفـو أو محاولـة اسـتئناف مبنيـة عـلى شـهادة مهـزوزة.

- أنا آتية.. حالاً.

تمتمـت بصـوت خفيـض مختنـق، ثـم أغلقـت الخـط. حثّـت الخطـى وسـط الزّحـام بخطـوات متعـثرة، يـضرب كعبهـا في قلبهـا مبـاشرة كلمـا لامـس الأرض، وفي العـين دمـوع حبيسـة تطلـب حرّيتهـا. سـترحل الآن، لكنهـا سـتعود. سـتعود قريبًـا.. قريبًـا جـدًا.

تمّت بحمد الله

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :
kayanpublishing   kayan.publish
kayanpublishing   kayan_publishing

obeikandl.com